مَعالم الثقافة الإسلاميّة

تأليف

الدكتور عبد الكريم عثمان

مؤسسة الرسالة

الطبعة السادسة عشر

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

شهد العالم في الربع الثالث من القرن العشرين يقظة العالم الإسلامي ، فقد استطاعت معظم أقطار هذا العالم أن تتحرر من الاحتلال الأجنبي وتنعم بحياة الاستقلال ، وبدأت خيرات البلاد الإسلامية وكنوزها تعود إلى أهلها شيئاً فشيئاً ، وظهرت هنا وهناك دعوات إلى إقامة المجتمع الإسلامي الذي يعتمد نظام الإسلام في شؤون الحياة جميعاً ، وقامت نهضة علمية واقتصادية وصناعية حققت كثيراً من أحلام المصلحين وآمالهم .

غير أن الصورة المضيئة لم تكن كاملة ، فقد شهد هذا العالم في الحقبة ذاتها كوارث ونكبات ، وتعرض لانقسامات ومظاهر من الانحراف والبعد عن الطريق القويم تفوق ما مرّ عليه طيلة قرون طويلة .

فقد بلغت مخططات اللؤم والحقد على الإسلام والمسلمين غايتها ، فأخذت تعطي ثمارها : تمزيقاً في الأمة الإسلامية ، وتشتيتاً لشعوبها ، وقضاء على مواطن القوة الأصيلة فيها ، وانتقاصاً لأقطار عالم الإسلام من أطرافه ، وإجهازاً — من داخله في معظم الأحيان — على المناطق الضعيفة فيه ، وأخيراً تلك النكبة التي لم يرزأ المسلمون بمثلها منذ ثمانية قرون وهي احتلال مدينة القدس وتدنيس المسجد الأقصى الذي يشد المسلمون اليه الرحال من كل مكان .

لكن النكبات بطبيعتها تتضمن إمكانات مضاعفة للخير أو الشر ، للتقدم أو التخلف ، للموت أو الحياة ، فإذا وضع المسلمون أيديهم على الأبعاد الحقيقية لهذه النكبات ، وقدروا أسبابها ، استطاعوا أن يستأنفوا حياة كريمة عزيزة وأن يفرضوا احترامهم على الأصدقاء والأعداء على حدّ سواء ، فالنكبات تشكل في حيـاة الأمم وقفات اضطرارية تدفعها للتأمل في سلوكها وإعادة النظر فيه وتقويمه تقويماً دقيقاً يهيء لها إدراك ذاتها وتجديد الثقة بقيمها الأصيلة والتمسك بها والحرص عليها .

وأحياناً تكون هذه النكبات قاتلة للأمم ، تذوب الأمة بعدها في الأمم الغالبة ، وتنسى أن معركتها معركة وجود أو عدم ، حياة أو موت ، فتتلهى بالعرض تحسبه جوهراً ، وتنظر إلى الإصلاح الظاهري دون النفاذ إلى حقائق الأمور ، ويكون حتماً أن تفنى هذه الأمة وتفقد قدرتها على الصمود .

تماماً كالفرد يصاب بوفاة قريب أو عزيز ، فإما أن يكون هذا المصاب دافعاً له على التألق بفضل القيم والمُثُل الخالدة ، فيقوى إيمانه ، وتشتد عزيمته ، ويصلب عوده ، أو أنه يصاب بالانهيار والعدم .

وإذن ، فإن على المسلمين أن يبدأوا بتقويم حياتهم ، وعرض كل ما اعتنقوه من أفكار أو طرحوه من شعارات على ميزان النقد السليم والفكر الإيجابي الذي يهدف إلى تأكيد أحقيتهم بحياة أفضل روحياً وخلقياً واجتماعياً ، وستكون هذه بداية خطوتهم الأولى إلى تجاوز الأزمات والنكبات وإقامة المجتمع الإسلامي السليم .

وإسهاماً في أداء هذا الواجب ، نرى من الضرورة بمكان أن نعرض مبادىء الاسلام ونُظُمه وآثاره ، وأن نحدد مدى فعاليته في التمهيد لطريق الخلاص .

والأسباب التي تدعونا إلى هذا العرض كثيرة :

فالجيل المعاصر من المسلمين يواجه تحديات فكرية كثيرة ، والمبادىء المعروضة في سوق الأفكار عديدة ، والمذاهب الاجتماعية والفكرية والسياسية

أكثر من أن تحصى ، والمروّجون لهذه المذاهب والأفكار والآراء يستخدمون شتى الوسائل التي وصلت اليها حضارة العصر لتزيينها وجعلها مقبولة من الناس . فهم يستخدمون الأقلام، والكتب والصحف والمجلات والإذاعة والأندية والجمعيات وسائر أنواع الإعلام والدعاية، وقد أصبح عالمنا — بفضل الوسائل الحديثة — عالماً واحداً تقال فيه الكلمة في أقصى الدنيا فتُسمع في أقصاها ، وأصبح من المستحيل على أمة أن تغلق على نفسها الأبواب والنوافذ لتكون بمنجاة من وافدات هذه الأفكار .

وهكذا فقد بات واجباً على المسلمين أن يتعرفوا بكل عمق ودقة على حقيقة دينهم وسعة جوانبه وضخامة ما يستطيع أن يقدم للمسلمين وللإنسانية جمعاء . وما لم يفعل المسلمون ذلك اهتزت قواعد الإيمان في قلوبهم ، وتزعزعت مبادىء الإسلام في نفوسهم ، وأصبحوا نهباً للغازين من كل حدبٍ وصوب .

وقد راجت بين المسلمين آراء وأفكار لا تتفق مع الإسلام ولا تلتقي معه في مبادئه أو أهدافه ، وكان من أول ما انتشر بين المسلمين فكرة العلمانية بمعنى فصل الدين عن الدولة أو إبعاده عن شؤون الحياة . والعلمانية مبدأ غريب على الإسلام ، نشأ في بيئة فصلت بين ما لقيصر وما لله ، فجعلت لقيصر كل ما في الحياة من شؤون ، وقصرت حدود الإيمان الإلهي على الارتباط الروحي ومكان العبادة .

وواضح أن هذا المفهوم لا ينطبق على الإسلام ، إذ ليس فيه حدود بين الدين والحياة ، بين الحكم والعبادة ، فالإسلام دين الحياة الإنسانية بكل ما ينشأ عنها من ضروب النشاط والفعالية ، وأي دعوة لجعله قاصراً على علاقة الإنسان بربه هي دعوة مضللة تهدف إلى القضاء على الإسلام والحياة الإسلامية من الجذور .

ومما حاول البعض الترويج له بين المسلمين ، فكرة القومية المنفصلة عن الدين والتاريخ الإسلامي وتراث الإسلام الحضاري ، وكانت هذه الفكرة امتداداً لمبدأ

القوميات الذي ظهر في أوربا في القرن التاسع عشر ، والذي كان من أهم أهدافه تجميع الشعوب التي تحكمها امبراطوريات مختلفة في قوميات واحدة تقوم على أساس دول منفصلة عن تلك الامبراطوريات .

وحين تتعصب كل قومية لقوميتها الخاصة تتفتت وحدة المسلمين ، خاصة إذا نُحّي الدين وأبعدت التقاليد التي تنبثق عنه جانباً ، وكان هذا ما حصل ، فقد تشتت المسلمون إلى أمم وقوميات مختلفة ، ثم انقسمت كلٌّ من هذه القوميات إلى قوميات أصغر ، وكان هذا كله نتيجة طبيعية للتمسك بهذا المبدأ ، لأنك إذا أعطيت لنفسك الحق في أن تبني كيانك على أساس قومي يتنكر لماضيك وتاريخك وعقيدتك ، انقطعت الصلة التي تشدّك إلى سائر المسلمين ، وأصبح واجباً عليك أن تمنح غيرك ما منحته لنفسك .

وكانت الاشتراكية العلمية بتطبيقاتها المختلفة مما روّج له المروّجون وبذلوا في سبيل نشره الكثير والقليل ، والاشتراكية العلمية بكل أنواعها ومذاهبها ، ظاهرة كانت أم مقنعة ، مذهب يُناقض الإسلام في أسسه ومبادئه وتطبيقاته ، والمسلمون بالإسلام في غنى عن الاشتراكية وغيرها من المذاهب الأخرى ، وكل ما ينقصهم استنباط ما يصلح لزمانهم ومجتمعاتهم من شريعتهم التي استطاعت طيلة أربعة عشر قرناً أن تسد جميع حاجات الإنسان ، دون أن تضيق عن تطور أو يستعصي عليها حل مشكلة مهما كانت دقيقة وصعبة .

ثم إن الدعوة إلى الحياة الاجتماعية الغربية بكل ما فيها من مظاهر التحلل الخلقي والبعد عن القيم الشريفة والإنسانية ، والتمهيد لهذه الحياة بشتى صنوف الدعاية ، وتزيينها للناس بالبريق الخادع البراق ، من أخطر أنواع الغزو الذي تعرضت له المجتمعات الإسلامية ، وقد تغلغلت مبادىء هذه الحياة الدخيلة في كثير من الأفكار الإسلامية حتى كادت أن تطغى على الأصيل من أخلاق الشعب المسلم ومثله ومبادئه الإسلامية التي تتناقض كل التناقض مع القيم المادية التي رسّختها الحضارة الغربية الحديثة .

أضف إلى ذلك تغلغل الغرب السياسي والاقتصادي والفكري والثقافي [1] وانتشار روح الإلحاد والبعد عن الدين ، وجهل المسلمين بحقيقة الإسلام ، إذ تجد منهم من يظنه قاصراً على العقيدة والعبادة ، ومن يجعله قاصراً على مرحلة تاريخية معينة أدى دوره منها وانتهت مهمته ، ومن يعتقد أنه يفرض صورة جامدة من التنظيم الاجتماعي والإنساني لا تناسب التطور البشري .

كل هذا يجعل أمراً محتماً أن يعرض الإسلام على حقيقته عرضاً شاملاً واضحاً بحيث تبدو جميع معالمه متناسبة الأجزاء ، مع بيان حكمة تعاليم الإسلام وتفوق مبادئه على جميع الأديان والمذاهب والأنظمة الأخرى .

وتحقيقاً لهذا الغرض قررت جامعة الرياض تدريس مادة « الثقافة الإسلامية » في جميع كلياتها فكانت بذلك أول جامعة تستجيب لنداء الحق ، وتحقق رغبات مثقفي المسلمين ومفكريهم في وجوب عرض الإسلام وتدريسه كعقيدة حية ، ورسالة جامعة ، يلتقي حولها المسلمون ليبشروا بها بين الناس كما يفعل الداعون من أصحاب العقائد والرسالات ، فهي تستحق لذلك شكر المسلمين وتقديرهم .

وكانت كلية الشريعة في جامعة دمشق أقرت تدريس مثل هذه المادة لطلابها وأطلقت عليها اسم « نظام الإسلام » ، ثم فعلت ذلك كلية الشريعة بمكة المكرمة وأسمتها « الثقافة الإسلامية » ، وأخيراً قررت جامعة أم درمان الإسلامية في السودان تدريس مادة نظام الإسلام [2] ونرجو أن تأخذ بهذا النظام سائر الجامعات والكليات في البلاد الإسلامية .

إن مادة الثقافة الإسلامية تحرص على إعطاء الطالب صورة شاملة عن الإسلام قبل أن يدخل في التفصيلات ، فهي لا تبحث في التوحيد أو الفقه أو أو التفسير أو الحديث أو غيرها من العلوم الإسلامية كعلوم قائمة بذاتها ولكنها تستفيد من هذه العلوم جميعاً للتعرف على حقيقة الإسلام ، وروح الثقافة والحضارة

---

١ – نقصد بالغرب هنا معناه العام سواء كان شرقياً أم غربياً حسب مصطلحات السياسة .

٢ – محمد المبارك : نظام الإسلام : العقيدة والعبادة ص ٢٤ .

الإسلامية ، وطبيعة هذا الدين المتميزة ، الذي يأخذ بالإنسان في طريق الله في نفس الوقت الذي يهيء له أن يستمتع بخير ما في هذه الدنيا وأطيبه : « وابتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخِرَةَ ولا تنسَ نصيبكَ من الدُّنْيا وأحسِن كما أحسَنَ اللهُ إليْكَ » (١)

ومن خلال منهج هذه المادة يبدو أن من الضروري ان نلمّ بالمواضيع التالية :

١ – حقيقة الإسلام كعقيدة حية متجددة في القلوب والعقول .

٢ – نظام الإسلام في شتى أنواع النشاط الإنساني : في العقيدة والعبادة والأخلاق والفكر والاقتصاد والسياسة والاجتماع .

٣ – أثر الإسلام كدين في ثقافة العرب وحضارتهم ، وما حققه من تقدم في نطاق الإنسانية .

وغنيّ عن البيان أن جامعة الرياض حين أقرت تدريس هذه المادة في جميع كلياتها بغض النظر عن الاختصاصات التي تدرس في كل كلية ، لأن لهذه المادة علاقة أساسية بتكوين الشخصية الإسلامية المتميزة : شخصية الفرد المسلم ، وشخصية الأمة المسلمة ، أو بمعنى آخر لأنها تساهم في إعطاء المسلم هويته التي يستقل بها عن الآخرين . وضرورة هذه الشخصية لا تبدو بالنسبة لطالب كلية دون غيره ، فهي قدر مشترك بين جميع أفراد الأمة . وعن هذه الشخصية يصدر الفرد قراراته ويكيف علاقاته ، وعنها أيضاً تصدر مواقف الأمة في شؤونها صغيرة كانت أم كبيرة .

وفي رأينا أن منهاج هذه المادة يجب أن يتوخى تحقيق الأغراض التالية :

أول هذه الأغراض في نظرنا ، إيجاد وعي علميّ صحيح بحقيقة الإسلام ، وذلك حتى يكون الشاب المسلم وهو صاحب عقيدة ، مدركاً لعقيدته ، عالماً

---

١ –. الآية الكريمة من سورة القصص ٧٧ .

بشتى جوانبها وأبعادها ، لأن هذا الإدراك يمنحه مناعة وحصانة كاملتين تجاه جميع الأفكار والعقائد والاتجاهات الدخيلة والمغايرة .

وثاني هذه الأغراض ، المساهمة في إيجاد المسلم القويّ الصالح الذي يعمر هذا الكون ، مؤمناً بربه ، خاضعاً له ، عاملاً على تكوين المجتمع الصالح الذي تتكاتف قواه كلها لإعلاء كلمة الله وتحقيق شريعته .

وثالث هذه الأغراض ، تنمية شعور الولاء للأمة الإسلامية والإلحاح على مكانتها وأهمية رسالتها العظيمة للإنسانية ، وما يمكن أن تكونه لنفسها وللناس .

ورابع هذه الأغراض ، تصحيح الفكرة الخاطئة التي أشاعها خصوم الإسلام في نسبة انحطاط المسلمين إلى تمسكهم بالإسلام وبيان أن العكس هو الصحيح ، وأن تخلف الشعوب التي تؤمن بالإسلام كان بسبب تخليهم عن مبادىء هذا الدين القويم وتطبيقها تطبيقاً واعياً سليماً في حياتهم الفردية والاجتماعية .

والثقافة الإسلامية بتحقيقها هذه الأغراض ، تستطيع أن توجد الفرد المتميز والمجتمع المستقل ، وهذا أول الطريق للسير في السبيل القويم ، الذي يؤدي إلى تحقيق الكرامة والتقدم ورضاء الله .

وأخيراً فإن الكتاب الذي بين يديك محاضرات سبق أن ألقيت على طلاب جامعة الرياض ، تتناول عدداً من موضوعات مادة الثقافة الإسلامية ، نقدمها مساهمة متواضعة في تعميم نشر ثقافتنا العظيمة وتحقيق أغراضها .

والله من وراء القصد .

بيروت — رجب ١٣٨٩
ايلول ١٩٦٩
عبد الكريم عثمان

الفصل الأول

مبادئ إسلاميّة

نظرة الإسلام العامة إلى الوجود

للإسلام نظرته الخاصة إلى الوجود والحياة ، وتصوره المستقل الشامل للحقيقة الإلهية والكون والإنسان . وعلى أساس هذه النظرة ، ومن خلال هذا التصور يستطيع المرء أن يتفهم جميع المبادىء والأنظمة التي بشر بها الإسلام .

والأمر لا يختلف في كل مبدأ ونظام ، ولا يمكن أن تفهم صور الأنظمة دون التعمق في معرفة الفلسفة التي تقوم عليها هذه الأنظمة أو التصور الذي تعتمده للكون والحياة ، فالنظام الاجتماعي فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود ولمركز الإنسان فيه ، وكل نظام لا يقوم على أساس هذا التفسير هو نظام مصطنع لا يكتب له البقاء .

والتصور الإسلامي للوجود يختلف عن سائر التصورات الأخرى قديمة كانت أو حديثة ، وإذا كان يلتقي مع بعض هذه التصورات في بعض الجوانب الجزئية إلا أن الأسس التي تنبثق عنها هذه التصورات مختلفة كل الاختلاف . وهو تصور شامل لأنه يقدم نظرة عامة عن جميع عناصر الوجود ، ولا شك أن معرفته ضرورية لكل مسلم كيما يدرك طبيعة هذا الوجود وحقائقه الكبرى : حقيقة الألوهية ، وحقيقة الكون ، وحقيقة الإنسان ، إذ عن طريق هذا الإدراك

وحده يستطيع المسلم أن يحدد مركزه في هذا الوجود ويستطيع بالتالي أن يتكيف معه ويتعامل .

ومن الطبيعي أن يكون هذا التصور كله متضمناً في القرآن الكريم ، فهو الذي يحوي هذه النظرة بصورتها الحية التي تلامس الفكر والحس والوجدان ، ولا بد للمسلم أو الباحث عموماً من العودة إلى القرآن يتلمس فيه هذه النظرة الشاملة الكاملة ، متجنباً قدر الإمكان تلك التغيرات الخاصة التي تذهب بحيوية هذه النظرة وتغرقها في تيه من الانحرافات والتصورات الخاطئة .

الإنسان

إن الإنسان في عرف التصور الإسلامي قمة الكائنات الحية التي تعيش على وجه البسيطة وأفضلها وأكرمها ، لما أودعه الله فيه من مزايا وميزه من صفات ، ولما أعده من جليل الغايات التي لا تصل إلى مثلها سائر الكائنات الأخرى ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في آيات كثيرة : « لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ في أحسنِ تَقْوِيم » [1] « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » [2] ، وسبب هذا التفضيل أنه تعالى أعدّ الإنسان لخلافته على هذه الأرض ولإعمار هذا الكون بالخير والعمل الصالح [3] .

وقد فُطر الإنسان نتيجة لذلك ، الفطرة الكريمة الصالحة التي يستطيع أن يستخدمها للخير إن شاء وللشر إن شاء [4] ، فلم يفطر الإنسان على الشر بطبعه، ولم يحمل نتائج خطيئة لم يرتكبها وظل شبحها يلاحقه طيلة حياته على ما تصور

---

١ — التين ٤

٢ — الاسراء ٧٠ .

٣ — « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة .. » « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » .

٤ — (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) .

بعض الديانات ، ولكنه يكسب الخير أو الشر بفعله وعمله : « قَدْ أفْلَحَ مَنْ زكاها ، وقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها » .

وقد أودع الله في الإنسان ما يستطيع به إدراك الحقائق الكبرى في الوجود [١] ، وندبه للقيام بمهمة التعرف على هذه الحقائق التي يراها الحس والعقل والوجدان في الآفاق وفي النفس وفي كل شيء [٢] . ففي الأرض آيات للمؤمنين ، وفي السماء مثل هذه الآيات وأعظم : « قل انْظُرُوا ماذا في السموات والأرض » [٣] « وفي أنفسكم » [٤] ، فالفطرة الإنسانية السليمة التي تتوجه إلى الكون بروح متفتحة تكشف ما فيه من قصد وتصميم وإبداع ، وتنتهي إلى إدراك مكانها من هذا الوجود وتحديد كيفية سلوكها فيه . ومن خلال هذا التصور تتحدد علاقة الإنسان بالله تعالى ، تلك العلاقة التي تتمثل بالعبودية المطلقة لله وحده ، العبودية بكل متطلباتها ، وأول هذه المتطلبات الائتمار بأمره وحده « في كل أمور الحياة صغيرها وكبيرها والتوجه إليه بكل نية وكل حركة وكل كلمة وكل عمل » [٥] ، والعبودية بهذا المعنى تتخذ من الله وحده إلهاً : عقيدة وعبادة وشريعة : « فلا يعتقد المسلم الألوهية لأحد غيره سبحانه ، ولا يعتقد أن العبادة تكون لغيره من خلقه ، ولا يعتقد أن الحاكمية تكون لأحد من عباده » [٦]

إن علاقة العبودية هذه — وإقرار الإنسانية بها وعدم انفكاكها منها وإن جحدها البعض — علاقة قديمة قدم الخليقة ، وقد مثل القرآن لهذه العلاقة بقوله : « وإذْ أخذَ ربكَ من بني آدمَ من ظهورِهم ذرّيّتهم وأشهدَهُم على أنفسهم

---

١ — (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) النحل : ٧٨ .

٢ — (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) فصلت ٥٣ .

٣ — يونس ١٠١ .

٤ — الذاريات : ٢١ .

٥ — سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي ص ٨٦ .

٦ — سيد قطب ، معالم في الطريق ص ١٢٣ .

ألستُ بربّكم ، قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يومَ القيامةِ إنّا كنا عن هذا غافلين »[1]

وحين يتقيد الإنسان بمقتضيات هذه العلاقة فإن عمله سيكون حسب مراد الله وأمره ، وسيكون في هذا حياة له ونوراً . وما يريده الله تعالى للإنسان ومن الإنسان يعرف عن طريق الرسالات التي أرسلها على أنبيائه الذين اصطفى ، وقد كان ذلك منحة من الله وهبة لعباده أعفاهم من الكدّ فيها ووفر عليهم جهدهم في هذا المجال الذي لم يوهبوا دليله ولا اداته ، فإذا اتخذوه منهاجاً لحياتهم أفلحوا وإذا تنكبوه ضلوا ، وإلى هذا المعنى أشار الأستاذ أبو الحسن الندوي بقوله: « وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله ، وعن بداية هذا العالم ومصيره وما يهجم عليه الإنسان بعد موته . وأتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عفواً بدون تعب ، وكفوهم مؤنة البحث والفحص في علوم ليس عندهم مبادئها ولا مقدماتها التي يبنون عليها بحثهم ليتوصلوا إلى مجهول . لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة ، ولا تعمل فيها حواسهم ، ولا يؤدي اليها نظرهم وليست عندهم معلوماتها الأولية .

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة وأعادوا الأمر جذعاً ، وبدأوا البحث أنفاً ، وبدأوا رحلتهم في مناطق مجهولة لا يجدون فيها مرشداً ولا خرّيتاً (خبيراً) وكانوا في ذلك أكثر ضلالاً وأشد تعباً ، وأعظم اشتغالاً بالفضول .. من رائد لم يقتنع بما أدى اليه العلم الإنساني في الجغرافية وما حدّد وضبط في الخرائط على تعاقب الأجيال ، فحاول أن يقيس ارتفاع الجبال وعمق البحار من جديد ، ويختبر الصحاري والمسافات والحدود بنفسه ، على قصر عمره وضعف قوته وفقدان آلته ، فلم يلبث أن انقطعت به مطيته وخانته عزيمته ، فرجع بمذكرات وإشارات مختلة ، وكذلك الذين خاضوا في الإلهيات من غير بصيرة وعلى غير هدى ، جاؤوا في هذا العلم بآراء فجّة ، ومعلومات ناقصة ، وخواطر سانحة ونظريات مستعجلة .. فضلوا وأضلوا »[2]

---

١ – الأعراف : ١٧٢ .

٢ – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٦٨ .

أما عن علاقة الإنسان في الكون فتبدو من ناحيتين : الأولى أنه مكلف باستثماره والانتفاع به وتسخيره لمنفعته ، والثانية أنه مجال للنظر والتدبر والتأمل لا بد أن ينتهي منه للوصول إلى خالقه ومدبره . وقد شاءت إرادة الله تعالى أن تكون هاتان النظرتان متسقتين منسجمتين تؤدي كل منهما إلى الأخرى في كل متناغم متداخل ، يقول تعالى : « إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (١) « الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » (٢) « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذّكّرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ، وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمَنْ يخلُق كمَن لا يخلُق ، أفلا تذكّرون » (٣) .

وانتفاع الإنسان بهذا الكون يتم عن طريق التعاون مع هذا العالم باكتشاف القوانين التي شاء الله أن يسير عليها . فكل شيء في هذا الكون مقدر تقديراً دقيقاً ، ومرسوم على صورة لا تتغير إلا بإرادته تعالى : « إنّا كلّ شيء خلقْناهُ

١ – البقرة ١٦٤ .
٢ – البقرة ٢٢ .
٣ – النحل ١٠ – ١٧ .

بقَدر »[1] « وخَلَقَ كل شيء فقَدَّرَهُ تَقْدِيراً »[2]. « وكل شيء عنده بمقدار »[3] . ومن أوضح الأدلة على وجود هذا الترتيب والنظام ، الآيات الكثيرة التي يحفل بها القرآن الكريم مؤكدة هذا المعنى في جميع جوانب هذا الكون : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌ في فلك يسبحون »[4]

وعلى الإنسان أن يعمل جاهداً لمعرفة الكون وما فيه حتى يتحقق له الانتفاع الكامل به ، وهو حين يفعل ذلك يستجيب لأمر إلهي : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه »[5] فإذا ما تخلف عن تحقيق هذا الأمر فقد عصى أمر الله وحقق للكافرين التقدم على المؤمنين والتسلط على المسلمين .

ولكن ما هو كُنْه هذا الإنسان الذي يتصل – من جهة – بالحقيقة الإلهية إيماناً وعبادة واتباعاً لشرعه ، ومن جهة أخرى بالكون تأملاً وتسخيراً وانتفاعاً ؟ إنه قطعاً ليس ذلك المخلوق الذي يتكون من مادة تذهب هباء بوفاته ، كما أنه ليس الكائن الروحي الذي لا يخالطه مادة فلا يعرف إلا الانقطاع إلى العبادة والتبتل لله ، كلا ، إن الإنسان في تصور الإسلام كائن يتألف من الجسم والعقل والروح ، وقد شاء الله أن يوضع في الظروف التي تحقق له الاستجابة لمطالب هذه العناصر جميعاً لأن كلاً منها يؤدي وظيفته في وجود هذا الكائن وبالتالي في إعمار هذا الكون .

ولعل هذا التأليف من مجموع هذه العناصر يتضح لنا من قوله تعالى :

---

١ – القمر ٤٩ .
٢ – الفرقان : ٢ .
٣ – الرعد ٨ .
٤ – يس ٣٧ – ٤٠ .
٥ – الملك ١٥ .

«وإذْ قالَ رَبّكَ للملائكة إنّي خالقٌ بَشراً من طين ، فإذا سويتُه ونَفَخْتُ فيهِ من روحي فقَعُوا لَهُ ساجِدين»[1] فالإنسان الأول يشارك الحيوان أو الكائنات الحية الأخرى بالنوازع الفطرية والشهوات وإحساسات الجنس والجوع والعطش : «وما مِن دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم» [2] ، ووجود هذا العنصر يهيء للإنسان المحافظة على ذاته ونوعه ، ولكنه يتميز عن الحيوان وسائر الكائنات الحية بالعقل الذي يعاون الإنسان في الحصول على أقرب الطرق لتحقيق الاستجابة لنوازعه الفطرية ، كما يعاونه في الرقي الحياتي ، والوصول إلى حقائق الكون الكبرى ، «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلكم تشكرون» [3] أما الروح ، فمهمتها أن تتصل بالقوة الخفية في هذا الكون فتستلهم منها النور الذي لا تراه الحواس ولا يدركه العقل [4] وبوجود العقل والروح في الإنسان استحق أن يكون خليفة على هذه الأرض ، وتهيأ له أن يحمل هذه الأمانة العظيمة التي أشفقت منها سائر الموجودات : «إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظَلوماً جَهولاً» [5]

---

١ — سورة ص ٧١ .
٢ — الأنعام ٣٨ .
٣ — النحل ٧٨ .
٤ — محمد قطب : الإنسان بين المادية والإسلام ٨٣ .
٥ — الأحزاب ٧٢ .

الكون

إن منطلق نظرة الإسلام إلى الكون أنه بكل ما فيه من سماوات وأرضين وأفلاك وشموس ونجوم ونباتات وجبال ووهاد وكائنات حية وإنسان ، مخلوق من الله تعالى، فهو لم يوجد نفسه ، وهو لم يكن نتيجة تطورات أو تغيرات طبيعية فيه ، وهو لم يوجد صدفة ، وإنما خلقه الله وقصد إيجاده على هذا النحو المعين .

والكون بمعنى الطبيعة لم يخلق عبثاً دون غاية أو هدف ، وإن أهم أهدافه أن يكون ميداناً للنشاط الإنساني ، يستخدم فيه الإنسان طاقاته وإمكانياته ويسخره لمنفعته ، هذه المنفعة التي ستؤول في النهاية إلى تحقيق عبادة الله وقيام شريعته في المجتمع البشري ، ويستطيع الباحث أن يدرك هذا المعنى من استعراض أي آية من آيات القرآن التي تتحدث عن الكون وسائر المخلوقات فيه ، وكيف يرتبط الخلق دائماً بالتسخير لمنفعة الإنسان يقول الله تعالى : «إنّ اللهَ فَالِقُ الحبِّ والنوى يخرج الحيّ من الميت ، ومخرج الميت من الحيّ ، ذلكم الله فأنّى تؤفكون ، فالِقُ الإصباح ، وجعل الليل سَكَناً ، والشمس والقمر حُسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقرٌ ومستودعٌ ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خَضِراً نخرج منه حباً متراكباً، ومن النخل من طلعها قِنوانٌ

دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتونَ والرمانَ مشتبهاً وغيرَ متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إنّ في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون» (١)

ثم إن الكون يسير على قواعد ثابتة مستمرة وهذا ما يسهل انتفاع الإنسان به ، «وحوادثه مرتبط بعضها ببعض ما بين نظام سابق ولاحق بانتظام واطراد يدل على أنها تتبع سنناً مطردة في حدوثها وحركتها» (٢) وذلك ما توحيه الآيات التالية :

«وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمرَ قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون».
« وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنّا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون» (٣)

« ألم ترَ أنّ الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله رُكاماً فترى الودق يخرج من خلاله» (٤)

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب» (٥)

ولكن إذا كانت هنالك أسباب قريبة لحوادث الكون ، وإذا كانت توجد سنن مطردة وقواعد ثابتة ، فإن مقتضى التصور الإسلامي أن يذكر الإنسان أن إرادة الله من وراء هذه الأسباب جميعاً . فلا يغتر إذا وصل إلى اكتشاف إحدى الحقائق أو توصل إلى بعض المعارف . يقول تعالى: «نحن خلقناكم فلولا تصدقون،

---

١ – الأنعام : ٩٦ – ٩٩ .
٢ – محمد المبارك : نظام الإسلام ٤٣ .
٣ – المؤمنون : ١٨ – ١٩.
٤ – النور ٤٣
٥ – الزمر : ٢١

أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدّل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلو لا تذكّرون . أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكّهون ، إنّا لمغرمون ، بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذي تشربون، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التي تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم». (١)

وهكذا فإن الإنسان في تلمسه حقيقة الظواهر الكونية يعود دائماً إلى منطلق ثابت أكيد ينقذه من التخبط من الإحالات على أسباب غير صحيحة أحياناً وغير واقعية أحياناً كالعقل والطبيعة،أو الإحالة إلى كائنات أسطورية كما تفعل الوثنيات وكما تلبست بها كثير من الفلسفات (٢) ، لأنه يردّ خيوط الكون والحياة كلها إلى يد الله ورقابته وهيمنته وسلطانه .

إن الإنسان الذي يجعل من الكون ميداناً لتأمله وتفكيره سيكون على يقين من أن معرفته به مهما كانت واسعة وشاملة فإنها لن تحيط إلا بأجزاء يسيرة منه ، فإذا أقسم الله تعالى بمواقع النجوم لافتاً نظر الإنسان إلى تأملها ودراستها فإن الإنسان سيكشف أن النجوم تصل في ضخامة العدد إلى حد لا يستطيع العقل البشري أن يتصوره لأنها تتجاوز آلاف الملايين ، وأن أحجام النجوم هائلة إلى درجة لا تستطيع مقاييسنا التي نستعملها في كوكبنا الأرضي أن تحيط بها ، وإن مقارنة سريعة يجريها بين حجم الأرض وحجم أفلاك أخرى كالشمس والجوزاء وهي لا تتجاوز حجم الأرض لتدل على صدق ما نقول ، وسيعلم الإنسان أن أبعاد النجوم والمسافات التي تفصل فيما بينها تصل إلى حد لا نستطيع أن نقدره إلا بوحدة قياسية جديدة تتناسب مع ضخامة هذه الأبعاد ، فقد اصطلح على أن تكون الثانية الضوئية وهي المسافة التي يقطعها الضوء في ثانية وحدة القياس في أبعاد النجوم وحركاتها ، وإذا

١ — الواقعة ٥٧ — ٧٤ .

٢ — سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي ١١٣ .

علمنا أن الضوء يقطع في ثانية واحدة (١٨٦) ألف ميل وعلمنا أن البعد بين بعض النجوم يصل إلى ملايين السنين الضوئية فإننا ندرك مقدار ضخامة هذا الكون وعظمته ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى بقوله : «قُلْ لَوْ كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفِد البحر قبل أن تنفَد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً» [1]

وإذا انتقلنا إلى الكائنات الحية فإننا نجد مصداقاً لسعة الخلق وشموله في تنوع الكائنات الحية واختلافها عن بعض ، في الأجناس والأشكال وأنماط النبات التي لا تقع تحت حصر والتي تخرج من أرض واحدة وتسقى من ماء واحد .

ويجب أن نشير هنا إلى معنيين : المعنى الأول أن التأمل الواجب في هذا الكون لا يعني مجرد النظر اليه بالعين المجردة أو لمسه بالحس القريب فحسب ، وإنما يقصد به كذلك التفكير العلمي المنظم الذي يوصل إلى معرفة سير أحداث الكون وسننه ، وإن تأمل كلمة «يتفكرون» أو «يتدبرون» أو «يعقلون» الواردة في القرآن بعد استعراض كثير من أحداث الكون ومظاهره تدل دلالة واضحة على هذا المعنى : «إنّ في خَلْقِ السموات والأرضِ واخْتلاف الليل والنهار والفُلْكُ التي تجري في البحر .. لآيات لقَوم يعقلُون» [2] ، «الذينَ يذكرون الله قيَاماً وقُعُوداً وعلى جنوبهمْ ويتَفَكّرُونَ في خَلْقِ السموات والأرض ربّنَا ما خَلَقْتَ هذا باطلا» [3] .

المعنى الثاني أن ما ورد من آيات قرآنية تتحدث عن الكون بمخلوقاته المختلفة ، لا تبيح للبعض أن ينظر إلى القرآن وكأنه كتاب علوم قد قرر نظريات كونية معينة ، وقد حاول بعض المفسرين من القدماء والمحدثين أن يشرحوا القرآن شرحاً علمياً ، فعل ذلك من القدماء : الإمام الغزالي والفخر الرازي ، ومن المحدثين : طنطاوي جوهري وعبدالله فكري. وفي اعتقادنا أن مثل هذا الطريق منزلق خطر،

---

١ – الكهف : ١٠٩ .

٢ – البقرة ١٦٤ .

٣ – آل عمران ١٩١ .

فالقرآن الكريم ليس كتاباً في علم الطبيعة أو الكيمياء أو الرياضيات، وإنما أنزله الله كتاب هداية وسبيل رشاد ونظام حياة. والذي نراه أن المسلم يجب أن يفهم من هذه الآيات أنها دعوة إلى النظر في الكون وحض على التأمل والتفكير في مخلوقات الله تعالى وبديع صنعه في الكائنات، وسيترتب على هذه النظرة إدراك واعٍ بأن الله أحاط بكل شيء علماً وأن العلم اليقيني لا يكون إلا بسلطان من الله وإلهام منه.

أما أن نفسر النظريات العلمية بآيات القرآن الكريم، فهذا لا يجوز، لأن العلم متطور بقوانينه ونظرياته، ولأن النظريات في أي علم من العلوم لا تثبت على حال، فمن طبيعة التقدم العلمي تغير الآراء وتطور النظريات والقوانين. ولو أننا فسرنا النظريات العلمية التي كانت سائدة في عصر من العصور بآيات القرآن ثم تغيرت هذه النظريات لأوقعنا أنفسنا في الحرج واتهمنا الناس بالتناقض، وهذا موقف لا يجب أن يقفه عاقل.

اللّـه

إن التصور الإسلامي للوجود يختلف عن المذاهب المادية والطبيعية الملحدة، أي تلك المذاهب التي لا تعترف بما وراء المادة ولا تؤمن بغير المحسوس، وقد عرفت البشرية وما تزال تعرف فلسفات ومذاهب تقوم على عدم الاعتراف بالله. كما أن بعض الأديان — غير السماوية — تؤمن بوجود قوىً أسمى من قوة الإنسان لكنها تشرك مع الله إلهاً آخر أو اثنين، فالديانات الفارسية تقول بوجود إلهين أحدهما يختص بالخير والآخر بالشر، والنصرانية مع أنها تنبثق من أصل سماوي إلا أن صورتها التي عرفناها عن طريق الكنائس المختلفة تقول بالتثليث: أي بوجود آلهة ثلاثة هي الآب والابن وروح القدس، كما أن اليهودية وهي ذات أصل سماوي أيضاً تؤمن بوجود إله واحد، لكن صورتها التي عرفناها عن طريق أحبار اليهود تجسم الإله وتجسده حتى تجعله لا يختلف بشيء عن الإنسان.

ولعل من الواجب أن نستعرض بعض الآيات القرآنية التي وردت في الحديث عن الله أو صفاته حتى ندرك حقيقة التصور الإسلامي في موضوع الإلهية، وحتى نميز تمييزاً واضحاً بين مفهوم الإسلام ومفهوم غيره من الأديان والفلسفات.

يقول الله تعالى:

«قُلْ هوَ اللهُ أحَد، اللهُ الصمَد، لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يَكُن لهُ

كُفُواً أحد» (١) .

«هُوَ الأوّل والآخر والظّاهر والباطن وهوَ بكُل ّشيء علَيم» (٢)

«كُل ّ شيء هالك إلا وجهه لهُ الحكْمُ وإليهِ ترجعون» (٣)

«خالق كل شيء» (٤) . «وكان الله على كل شيء قديراً» (٥)

«ولله المَشرق والمغرب فأينما تولّوا فثَمّ َ وجهُ الله» (٦)

«واللهُ بَصيرٌ بما يَعملون» (٧) «لهُ الخلق والأمر» (٨)

«ألا إنّه بِكُل ّ شيء مُحيط» (٩) «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة َ الداعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون» (١٠) «ليس كمثله شيء» (١١) «لا تُدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير» (١٢) . «لا معقب لحكمه» (١٣) «ولله يسجد مَن في السموات والأرض» (١٤) .

إن هذه الآيات القرآنية تشير إلى مجمل العقيدة الإلهية في الإسلام وهي أكمل عقيدة يستطيع أن يتقبلها عقل ، كما أنها أكمل عقيدة في الدين . فالآيات تشير

---

١ — الإخلاص .
٢ — الحديد ٣ .
٣ — القصص ٨٨ .
٤ — الأنعام ١٠٢ ، الرعد ١٦٢ ، الزمر ٦٢ ، غافر ٦٢ .
٥ — الأحزاب ٢٧ .
٦ — البقرة ١١٥
٧ — البقرة ٩٦ ، آل عمران ١٦٣ ، المائدة ٧١ .
٨ — الأعراف ٥٤ .
٩ — فصلت ٥٤ .
١٠ — البقرة ١٨٦ .
١١ — الشورى ١١ .
١٢ — الأنعام ١٠٣ .
١٣ — الرعد ٤١ .
١٤ — الرعد ١٥ .

إلى وجودين مختلفين كل الاختلاف : فأما الوجود الأول ، فهو : خالق واحد لا أول له ولا آخر ، قدير على كل شيء ، عليم بكل شيء ، محيط بكل شيء وليس كمثله شيء . والوجود الآخر : عالم مخلوق ، خلقه الله ، ويرجع إلى الله ويفنى كما يوجد بمشيئة الله .

فالله سبحانه وتعالى ليس قوة كامنة في الكون كما عبر بعض الفلاسفة ، لأنه وجود أزلي متميز عن الكون ، وهو سبحانه ليس الطبيعة ذاتها أو الكون ذاته ، لأن هذا تصور مادي يهدم الصورة الإسلامية الأساسية عن الوجود ، والله تعالى ليس كإله الفلاسفة علة نهائية غير مدركة ولا واعية افترضوا وجودها في العالم ، لأن مثل هذا التصور يحتاج إلى تفسير وتعليل [1] ، وهو تعالى ليس كائناً أزلياً أبدياً مطلق الكمال ولكنه لا يعنيه أن يخلق العالم أو يريد شيئا كما يزعم أرسطو ، لأن هذا يخالف أبسط المبادىء العقلية في تصور الكمال .

وقد عرض الأستاذ العقاد في كتابه «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» [2] وكتابه «الله» [3] بعض هذه التصورات المخالفة نوردها للمقارنة السريعة :

«مذهب أرسطو في الإله أنه كائن أزليّ أبديّ مطلق الكمال ، لا أول له ولا آخر ، ولا عمل له ولا إرادة مذ كان العمل طلباً لشيء ، والله غني عن كل طلب . وقد كانت الإرادة اختياراً بين أمرين ، والله قد اجتمع عنده الأصلح الأفضل من كل كمال ، فلا حاجة إلى الاختيار بين صالح وغير صالح ولا بين فاضل ومفضول . وليس مما يناسب الإله في رأي أرسطو أن يبتدىء العمل في زمان لأنه أبدي سرمديّ لا يطرأ عليه طارىء يدعو إلى العمل ، ولا يستجد عليه من جديد في وجوده المطلق بلا أول ولا آخر ولا جديد ولا قديم ، وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التي لا بقية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها ، ولا تخرج من نطاقها عناية تعنيه .

---

١ – محمد المبارك : نظام الإسلام ، بحث (الله) ، والفلسفة القرآنية للعقاد ، بحث الإله .

٢ – الحقائق : ٣٣ – ٣٤ .

٣ – كتاب (الله) ١٨٨ ، وانظر سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي ص ١٧١ – ١٧٢ .

«فالإله الكامل المطلق الكمال لا يعنيه أن يخلق العالم أو يخلق مادته الأولى وهي الهيولى ، ولكن هذه الهيولى قابلة للوجود يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود الذي يفيض عليها من قبل الإله فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود ، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع في حدودها فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقابلية ، ولا يقال عنها إنها من خلقة الله إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار ».

وكان الفرس كما ذكرنا يعتقدون بالثنوية ، ويجعلون للخير إلهاً يقتصر عمله على عالم الخير والنور ، وللشر إلها تقتصر قدرته على عالم الظلام والشر . وزعموا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين ، وأن هرمز طفق في مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة ؛ وأهرمان غافل عنه في قراره السحيق ، فلما نظر ذات يوم ليستطلع خبر أخيه راعه اللمعان من جانب مملكة أخيه، فأشفق على نفسه من العاقبة ، وعلم أن النور وشيك أن ينتشر ويستفيض فلا يترك له ملاذاً يعتصم به ويضمن له البقاء ، فثار ، وثارت معه خلائق الظلام وهي شياطين الشر والفساد ، فأحبطت سعي هرمز وملأت الكون بالخبائث والأرزاء..»

أما أفلوطين أحد فلاسفة اليونان الذين يسمون بالإلهيين والذي كان له أثره الكبير على عدد من فلاسفة الإسلام وخاصة الإشراقيين ، فقد زاد فيما يراه تنزيهاً لإلهه الأحد حتى زعم أن من كمال هذا الإله أنه لا يشعر بذاته لأنه يتنزه عن ذلك الشعور ، وبديه أن هذا المذهب يقتضي وسائط متعددة لربط الصلة بين هذا الإله الأحد المطلق الصفاء وبين المخلوقات العلوية وهذه المخلوقات السفلية ولا سيما خلائق الحيوان المركب في الأجساد . وهكذا لزم أفلوطين أن يقول إن الواحد خلق العقل وإن العقل خالق الروح وإن الروح خلقت ما دونها من الموجودات على الترتيب الذي ينحدر طوراً دون طور إلى عالم الهيولى أو عالم المادة والفساد . وهكذا ينحصر عمل الإله عند أفلوطين على خلق العقل ثم تنتهي مهمته .

أما التصورات المنحرفة لبني إسرائيل فإنها ترسم صورة لإله لا تكاد تختلف عن صورة الإنسان الذي يملك قدرة كبيرة ، الإنسان الذي يغضب ويغار ويحقد

ويثأر لشخصه أو لشعبه وينتقم ويحطم ، واليك ثلاث صور من التوراة التي بين أيدي اليهود توضح لك ما نقول :

الصورة الأولى (من الإصحاح الثالث من سفر التكوين) :

«وقال الرب الإله : هوذا الإنسان قد صار كواحد منا ، عارفاً الخير والشر ، والآن لعله يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد .. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل في الأرض التي أخذ منها».

الصورة الثانية من (السفر نفسه) :

«وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات ، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات ، فاتخذن لأنفسهن نساء كل ما اختاروا ، فقال الرب : لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد ، لزيغانه ، هو بشر ... ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم ، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض ، وتأسف في قلبه ، فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ، لأني حزنت أني عملتهم».

الصورة الثالثة (من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر صموئيل الثاني) :

«فجعل الرب وباء في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد ، فمات من الشعب — من دان إلى بئر سبع — سبعون ألف رجل . وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها فندم الرب عن الشر ، فقال للملاك المهلك الشعب : كفى الآن ، رويدك».

ولم تكن التصورات الكنسية عن طبيعة المسيح وإرادته وتلبسهما باللاهوتية خيراً من التصورات اليهودية ، فقد دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير عوامل متعددة ، أهمها : تسلط مجموعة من المنافقين على شؤون الدولة الرومانية بعد أن أصبحت النصرانية دينها الرسمي ، فنقلوا جميع عقائد الوثنية الرومانية وتقاليدها إلى النصرانية حتّى لقد عبر أحد مفكري الإسلام عن هذه الحالة ، بأن الروم لم

يتنصروا ولكن النصرانية تروّمت فأخذت أخلاق الرومان وتقاليدهم وآراء الفلسفة اليونانية وعقائدها بما فيها عقيدة التثليث . ويضيف القاضي عبد الجبار الهمذاني : «وهذا التثليث الذي للنصارى قد كانت فلاسفة الروم تنحو نحوه في أن العقل والعاقل والمعقول تصير شيئا واحداً ، ويقولون هرمس المثلث» [1] .

وقد وقع بينهم انقسام شديد في تصور الألوهية ، فقالت فرقة إن الأب والابن وروح القدس صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس ، فالله بزعمهم ركب من أقانيم ثلاثة : الأب والابن (المسيح) وروح القدس ، فانحدر الله الذي هو الأب في صورة روح القدس ، وتجسد في مريم إنساناً ، وولد منها في صورة يسوع .. وهكذا ..

هذا بالإضافة إلى التصورات الفاسدة الأخرى التي كانت تعج بالشرك والوثنية والأساطير والخرافات : من عبادة الأصنام ، إلى عبادة الكواكب ، إلى تقديس الملائكة ، إلى غيرها .

« إن التصور الإسلامي للألوهية هو التصور الحق الذي يدحض تصورات المشركين والفلاسفة ، وتصورات اليهود والنصارى ، ومن أخذ من هؤلاء أو أولئك من كل النحل الباطلة والطوائف الضالة . فالله تبارك وتعالى — كما وصف نفسه في كتابه الكريم — : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فلا يقاس بخلقه سبحانه ، فإنه أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه » .

ومن هنا اختلف هذا التصور عن سائر التصورات التي قامت بالشرك أو بالوثنية . ولا يكون الكمال المطلق بغير قدرة وإنعام ، ولا تكون القدرة والإنعام بغير خلق وإبداع [2] وهكذا فإن الإنسان يتعامل مع إله حيّ خالق مريد مهيمن فعّال لما يريد « كامل الإيجابية والفاعلية ، إليه يرجع الأمر كله ،

١ — تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار الهمذاني ، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان ، المقدمة ص ي

٢ — عباس العقاد ، الفلسفة القرآنية ١٠١ .

وإلى إرادته يرجع خلق هذا الكون ابتداء وكل انبثاقة فيه بعد ذلك وكل حركة وكل تغير وكل تطور ، ولا يتم في هذا الكون شيء إلاّ بإرادته وعلمه وتقديره وتدبيره ، وهو سبحانه مباشر بإرادته وعلمه وتدبيره لكل عبد من عباده في كل حال من أحواله ، والكل حي ولكل شيء في هذا الوجود كذلك »[١] .

إن ثبات هذا التصور في وجدان الإنسان سيترتب عليه آثار كبيرة في تكوين شخصيته وفي حياته كلها ، فستكون حياته منسجمة متسقة لا يدخلها الصراع بسبب الاعتقاد بتعدد الآلهة ، وستكون هذه الحياة مطمئنة لأنه يخضع للإله الحكيم الخبير العليم بما يصلح له أو يضر به ، وسيحرص على أن يتلمس إرادة الرب الحكيم، سواء عن طريق عقله أو عن طريق الرسالات الإلهية التي تتنزل على الإنسان بمقتضى الرعاية والعناية والتدبير .

وليس لأي مخلوق ولا لأية طائفة سلطان على الناس في عقائدهم وليس لهم صفة من صفات الربوبية : «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» ، حتى الرسول نفسه ليس إلا مُبلّغاً : «فَذَكّر إنما أنت مذكّر لستَ عليهم بمسيطر». وعلى العموم فإن عقيدة الإسلام في الله تقدم في أتم معنى من معاني الوحدانية وأبسط أشكالها وليس يرضى الإسلام عن أي نوع من التعدد ولا أي رمز يشعر به[٢] .

١ — سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي ١٧٣ . وأنظر الآيات القرآنية : الأعراف ٥٤ ، آل عمران ٢٦ ، ٢٧ ، الأنعام ١٨ ، الرعد ٨ — ١٣ ، الأنعام ١٧ ، الشورى ٥٣ — ٥٤ ، الزمر ٤٣ ، المجادلة ٧ .

٢ — احمد أمين ، فجر الإسلام ٧٢ .

مثل إسلاميّة

جاء الإسلام خاتماً للأديان والرسالات الإلهية جميعاً ، فكان له أثره الكبير في تغيير قيم الأشياء والأخلاق والمُثل ، فارتفعت قيم أشياء وانخفضت قيم أخرى ، وأصبحت مقومات الحياة غيرها بالأمس ، وكان من الطبيعي أن يضم الإسلام جماع المثل العليا وحصيلة القيم السامية التي يطمح الإنسان اليها . هذه المثل تحقق خير الإنسانية وسعادتها وتكفل لها حياة مثالية مستقرة ترفع من شأن الإنسان وتكرمه وتشعره أبداً أنه مستخلف على هذه الأرض مكرّم على سائر الكائنات .

ودون أن ندخل في مناقشة فلسفية لمفهوم القيم أو المثل نستطيع أن نقول إنها مجموعة الأفكار والنظريات والأهداف والأحكام العقلية والدينية والثقافية ، التي يؤمن بها فرد أو مجتمع مهما كان مصدر هذه القيم ، فقد يكون مصدرها الدين ، كما قد يكون مصدرها الأحكام والتجارب الإنسانية والأخلاقية. وليست القيم واحدة في المجتمعات ، فقد يؤمن الفرد أو المجتمع بمجموعة من القيم يؤمن بغيرها الأفراد الآخرون والجماعات الأخرى ، وتشكل القيمة غالباً الدوافع الهامة للفكر والسلوك البشريين ، لذلك فقد أفرد لها الباحثون في الحضارات الإنسانية كتباً خاصة تحت عنوان فلسفة أو نظرية القيم .

وإذا كانت القيم تقاس بمقدار سموها وتحقيقها للخير العام للإنسانية فإننا

نستطيع أن نقول إن الإسلام يقدم للناس أسمى القيم وأكثرها رقياً وتحقيقاً لمعنى الإنسان ، فالقيم الإسلامية تحقق وظائف عدة ، ففيما يتعلق بالفرد تحاول أن ترفعه فوق مرتبته الراهنة وترفعه من المستوى الحيواني الذي يقتصر على الماديات من طعام وشراب وجنس إلى المستوى اللائق بكرامة الإنسان وتقدمه ورقيّه ، وفيما يتعلق بالمجتمع فإنها تحقق أعظم عامل للربط بين أفراده والسمو به إلى مرتبة الحضارة والمدنية ، وتقيم الصلات بين الأفراد والهيئات في المجتمع على أسس نبيلة كريمة .

الإيمان

يمكن أن ينظر إلى الإيمان من خلال معنيين : عام وخاص أما المعنى العام فيقصد به كل اعتقاد يعتقده الإنسان مهما كانت قيمة هذا الاعتقاد ، فكل مؤمن بفكرة أو عقيدة نسميه مؤمناً ، ولا يكتمل معنى الإنسان إلا بالإيمان بفكرة أو عقيدة أو دين . أما المعنى الخاص فهو الإيمان من حيث هو مثّل من المثل التي يقوم عليها الإسلام وتعتمد عليها الثقافة الإسلامية .

والإيمان بهذا المعنى ، هو أول هذه المثل وأولاها بالذكر والتفصيل ، لأنه العنصر المشترك في القيم جميعاً إذا أضفنا إليه موضوعه الذي يتميز به في الإسلام ، إن الإيمان بالحق والعدل والمساواة وكرامة الإنسان واجب وإلا كانت هذه القيم مجرد شعارات لا تقدم ولا تؤخر في سلوك الإنسان وتفكيره ، يضاف إلى ذلك إيمان يحتمه الإسلام بأركان أساسية لا يتم إيمان المسلم إلا بها ، وهذه الأركان هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والقضاء والقدر والبعث والجزاء ، ولما كان أسمى هذه الأركان وأساسها هو الإيمان بالله والرسل ، فإن الحديث لا بدّ أن يبدأ عنه لأن الإيمان بالكتب منبثق عن الإيمان بالله ورسله ، كما أن الإيمان بالبعث والقدر متعلق بهما أيضاً ، فإذا آمن الإنسان بالإله الواحد الخالق المدبر ، فإنه لا بد أن يترتب على إيمانه هذا ، الإيمان بالكتب ثم بالقدر والمسؤولية والجزاء .

الإيمان بالله : سبق أن ذكرنا مكان الألوهية في التصور الإسلامي ، ونضيف إلى ذلك بأن الإيمان بالله يشكل لدى الإنسان حاجة أساسية سواء من الناحية العقلية أو من الناحية الفطرية أو من الناحية العاطفية ، فالإنسان منذ وجد على سطح البسيطة ، وهو في كل مجتمع وفي كل زمان ومكان يتساءل من أين جاء وإلى أين يذهب ، ومتى يذهب ، وكيف وجد ، وهذه الأسئلة تبقي موضوع الإيمان حياً في النفس على الدوام ، ثم أن مظاهر الطبيعة المفردة أو الشاذة ، والسنن المستمرة ، والحوادث المفردة التي لا تتكرر تشعر الإنسان بضعفه أمام الكون فتلجئه إلى الإيمان بالله يستمد منه القوة في الحياة ، وقد تخفف العادة من حدة هذا الشعور ، ولكن وقفة من وقفات التأمل سرعان ما تعود بالإنسان إلى الطريق السويّ ، ثم إن أوقات النوائب تتيح للإنسان فرصاً كبيرة للعودة إلى النفس وإحكام الصلة بالله وتوثيق الإيمان به تماماً ، كما تفعل النعم السابغة المستمرة .

إن أول ما يجب على الإنسان ليكون مؤمناً أن يكون موقناً من قلبه بوجود الله تعالى ، فإنه إذا لم يكن موقناً بوجوده فكيف يؤمن به ويطيعه ويتبع قانونه . وتختلف السبل إلى الإيمان بالله ، فبينما يصل اليه البعض بالعقل والفكر ، يصل اليه آخرون بالعاطفة ، وآخرون بالوراثة ، وآخرون بالعاطفة والفكر ، وهكذا .. وقد تضل العقول سبيلها إلى الخالق وتنزل إلى درك من السخف في النظر فتتخذ من الأحجار أو الحيوان أو الإنسان آلهة تجثو تحت أقدامها ، فتجيء رسالة السماء لتخرج الناس من الظلمات إلى النور على يد رسل الله وأنبيائه » [1] .

ولا بد من أن نلاحظ قبل التحدث عن الطرق التي اتبعها الإنسان لمعرفة الله أن هذه المعرفة إما أن تتوجه إلى حقيقة الله وطبيعته ، أو أن تتوجه إلى آثاره ومخلوقاته . أما المعرفة الأولى فمستحيلة ، لأن وسائل الإنسان للتعرف على الأشياء قاصرة عن التعرف إلى حقيقة الله وذاته ، لأن الإنسان يتعرف على الحقائق والموجودات بحواسه وعقله وبالممارسة والتجربة ، وكل ذلك قاصر ومتغير ، وإذا لم تستطع حواسنا معرفة الله بهذا المعنى فلا يستدعي ذلك إنكار وجوده لأننا نجهل

١ — مقدمة كتاب العلم يدعو للإيمان : ترجمة الأستاذ الفلكي ، وتقديم الأستاذ الباقوري .

عوالم كثيرة كعالم الجراثيم وعالم الأفلاك ، ولم يمنع جهلنا بها وجودها وأن يترتب على وجودها نتائج كثيرة ، لأن وجود الشيء غير إدراكه ، وهكذا فإن آثاره تعالى قائمة في كل مجال ، وإن شيئاً من التأمل الواعي يقودنا حتماً إلى معرفته والإيمان به . إن معرفة طبيعة الله غير ممكنة ، ومعرفة الله عن طريق أفعاله هي المعقولة ، ولن تستطيع حواسنا معرفة كُنْه الله وماهيته ولكن حواسنا لا تعلم كل شيء في العالم ، إنها لا تعلم إلا القليل من هذا العالم .

ومهما اختلفت طرق الأديان السماوية في وسائل الإقناع ، فإنها تعتمد أول ما تعتمد على تحريك الوجدان وإثارة العاطفة بالإضافة إلى اعتمادها على إثارة قوى الإدراك والتفكير ، لأن حقيقة الإله الموجد أكبر من أن يحدّها الفكر . ذلك لأن العقل مهما بلغ من القوة والذكاء ليس إلا حاسة من الحواس التي تربطنا بعالمنا المحدود ، فلا يجوز للعقل الشطط كما لا يجب عليه القعود .

والإسلام يعتمد على الفطرة في إثارة الإيمان ، والفطرة ليست عقلاً صرفاً ولا عاطفة محضة وإنما هي مزيج من العقل والعاطفة إذا التقيا فلم يطغ أحدهما على الآخر كانت الفطرة سليمة تنشد الله وتعرف سبيلها اليه من أقرب طريق»[1] . يقول تعالى : «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً واو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب» [2] ولا نشك أن الفطرة السليمة تقف مبهورة أمام مثل هذه الآية ومئات غيرها يلفت القرآن الكريم نظر النفس الإنسانية إليها .

وحتى يكتمل معنى الإيمان لا بد أن يعرف المرء صفاته تعالى ، لأنه إذا لم يعرف أن الله واحد لا شريك له في ألوهيته ، — كما يقول الأستاذ المودودي—[3] فكيف يرتدع عن طأطأة رأسه ومدّ يده الى غير الله ، وكذلك إذا لم يكن موقناً

---

١ — مقدمة كتاب العلم يدعو للإيمان .

٢ — الحج ٧٣ .

٣ — مبادىء الإسلام ٢٢ .

بأن الله سميع عليم بصير بكل شيء فكيف يمسك عن معصيته والخروج عن أمره . فالإنسان لا يمكنه أن يتحلى بالصفات اللازمة التي يجب عليه أن يتحلى بها في أفكاره وأعماله وأخلاقه لسلوك صراط الله المستقيم ما دام لا يعرف صفات الله تعالى ولا يحيط بها إحاطة كاملة ، هذا بالإضافة إلى أن الصفات التي وصف الله نفسه بها تبقى منارات أمام الإنسان يجهد إلى أن يتمثلها في فكره وسلوكه ، فالكرم والحلم والإحسان والرأفة والرحمة كلها صفات وصف الله نفسه بها ، وكم يكون مجتمعاً فاضلاً ذلك المجتمع الذي يتمثل بهذه الصفات .

ثمرات الايمان : إن النتائج التي تترتب على الإيمان بالله وتوحيده كثيرة وهامة ، سواء بالنسبة للأفراد أو بالنسبة للمجتمعات ، من أهمها :

● تحرير الإنسان من العبودية لغير الله أو الخضوع لسواه : ومن أجل هذا يدعو القرآن الناس جميعاً إلى هذا الإيمان : «قُل يا أهْلَ الكِتاب تعالوا إلى كلمة سَواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبُدَ إلا الله ولا نُشرك به شيئاً» (١) ، وحتى يكون التحرر من الخضوع لغير الله كاملاً فإن القرآن ينفي شبهة القداسة عن أي فرد من الناس ولو كان رسولاً نبياً «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» (٢) . وقد خاطبه القرآن بقوله :

«ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم» (٣) فالملك كله لله والأمر كله له .

● تحرير النفس من سيطرة الغير والخوف منه : لأن أولئك الذين يخشونهم لا يملكون ضراً ولا نفعاً «ولا تدعُ من دون الله ما لا ينفعكَ ولا يضرّك فإن فعلتَ فإنّك إذاً من الظالمين ، وإنْ يَمْسَسْكَ الله بِضُرّ فلا كاشف لهُ إلا هُوَ ، وإنْ يردكَ بخيرٍ فلا رادّ لفضله يُصيبُ بهِ مَن يشاء من عباده ، وهوَ الغفور

---

١ – آل عمران ٦٣ .
٢ – آل عمران ١٤٤ .
٣ – آل عمران ١٢٨ .

الرحيم» [1] «ولا يملكونَ لأنفسهم ضَرّاً ولا نفعاً ولا يملكون مَوْتاً ولا حياة ولا نُشُوراً» [2] .

وإذا تحررت النفس من الخوف من الغير فإنها تتحرر من الذل والعبودية والخضوع لغير الله . إن الإنسان قد يذل لغيره خوفاً على حياته أو رزقه أو جلباً للمنفعة أو دفعاً للمضرة ، وقد بيّن القرآن أن المنفعة والمضرة بيد الله كما أن الحياة والموت والرزق بأمره «أينما تكونوا يُدركْكم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة» [3] «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً» [4] «قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتِبَ عليهم القتل إلى مضاجعهم» [5] والرزق كالموت والحياة بيد الله لا يجوز أن يخاف الإنسان عليه من أحد سواه : « الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له» [6] «وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإيّاكم» [7] «وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها » (8 .

● ثم إن الإيمان الحيّ بالله يملأ النفس طمأنينة وسكينة وثقة ويرفع من قوة الإنسان المعنويّة ويدفع عنه اليأس والقنوط ، فالمؤمن متفائل أبداً واثق من نفسه ومن نصر الله ، «الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله ألا بذِكْر الله تطمئن القلوب» [9] «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم» [10] «الله وليّ الذينَ آمَنوُا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت

---

١ — يونس ١٠٦ ، ١٠٧ .
٢ — الفرقان ٣ .
٣ — النساء ٧٨ .
٤ — آل عمران ١٤٥ .
٥ — آل عمران ١٥٤ .
٦ — العنكبوت ٦٢ .
٧ — العنكبوت ٦٠ .
٨ — هود ٦ .
٩ — الرعد ٢٨ .
١٠ — الفتح ٤ .

يخرجونهم من النور إلى الظلمات»[1] «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم»[2] .

إن الذي يؤمن بالله لا يتسرب إليه اليأس في حال من الأحوال فإذا ضاقت عليه الحياة ، وانقطعت عنه الأسباب المادية جميعها ، فإن عين الله لا تغفل عنه ولا تسلمه إلى نفسه ، فلا يزال يبذل الجهود المتتابعة متوكلاً على الله مستمداً منه المعونة في جميع أحواله ، وهذا ما يفسر انعدام الانتحار بين المؤمنين وكثرته بين الملحدين الكافرين.

● والإيمان يجعل الإنسان متقيداً بقانون الله حريصاً عليه ويمنحه ضميراً يقظاً مراقباً لله في كل ما يعمله أو يقوله أو يفكر به ، لأنه يعلم أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

الايمان بالنبوة : إن الإيمان بالنبوة — أو الصلة بين الله تعالى ومجتمع الإنسان عن طريق الأنبياء — من خصائص التصور الإسلامي ومميزاته . والنبي هو الإنسان الذي يختاره الله تعالى ليقوم بأداء رسالة معينة إلى عباده ، وقد وجدت مذاهب تؤمن بالله ولكنها تنكر النبوة وتزعم أنه لا حاجة لوجود هذه الصلة وحجة أصحابها في ذلك ، أن ما أتى به الأنبياء إما أنه موافق للعقل ففي العقل غنى عنه، أو مخالف له فلا حاجة لنا به لأننا نعتمد العقل طريقاً للاستدلال على حقائق الأمور .

ويردّ على أصحاب هذا الرأي بأنه يستحيل أن نتقبل فكرة وجود الخالق المدبّر دون أن تترافق مع الإيمان برعايته لخلقه وتدبيره المستمر للكون ، هذا وليس من الضروري أن يكون كل ما في العقل مخالفاً لما يأتي به الأنبياء ، فجميع التصورات والشرائع التي نزلت بها الرسالات السماوية يقرها العقل الصحيح المعتمد على تفكير علمي منظم ، بالإضافة إلى أن لكل من العقل والوحي ميدانه الخاص في كثير من المسائل ، فإذا استطعنا بالمنطق التجريبي والرياضي التوصل إلى حقائق

---

١ — البقرة ٢٥٧ .

٢ — يونس ٩ .

علوم الكون والحياة فإننا لا نستطيع بغير الوحي أن نتوصل إلى حقائق ما وراء المادة، فالعلم الصحيح بذات الله تعالى وصفاته وطرقه المرضية وحساب الآخرة ومجازاتها لطاعة الله وامتثال أوامره وأحكامه ، وكل ما يتعلق بعالم الغيب ، كل ذلك لا يعرف إلا عن طريق الأنبياء .

والصلة بين الله والأنبياء تتم بوسائل متعددة ، وغالباً ما يبدأ الوحي بالرؤى الصادقة ، وفي قصص الأنبياء كثير من حوادث الرؤيا الصحيحة ، وقد قص علينا القرآن الكريم قصتها عندما حدثنا كيف أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه اسماعيل عليه السلام : «فلما بلغ معه السعي قال يا بنيّ إني أرى في المنام إني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر» [1] وقد تكون وسيلة الاتصال الإلهام في حالة اليقظة ، كما حدث مع الرسول الكريم إذ أتاه هذا الإلهام وهو جالس بين المسلمين ، قال رسول الله ﷺ : « هذا رسول رب العالمين ، نفث في روعي أنه لا تموت نفسي حتى تستكمل رزقها». وقد يكون الاتصال بأن يكلم الله تعالى النبيّ مباشرة كما حصل لموسى عليه السلام كما حدثنا القرآن عنه : « فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أنْ يا موسى إني أنا الله رب العالمين ..» [2] والواسطة العادية في حصول الوحي أن يكون عن طريق جبريل عليه السلام: « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربيّ مبين »[3] ، وأحياناً كان جبريل ينزل مجسداً يراه المسلمون كما حصل في حديث أركان الإيمان والإسلام والإحسان وأشراط الساعة الذي روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وحين يدّعي إنسان أنه يتصل بالله ويحمل منه إلى الناس رسالة ترتب عليهم تكاليف وواجبات ، فإن من الطبيعي أن يطالبه الناس بالدليل على صدقه ، ولم يرَ القرآن الكريم في هذا أمراً خارجاً على المعقول فالتساؤل حتى للتعليم والتنبيه

---

١ - الصافات ١٠٢ .
٢ - القصص ٣٠ - ٣١ .
٣ - الشعراء ١٩٣ - ١٩٥

مطلوب «وإذ قال ابراهيمُ رَبِّ أرني كيفَ تُحيي المَوتى قال أوَ لم تُؤمِن ؟ قالَ بَلى ولكن ليَطْمئن قلبي ...» [1]

ومن هنا ظهرت الحاجة إلى وجود ما يثبت النبوة ، وتعدّ المعجزة من أهم الوسائل التي أجراها الله على أيدي أنبيائه ليؤمن الناس أنهم لا يمثلون أنفسهم . والحقيقة أن الإيمان بالرسل مرتبط بالإيمان بالله من جهة وبالغيب من جهة أخرى ، ذلك الإيمان الذي يعتبر أخص مميزات المسلم التقي : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هُدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب »[2] .

والمعجزة في الأصل حادث خارق للعادة والقوانين التي يلاحظها الناس وتجري عليها سنن الكون ، يجريه الله تأييداً لنبيّ ، وقد حاول البعض أن يعطي المعجزة صورة الأمر العاديّ لكن الحقّ أن المعجزة إذا فقدت الصفة الخارقة للعادة فقدت معناها وكونها دلالة على صدق النبيّ ، فإذا بيّن مدّعي النبوة أن دلالة صدقه أن تطلع الشمس من المغرب وهي عادة تطلع من المشرق كان ذلك دلالة وتأييداً ، أما إذا أخبر قومه أن الشمس تطلع من المشرق فليس في الأمر جديد .

وقد كانت المعجزات ، والمادية منها على وجه الخصوص مجالاً لبحوث كثيرة وإنكار من بعض الذين يدّعون الموضوعية ، وقد تحدث القرآن عن مجموعة من المعجزات المادي منها والمعنوي ، وإذا دعا الإسلام إلى الإيمان بمعجزات الأنبياء فإن الإسلام دين المعجزات التي يراها العقل حيثما نظر ، وليس دين المعجزات التي تكف العقل عن الرؤية ، وليس معنى أن يؤمن المسلم بإمكان المعجزة أن ينكر السنن الكونية ، فليست المعجزة بأعجب من خلق السموات والأرض وما فيهما من كائنات وعجائب ، وإذا آمنا بخلق الله للعالم كله فلن يستحيل علينا أن نؤمن بخلق حادث مفرد يخرق به النواميس والعادات ، فخوارق العادات ممكنة لا استحالة فيها ، ومن قال باستحالتها لزمه الإثبات ، لأنه يدّعي الاستحالة

---

١ – البقرة ٢٦٠ .

٢ – البقرة ١ – ٣ .

عقلاً بغير دليل ، وليست المعجزة ضد العقل ولكنها فوقه ، وهناك فارق عظيم بين ما هو ضد العقل وما هو فوقه ، فما هو ضد العقل يلغيه ، وما هو فوقه يطلق له المدى ويوقفه حيث ينبغي له أن يقف [1] .

ومن المعجزات المادية التي تحدث عنها القرآن : ناقة صالح ، وقد قص القرآن خبرها بقوله : « قالوا إنما أنت من المسحّرين ، ما أنت إلاّ بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ، قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم » [2] ومنها معجزة تحول عصا موسى وهي جماد إلى حياة : « قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشيء مبين ، قال فأت به إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين »[3] ومنها معجزات عيسى عليه السلام ، وقد حدثنا القرآن عنها بقوله : « إني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين» [4] .

---

١ — عباس العقاد ، التفكير فريضة إسلامية .
٢ — الشعراء ١٥٣ — ١٥٦ .
٣ — الشعراء ٢٩ — ٣٣ .
٤ — آل عمران ٤٩ .

من المعجزات التي كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم : الإسراء من مكة إلى القدس في ليلة واحدة : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله » / الإسراء ١ / وتنبؤه بانشقاق يظهر على سطح القمر ، وهي ظاهرة سماوية وقعت فعلا بعد تنبيه بها مباشرة وشاهدتها الجماهير التي كان يخاطبها : « اقتربت الساعة وانشق القمر » / القمر ١ / ، ومعجزة النصر على جيوش أعدائه النصرَ المؤزر وهو في قلة من أتباعه بتأييد من الله : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » / الأنفال ١٧ / . ومنها تنبؤاته وهو في حال الضعف المادي الشديد بالانتصار على كفار مكة وانقراض دولتي فارس والروم . إن معظم آيات البشارة بالغلبة والنصر كانت والمسلمون في كرب شديد ، ومنها حمايته من الناس « والله يعصمك من الناس » وكثير غيرها في سنة الرسول وحديثه .

والمتتبع لتاريخ الأمم السابقة يلاحظ أن معظمها لم يؤمن بالمعجزة المادية بلْ أصرت على كفرها وإلحادها ، فالهداية بيد الله ، ومهما تكن المعجزة قارعة فإن قلوباً أشد قسوة من الصخر «ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سُكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون» [1] . وهكذا فمهما تكن قوة المعجزة المادية فإن البعض سيقول إنه السحر أو خداع البصر ، لذا فقد خاطب الله تعالى رسوله متحدثاً عن هذا المعنى بقوله : «وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً» [2] .

أما المعجزات المعنوية والعقلية فأهمها القرآن الكريم الذي تنزل على خاتم المرسلين محمد عليه السلام ، وهو معجزة ذاتية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالرسالة وتتصل بماهيتها وتتعلق بجوهرها ، فهي معجزة يتقبلها العقل على الدوام لأنها تخاطب الفكر البشري وتعتمد على القناعة العقلية أكثر مما تعتمد على قرع الحواس الذي هو أصل المعجزات المادية . وكانت البشرية قد قطعت حتى بعثة الرسول شوطاً كبيراً من الرقيّ العقلي حتى أمكن مخاطبة العقول مباشرة ، وخطاب العقل أكثر شمولاً ودواماً واستقراراً وخلوداً ، فالقرآن الكريم معجزة الرسول والإسلام حتى أبد الدهر .

وقد اختلف الباحثون في حقيقة الإعجاز في القرآن على ثلاثة اتجاهات رئيسية :

فهناك من يرى بأن المعجز في القرآن هو في صياغة ألفاظه الخارقة للعادة وبلاغته الواضحة التي أعجزت العرب أن يأتوا بمثلها .

وهناك من يراه فيما ورد في القرآن الكريم من الإعلام عن الغيوب وعن حوادث الأمم السابقة وتاريخها وعقائدها ، فقد أشار القرآن إلى حوادث ستقع في المستقبل ، ثم وقعت كما حدث . مثال ذلك قوله تعالى : «ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين» [3] فقد حصل أن

---

١ – الحجر ١٤ ، ١٥ .
٢ – الإسراء ٥٩ .
٣ – الروم ١ – ٤ .

الفرس غلبت الروم ، فأخبر القرآن عن هذه الواقعة وأنبأ بأن الروم سينتصفون من خصومهم في بضع سنين ، وقد تم ذلك فعلاً ، وبما أن أي إنسان لا يستطيع أن يعلم الغيب فإن هذا يثبت أن الكتاب منزل من الله وفيه من الإعجاز ما فيه (١) .
ثم إن القرآن تحدث عن تاريخ الأمم السابقة وأديانها وألمّ بكل صغيرة وكبيرة من أحداثها وشؤونها ، ولما كان الرسول عليه السلام أمّيّاً لم يطلع على كتب الأقدمين التي لم تشر بدورها بدقة إلى تلك الأمور ؛ فلا بد أنه تعالى هو الذي أخبر نبيّه بهذه الأخبار .

وأخيراً فإن كثيراً من الباحثين يرون بإن الإعجاز في القرآن هو فيما ورد فيه من أنظمة إنسانية بالغة الرقي لم تعهد الإنسانية مثلها قديماً أو حديثاً في ضمان مصلحة بني الإنسان العامة وتأمين حياته الخيّرة ، فقد ورد في القرآن أنظمة لحياة الإنسان في مختلف ألوان النشاط البشري من نواحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية مما سنعرض له ، ولما كانت هذه الأنظمة بعيدة عن قدرة أي إنسان أو تصوره فلا بد أن يكون القرآن منزلاً من الله ومثبتاً لرسالة النبي عليه الصلاة والسلام .

والحقّ أن الإعجاز في القرآن يشمل هذه الأمور جميعاً ، فهو معجزة في اللفظ العجيب والتركيب البلاغي البديع ، وهو معجز في إخباره عن الغيوب وأنباء الأمم السابقة ، وهو معجز في أنظمته الرائعة السامية ، ولا نستطيع أن نحصر الإعجاز في جانب واحد ، فالقرآن معجزة الرسول إلى الناس جميعاً في مختلف أزمانهم وأمكنتهم ، لذا كان من الطبيعي أن يحوي هذه الوجوه المتعددة من الإعجاز ، فإذا آمن العربي به لإعجازه البلاغي ، فقد يؤمن به الرومي لإخباره عن الأمم السابقة ، كما قد يؤمن به الفارسيّ للأنظمة التي فيه . فالقرآن معجز كلمة ولفظاً ونظاماً .

---

١ – أنظر تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار الهمذاني وتحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان ففيه عشرات الحوادث من هذا القبيل .

الوحي :

تعتبر ظاهرة الوحي من الظواهر الخارقة التي ترافق النبوة كظاهرة المعجزة ، والوحي لغة : هو الإعلام الخفي السريع ، وهو في الاصطلاح : إعلام الله تعالى لنبيّ من أنبيائه بحكم شرعي أو نحوه ، وحيثما أطلق هذا اللفظ فإنه يراد به هذا المعنى .

وقد ورد الوحي بمعنى الإعلام من الله تعالى إلى عباده وبعض المخلوقات الأخرى كما ورد بالمعنى الاصطلاحي .

فقد أوحى جلا وعلا إلى النحل : «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً»(١) وأوحى إلى أم موسى «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه اليك» (٢) ، كما أوحى تعالى إلى الحواريين « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون» (٣) والملائكة يوحى اليهم أيضاً «إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ..»(٤) .

أما الوحي بالمعنى الاصطلاحي ، فقد أشار اليه القرآن بالنسبة للأنبياء جميعاً، من ذلك مثلاً قوله تعالى : «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيّين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان ، وآتينا داود زبوراً ، ورُسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلّم الله موسى تكليماً ، رُسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً »(٥)

---

١ — النحل ٦٨ .

٢ — القصص ٧ .

٣ — المائدة ١١١ .

٤ — الأنفال ١٢ .

٥ — النساء ١٦٣ — ١٦٥ .

فالوحي الإلهي للرسل ، اتصال خالق هذا الوجود بواحد يختار من البشر يكون رسولاً إلى خلقه ، وذلك الاتصال يتم كما ذكرنا بالإلهام الروحي ، أو بأن يكلمه تعالى من وراء حجاب أو بملك يرسله كما قال تعالى : «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء [1] . »

والوحي أحد دعائم الإيمان بالغيب ، ويعتبر هذا الإيمان من أسس العقيدة الإسلامية وكل دين آخر ، لأن فيصل التفرقة بين المتدين وغير المتدين أن يؤمن بالغيب وأن وراء هذه المادة قوة أخرى غيرها : «ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون [2] : «فمَن لم يؤمن بالغيب فقد جحد ومن يؤمن بالغيب فقد تدين» [3] .

وحين يأتي الرسول الوحي ، كانت تعتريه حالة جسدية عنيفة تقتصر على وجهه الكريم فكان يحمر ويتفصد عرقاً ، وقد روي أن الصحابة كانوا أحياناً يغطون رأسه بالثوب لما يرون من الإجهاد عليه ، وكانت تواتيه في ذلك الوقت قوة غريبة ، وقد تكلم بعض المستشرقين عن هذه الظاهرة كلاماً ينبعث عن تعصب ذميم على الإسلام ، وقد تصدى للرد عليه عدد من الكتاب المسلمين المحدثين ، ومن أفضل ما كتب في هذا المجال كتاب «النبأ العظيم عن القرآن الكريم» للأستاذ عبد الله دراز .

إن ظاهرة الوحي خارقة للنواميس الطبيعية ، ولكنها ليست مستحيلة عقلاً ، ويمكن تقريبها للأذهان ببعض الظواهر ، وإن كان الوحي من طبيعة أخرى ، فعن طريق التنويم المغناطيسي يمكن الإيحاء للمنوم بأشياء يقوم بها أو يقولها ، ولكن الفرق بين التنويم والوحي : أن الأول هو تسلط إرادة إنسانٍ على إنسان آخر ،

---

١ – الشورى ١ .
٢ – البقرة ١ – ٣ .
٣ – محمد أبو زهرة ، المجتمع الإسلامي في ظل الإسلام ٢٤ .

بينما الثاني إعلام خفي لا تسلط فيه . ويبدو الحدس وكأنه معرفة دون مصدر إنساني ، ولكنه في الحقيقة يختلف أيضاً في أنه معرفة مباشرة لموضوع قابل للتفكير ، أو غاص فيه التفكير فعلاً لا تصحبه أي ظاهرة عضلية كما يحصل للنبي في الوحي .

أما رؤية الملاك واسطة الوحي ، فقد كان الصحابة يرونه أحياناً ، وحديث عمر عن أركان الإيمان والإسلام والإحسان مشهور في هذا المعنى ، فقد رأى الصحابة الذين كانوا في مجلس الرسول ﷺ جبريل عليه السلام وهو يكلم الرسول ويناقشه .

وغالباً ما كان الرسول وحده هو الذي يراه ، وليس في هذا شيء من الاستحالة العقلية ، إذ يمكن مقارنة هذه الظاهرة بظاهرة عمى الألوان : فبعض العيون لا ترى ألواناً معينة ، كما أن ما تحت النور الأحمر وفوق الضوء البنفسجي لا تراه العيون ، لكن لا شيء من الناحية العلمية يثبت أن كل العيون لا تراه .

ثم إننا نلاحظ أن حواس الكائنات تختلف في إدراكها للأشياء ، وهي تحكم بما يسمى بقانون العتبات ، أي أن لكل حاسة عتبة دنيا لا تحس ما دونها من المخلوقات والموجودات ، وعتبة عليا لا تحس بما فوقها من هذه الموجودات ، فهي لا تحس إلا بما بين العتبتين ، وهاتان العتبتان مختلفتان في الإنسان عنهما في سائر الكائنات الأخرى ، وهكذا قد تلتقط أذن الكلب أصواتاً لا تلتقطها أذن الإنسان ، وقد ترى عين الحصان أشياء لا تراها عين الإنسان ، وهكذا ..

قلنا هذا لنقرب ظاهرة الوحي إلى الأذهان ولنبين أنها غير مستحيلة عقلاً ، وإلا فهي إحدى الظواهر الخارقة التي يتصل الإيمان بها بالإيمان بالله تعالى خالق الأكوان والعجائب فيها ، والذي لا يعجزه أن يخرق السنن والنواميس التي خلق الوجود عليها .

تعدد الأنبياء :

وما دام حديثنا عن النبوة والإيمان بها فإننا سنعرض لظاهرة هامة هي ظاهرة تعدد الأنبياء ، وهل يؤمن المسلم بهم جميعاً ، وما هو سبب هذا التعدد .

إن الإسلام حين يأمر بالإيمان بالنبوات السماوية جميعاً فإنه بذلك يعلن وحدة الأصل الذي يأخذ عنه الأنبياء ، ووحدة رسالاتهم ، ووحدة الإنسانية جميعاً : «قولوا آمنا بالله وماأنزل الينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» (١) : «آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» (٢)

ونستطيع أن نذكر لتعدد الأنبياء ثلاثة أسباب هي : اختلاف البيئات والظروف ، وتطور عقول الناس وتجاربهم ، وتحقيق التدرج في التشريع . فالبيئات الإنسانية ليست واحدة ، والظروف التي يمر بها الإنسان متغيرة ، ثم إن مدارك الناس وعقولهم في تطور مستمر لنماء التجربة الإنسانية وغنى الخبرة البشرية ، لذلك كان لا بد من أن تؤخذ هذه التغيرات بعين الاعتبار ، هذا عدا عن أن التدرج في التشريع أمر لازم ليحدث تأثيره وليطبق تطبيقاً سليماً . وهكذا فإن ما يناسب بعض الناس في ظرف معين أو زمان ما ، قد لا يناسب الناس في ظرف أو زمان آخر ، وهذا ملاحظ في جميع نواحي النشاط الإنساني ، فليس معنى تعدد الرسالات الإلهية أن هناك تناقضاً بين هذه الرسالات ، وإنما هي رعاية الخبير بحال البشرية الذي يقدم لها في كل حين ما يتناسب مع مداركها ، فرسالات السماء طب للعقول والنفوس كطب الأجسام والأبدان ، وكما يراعي الطبيب في إعطاء الدواء سن المريض وحالته ويمنعه من تناول الدواء جرعة واحدة لأنه قد

---

١ — البقرة ١٣٦ .

٢ — البقرة ٢٨٥ .

ينقلب سماً مميتاً ، فكذلك شأن النبوات والرسالات الإلهية تحتاج إلى قدر معين من التطور الوجداني والإدراك العقلي .

خصائص الرسالة المحمدية :

بعد أن انتهينا من الحديث عن معنى الإيمان بالنبوة بصورة عامة ، فإن من المفيد أن نختم حديثنا بالحديث عن خصائص رسالة محمد عليه السلام . هـــذه الخصائص تلاحظ في أربعة أمور [١] :

١ ـــ العموم والخلود
٢ ـــ الصحة من بين سائر الرسالات الباقية
٣ ـــ الشمول والكمال
٤ ـــ ختمها للنبوات جميعاً

أما أن رسالة محمد عليه السلام عامة وخالدة ، فلأنها جاءت للناس أجمعين ، ولم تقتصر على جنس دون جنس أو طائفة دون أخرى أو زمان دون زمان : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً» [٢] وكانت الرسالات السابقة تختص بأمم معينة ، وقد كتب الله أن تكون رسالته رسالة البشرية حتى تلقى وجه ربها ، كما كتب على نفسه أن يحفظ هذا القرآن الذي هو سجل هذه الرسالة حتى أبد الآبدين «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» [٣]

ثم إن رسالة الإسلام حافظت على صحتها من بين سائر الرسالات التي دخلها التصحيف والتحريف ، وسيرته عليه السلام بقيت أصح سير الرجال والأنبياء .. فالقرآن منقول بالتواتر بين المسلمين حتى نستطيع أن نثبت دون تردد بأن لفظاً من ألفاظه لم يتغير خلال القرون كلها ، كما أن سيرته عليه السلام وقوله وفعله كل ذلك

---

١ ـــ سليمان الندوي ، الرسالة المحمدية ، ومبادىء الإسلام للأستاذ المودودي .
٢ ـــ الأعراف ١٥٨ .
٣ ـــ الحجر ٩ .

محفوظ لنا في كتب الحديث والسير ، ولقد نشأت مع الإسلام علوم خاصة مهمتها تقديم السيرة الصحيحة والحديث الصحيح ، وهكذا فنحن نعلم حياة الرسول صغيرها وكبيرها دقيقها وخطيرها معرفة صحيحة كاملة ، وقد حفظت لنا كتب الحديث والسيرة هذه الحياة واضحة ، عن طعامه وشرابه وحكمه بين الناس وشجاعته في القتال وأخلاقه ومعاملته لأصحابه وزوجاته وللمسلمين وجميع الناس ، كل ذلك على صورة نستطيع أن نفاخر حين ندعي صادقين بأن حياة الرسول أصح السير في تاريخ البشرية كلها .

أما أن الرسالة المحمدية شاملة فلأنها تضمن جميع متطلبات الحياة ، كما أن سيرة النبي تعطي القدوة في جميع الشؤون التي يرغب الناس اتخاذ النبي قدوة فيها ، فالإسلام لم يترك جانباً من جوانب الحياة إلا وقدم له علاجاً وحلاً ، وسيرة الرسول تشمل حياة الإنسان كلها . إن صفات الكمال التي توزعت على الأنبياء جميعاً ، التقت أطرافها في شخص الرسول العظيم ، فإذا كان نوح صاحب احتمال وجلد وصبر على الدعوة ، وإبراهيم صاحب بذل وكرم ومجاهدة في الله ، وداود من أصحاب الشكر على النعمة ، وزكريا ويحيى وعيسى من أصحاب الزهد في الدنيا والاستعلاء على شهواتها ، ويونس ممن جمع بين الشكر في السرّاء والصبر في الضراء ، وموسى صاحب شجاعة وبأس ، وهارون ذا رفق ولين ، فإن سيرة محمد عليه السلام قدوة في صفات الكمال كلها ، لأن أصحاب الشجاعة يجدون فيه الرجل الذي يثبت حين يولي الناس ، وأصحاب الكرم يلقون فيه الكريم الذي يعطي بلا حساب ، وهكذا الحال في جميع الصفات الأخرى .

وأخيراً فإن رسالة محمد عليه السلام كانت خاتمة الرسالات جميعاً ، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى بقوله : «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» [1] أي إنه جاء ليكمل بناء الأنبياء ويختم رسالات السماء إلى الأرض : «إنّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله

---

١ — الأحزاب ٤٠ .

إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون ويتعجبون له ويقولون : هلاّ وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

والحاجة إلى الرسل تكون إما لأن الأمة لم يسبق فيها رسول من قبل ، أو لأن رسالة النبي السابق أصابها التصحيف والتحريف ، أو لأن تعاليم الرسالات السابقة لم تكن شاملة في دعوتها كاملة في مضمونها ، وقد قدّر الله بسابق حكمته وعلمه أن الإنسانية قد وصلت إلى رشدها في عصر محمد عليه السلام ، وأنه بالتالي يمكن أن تختم الرسالات الإلهية وتتوج بالرسالة الأخيرة ، وليس معنى تقدم العلوم والصناعات المستمر أن الإنسانية لم تبلغ رشدها العقلي منذ ذلك الحين ، إذ أن هذا التقدم ليس إلا نتيجة طبيعية لنمو الخبرة ونضوجها ورقي الآلات التي يستخدمها ، وإلا فإن الأساس العقلي والفكري واحد لا يتغير .

وقبل أن نختم موضوع الإيمان ، لا بد من الإشارة إلى أن الإيمان بالله والرسالات المنزلة على الأنبياء وما فيها من تكاليف يستدعي الإيمان بالجزاء وما يتعلق به من بعث بعد الموت ووقوف أمام الله في يوم الحساب حيث يقدم كل إنسان كشفاً بأعماله وتصرفاته ، فيحاسب كل إنسان ، ويجزى المسيء على إساءته ويكافأ المحسن على إحسانه ، فالرسالة النبوية مجموعة من التكاليف والأوامر ، وما دام الإنسان قد كُلّف فلا بد أن يحاسب على نتيجة عمله ، والقرآن مليء بالآيات التي تصور هذا اليوم العظيم وما أعدّه الله للمحسنين من نعيم وللمسيئين من عذاب شديد . إن هذا يدعونا إلى أن نبحث في فقرة خاصة موضوع العبادة والعمل والمسؤولية .

الحـــق

ان الحق من أهم المثل التي يعتمد عليها الاسلام في تزكية نفوس المسلمين وإعلاء شأنهم ، ويتمثل الحق في العقيدة الصحيحة ، والعلم النافع ، والعمل الصالح ، والخلق الكريم لذلك نجد أن القرآن يطلق اسم الحق على الاسلام « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله »[1] « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً »[2] « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك الا مبشراً ونذيراً »[3] .

والاسلام في تقرير هذا المعنى مكمل لرسالة الرسل جميعاً ، فقد كانت دعوة الحق دعوة الأنبياء قاطبة : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط

---

* – بحث نشر في كتاب النظام السياسي للمؤلف .

١ – سورة الفتح ٢٨ .

٢ – الإسراء ٨١ .

٣ – الإسراء ١٠٥ .

مستقيم » [١] .

والحق والباطل طرفان متقابلان لا يخلو عمل من الأعمال أو عقيدة من العقائد من الخضوع لأحدهما إذ لا يجتمع حق وباطل .

وإذا كان الاسلام دين الحق ، فإن ما يدعو اليه أصحاب الدعوات الأخرى هو الباطل ، ولا بد أن يقوم الصراع بين الحق والباطل ، فهذا الصراع قديم قدم الإنسانية ، ومنذ أن عرف في الدنيا حق وباطل ، ومهما بدا من غلبة الباطل في بعض الأحيان فإن الحق هو الذي يعلو أخيراً وهو الذي يثبت وينفع لأن الزبد يذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . والإسلام يدعو المسلمين أن يتمسكوا بالحق ويقفوا معه في كل أمر وأن يعملوا لإعلاء كلمة الحق بكل ما يستطيعون حتى تقوم كلمة الحق وحتى يصبح الالتزام بالحق رائد الإنسانية جمعاء . ومن سنن الله أن لا يقوم الحق وحده وإنما ينهض به الرجال ذوو النفوس الكبيرة والصفات العالية .

صفات الداعين إلى الحق :

ومن أهم ما يجب أن يتميز به الداعون إلى الحق : الثبات عليه والاعتصام به ، فإنما تشرف النفس بمقدار معرفتها للحق واستمساكها به ، لأنه هو الذي يعلي قدرها ويرفع شأنها : « فاستمسك بالذي أوحي اليك إنك على صراط مستقيم ، وإنه لذكر لك ولقومك » [٢] ومنها : أن يكون لهم من الشجاعة ما يحملهم على الجهر بالحق والإعلان عنه دون خوف أو جبن لأنهم منتدبون من الله تعالى لإشاعة الحق وإذاعته بين الناس « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » [٣] .

---

١ — البقرة ٢١٣ .
جاء في القاموس المحيط : الحق : من أسماء الله تعالى أو من صفاته ، والقرآن ، وضد الباطل ، والأمر المقضي ، والإسلام .
٢ — الزخرف ٤٣ ، ٤٤ .
٣ — آل عمران ١٤٠ .

ولا شك أن الجهر بالحق من أعظم الفضائل لأنه لا قيام للباطل إلا في غفلة الحق ، فما دام الدعاة إلى الحق يجهرون به ويعملون على نشره فلا بد أن يتوارى الباطل ويقهر ، ولا يتصور أن تنهض جماعة أو أمة إلا إذا قام فيها دعاة إلى الحق ينادون به ، وإذا فقدت هذه الجماعة كان ذلك ايذانا بزوال قوة الأمة وتزعزع أركانها « إذا هابت أمتي ان تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم » .

إن واجب دعاة الحق أن لا يخشوا الا الله وألا يخافوا احداً سواه ، لأن الجهر بالحق لا ينقص رزقاً ولا يقدم أجلاً ، فإن الآجال والأرزاق بيد الله « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً » [1] .

وحين أمر الله موسى بتبليغ فرعون دعوة الحق واعتراه الضعف البشري الذي يعرض لكل إنسان أمام الطغاة والجبابرة فقال : « اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى [2] » أجابه رب العزة : « لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى » [3] . ومن كان الله معه لا يضعف ولا يندم لأنه يعطيه من قوته ويمده بالشجاعة التي يتضاءل أمامها كل طاغية جبار .

وقد كان هذا موقف إبراهيم عليه السلام حين أعلن الدعوة إلى الحق دون خوف أو وجل وإن كان لا يجد من يناصره ، حتى والده فإنه وقف مع الوثنيين ، إلا أن شيخ الأنبياء لا يقف أو يتردد ويعلن في الناس : «إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه قال ، «أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم

---

١ — الأحزاب ٣٩ .
٢ — طه ٤٥ .
٣ — طه ٤٦ .

تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » [١] .

ولقد وقف المشركون أمام أصحاب الرسول ﷺ يدفعونهم عن الدعوة إلى الحق ويخوفونهم فما يزيدهم ذلك إلا ثباتاً على الحق وقوة بالإيمان به : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » [٢] .

ويبدو أن تحمل تبعات الحق والدعوة له في مختلف الظروف والثبات عليه في السراء والضراء مما يعمق جذوره ويمكن له في الأرض ، ان هذه التبعات تتطلب من الداعي إلى الحق الصبر واحتمال الألم واستعذاب العذاب ، كما تتطلب التضحية بالنفس والمال والجهد والوقت ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في أكثر من آية « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين » [٣]« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » [٤] « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذِبُوا جاءهم نصرنا فنجّي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » [٥] .

بهذا الحق والثبات عليه والدعوة له واحتمال تبعاته ، انتصر المسلمون في بدر والخندق والحديبية والفتح ، وفي جميع المعارك التي خاضوها ضد الفرس والروم والصليبيين والتتار والاستعمار ، ولم يكن ذلك الانتصار إلا مظهراً من

---

١ — الأنعام ٨٠ — ٨٣ .
٢ — آل عمران ١٧٣ — ١٧٥ .
٣ — العنكبوت ٢ ، ٣ .
٤ — البقرة ٢١٤ .
٥ — يوسف ١١٠ .

مظاهر الشجاعة والإيمان بالله والثقة به والاستمساك بالحق والإصرار عليه ، وإذا كان الحق هو الثابت فإن الاسلام أثبتُ على الزمن وأخلد على الدهر وأبقى على الأيام .

وأخيراً فان المسلمين أفراداً ودولاً لا يصدرون في مواقفهم إلا بدافع من الحق وتأييداً له ولو كان ذلك على حسابهم ، لأن الحق أحق أن يتبع ، فإذا كان الأفراد يتصرفون بدافع من مصالحهم أو أهوائهم ، وإذا كانت الدول تتصرف كذلك ، فإن الإسلام يأتي ليقرر مبدأ سامياً يجب أن تصدر منه المواقف والأفعال ألا وهو الحق .

الحريّة

ومن أهم القيم الإسلامية الحرية ، لأنها فطرة الله التي فطر الإنسان عليه ، ولأنها حق طبيعي له ومن المفروض أن يتمتع الإنسان به لمجرد كونه إنسانا لأنها ضرورة للحياة الإنسانية ، وإنما يتميز الإنسان بها على سائر الكائنات الحية الأخرى . فإذا كانت الحيوانات محكومة بغرائزها ، وبغيرها فان الإنسان ذو إرادة وقصد ، ولا تتحقق إرادته إلا في جو من الحرية الكاملة الواعية التي لا تخل بمبادىء المجتمع العامة كما لا تعتدي على حريات الآخرين .

وقد جاء الإسلام ليضمن الحرية للإنسان ، جاء ليطلق حريات الناس ويحميها من العبث والاكراه سواء في ذلك الحرية الدينية والسياسية والفكرية ، لأن الحرية دعامة لجميع ما سنه الاسلام من عقائد ، ولأنها إحدى مقومات الشخصية الرئيسية ، وأساس أي مجتمع إنساني سليم .

الحريـــة الدينية :

ان الحرية الدينية تتمثل في الأمور التالية :

١ ــ عدم إكراه أحد على ترك دينه أو إكراهه على عقيدة معينة .

٢ ــ ترك الحرية لأصحاب الديانات الأخرى من أهل الكتاب ليمارسوا

شعائرهم وعباداتهم في المجتمع الاسلامي ، فلا تهدم لهم كنيسة ولا يكسر لهم صليب .

٣ — ترك الحرية لهم فيما اباحت لهم أديانهم من الطعام وغيره .

٤ — إعطاؤهم الحرية في قضايا الأحوال الشخصية من الزواج والطلاق والنفقة وغيرها .

٥ — صيانة حقوقهم وحماية كرامتهم وترك حرية الجدل والمناقشة لهم ضمن حدود العقل والمنطق والأدب .

ولقد أعلن الإسلام الحرية الدينية وكفلها للناس بصورة لم تعهدها الانسانية قديماً أو حديثاً ، ولم يحدث في تاريخ الإسلام أن اكره انسان على ترك دينه واتباع الاسلام ، ولا منع إنسان من ممارسة عبادته في محل عبادته وعلى الطريقة التي يفرضها دينه ، ولقد دخلت جيوش المسلمين معظم الاقطار الآهلة بالسكان بعد سنوات قليلة من ظهور الاسلام ، وكان بإمكان هذه الجيوش أن تكره الناس على ترك أديانهم ، الا أن المسلمين لم يفكروا أبداً أن يفعلوا ذلك ، لأن دينهم يأمرهم بترك الحرية للناس في أديانهم وعباداتهم . وبتأثير من هذا الهدي الكريم وصى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام بعدم إيذاء أهل الذمة من أصحاب الأديان الأخرى ، وبتأثير من هذا الهدي أيضاً يسجل أبو بكر رضي الله عنه في كتابه إلى قواد جيوشه أن لا يكرهوا معاهداً على ترك دينه واتباع الاسلام ، وأن يتركوا الرهبان في أديرتهم لا يمدوا لهم أيديهم بأذى ، وبتأثير هذا الهدي أيضاً يقف عمر بن الخطاب أمام كنيسة القيامة فيصلي خارجها ويأبى أن يصلي داخلها ، وبتأثير منه كذلك عاش اليهود والنصارى تحت الحكم الاسلامي قروناً طويلة كانوا فيها يجدون الرعاية والأمن أكثر مما كانوا يجدونهما في ظل الحكومات النصرانية ، فوصلوا إلى أرقى الدرجات في وظائف الدولة ، وكان فيهم الكتاب والأطباء والحكماء والمهندسون ، ولم يقف اختلاف دينهم عن دين المسلمين أمام هذا كله . [1] .

---

١ — من الأمثلة الرائعة على الحرية والتسامح الديني ، أن وفداً من نصارى نجران قدم على الرسول صلى=

ان تاريخ المسلمين لم يعرف موقفاً كالذي وقفه الاسبان من المسلمين حيث غلبوهم على الأندلس فقد خيّروهم بين ترك الأندلس أو الدخول في دين النصرانية أو القتل ، فقضوا على ملايين المسلمين ، ومنعوا أن يذكر اسم الله في دولة كاملة عاش المسلمون فيها ثمانية قرون ، ولكن تاريخ الاسلام مليء بمواقف السماحة والانسانية والمحبة. واذا أردنا أن نستعرض موقف الاسلام من الأمور التي تشكل معنى الحرية الدينية ، فإننا نجد أن الاسلام يعلن عدم الأكراه في الدين ويترك الناس أحرارا في العقيدة التي يريدون أن يلقوا ربهم عليها ، فلا خير في تدين يقوم على الاكراه ، والقرآن الكريم مليء بالآيات الكريمة التي تشير إلى هذا المعنى وتؤكد عليه . من هذه الآيات قوله تعالى « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي [1] » فقد أعلن أن الحق بيّن ، وان كل انسان حرّ في اتباع أحد الطريقين ، ومسؤليته أمام الله تترتب على حرية اختياره هذه ، وهذا ما تؤكده الآية : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين [2] .

« وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون . قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »[3] .

فقد بينت هذه الآية أنه كان بإمكانه تعالى أن يجعل الناس جميعاً مؤمنين لولا أن هذا يتعارض مع الحكمة من خلقهم ، فقد خلقهم الله ورتب العقول

= الله عليه وسلم ، فأنزلهم رسول الله في المسجد وسمح بصلاتهم فيه ، فكانوا يصلون في جانب منه ورسول الله والمسلمون يصلون في جانب آخر . ومن الأمثلة أيضاً ، ان امرأة نصرانية من مصر شكت إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن عمرو بن العاص ضم بيتها إلى المسجد وعندما سئل عمرو أخبر الخليفة أنه عرض عليها أضعاف ثمنه فأبت فوضع لها المال في بيت المال وأمر بهدم البيت ، ولكن عمر الخليفة العادل لم يرض بذلك وأمر بهدم تكملة المسجد وإعادة البيت إلى صاحبته .

١ — البقرة ٢٥٦

٢ — يونس

٣ — يونس ١٠٠ ، ١٠١ .

فيهم ، ووضع أمام حواسهم وعقولهم مختلف الآيات والدلائل التي تدل على الله وتشير إلى العقيدة السليمة ، والناس بعد ذلك مخيرون في أن يؤمنوا أو يضلوا . لذلك قال الله تعالى : « فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (١) .

أما حرية ممارسة الشعائر الدينية فقد كانت مؤمنة في الاسلام بشكل لم يعرف لـــه مثيل في أي دين أو نظام آخر ، فالرسول الكريم يدعو إلى تركهم وما يدينون ، واليهود والنصارى يترددون على كنائسهم وبيعهم في ظل الدولة الاسلامية . ولم يعرف أن حاكماً مسلماً هدم كنيسة أو أقفل بيعة أو حولها إلى مسجد ، بينما يعرف تاريخ الحكومات الأخرى أمثلة كثيرة منع فيها المسلمون من ممارسة شعائرهم ، فلقد هدمت المساجد في الأندلس كلها وحولت إلى كنائس ، ومنع المسلمون في بلاد كثيرة من الجهر باسلامهم أو الاحتفاظ به بينهم وبين أنفسهم . ان تاريخ الاسلام يشرف المسلمين في تسامحهم ، ويصفع كل من يتجرأ على أن يوجه للمسلمين تهمة الوقوف أمام حرية ممارسة الشعائر الدينية ، ولقد بلغ الاسلام في سماحته أن جعل من حق زوجة المسلم اليهودية أو النصرانية أن تذهب إلى الكنيسة أو إلى المعبد ، ولم يسمح لزوجها أن يمنعها من ذلك .

أما حرية أصحاب الأديان الأخرى في ممارسة ما يبيحه لهم دينهم من طعام أو شراب أو غيره ، فقد بلغ الاسلام الذروة في هذا المجال ، فقد منع أن يقتل لهم خنزير لأنهم يأكلونه مع أن الاسلام يحرم على أتباعه أكل لحم الخنزير ، ومنع أن تراق لهم خمر لأنهم يشربونها مع أن الاسلام يحرم على أتباعه شرب الخمر ، فإذا أراق مسلم لمسلم خمراً أو قتل له خنزيراً لم يكن عليه شيء وإذا أراق لنصراني خمراً أو قتل خنزيراً كان عليه أن يدفع له ثمنه ، فهل بلغ دين أو نظام آخر مثل هذه القمة في التسامح وإطلاق الحريات ؟ .

---

١ — آل عمران ٢٠ .

وقد ترك الاسلام لأهل الأديان الأخرى أن يمارسوا ما يسمى بالأحوال الشخصية من قضايا الزواج والطلاق والنفقة والمواريث دون أن يتعرض لهم في ذلك أو يجبرهم على اتباع شريعة المسلمين فيها ، وذلك لأنه يحترم حرية الانسان وكرامته فأباح لهم أن يتصرفوا فيها كما يشاؤون دون أن يضع عليهم قيوداً أو سدوداً . هذا بالاضافة إلى أن الاسلام أباح لأصحاب الأديان الأخرى حرية الجدل والمناقشة في حدود العقل والمنطق والأدب وعدم الخروج على النظام ، بل لقد أمر المسلمين أن يبتعدوا عن العنف والخشونة في مناقشتهم لهم ، يتبين لنا ذلك في قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » [1] وقوله : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » [2] *

وقد تثار هنا قضية عقاب المرتد عن الاسلام ، ونحن لا نريد أن ندخل في نقاش حول الموضوع الذي وفاه الفقهاء حقه من البحث ولكننا نريد أن نلفت النظر إلى الأمور التالية :

١ — هناك فرق بين الخروج من الاسلام وغالباً ما يتم بشكل افرادي ، والخروج على الاسلام وهو يحصل بصورة إجماعية على الأغلب ، كالمرتدين من اليهود في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، والمرتدين من العرب أيام أبي بكر .

٢ — هناك فرق بين تحريم الفعل وبين تجريمه ، أي وضع عقوبة له .

---

١ — النحل ١٢٥ .

٢ — العنكبوت ٤٦ .

* وتأييداً لهذا الموقف المشرف للاسلام من الأديان الأخرى نثبت كلام أحد المستشرقين المنصفين : (ان المسلمين الاولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضوا اليهم كثيراً من الأعمال الجسام ورقوهم إلى مناصب الدولة ، حتى ان هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه) .

٣ — إن جريمة المرتد ليست من جرائم الحدود وإنما هي تعزيرية ، أي انها متروكة لوليّ الأمر ، وهناك حديث الرسول ﷺ وعمل الصحابة على قتله .

ولا بأس أن نذكر قول ابن القيم في عقوبة المرتد ، قال : « انها مسألة لا علاقة لها بحرية العقيدة المقررة في الاسلام . وإنها سياسة قصد بها حياطة المسلمين وحياطة تنظيمات الدولة الاسلامية واسرارها من تذرع أعدائها المتربصين بها للنيل منها بادعاء الاسلام ، وقد أشار القرآن لهذا المعنى « وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » [١] .

حرية التفكير والرأي :

أما حرية التفكير والتعبير عن الرأي ، فقد كان للاسلام القدح المعلى في اقرارها والتأكيد عليها ، يتبين لنا ذلك من القيمة الكبيرة التي أنزلها الإسلام للعقل والعلم ، فبالعقل يتميز الانسان عن غيره من الحيوانات ، وبالعقل يستطيع أن يفكر ويحصل العلم ، وإذا تخلى العقل عن وظيفته فيهما فقد تخلى الانسان عن أهم صفة من صفاته .

والآيات التي تنتهي بكلمة يعقلون أو يعملون أو يتفكرون أو يتدبرون ، كثيرة جداً ، ومثلها الآيات التي تحض على النظر والتدبر والتفكير ، فالاسلام يجعل من التفكير والتأمل طريقته المثلى لمعرفة الله وخشيته والاستمساك بشرعه والوقوف عند حدوده ، وليس من المعقول أن يتم هذا كله إلا في ظل حرية واعية للعقل في تفكيره وفي التعبير عن هذا التفكير .

وهكذا جاء الاسلام ليطلق العقل من إساره ويضع عنه الأغلال التي عطلته زمناً طويلاً ، يقول الله تعالى : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » ويقول :

---

١ — أنظر في أحكام المرتد ، رسالة جامعية قيمة للأستاذ نعمان السامرائي .

«أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء» [1] ففي الآيتين دعوة للعقل إلى النظر والتفكير دون حدود ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة » [2] ولقد بلغ الاسلام في الدعوة إلى حرية التفكير حداً ينعى فيه على الإيمان التقليدي ، الايمان الذي يقوم على تقليد الآباء والأجداد ، لأن مثل هذا الايمان لا يقف أمام الأعاصير ولا يستطيع أن يكون إيجابيا ، والشيء الوحيد الذي منع الاسلام التفكير فيه هو التأمل في ذات الله ، وذلك لأن ذات الله لا تحيط بها عقول الانسان القاصرة ، وأي توجيه للطاقة الفكرية نحو هذا الموضوع يعتبر مضيعة للطاقات الانسانية في غير جدوى ، وللعقل في آثار الله تعالى في الكون ، ما يغنيه عن التفكير في ذاته تعالى .

وإذا كان الاسلام قد أطلق حرية التفكير فإنه من الطبيعي أن يتبعها بحرية التعبير عن هذا الفكر بشتى أنواع التعبير ، أي سواء كان تعبيراً باللسان أو بالقلم ، وهذا ما يسمى بحرية الرأي .

ولقد حض الرسول الكريم أصحابه على أن يقولوا الحق مهما كانت الظروف ، وان لا تأخذهم في التعبير عما يعتقدونه من الصواب لومة لائم وأن لا يخافوا فيه أحداً إلا الله ، لذلك يقول : « الساكت عن الحق شيطان أخرس » . وحتى لو أن الرأي الذي سيقوله المسلم سيغضب حاكماً شديدا قاسياً فإن الرسول يأمره أن يقوله ولو قتل دونه ، ويبشره بالدرجات العلا اذا صدع برأيه الحق « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » .

ولقد كان من نتيجة هذه الدعوة إلى حرية الرأي والجهر بالحق ، أن المسلمين ما كانوا يخشون أن ينبهوا على الخطأ حين يجدونه ، وان يناقشوا أولياء أمورهم . فإما أن يكون رأيهم الصواب فيعدل وليّ الأمر عن خطئه أو يقنعهم وليّ الأمر بصحة رأيه وموقفه .

---

١ - الأعراف ١٨٥ .

٢ - البقرة ٢١٩ ، ٢٢٠ .

فقد حدث أن وقف عمر يتكلم في المسلمين بعد أن وزع برداً لم تكف المسلم المتوسط ليخيط منها ثوباً ، وكان عمر يلبس ثوباً منها وهو رجل طويل ، وعندما قال للمسلمين « اسمعوا وأطيعوا » قال أحدهم لا سمع ولا طاعة ، ولما سأله عمر عن السبب ، تساءل كيف استطاع عمر أن يخيط ثوباً من البرد وهو رجل طويل ، هل لأنه أخذ أكثر من ثوب وتميز على المسلمين ، فلما طلب عمر إلى ابنه عبد الله أن يخبرهم كيف خاط ثوبه ، وأخبرهم هذا بأنه تنازل عن نصيبه لأبيه ، قال ذلك المسلم العادي : « الآن سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين » .

بل لقد كانت المرأة المسلمة تعبر عن رأيها أمام الحاكم بمنتهى الحرية ، ويضطر الحاكم إلى أن يعود إلى رأيها اذا وجد أنه هو الحق ، فقد أراد عمر أن ينهى عن الغلو في المهور فقالت له المرأة : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً » [1] فقال عمر : إن كل الناس أعلم منك يا عمر ، حتى النساء ، أصابت امرأة وأخطأ عمر ، وعاد عما كان عزم عليه .

وكان من نتيجة هذه الحرية أن سلك العلماء والمفكرون السبل التي يريدونها ، وطرقوا الدراسات التي يرغبونها ، لا يقف أمامهم الاسلام أو الدولة المنبثقة عنه ، وأنتج هذا ازدهار العلوم والثقافة ، وامتلاء المكتبة الإسلامية بالذخائر الثقافية المختلفة من شتى العلوم والفنون في الفلسفة والمنطق ، والتوحيد والأصول والفقه والتصوف والطب والكيمياء والطبيعة والهندسة والرياضة وغير ذلك ، مما دفع بالانسانية خطوات كبيرة إلى الأمام ، وكان أساساً في إقامة النهضة الأوروبية الحديثة .

إن الشيء الوحيد الذي حرمه الاسلام هو الدعوة إلى اضعاف الدين والخلق ، أو الترويج للإلحاد والزندقة ، ولا يشك عاقل أن أي دعوة لإضعاف الدين أو القضاء على الخلق أو ترويج الكفر والإلحاد والزندقة دعوة خبيثة يجب مصادرتها والحجز عليها .

---

١ — النساء ٢٠ .

ولو أننا تتبعنا تطبيق هذا المبدأ من الناحية العملية نلاحظ ما يأتي :

١ ــ انه فيما يتعلق بالأمور ذات الصبغة الدينية أو الشرعية فإن حرية الرأي كانت مكفولة بصورة عامة منذ ظهر الاسلام إلى أن أقفل باب الاجتهاد في القرن الرابع الهجري ، اذا استثنينا حوادث قليلة منها موقف الخليفة المأمون من موضوع خلق القرآن .

٢ ــ وفيما يتعلق بالصبغة السياسية فقد كانت هذه الحرية مكفولة إلى حد بعيد وقد ذكرنا أمثلة على ذلك . ونشير إلى مثال هام نقتبسه من خلافة عليّ رضي الله عنه ، ذلك أنه عندما انشق عليه الخوارج وكانوا حوالي ثمانية آلاف ، أرسل اليهم ابن العباس ليناظرهم ، فاستطاع أن يقنع الكثيرين منهم بالحجة حتى عاد أربعة آلاف ، أما من تبقى فقد أرسل اليهم عليّ رضي الله عنه كتابا يقول فيه : (كونوا حيث شئتم ، بيننا وبينكم ألا تسفكوا دماً حراماً ولا تقطعوا سبيلاً ولا تظلموا أحداً ، فإن فعلتم نذر الحرب معكم ... لا نبدأ بقتال ما لم تحدثوا فساداً) .

٣ ــ أما حرية الرأي في المسائل العادية وخاصة في الميدان العلمي ، فقد كانت مكفولة بصورة تامة ، حتى أن المؤرخين كانوا يقولون ما يريدون في ظل الحكومات التي يخالفونها الرأي والاتجاه .

الحرية السياسية والمدنية :

وبالاضافة إلى الحرية الدينية وحرية التفكير والرأي ، فقد دعا الاسلام إلى الحرية السياسية والحرية السياسية تتضمن :

أولا : المشاركة في الحكم واختيار الحاكم .

ثانياً : مراقبة أعمال الحكام ونقدها وابداء الرأي فيها .

أما من حيث المشاركة في الحكم وفي اختيار الحاكم ، فإنه نتيجة طبيعية

لتقرير الاسلام لقاعدة الشورى كأساس تقوم عليه العلاقة بين الشعب والحاكم ، فالشعب المسلم يشارك في اختياره للحكم عن طريق البيعة ، وإقرار أهل الحل والعقد ، او عن طريق انتخاب الأمة له ، وفي طريقة اختيار الخلفاء الراشدين ما يدلنا على أهمية مشاركة الشعب وأهل الحل والعقد ، فقد ترك الرسول المسلمين دون أن يعين عليهم خليفة ، وتداول المسلمون بعد وفاة الرسول في اختيار خليفة له وأدلى كل منهم برأيه ، ودافع عنه بالحجة والمنطق ثم أقروا جميعاً اختيار أبي بكر للأمر ، وقبل أن يتوفى أبو بكر استشار المسلمون فيمن يكون عليهم من بعده ، وأخذ رأي الصحابة وأهل الحل والعقد والأمراء والقواد ، وعندما اتفقت آراؤهم على عمر بن الخطاب كتب له عهداً بذلك ، فكان ذلك العهد ممثلاً لإرادة المسلمين ورأيهم . وترك عمر بن الخطاب الأمر شورى للمسلمين على أن يكون اختيار الخليفة من بين ستة يجمع المسلمون على تقديمهم ، وأجرى هؤلاء الستة ومن يمثلهم مشاورات واسعة حتى أقرت الأكثرية اختيار عثمان بن عفان وهكذا كان المسلمون في جميع هذه الحالات يبايعون الرجل المختار بيعة عامة إعلانا عن رأيهم وعن إقرارهم ومشاركتهم .

واذا ما اختير الحاكم فإن عليه أن يرجع إلى الأمة ويأخذ رأيها في شؤون الدولة وبخاصة الخطيرة منها ، ويشبه أن يكون شأن ولي الأمر شأن الوكيل ، والوكالة تقتضي أن يكون تصرف الحاكم مقيداً بما أنزل الله ، وهكذا يكون الحكم بما أنزل الله واستشارة الأمة أهم القواعد التي تؤمن حرية المشاركة في ايجاد الحاكم الصالح .

أما حرية إبداء الرأي ومراقبة الحاكم المسلم فقد أشرنا إلى بعض منه حين تحدثنا عن حرية التفكير والتعبير ، ونضيف إلى ذلك أن الحكام المسلمين كانوا هم الذين يؤكدون على هذا المعنى ويطلبون من المسلمين أن يمارسوا هذا الحق ، فقد خطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد البيعة له فقال :

« يا أيها الناس : إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتموني على حق

فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسددوني ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم » .

« وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : « اتق الله يا أمير المؤمنين ، فاعترضه آخر وقال له : تقول لأمير المؤمنين اتق الله ، فقال عمر رضي الله عنه ، دعه فليقلها فإنه لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا اذا لم نقبلها منكم . »

وخطب رضي الله عنه يوماً فقال : « أيها الناس ، من رأى فيّ اعوجاجاً فليقومه » فقال له أحد الأعراب : والله يا أمير المؤمنين لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا هذه . فقال رضي الله عنه : « الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه إذا اعوج » .

حتى لقد بلغت الحرية في النظام الاسلامي حداً جعلت الرسول عليه الصلاة والسلام يترك المنافقين دون عقوبة مع شغبهم عليه ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « لما كان يوم حنين ، آثر الرسول ﷺ ناساً في القسمة ، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك ، وأعطى ناسا من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة ، فقال رجل والج : ان هذه قسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله ، فقلت والله لأخبرن رسول الله ﷺ ، فأتيته فأخبرته بما قال ، فتغير وجهه حتى كان كالصرف [1] ثم قال : فمن يعدل اذا لم يعدل الله ورسوله ، ثم قال : يرحم الله موسى قد كان أوذي بأكثر من هذا فصبر) .

وكذلك فعل عمر ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : (قدم عيينة بن حصن فنزل على أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنهم ، وكان القراء أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه ومشاورته كهولاً كانوا أم شباناً . فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي ... لك وجه عند هذا الأمير ، فاستأذن لي عليه ، فاستأذن له عمر ، فلما دخل قال : « هيه يا ابن

---

١ — وهو الصبغ الأحمر .

الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل » فغضب عمر رضي الله عنه حتى هم أن يوقع به ، فقال له الحر : يا أمير المؤمنين ، ان الله تعالى قال لنبيه : « خذ العفو وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين » [1] وان هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها .

ولا شك أن هذه المرتبة من السماحة وترك الحرية للناس ندر أن وصل اليهما مجتمع في ظل أي نظام كان . ولم يسمح الاسلام بأن تقيد حرية أي فرد ، الا اذا كان في هذا التقييد مصلحة حقيقية للمجتمع ، لا تحقيق هوى الحاكم أو إشباع حب الانتقام في نفسه .

ويتبع الحرية السياسية عادة ، ما يسمى بالحرية المدنية ، وهي حرية الانسان في شخصيته وقدرته على المعاملة الحرة مع سائر الناس ، وإنشاء العقود وإبطالها في حدود القوانين المرعية ، وفي مقابل هذه الحالة ، حالة الرق التي عرفتها البشرية وما تزال على صور وأشكال مختلفة .

وقد كان موضوع الرق مجالاً واسعاً للافتراء على الاسلام والدس على المسلمين ، بحجة أن الاسلام يدعو إلى تثبيت نظام الرق . وللجواب على ذلك لا بد من استعراض نظام الرق من الناحية التاريخية ، لنعلم أنه وجد قبل الاسلام وبعده ، ثم لا بد من معرفة موقف الاسلام النظري والعملي منه حتى نعلم أن الاسلام شرع العتق ولم يشرع الرق ، وأنه يدعو إلى تحرير كل نوع من أنواع العبودية بجميع صورها وأشكالها ، سواء كانت رقاً فردياً أو كانت رقاً جماعياً كالاستعمار . والمجال هنا لا يتسع لعرض موسع ، ولكن يكفي أن نشير إلى أن اليهودية — بصورتها المحرفة أقرّت الرق وأكدت عليه وأوجدت السبل المتعددة للحصول على الرقيق ، وكذلك فإن المسيحية — بصورتها المحرفة — تجعل من طاعة العبد لسيده طاعة لله . وتحضه على ذلك ولا تفتح سبيلاً للعتق أمامه [2] .

---

١ — الأعراف : ١٩٩ .

٢ — جاء في رساله بولس إلى أهل أفسس :

كذلك فقد أقر كبار فلاسفة اليونان وغيرهم — كأفلاطون وأرسطو — حالة الرق واعتبروها حالة من الحالات التي خلق الناس عليها بالطبيعة ، ولم يبذلوا أي جهد لتحرير الرقيق .

وكان العالم المعاصر للرسول ﷺ بأجمعه يعتبر نظام الرق أمراً لا مجال للنقاش فيه ، ويعده أحد مقومات المجتمع الأساسية .

فجاء الاسلام ليخرج على هذا الاجماع وليعلن كرامة الانسان والمساواة الكاملة بين الناس جميعاً ، جاء ليهيء الجو الذي يسمح بتحرير الرقيق عندما يهيء النفوس لتقبل مبدأ المساواة والحرية الانسانية . ثم ليضع النظام الذي يؤدي إلى تحرير الرق نهائياً ، وقد كان هذا النظام يعتمد على أربعة أسس :

١ — الأساس الفكري ويتمثل بالمناخ الصالح لإشاعة قيم الاسلام كما ذكرنا .

= « أيها العبيد ، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ، ولا بخدمة العين كمن يرضي الناس ، بل كعبيد المسيح ، عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أنه مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً كان أم حراً » .

وفي الإصحاح العشرين من كتاب التثنية من العهد القديم :

« حين تقترب من مدينة لكي تحاربها ، استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، وتستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا الرب إلهك أيدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، أما مدن الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما ، بل تحرمها تحريماً » .

وفي الإصحاح الثالث عشر من كتاب التثنية :

« فضرباً تضرب بحد السيف وتحرم بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف ، تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار ، المدينة وكل أمتعتها للرب إلهك ، فتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بعده ، » .

قارن بين هذا الكلام وقوله تعالى « فإما مناً بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » .

٢ ــ القضاء على الروافد التي تسبب الرقيق ، وقد كانت كثيرة قبل الاسلام ، فلم يبق الاسلام منها الا على واحد هو الحرب .

٣ ــ الاكثار من المنافذ التي تؤدي إلى تحرير الرقيق .

٤ ــ ترغيب الناس بتحرير الأرقاء وجعله تعبيراً عن طاعة الله وتقواه .

وقد كان الرسول ﷺ خير قدوة للمسلمين في هذا الموضوع ، حين آخى بين عمه حمزة وبين زيد مولاه ، وحين زوج زيداً ابنة عمته زينب وهكذا ... [1]

---

١ ــ تكلم كثير من المفكرين المسلمين المعاصرين في هذا الموضوع ، ولاستيفائه ، يمكن الرجوع إلى :
حقائق الإسلام للأستاذ العقاد ، وحقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد ، وشبهات حول الإسلام للأستاذ محمد قطب .

المســاواة

كانت الإمم قبل الاسلام وبعده إلى أواخر القرن الثامن عشر أي حتى عهد الثورة الفرنسية تضع فروقاً عظيمة بين طبقات الأمة وافرادها ، بل لقد كانت أديان كثيرة تقر التمايز بين الناس وتجعل من نظام الرق والطبقات أمراً محتماً على البشرية . وما تزال النظرة العنصرية والعصبية تدعو إلى التمايز بين الطبقات والاجناس ، وقد زعم اليهود انهم شعب الله المختار وأنهم أحباء الله وأقرباؤه ، ففرقوا في تشريعاتهم بين اليهود وبين غيرهم ، وادعت النازية أن الناس يترتبون على طبقات جنسية ، وأن العنصر الجرماني يقف على رأس هذه الأجناس . وإن نظرة على الأمم التي تدعي التقدم والحضارة والدعوة إلى وحدة الجنس البشري تدلنا على أن فكرة التمييز وانعدام المساواة ما تزال راسخة في كثير من مناطق العالم ، فالزنوج في أمريكا لا يتساوون مع البيض فيها مع انهم ينتسبون لدولة واحدة ؛ وما يزال الأبيض الامريكي يأنف من مجالسة الزنجي أو مساكنته أو معاشرته ، والبيض في أفريقيا ما يزالون ينظرون إلى الزنوج باحتقار ويعتبرونهم مخلوقات من الدرجة الثانية أو الثالثة .

أما الاسلام فقد قرر المساواة بين الناس ، وأعلن وحدة الجنس البشري منذ أربعة عشر قرناً ، وضمن ذلك عن طريق تنمية وجدان الفرد وتحرير ضميره ، بالاضافة إلى وضع التشريع المناسب الذي يؤمن تحقيق المساواة الحقة ، وقد

أعلن الاسلام القضاء على نظام الاجناس والطبقات والطوائف ، وخلف وراءه كل ما يظنه الناس من أسباب التمايز وعدم المساواة كالجنس والطبقة واللون والغنى ، إلى غير ذلك .

« لقد جاء الاسلام ليقرر وحدة الجنس البشري في المنشأ والمصير ، وفي المحيا والممات ، وفي الحقوق والواجبات ، أمام الله والقانون ، وفي الدنيا والآخرة ، لا فضل الا للعمل الصالح ولا كرامة الا للأتقى ، وكان تقرير الاسلام هذا وثبة للانسانية لم يعرف التاريخ لها نظيراً ، ولا تزال إلى هذه اللحظة قمة لم يرتفع اليها البشر أبداً ، ذلك ان ما فرضته القوانين البشرية نظرياً في الثورة الفرنسية وما تلاها ، حققه الاسلام عملياً في صورة أعمق وأعلى من قبل ذلك بقرون . » (١)

فالناس جميعاً ينسلون من مصدر واحد : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام إنّ الله كان عليكم رقيباً » (٢) .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٣) والرسول يقول في آخر خطبة له « أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على أعجمي ولا أعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى » .

فاذا كان سبب التمييز متأتياً من دعوى بعض الناس أنهم من نسل إلهي ، فإن الله : « لم يلد ولم يولد » ، « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدّا ، أن دعوا للرحمن

---

١ — سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الإسلام .
٢ — النساء ١ .
٣ — الحجرات ١٣ .

ولدا ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ، إن كلُّ من في السموات والأرض [1] إلا آتي الرحمنِ عبداً ، لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً ، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » .

واذا كان سبب التمييز دعوى الانحدار من دم ازرق نبيل أو دم عادي فإن القرآن ينبه الانسان إلى أصل الانسانية المشترك الواحد « ألم نخلقكُم من ماء مَهينٍ ، فجعلناه في قرار مكين ، إلى قَدَر معلوم ، فقدَرْنا فنعم القادرون » [2] « فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » [3] . والانسان ، كل إنسان ، مخلوق من تراب ثم من نطفة ، فلماذا يتميز أحدهم على الآخر بدعوى الانحدار من دم أو جنس أشرف « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً » [4] .

ويمضي الاسلام في تعقب أسباب التفاوت والتفاضل في كل صورها وملابساتها وأسبابها ليقضي عليها جميعاً ، فالرسول محمد عليه الصلاة والسلام يعلن للناس دائماً انه بشر كسائر البشر ، وقد خاف أن ينقلب حب المسلمين له إلى تسويد أو تفضيل فنهاهم بقوله : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما انا عبدالله ، فقولوا عبدالله ورسوله » . وها هو يقف في قريش قبيلته فيقول : « يا معشر قريش لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً » .

وحين أنكر زعماءالعرب من قريش هذا المبدأ ، مبدأ المساواة ، وأنفوا أن يجلسوا مع بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وسواهم من عامة الناس ، وطلبوا منه أن يطردهم عنه ليحضروا مجلسه وليسمعوا وعظه ، رفض الرسول ذلك ، فعرضوا عليه أن يجعل لهم يوماً ولاولئك يوماً ، وكاد الرسول أن يستجيب لرغبتهم

---

١ — مريم ٨٨ — ٩٥ .
٢ — المراسلات ٢٠ — ٢٣ .
٣ — الطارق ٥ — ٧ .
٤ — فاطر ١١ .

طمعاً باستمالتهم للاسلام ، وعندئذ نزل الوحي يذكر الرسول « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين . وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة [1] » . وحين أصابت محمداً الانسان لحظة ضعف بشري فانصرف عن الرجل الفقير ابن أم مكتوم إلى الوليد ابن المغيرة سيد قومه ، عاجله العتاب الشديد الذي يشبه التأنيب ليرد للمساواة المطلقة معاييرها الكاملة « عبس وتولى أن جاءه الأعمى ... » [2]

وتخاصم مرة أبو ذر الغفاري وعبد زنجي في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام فاحتد أبو ذر على العبد قائلاً : « يا ابن السوداء » « فغضب النبي ﷺ وقال « طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى أو بعمل صالح » .

وكثيراً ما ولى الرسول على المدينة بلالاً واصله مملوك اشتراه أبو بكر وأعتقه — وفيها كبار الصحابة والمهاجرين — كما أنه ولى باذان الفارسي على اليمن ، ولما مات ولى ابنه مكانه . وإن نظرة على التاريخ الاسلامي ، تاريخ القادة والأمراء وقواد الجيوش ، وتاريخ الثقافة ، لتؤكد لنا التطبيق الصحيح للمساواة ووحدة الجنس البشري ، فلقد ساهم في حركة الفتوح والتنظيم والثقافة جميع العناصر الجنسية ، من فرس وروم وعرب وهنود وأحرار وعبيد وبيض وسود ، بصورة لا تراها في تاريخ أي أمة غيرها أو ثقافة أخرى .

إن للجنس البشري كله في الاسلام كرامته التي لا يجوز أن تستغل ، واذا كان يقرر المساواة ، فإنما يفعل ذلك تحقيقاً لكرامة الانسان التي تستمد من انسانيته : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات

---

١ — الأنعام من ٥٢ — ٥٤ .

٢ — أنظر سورة عبس من الآية ١ حتى الآية ١٠ .

وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً »[1] وكان تكريمه لهم بجنسهم البشري الموحد لا بأشخاصهم ولا بعناصرهم ولا بقبائلهم ، فالكرامة للجميع على سبيل المساواة المطلقة ، كلهم لآدم، واذا كان آدم من تراب واذا كان آدم مكرماً عند الله ، فابناؤه جميعاً سواء في ذلك ، هذا أو ذاك .

ولسنا الآن في سبيل تفصيل ما وضعه الاسلام من تشريعات لضمان حق المساواة ، فلقد حدد الحقوق والواجبات المتساوية ، وجعل الناس سواسية أمام التشريع والقانون ، ولقد أعلن الرسول سيادة تشريع المساواة بقوله : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » وحين جاء أشراف قريش يستعطفونه بشأن المرأة المخزومية التي كان سيقام عليها الحد نبههم الرسول إلى مبدأ المساواة

وبين لهم أنما أهلك الامم من قبلهم ، أنهم اذا سرق فيهم الغني تركوه واذا سرق الفقير قطعوا يده .

---

١ — الإسراء : ٧٠ .

العدالة

العدالة من المثل الأساسية التي جاء الاسلام ليقررها بين بني الانسان ، وقد كان طبيعياً من الاسلام الذي يحرص على كرامة الانسان ، ووصول حقه اليه ، فالعدالة ضرورية لإقامة الحق ، وضمان العدل يشيع الطمأنينة وينشر الأمن ويشد علاقات الأفراد بعضهم ببعض،ويجعل الروابط بينهم قائمة على التوازن والانسجام والاخاء .

ومن هنا نجد آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول مليئة بالدعوة للعدالة وإحقاق الحق محذرة من الظلم والبغي ، ومحرمة له تحريماً قاطعاً ، ومتوعدة عليه بالعقاب الغليظ ....

ولقد أعلن القرآن : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي » [1] .

إن الله ــ وقد جعل العدل من أوصافه ــ ما أرسل رسله ولا أنزل كتبه ولا كلف الناس بالشرائع الا لإقامة العدل والحق ، « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » [2] . والسموات والأرض انما قامتا

١ ــ النحل ٩٠

٢ ــ الحديد ٢٥ .

بالعدل « والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألاّ تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » . [1] واقامة العدن احدى وظائف الرسول : «وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم » [2] .

أما الظلم فإنه أمر حرمه الله تعالى على نفسه وحرمه على عباده ، يقول تعالى : « وما الله يريد ظلماً للعباد » . [3] وفي الحديث القدسي : « يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » . وقد نهى الرسول عن الظلم وجعله ظلمات يوم القيامة فقال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

والعدل الذي ينادي به الاسلام عدل مطلق يساوي بين الناس : « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»[4] . ولا تعتبر العداوة التي تقوم بين الناس مبرراً لقيام الظلم أو ترك العدل : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » [5] . حتّى القول ينزه الله عباده ألا يعدلوا فيه فيقول : « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكّرون » [6] .

والعدل يوصف به الفرد كما يوصف به المجتمع ، فالعدل في الأفراد هو إعطاء كل ذي حق حقه ، ومن آفاته التحيّز ، والمجتمع العادل هو المجتمع الذي له من نظمه وقوانينه ما يسهل لكل فرد ان يصل إلى حقه وأن يرقى على قدر استعداده ، والتحديد الدقيق لعلاقة الفرد بالمجتمع عدل أيضاً وأساس العدل

---

١ – الرحمن ٧ – ٩ .
٢ – الشورى ١٥ .
٣ – غافر ٣١
٤ – النساء ٥٨ .
٥ – المائدة ٨ .
٦ – الأنعام ١٥٢ .

التجرد عن الهوى وعدم التأثر بأي شيء الا الحق .

هذا وللعدل مجالات كثيرة سنرى تفصيلها ، لكننا نودّ أولاً أن نشير لما يضعه من مبادىء ، لذلك كان العدل من أسس الحكم ودعامته القوية ، يقول أبو بكر رضي الله عنه في خطبته الأولى بعد أن ولي الخلافة ، تلك الخطبة التي جعلها دستور حكمه : « الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله » . وكان عمر لحرصه على أن يحكم عماله وولاته بالعدل ، يخرج مع من يستعملهم يشيعهم ويذكر لهم انه لم يستعملهم على الناس لينالوا من أبشارهم وأموالهم وأعراضهم ، وانما ليعلموهم كتاب الله وسنة رسوله ، وليقضوا بينهم بالحق ويقسموا بينهم بالعدل . وكان يقول للناس : « من ظلمه عامله بظلامة فليرفعها حتى أقصّه منه » وحين سأله عمرو بن العاص قائلاً : يا أمير المؤمنين أرأيت إن أدب الأمير رجلاً من رعيته أتقصه منه ؟ فقال عمر : ما لي لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه .

والعدل الذي يتطلبه الاسلام عدل في الحكم : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » [1] . والامام العادل أحد سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله ، وسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله .

وهو عدل في الضعفاء وتسوية بين المتخاصمين مهما اختلفت منزلتهم أو تباينت طبقتهم ، كما أنه عدل في توزيع الحقوق والواجبات ، وعدل في اقامة الحدود والقصاص ، وعدل بين الزوجات إن كن أكثر من واحدة ، وعدل في القول والشهادة والكتابة ، وعدل بين طوائف المسلمين إذا تخاصمت : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل

---

١ — النساء ٥٨ .

وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » [1] .

ان العدل في الاسلام عدل كامل مطلق حتى مع الخصوم والاعداء كما ذكرنا ، وبالتالي فهو أحرى أن يكون عدلا مع الذميين والمعاهدين ، وقد قال الرسول ﷺ « من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » وقال : « ألا من ظلم معاهداً أو تنقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة » ذلك لأن غير المسلمين متى أقاموا بديار الاسلام صار لهم ذمة الله وذمة رسوله ، ومن حقوقهم رعاية العدل معهم في كل حال .

العـــدل في الحكم :

وشواهده من القرآن والحديث كثيرة سبق أن ذكرنا بعضها ، فالله تعالى يأمر كل حاكم أن يحكم بين الناس بالعدل ولا يتبع الهوى فيضل عن السبيل القويم ، ولقد بين الرسول ﷺ أن العدالة تمكن للحاكم أمره ، فإذا ما ترك العدل بين الناس اختل نظام الحكم وزالت الدولة « ان هذا الأمر في قريش ما إذا استرحموا رحموا وإذا حكموا عدلوا وإذا قسموا أقسطوا ، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

ولا يتحقق العدل في الحكم إلا بايصال كل ذي حق حقه والحكم بمقتضى ما شرع الله من أحكام ، ولعلنا اذا اردنا أن نتعرف على صورة للمثل الأعلى للحاكم العادل أن نجدها في هذه الرسالة العظيمة التي بعث بها الحسن البصري إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، قال : « اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الامام العادل قوام كل مائل ، ومصدر كل حائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومَفْزَع كل ملهوف .

---

١ — الحجرات ٩ .

والامام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحفيّ على ولده ، يسعى لهم ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدّخر لهم بعد مماته .

والامام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأم الشفيقة البرّة ، الرحيمة بولدها حملته كرهاً ووضعته كرهاً وربته طفلاً ، تسهر لسهره وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتفطمه تارة ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته .

والامام العادل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم .

والامام العادل يا أمير المؤمنين ، كالقلب بين الجوانح تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده .

والامام العادل يا أمير المؤمنين ، هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم .

فلا تكن يا أمير المؤمنين ، فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال وشرد العيال ، فأفقر أهله وفرق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف اذا أتاها من يليها ، وأن الله جعل القصاص لعباده ، فكيف اذا قتلهم من يقتص لهم .

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه رقادك ، ويفارقك احباؤك ، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه » . [1]

---

١ - عبس ٣٤ - ٣٦ .

واذكر يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل .

لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلية ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات بإذهاب طيباتك في آخرتك .

ولا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين وقد عنت الوجوه للحيّ القيوم .

إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهي من قبلك فلم آلك شفقة ونصحاً ، فأنزل كتابي عليك كمداوي محبه يسقيه الادوية الكهريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة . والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

وقد أثبتنا هذا الكتاب لأنه يعطينا صورة واضحة عما يتطلبه الناس في الحاكم العادل . وأظننا في غنى عن ذكر أمثلة عن التطبيق العملي للعدالة في الحكم ، فان التاريخ الاسلامي وخاصة تاريخ الخلفاء الراشدين زاخر بالغرائب التي تكاد لا تصدق عن تحري العدل واقامته بين الناس [1] .

العـــدل في القضاء :

القضاء مؤسسة هامة في الدولة عليها يعتمد المواطنون في الوصول إلى حقوقهم

---

١ — عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : مر عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدرة ، فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي ، فقال أمط عن الطريق ، فلما كان في العام المقبل لقيني فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منزله ، فأعطاني ستمائة درهم وقال : استعن بها على حجك ، واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك ، فقلت يا أمير المؤمنين : ما ذكرتها ، قال : وأنا ما نسيتها .

والانتصاف من بعضهم ، وعن طريقها تقام الحدود وتتحقق العدالة .

ولقد حرص الاسلام على أن يعطي هذه المؤسسة الاستقلال والصلاحية الكافيين لضمان إحقاق الحق وتأمين العدل ، وقد اتفق فقهاء المسلمين على أنه ينبغي للقاضي أن يسوي بين الخصمين :

١ ــ في الدخول عليه

٢ ــ والجلوس بين يديه

٣ ــ والاقبال عليهما

٤ ــ والاستماع لهما

٥ ــ والحكم عليهما

وفي رسالة بعث بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الاشعري ، يضع الفاروق عمر أسس القضاء النزيه العادل ، وسنثبتها في هذا المقام لأهميتها في الدلالة على ما نريد بيانه من وجوب تحقيق العدل في القضاء الاسلامي ، فقد جمع فيها عمر جمل الأحكام ، واختصرها بأجود كلام ، وجعل الناس بعده يتخذونها إماماً ، ولا يجد محقق عنها معدلاً ولا ظالم عن صدورها محيصاً ، قال فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس (يعني أبا موسى الأشعري) سلام عليك ، أما بعد :

فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً .

لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل .

الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الاشباه والأمثال ، فقس الامور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي اليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، والا استحصلت عليه القضية ، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى .

المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً في ولاء أو نسب ، فإن الله تعالى تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان .

وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر .

فمن صحت نيته وأقبل على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل ورزقه وخزائن رحمته والسلام » .

والعدل في القضاء يقتضي العدل في التنفيذ وإقامة الحدود ، فالأحكام اذا صدرت ولم يتهيأ لها أن تنفذ كانت أدعى إلى اجتراء الناس على الحق وخروجهم على جادة الصواب ، والحدود تقصد إلى حفظ الدين والعرض والمال والنفس والعقل ، لذا كان من الطبيعي أن يشير الرسول إلى ضرورة التسوية بين الناس في تنفيذ أحكام القضاء والحدود عليهم ، فيقول : « انما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف قطعوه واذا سرق الشريف تركوه ، والذي نفسي بيده لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها » .

العدالة في تقرير الحقوق والواجبات وفي اقامة العدالة الاجتماعية :

ان الاسلام ينظر إلى الناس بنظرة العدل والتساوي لأنهم من أصل واحد ،

فليس لأحد حق مكتسب منذ الولادة ، والفرص متكافئة أمام الجميع دون تمييز لأحد على أحد بسبب جنسه أو لونه . ومن صور هذا العدل العام في تقرير الحقوق والمحافظة عليها ، حق التعليم لجميع المواطنين ، وحق الحياة ، لأن الدم البشري محرم في كل حال ، ولا يجوز سفكه الا بالحق ، وحق التملك ما دام يتم بطريق مشروع ، وحق حرية التصرف في حدود الشرع ، وحق حرية الفكر والتعبير فيما لا يخالف أسس الدين .

ولنا عودة إلى تفصيل هذا الموضوع أثناء حديثنا عن العدالة الاجتماعية في الاسلام .

خصائص الثقافة الإسلامية *

إن المصدر الرئيسي للثقافة الاسلامية هو القرآن الكريم ، وقد بقي هذا المصدر صافياً أمداً طويلاً ، وحرص الرسول عليه الصلاة والسلام في تربيته للمسلمين على أن لا يختلط بغيره من المصادر « لأنه كان يريد أن يصنع جيلاً خالص القلب ، خالص العقل ، خالص التصور ، خالص الشعور ، خالص التكوين من أي مؤثر آخر » (١) .

ويمكن أن توصف الثقافة الاسلامية من هذه الناحية بأنها ربانية النزعة ، لأن تصورها للوجود بكل خصائصه ومقوماته مستمد من الله ، تلقاه الإنسان كاملاً بخصائصه هذه ليتكيف به ويطبق مقتضياته في حياته ، ويعني هذا أن المسلم يعتقد أن الله الذي خلق هذا الكون هو الذي خلق الإنسان ، وكل ما في هذا الوجود يسير على سنة الله مسخراً لصالح الإنسانية ، وهكذا يتحدد مكان الإنسان في هذا الكون : إنساناً مستخلفاً من الله في أرضه .

إن صفة الربانية هذه تقف في مقابل صور الثقافة المادية ، وبينما تهتم الثقافة التي تبنى على أساس من الإيمان بالله بغايات الأشياء وأصولها البعيدة ،

---

* — نشر هذا البحث في كتاب « الثقافة الإسلامية » للمؤلف .

١ — سيد قطب : المستقبل لهذا الدين .

فإن الثقافة المادية لا تهتم إلا بأسبابها ومظاهرها . ويترتب على ذلك أن الفكر الاسلامي لا ينظر إلى الحياة على أنها الغاية الأسمى والمثل الأعلى ، وإنما على أنها مرحلة لا بد من اجتيازها بمنتهى الإيجابية والإتقان . وهكذا فإن المسلم في أوج قوته وسلطته وسيادته مؤمن بربه خاضع له لا يداخله الغرور الذي داخل الأوروبي حين يسرت له أسباب الحياة وسخرت له الطبيعة قواها .

ومثل هذه الثقافة تجمع بين الغايات والوسائل ، وبين العلم والإيمان ، وكونها تستمد كيانها من مبادىء الدين لا يعني تخليها عن العقل والعلم ، فاعتماد الثقافة الاسلامية عليهما واحتفاؤها بهما أمر لا يحتاج إلى بيان ، فالدين ليس أبداً بديلاً عن العلم والحضارة ولا عدواً لهما وإنما هو إطار ومحور ومنهج لهما في حدود اطاره ومحوره الذي يحكم شؤون الحياة ، إن من الخداع أن نضع كل ما يتصل بالمنهج الإلهي في كفة والابداع الانساني في عالم المادة في كفة أخرى ثم نطلب إلى الانسانية الاختيار ، الاختيار بين المنهج الإلهي في الحياة والتخلي عن كل ما أبدع من الإيمان ، وبين الأخذ بثمار المعرفة الانسانية المجردة عن منهج الله ، إن وضع المسألة ليس هكذا أبداً — كما يقول الاستاذ سيد قطب — فالمنهج الإلهي ليس عدواً للابداع الانساني وإنما هو منشىء لهذا الابداع وموجه له الوجهة الصحيحة كي ينهض الانسان بمقام الخلافة في الأرض ، هذا المقام الذي منحه الله له وأقدره عليه ووهبه من الطاقات المكنونة ما يكافىء الواجب المفروض عليه فيه وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه ، ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع ... على أن يكون الابداع نفسه عبادة لله ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام وعلى أن يتقيد بشروط الخلافة وهي أن يعمل ويتحرك في نطاق ما يرضي الله » .

إن شقاء الانسانية ، في انفصال العلم عن الايمان وانفصال المؤسسات الفكرية عن الأخلاق والغايات الصالحة . وقد افتتنت الذات الأوروبية بما حررت من قوى فاستسلمت لسحر عبقريتها ، ولكن هذه الذات قد قامت — كما يقول مالك بن نبي — بدور الساحر « فلقد أبدعت آلات لم تستطع

السيطرة عليها ، ثم استأنست لتلك الآلات تقودها بفعل آلي ، فصارت الحياة أرقاماً ، وأصبحت السعادة مقيسة بعدد ما لديها من وحدات حرارية وهرمونات ، وصار العصر عصراً كمياً يخضع الضمير فيه للنزعة الكمية ، كما صار عصر النسبية الأخلاقية ، فلم يعد أحد يدرك معنى الفضيلة المطلقة .. لقد مات معنى الفضيلة من الوجه الذي مات فيه مفهوم العدالة في قول أحد الأوروبيين : (إن تسوية جائرة خير من قضية عادلة) وصارت الحياة الاقتصادية إلى نفس المصير يوم وجد بعض الناس في أنفسهم الجرأة ليؤكدوا أن التجارة هي السرقة الحلال »[1] .

إن الثقافة الاسلامية باعتمادها على منابع الضمير الانساني المتصل بالله خالق هذا الكون ومدبره المطلع على الصغيرة والكبيرة وخفايا النفوس ، لا يمكن أن تسمح بنتيجة من هذا النوع ، ولا بد أن تكون الأخلاق المطلقة والمثل العليا هي مقياس الحركة والفعل والنجاح ، ولعل مقارنة بسيطة بين الحال التي وصفنا وبين وصية لعمر بن الخطاب إلى أحد قواده يشير إلى هذا المعنى ، قال : « باعد بين جنودك وبين المعصية ، فإن ذنوب الجيش أخطر عليهم من عدوهم ، وما لم ننتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا » .

والثقافة الاسلامية إنسانية النزعة والهدف ، عالمية الأفق والرسالة ، تنظر إلى الناس بمقياس واحد لا تفسده القومية أو العنصرية أو الجنس أو اللون ، وواضح أن هذه النزعة من أثر القرآن الكريم الذي يعلن أن الناس جميعاً خلقوا من نفس واحدة من ذكر وأنثى ... إن الرابطة التي يجب أن تربط بين بني الإنسان في مفهوم الثقافة الاسلامية هي رابطة العقيدة بها يرتفع الإنسان وينخفض « وحسب هذا المفهوم يكون الوطن داراً تحكمها عقيدة ومنهاج وشريعة من الله ، وتكون الجنسية عقيدةً ومنهاج حياة ، ان عصبية العشيرة والقوم والجنس واللون والارض عصبية صغيرة متخلفة ، عصبية جاهلية عرفتها البشرية في فترات انحطاطها الروحي ... »[2]

١ — مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي .
٢ — سيد قطب : معالم في الطريق .

وإن قيمة النفس والأهل والقوم والعشيرة والبلد والوطن والأمة والإنسانية والأبطال القوميين والانسانيين ، لا تصلح أن تكون القيمة العليا والغاية القصوى التي يجتمع عليها الناس على كر العصور ومر الأجيال ويلتف البشر حولها أبد الدهر ، ولا الهدف الأسمى الذي تسير نحوه الانسانية باستمرار ... إن الله وحده في رأي الثقافة الإسلامية هو الغاية المثلى والقيمة الخالدة والهدف الأسمى الذي يمكن أن تلتقي في رحابه الانسانية أفراداً وجماعات تستقي منه الخير والحق والعدل والقوة .

ولنسمع إلى الصوت المقابل في ثقافات العنصر والجنس والتعصب على لسان واحد من كبار مفكريها يقول رينان : « جنس واحد يلد السادة والابطال هو الجنس الأوروبي ، فإذا ما نزلت بهذا الجنس إلى مستوى الحظائر التي يعمل فيها الزنوج والصينيون فإنه يثور ، فكل ثائر في بلادنا هو بطل لم يتح له ما خلق له ، هو إنسان ينشر حياة البطولة فإذا هو مكلف بأعمال لا تتفق وخصائص جنسه ، إن الحياة التي يتمرد عليها عمالنا يسعد بها صيني أو فلاح أو كائن لم يخلق لحياتنا » (١) .

وكان من نتيجة هذه النزعة الانسانية أن الثقافة الاسلامية استطاعت أن تنتظم عباقرة الأمم جميعاً ، فهي تستطيع أن تفاخر بالنوابغ الذين أقاموا صرحها من جميع الشعوب والأمم .

ومما تمتاز به الثقافة الاسلامية الشمول والتوازن ، الشمول الذي ينظر فيه الى كل جوانب الكينونة والبشرية وتوازنها وتناسقها ، كما ينظر فيه الى جميع أطوار الجنس البشري وإلى توازن هذه الأطوار جميعاً ، هذا الشمول في الثقافة الاسلامية أساسه اعتمادها على الاسلام ، والاسلام منهج حياة «منهج حياة بشرية واقعية بكل مقوماتها . منهج يشمل التصور الاعتقادي الذي يفسر طبيعة الوجود ويحدد مكان الإنسان فيه كما يحدد غاية الوجود الانساني ، ويشمل النظم الواقعية التي

---

١ — مالك بن نبي : المرجع السابق .

تنبثق من ذلك التصور الاعتقادي وتستند اليه وتجعل له صورة واقعية متمثلة في حياة البشر ، كالنظام الأخلاقي الذي ينبثق منه والأسس التي يقوم عليها والسلطة التي يستمد منها ، والنظام السياسي وشكله وخصائصه ، والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته ، والنظام الاقتصادي وفلسفته وتشكيلاته والنظام الدولي وعلاقاتـــه وارتباطاته» (١) .

ولا بد من الاشارة الى أن شمول الثقافة الإسلامية ميزة هامة ، هيأت لها صموداً كبيراً أمام التحديات الفكرية الأخرى ، «فالثقافة الاسلامية لم تكن قوة غالبة في إبان النشأة والظهور وحسب ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين ولا بد من تفسير لهذه القوة الصامدة كما لا بد من تفسير لتلك القوة الغالبة لأنها كما يقول العقاد : «تدافع فتقوى على الدفاع حيث لا عدة عندها للغلبة في معترك الصراع ، والصراع وصمود القوة الإسلامية في أحوال الضعف عجيب كانتصارها في أحوال الشدة ، ولا سيما الصمود بعد اكثر من عشرة قرون ... إن شمول العقيدة في ظواهرها الفردية والاجتماعية هو المزية الخاصة في الثقافة الإسلامية ، وهو المزية التي توحي الى الإنسان أنه كل شامل فيستريح من خصام العقائد التي تشطر السريرة شطرين». (٢)

ومن مزايا الثقافة الاسلامية ، الإيجابية الفاعلة في علاقة الإنسان بالكون والحياة في حدود المجال الإنساني ... وهذا ناتج عن أن مبادىء الاسلام لا تتمثل في مجرد مجموعة من القيود والكوابح والضوابط الرادعة ... وانما هي في صميمها قوة بناءة وحركة دافعة الى النمو المطرد ، وانطلاق الى الحركة وتحقيق الذات في هذه الحركة ولكن في أسلوب نظيف ، إن العمل والإيجابية صورة أخلاقية في الثقافة الاسلامية على عكس التبطل والسلبية فانها صورة غير أخلاقية ، لأنها تنافي غاية الوجود الإنساني كما يصورها الإسلام ، وهي الخلافة في الأرض واستخدام

---

١ — سيد قطب : المستقبل لهذا الدين .

٢ — العقاد : الإسلام في القرن العشرين .

ما يسخره الله للإنسان من قواها وطاقاتها في التعمير والبناء [1] .

ولما كانت الثقافة الإسلامية تقوم على العقل ولا تنافيه فإنها بسطت أمام العقل آفاقاً جديدة واسعة ، وفتحت أمامه ألوانا من الاهتمامات ، لقد طاف القرآن بالعقل في ملكوت السموات والأرض ودعاه الى النظر الى الكون في سعته : الى شمسه وقمره ونجومه وأفلاكه «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون» والى غيومه وسحبه وأمطاره «ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً ، فترى الودق يخرج من خلاله»، والى مائه وينابيعه وزروعه بألوانها ومراحل نموها «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض ثم يخرج به زرعا مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاماً» وإلى بحاره بلآلئها وأسماكها وسعتها وحركتها «وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون» وإلى الجبال الموزعة في أرجاء الأرض وإلى الأنهار والسبل «وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون» [2] .

---

١ — سيد قطب : هذا الدين .

٢ — أنظر محمد المبارك : نظرة الاسلام العامة إلى الكون والوجود .

التحديات التي جابهتها الثقافة الاسلامية

ولقد جابهت الثقافة الاسلامية في القديم والحديث تحديات كثيرة ، ولعل عرضاً سريعاً لبعض أنواع هذه التحديات يعطينا صورة عن حقيقتها وعن طبيعة الأسلوب الذي اتبعه رجال الفكر الاسلامي في مجابهتها مع الابقاء على أصالتها وطابعها المستقل .

فقد تعرض المسلمون مع نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي ،وبتأثير من احتكاك المسلمين بشعوب العالم — على أثر الفتوحات الاسلامية وبعد ان استقرت الدولة وهدأت الى حياة الدعة والراحة — الى حملات من الزندقة والالحاد والتشكيك بعقيدة التوحيد الصفة المميزة للفكر الإسلامي ، واخذت هذه الحملة صوراً متعددة وغالباً ما كانت تعتمد على الجدل في أمور لا يستطيع العقل البشري أن يصل فيها الى نتيجة حاسمة ، لقصوره وفقدان الأدوات الفكرية التي تهيء له ذلك ، وكان الهدف : التشكيك ثم الهدم .

وهكذا خاض الناس فيما استنكف عنه الصحابة والمسلمون من قبل ، فتكلموا في الله وصفاته وأفعاله ، وجادلوا في التكليف وحقيقته وأسبابه ونتائجه ، وأدلوا برأيهم في القضاء والقدر والجنة والنار والصراط وغيرها ، ولم يعد الأمر قاصراً على الرد على الخصوم ، وانما نشأ نتيجة لذلك علم مستقل وهو علم الكلام أو

التوحيد كما يسميه آخرون ، ودخل في هذا العلم شؤون كثيرة غير ضرورية ولا مجدية في الدفاع عن الإسلام وعقائده ، وتعددت الفرق العقائدية واستحوذ الجدل والنقاش على رجالها ، فأصبح الجدل نفسه غاية وهدفاً بعد أن كان وسيلة لبيان الحق والدفاع عنه . ومع أن تأسيس علم الكلام في ذاته لم يكن أمراً إدّاً ، إذ نشأت علوم كثيرة مع ظهور الإسلام اقتضتها طبيعته ، إلا ان انحراف اكثر رجال هذا العلم عن الغاية الأساسية الذي انشيء من أجلها جعل الكثيرين من مفكري الإسلام وعلى رأسهم المعنون بالحديث والفقه ، كالأئمة : الشافعي وابي يوسف وابن حنبل والغزالي وابن تيمية ، يحرصون على الامتناع عن الخوض فيما خاض فيه الكلاميون ، ويدعون للعودة الى المنبع الصافي للثقافة الاسلامية والاكتفاء بما في القرآن وحديث رسول الله من عقائد ، والتأسي بموقف الصحابة من هذه الأمور ، ويعجبنا في هذا المقام قول المقريزي «من أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط عن طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصف به الرب سبحانه نفسه الكريمة في القرآن وعلى لسان نبيه ﷺ بل كلهم فهموا معنى ذلك فسكتوا عن الكلام في الصفات. نعم ، ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل ، وانما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والجلال والاكرام والجود والانعام والعزة والعظمة ، وساقوا الكلام سوقاً واحداً ، وهكذا أثبتوا رضي الله عنهم بلا تشبيه ونزهوا من غير تعطيل ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم الى شيء من هذا ، ورأوا بأجمعهم اجراء الصفات كما وردت ، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل على وحدانية الله تعالى وعلى اثبات نبوة محمد ﷺ سوى كتاب الله تعالى ، ولا عرف أحد منهم الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة».

والحق ان دعوة للعودة بالفكر الإسلامي الى صفائه ونقائه وتميزه كانت ضرورية ، بعد أن انصرف المفكرون عن المجدي من التفكير ، وبعد أن اتبع الكلاميون السبل فضلوا عن الحق ، وبعدوا عن النبع الأصيل والفكر المتميز ،

وكان للأئمة ابن حنبل والغزالي وابن تيمية أثرهم في اعادة الأمور إلى نصابها ، وان اختلف أسلوبهم في ذلك ، فقد تحمل الأول عنت السلطة وجبروتها وقسوتها ، واعتمد الثاني على أساليب الكلاميين العقلية والجدلية نفسها في بيان قصور علم الكلام عن أدائه لغرض واضعيه منه وعجزه عن توضيح الحقائق ، بينما جعل الثالث الاحتجاج بالقرآن الكريم والحديث النبوي أساساً للوصول إلى نفس الهدف .

ومن التحديات التي جابهتها الثقافة الاسلامية ، الغزو الفكري اليوناني ، بعد أن ترجم المسلمون معظم ما خلفه رجال الفلسفة اليونانية ، وخاصة المشهورون منهم ، كافلاطون وأرسطو وأفلوطين وغيرهم ، فقد تداول المسلمون كتب هؤلاء ، واعجب الكثيرون بها ، وتأثروا بما فيها أبعد تأثير ، وكتبوا في ذلك ، وأصبحت دراسة الفلسفة اليونانية بدعة المثقفين في العصر العباسي ، وبرز عدد من الذين يمثلون هذه الفلسفة ويدعون الى الاستعاضة بها عن الفكر الأصيل ، كالفارابي وابن سينا وابن رشد وابن طفيل . ولقد بلغ من قوة تيار هذه الفلسفة الوافدة أن تأثر بها بعض كبار رجال الفكر الإسلامي من الذين كان لهم الفضل في بيان نقائصها وكشف اختلاف مثلها عن مثل الإسلام وقيمه ، واسلوبها عن أسلوب التفكير الإسلامي الصحيح . ومع أن الثقافة الإسلامية منفتحة على العالم ، تستفيد من الحكمة في أي وعاء كانت ، إلا أنها كثقافة أصيلة ، تقيس جميع ما تقتبسه أو تستفيد منه بمقياس مبادئها ومثلها ، فلا تسمح بما يهدم هذه الأسس أو يقضي على شخصيتها . ولا شك أن الثقافة اليونانية تختلف في نظرتها الى الحياة والكون والوجود عن نظرة الثقافة الإسلامية ، فهي ثقافة نظرية بحتة ، لا تهتم بأن تقوم المعرفة على أساس الإيمان بالله والرسالات الإلهية ، ومن يسمون بالإلهيين منهم لا يؤمنون بالله كما يؤمن به المسلمون ربا خالقاً ومدبراً لشؤون العالم متميزاً عنه ، وانما يعتقد معظمهم بالله على انه مثال من المثل وان كان أرقى منها شأنا ، كما يعتقد ان الوجود يفيض عنه كما يفيض الحرارة عن الشمس والنور عن القمر ، فالله ليس خالقاً ولا مدبرا لشؤون الكون — في رأيهم — لأنه حركه ثم تركه ، وهم بالتالي لا يؤمنون بالحساب أو الثواب أو العقاب وإنما يعتقدون بما يشبه تناسخ الأرواح

الذي يوجد مثله في الديانات الشرقية القديمة ، ثم ان نظرة الفلسفة اليونانية الى الأشياء نظرة حسية مادية ، والسعادة في رأي معظمهم لا تتجاوز هذه الحياة .

لذا فقد كان أمراً خطيراً أن تحتل هذه الفلسفة مكان الصدارة في الفكر الاسلامي بل وان تعتبر ممثلة له معبرة عن قضاياه ، ولقد بلغ الاستهتار بكثير ممن يسمونهم بفلاسفة الإسلام ممن تأثروا بهذه الفلسفة أنهم نقلوها كما هي ، وتبنوها على صورتها التي عرفها اليونان ، دون ادخال أي تعديل يجعلها تتناسب مع الفكر الجديد ، حتى جاءت مؤلفاتهم نسخاً طبق الأصل عنها ، وكان طبيعياً أن يقف رجال الثقافة الإسلامية الأصيلة أمام هذا الغز و الجديد لاعادة النقاء الى الفكر الاسلامي .

وكان للغزالي وابن تيمية جهاد أفضل في الدفاع عن وجه الثقافة الإسلامية الأصيل . أما الغزالي فقد كتب «تهافت الفلاسفة» رد فيه على معظم نظريات الفلسفة اليونانية ومبادئها وبين تهافتها وضآلة شأنها ومخالفتها للإسلام وثقافته الصحيحة ، وقد اعتبر هذا الكتاب قاصمة الظهر للفلسفة اليونانية في الشرق الإسلامي ، إذ لم تقم لها بعده قائمة ، ولا عجب في ذلك فقد سبق أن اطلع الغزالي على هذه الفلسفة من مصادرها الرئيسية وألف فيها كتاباً سماه «مقاصد الفلاسفة» لا نجد له مثيلاً في عرض الفلسفة اليونانية بشتى مذاهبها حتى بين فلاسفة اليونان أنفسهم ، وأما ابن تيمية فقد كانت له جولات مظفرة مع الفلسفة اليونانية ورجالها في رسائله ومقالاته ودروسه ، ولكن كل ما كتبه لا يعدل كتابه «الرد على المنطقيين» أو «نقض المنطق» فكما ان «تهافت الفلاسفة» كان قاصماً للفلسفة اليونانية فقد كان هذا الكتاب قاصماً لأسلوب الفكر اليوناني ومبادىء منطقه في التعليم والتدليل والنقاش. وهكذا يعود الفكر الاسلامي الى اصالته وتميزه .

لكن التحديات ما تزال مستمرة ، والصراع ما يزال قائماً ، إلا أن ظروف الصراع تتجدد ، والاساليب التي تسلكها الثقافة الإسلامية في مجابهة خصومها تتجدد ايضاً ، وسنرى أن التحدي الذي تجابهه هذه الثقافة الآن هو تحدي الحضارة الغربية وما انبثق عنها من ثقافات واتجاهات فكرية وعقائدية ، وسنجد أن الثقافة الاسلامية مضطرة الى أن تغير في أسلوبها وفي القضايا التي تعالجها كيما

توفق في الحفاظ على نفسها وتأثيرها الدائم في العالم ، فلا يصح أبداً الوقوف عند موضوع لم يعد يشغل أذهان الناس أو يلح على حياتهم ، كما لا يصح الوقوف عند أسلوب لم يعد مستساغاً أو محبوباً ، ولعل من المناسب ان نثبت تأكيداً لهذا المعنى قولين لعالمين من كبار رجال الفكر الاسلامي في الهند ، هما الشيخ محمد علي المويكري والاستاذ شبلي النعماني .

يقول الاستاذ المويكري في بيان التحديات التي تجدّ على الثقافة الإسلامية : «ان الاعتراضات التي شغلت العقول وحلقات الدرس قديماً قد فقدت أهميتها وقيمتها ، وانقرضت الفرق التي كانت تثيرها وتتشبث بها وأصبح العكوف على دراستها وتفهمها اضاعة للوقت وجهاداً في غير عدو ، وقد نشأ عالم جديد وتجددت حاجاته ، وقد أثار أعداء الإسلام وخصومه أسئلة جديدة في هذا العصر لم تكن تخطر على بال وذلك في ضوء الفلسفة الجديدة ، ولا يمكن اشباع الرد عليها واقناع الخصم بالاعتماد على الفلسفة القديمة فقط وان زعم زاعم ، والسبب في ذلك ان الانسان لا يستطيع أن يحل الشبهة ويفحم الخصم إلا اذا عرف ما يؤدي اليه الاعتراض وعرف الدوافع».

أما الاستاذ النعماني فإنه يشير الى تغير أساليب الفكر الإسلامي والثقافات القديمة التي يمكن الاستغناء عنها بانتهاء الضرورة إليها بقوله : «ان هذه العلوم اليونانية ليست علومنا الدينية ولا يتوقف عليها فهم ديننا ومعرفته ، إن الإمام الغزالي في عصره قد ضم هذه المواد الدراسية الى مناهج التعليم لكي يطلع العلماء على الأساليب الجدلية اليونانية التي نشطت في نشرها الفرق الباطنية في ذلك العصر ويقاوم بذلك حركة الالحاد المتفشي في ذلك العصر ، ولكن لا وجود الآن لأولئك الملاحدة ولا لتلك العلوم اليونانية ، ولا يعتقد سبقها وصحتها المتنورون ولا من يدعي الفطنة ، لذلك فقدت تأثيرها ولا خطر على الإسلام اليوم منها ، وقد احتلت مكانها علوم حديثة وقضايا جديدة ودراسات وأبحاث جديدة وقد أصبح من الضروري أن يطلع علماؤنا على الابحاث الجديدة والعلوم العصرية المفيدة ليقدموا حلولاً للمعضلات الحديثة وليردوا على الشبهات رداً علمياً مؤسساً على الدراسة والتحقيق.

تحديات الثقافة الغربية وحضارتها

ننتقل الآن الى أعظم تحد عرفته الثقافة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية على وجه العموم ، وهو الغزو الغربي ، غزو الحضارة الغربية بشتى مؤسساتها الذي ازداد خطره على المسلمين منذ القرن التاسع عشر الميلادي وما يزال مستمراً حتى الآن ، وقد اتخذ هذا الغزو شكلين : الغزو المسلح الذي كان من نتيجته الاستعمار لمعظم بقاع الاسلام ، والغزو الفكري والثقافي الذي رافق الحرب المعلنة على المجتمعات الإسلامية .

وقد كان الخطر على الثقافة الإسلامية من الغزو الفكري كامناً أولاً : في طبيعة الثقافة الغربية واختلافها في معظم مبادئها عن الثقافة الاسلامية ، فقد كانت السلطات الاستعمارية تشرف على بث هذه الثقافة عن طريق المدارس وشتى وسائل الدعاية من كتب ومجلات واذاعات ، وفتح الأبواب أمام الذين تشبعوا بهذه الثقافة من المسلمين واغلاقها أمام الذين أرادوا المحافظة على شيء من تقاليدهم وشخصيتهم. ولقد كان في نشر الثقافة الغربية حرب وأي حرب على الفكر الاسلامي ، ذلك لأن الحضارة الغربية الحديثة كانت أثراً من آثار النزاع المسلح بين رجال الدين والعلم ، لأن من المعروف أن الحكم في أوروبا قبل النهضة كان حكماً ثيوقراطياً تتحكم فيه طبقة خلعت على نفسها اسم الدين وسامت الناس صنوف الاهانة والعذاب ، ووقفت أمام الحرية والكرامة والعلم وسائر المقومات الانسانية ،

واستطاعت أن تحجب النور عن العالم الغربي قرونا طويلة كان المسلمون فيها يفتحون آفاقاً واسعة في المعارف والفنون . وقد شعر المتحررون في أوروبا انه لا خلاص لهم إلا بالقضاء على هذه الطبقة والحكم الرهيب الذي تتبناه ، وهكذا نشأت الحضارة الغربية وكلها ردود فعل ضد رجال الكنيسة وبالتالي الدين ، فقد تبنت هذه الحضارة فصل الدين عن الدولة في الحياة الاجتماعية والسياسية ، كما تغلغلت روح الالحاد والتحلل عن قيود الدين في أسلوب المفكرين وفي علومها وآدابها وفلسفتها . إن فلسفة الحياة في الثقافة الغربية فلسفة مادية بحتة ، ويستطيع الباحث أن يدرك ذلك من استعراض مشاهير رجالها كهيجل وداروين وماركس وهكسلي وغيرهم ، ونشأت بناء على ذلك فلسفة خلقية ازدهر في ظلها التحلل من القيم والانحلال الديني وجحود الآخرة وسيادة مبادىء النفعية واللذة والتعصب للعنصرية والقومية والجنس ، وأصبح كل شيء في هذه الحضارة مؤقتاً نسبياً ، وانعدمت الموازين المطلقة التي توجد بين بني الانسان .

وقد عبّر عن هذه الثقافة ومؤسساتها المفكر المسلم محمد أسد «ليوبولدفايس سابقاً» خير تعبير فقال : «وقد كان البلاء الأكبر في حضارة اليونان والرومان قديما وفي حضارة الغرب الحديثة هو في سيطرة المادية في غاياتها وأهدافها ومن هنا نشأ الفساد والحروب والخصومات ، ان الرجل العادي في أوروبا ديموقراطياً كان أم فاشياً ، ورأسمالياً أم اشتراكياً ، عاملاً أم رجلاً فكرياً ، انما يعرف ديناً واحداً هو عبادة الرقي المادي والاعتقاد بأنه لا غاية في الحياة إلا أن يجعلها الإنسان حرة طليقة من قيود الطبيعة ، أما كنائس هذا الدين فهي المصانع الضخمة ودور السينما ومختبرات الكيمياء ودور الرقص ومراكز توليد الكهرباء ، وأما كهنتها فهم رؤساء المصارف والمهندسون والممثلات وكواكب السينما وأقطاب التجارة والصناعة والطيارون والمبرزون ، ونتيجة هذا النهم للقوة والشره للذة ، النتيجة اللازمة ، ظهور طوائف متنافرة مدججة بالسلاح والاستعدادات الحربية مستعدة لإبادة بعضها إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها ، أما في جانب الحضارة فنتيجتها ظهور طراز من الإنسان يعتقد الفضيلة في العقائد العملية ، والمثل الكامل عنده والفارق بين الخير والشر هو النجاح

المادي لا غير ، وليس في هذه الحضارة ولا في نظامها الفكري موقع لله في الحقيقة ولا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة اليه».

ويكمن الخطر ثانياً في تبني الحضارة الغربية للمؤسسات التعليمية والثقافية التي تبث ثقافتها وتعمل في الوقت نفسه على اظهار الإسلام بما ليس هو على الحقيقة وطمس معالمه الصحيحة وتشويه مبادئه المثالية ، ويقوم بهذه المهمة عادة من يسمون بالمستشرقين . ونحب أن نشير بهذه المناسبة الى ظاهرة هامة وهي انك «لا تجد موقف الاوروبي من الاسلام موقف كره في غير مبالاة فحسب كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات غير الإسلامية ، بل هو كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على صدور من التعصب الشديد ، وهذا الكره ليس عقلياً فقط ولكنه يصطبغ بصبغة عاطفية قوية . قد لا تقبل أوروبا تعاليم الفاسفة البوذية أو الهندوكية ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ومبني على التفكير ، إلا أنها حالما تتجه الى الإسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي في التسرب ، حتى أن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام ، ويظهر هذا في معظم بحوثهم كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على انه موضوع دراسة في البحث العلمي بل انه متهم يقف أمام قضاته ، ان بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام الذي يطلب اثبات الجريمة وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع ، فهو مع قناعته شخصياً بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شيء من الفتور اعتبار الاسباب المخففة .

وقد كان هدف المستشرقين من دراساتهم إضعاف مُثُل الاسلام وقيمه العليا من جانب ، واثبات تفوق المثل الغربية وعظمتها من جانب اخر ، واظهار أي دعوة الى التمسك بالاسلام بمظهر الرجعية والتأخر ، بينما عملوا على احياء حضارات ما قبل الاسلام : الحضارة الفرعونية ولغتها في مصر ، والحضارة الآشورية ولغتها في العراق ، والبربرية في افريقيا الشمالية ، والفينيقية في سواحل فلسطين وسوريا ولبنان .

ومن الوسائل التي اتبعها المستشرقون ومن تأثر بهم من المسلمين والعرب في هذا الخصوص ومن الدعوات التي مارسوا النشاط لها وترويجها : [1]

١ ــ القول ببشرية القرآن الكريم وانه ليس أكثر من تعبير عن انطباع البيئة العربية في نفس الرسول ، ونجد هذا حتى عند المعتدلين منهم كجب في كتابه المحمدية ، وقد خلف المستشرقين من المواطنين بكل أسف تلاميذ ؛ نجباء لهذا الاتجاه . فالذي يقرأ كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين يرى أن القرآن رد على الوثنية العربية والمسيحية العربية واليهودية العربية ، فالقرآن فكر يتأثر ببيئة عربية معينة ، وحين نقارن ما كتبه طه حسين مع كتاب جب لا نجد أي خلاف لا في الفكرة ولا في الأسلوب ، كما انك ترى نفس الأفكار ينادي بها رجال بعض الأحزاب العربية الذين أنكروا صفة الوحي على القرآن وادعوا انه نتيجة عبقرية محمد .

٢ ــ إن القرآن تعبير عن الحياة التي وجد فيها الرسول وهو لا يصلح لزمن آخر ، وقد تولّى كبر هذه الدعوة في بلادنا أيضاً الدكتور طه حسين الذي اعتبر القرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي إذ يقول «أرأيت أن التماس الحياة العربية الجاهلية في القرآن أنفع وأجدى من التماسها في هذا الشعر العقيم الذي يسمونه الشعر الجاهلي ، أرأيت أن هذا النحو من البحث يغير كل التغيير ما تعودنا أن نعرف من أمر الجاهليين».

٣ ــ إن لغة القرآن الفصحى لا تساير حاجات العصر فيجب أن تعم اللغة العامية حتى تصبح لغة الصحف والمؤلفات ، وقد ساعد المستشرقين في هذه الناحية حكومات الاحتلال وشجعت عليه ، ثم قامت اثر ذلك الدعوة الى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية حتى قدم اقتراح بذلك الى المجمع العلمي المصري أحد مشاهير مصر وهو عبد العزيز فهمي باشا سنة ١٩٤٣ .

٤ ــ إن المجتمع الاسلامي في صلته بالاسلام لم يكن على نحو قوي إلا في

---

١ ــ انظر كتابي : الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ، والفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي .

فترة قصيرة هي الفترة الاولى ، أي عهد بدائية المجتمع الاسلامي ، وبدائية المجتمع هي التي أوجدت نوعاً من التلازم بين الحياة فيه وتعاليم الاسلام ، وكلما تطور المجتمع زادت الفجوة لأن الاسلام لا يوافق التطور .

٥ ــ إن التخلف عن تنفيذ تعاليم الاسلام تمليه الضرورة الاجتماعية تحت ضغط ظروف الحياة المتجددة التي لا يستطيع الاسلام أن يكيفها في تعاليمه ، وتطبيق الاسلام اذن يعني العزلة والتخلف .

٦ ــ ان التطور وهو قانون الحياة الذي لا مفر من الخضوع له يجب أن يستخدمه المسلمون في اسلامهم ، وذلك بالسير وفق المثل الغربية والتفاعل معها ، وان تكون الحياة بالتجربة والطريقة العلمية ، وإذن فإن من الواجب اصلاح الديانة الاسلامية أو اصلاح القانون الاسلامي على الأقل حتى يتمشى مع الزمن ، وهي دعوة ظاهرها الحق وباطنها الضلال .

٧ ــ ومن أعمال المستشرقين البحث عما يظنونه مواضع ضعف وإبرازها لأجل غاية دينية أو سياسية ، وليس ذلك فحسب ، ولكنهم ينظرون اليها بالمرآة المكبرة ويعرضونها كذلك للقراء ، حتى يروا الذرة جبلاً والنقطة بحراً ، ومن أمثلة ذلك الاحتكاك دائماً بمواضيع معينة كاباحة الطلاق وتعدد الزوجات وزواج النبي ﷺ بعدة نساء وتضخيم النقاش العقائدي الكلامي .

٨ ــ ومما فعله المستشرقون ويفعلونه حتى الآن تجريد الفكر الاسلامي من كل شيء أصيل ، فمضمون هذا الفكر في زعمهم إما يوناني أو فارسي أو هندي أو غير ذلك .

وقد استطاع المستشرقون أن يحققوا كثيراً من الأهداف التي خططوا لهـــا وأثاروا في العالم الاسلامي شبهات حول الاسلام ونبي الاسلام والمصادر الاسلامية ، وأحدثوا في نفوس المسلمين يأساً من مستقبل الاسلام ومقتاً على حاضره وسوء ظن بماضيـــه .

ونحن لا ندعي ان جميع المستشرقين ولغوا فيما ولغ فيه غيرهم ، لأننا نعترف

بالفضل لبعضهم ممن كان منزهاً عن الغرض فساعد على نشر كنوز التراث الإسلامي ، ولكننا لا نستطيع إلا أن نجهر بأن معظم المستشرقين يهدفون من اهتمامهم بالإسلام إلى أحد أمرين : فهم إما منتسبون لمؤسسات دينية يعملون لها منسجمين مع مخططات التبشير ، وإما انهم يعملون لمؤسسات سياسية فهم يحققون غرضاً استعمارياً أو نشاطاً لتدعيم نفوذ احدى الدول ، وقد كان هؤلاء رواد الدول الغربية الى الشرق للتعرف على أوضاعه ومشاكله كيما تتحقق لهذه الدول طاقات أكبر على التسلل والتسلط .

ومما ساعد المستشرقين ومن يلوذ بهم عن الوصول الى أهدافهم :

١ ــ وجود عدد من المسلمين الذين تأثروا خطاهم فكانوا أقدر منهم على التعكير على الثقافة الإسلامية ، لأن صاحب البيت أدرى بالذي فيه كما يقولون .

٢ ــ تخلف العلوم الاسلامية ، ووقوف الفكر الإسلامي ، وإصابة المنهج الدراسي بجمود لم يسمح له ان يتجاوز عن خطه المرسوم قديماً ، وتوقف توسيع نطاق الفقه الاسلامي .

٣ ــ الضعف السياسي الذي اصاب المسلمين وفقدان الثقة بأنفسهم وبما عندهم .

٤ ــ ما يتعمده خصوم الاسلام من إلباس الاسلام كل خطأ يقع فيه أبناؤه فهم ينسبونه الى الاسلام مع ان سببه ترك الاسلام والتخلي عنه .

٥ ــ هذا بالإضافة إلى ناحية هامة وهي ان المجتمعات الإسلامية أخذت بنظام التعليم الغربي كما هي ، مع أن روح التعليم والتربية ظل لعقائد واضعيه ونفسيتهم وغاياتهم من العلم ودراسة الكون ووجهة نظرهم إلى الحياة ومظهر لأخلاقهم ، وذلك ما يمنح نظام التعليم شخصية مستقلة وروحاً وضميراً ، فإذا كانت للأمة عقيدة وأخذت بنظام تعليم آخر فلا بد أن يحدث نزاع عقلي وعاطفي ، وينتهي الأمر إلى قبول القيم الجديدة شيئاً فشيئاً والتخلي عن القيم السابقة ، ونذكر بهذه المناسبة أن الغزالي وهو الشخصية الفذة في دقة الفهم وسعة المعرفة عندما استغرق

في دراسة الفلسفة اليونانية تأثر بها مع أنه ألف في نقدها كما نعلم ، حتى قال عنه أبو بكر بن العربي «شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع».

ولا شك أن الثقافة الإسلامية والمدنية الغربية وهما يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً لا يمكن أن يتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوروبية وعلى مقتضياتها ، خالية من شوائب النفوذ المعادي للإسلام ، ليس ثمة ما يبرر توقعنا لذلك وإننا — كما يقول الأستاذ محمد أسد — إذا استثنينا بعض الأحوال النادرة التي يتاح فيها لعقل نير للغاية أن يتغلب على مادة التعليم ، فإن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا أو ينظروا إلى أنفسهم على أنهم ممثلو الحضارة الإلهية الخاصة التي جاء بها الإسلام ، وليس ثمة من ريب في أن العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين من يسمون أنفسهم بالمتنورين الذين نشئوا على أسس غربية .

موقف الثقافة الإسلامية
من تحديات الثقافة الغربية

إذن فإن غزو الثقافة الغربية سواء الغزو الذاتي أو غزو رجالها ودعاتها ما يزال قائماً ، وهو الصورة الحديثة في سلسلة الهجمات التي شنها خصوم الفكر الإسلامي عليه ، فما هو موقف المفكرين في البلاد الإسلامية من هذا الغزو ؟

نستطيع أن نميز عدة اتجاهات [1] :

١ ــ أولها يتخذ موقفاً سلبياً أمام الحضارة الغربية وكل ما انبثق عنها من مؤسسات حضارية وثقافية وهو يدعو إلى عدم الأخذ بشيء من أسباب هذه الحضارة .

٢ ــ وثانيها يدعو إلى التغريب والأخذ بكل أسباب الحضارة خيرها وشرها ، سواء ما يتعلّق بالعلم والصناعة أو ما يتعلّق بالثقافة ، وأسلوب الحياة الروحية والعقلية واللاخوية .

٣ ــ ثم اتجاه ثالث يحاول أن يوفق بين الحضارتين ويدعو إلى تقريب مبادىء الإسلام من مثل الحضارة الغربية مع الميل إلى تبني الثقافة الغربية ، فهو يعمل على

---

١ ــ أنظر المرجعين السابقين ، وكتاب الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية للأستاذ أبي الحسن الندوي .

تطوير الإسلام والبحث عن أدلة ذلك من أقوال مفكري الإسلام ما أمكن .

٤ — وأخيراً الاتجاه الذي يتمثل في الدعوة إلى احتفاظ المسلمين بإسلامهم حسب القرآن والسنّة ، والوقوف عند حدود الفكر الإسلامي في منابعه الأصيلة ، وإعادة تماسك الجماعة الإسلامية مع الإفادة من خير ما أنجزته المدنية الغربية والعلم الغربي ، مع عدم الأخذ من الثقافة نفسها إلاّ ما كان منها لا يتعارض مع شخصية الأمة الإسلامية وثقافتها .

أما الاتجاه الأول أي الموقف السلبي ، فإنّنا لن نقف عنده كثيراً لأنه سوء تفسير للدين الذي يحث على استعمال العقل والتفكير في الكون واقتباس الصالح النافع وإعداد للقوة . ثم إن هذا الموقف يستحيل عملياً لأن طبيعة الأشياء تأباه ، إن مثل هؤلاء في إغلاق الأبواب والنوافذ على أنفسهم مثل النعامة التي تظن أنها تحمي نفسها إذا أخفت رأسها في التراب ، وأصحاب هذا الاتجاه إما أن يقبلوا باقتباس المفيد وإجراء شيء من التطور والتجديد وإلاّ فإن تيار التاريخ سيخلفهم وراءه وسيلتفون حولهم يوماً فلا يجدون قريباً ولا نصيراً .

أما الاتجاه الثاني فهو موقف المستسلم للحضارة الغربية المقلد لها ، المؤمن بكل قيمها ومبادئها ، الداعي لها بحذافيرها ، بعقائدها الأساسية ومناهجها الفكرية وفلسفتها المادية ونظمها الاقتصادية والسياسية .

وقد وجد لهذا الاتجاه أنصار ومؤيدون في كافة بقاع الإسلام ...

وكانت تركيا من بين دول الإسلام أول دولة تتخلى سلطاتها في فترة ما عن ماضيها الإسلامي بكل ما فيه من ثقافة وفكر وتقاليد وأنماط حياة ، ومع أن الأتراك كان لهم دولة حرة واسعة الأرجاء ، إلاّ أن الكثيرين من مثقفيهم ، كانوا قد فقدوا إلى حد بعيد ثقتهم بأنفسهم ، ولم تعد لديهم قوة الإيمان واليقين بما عندهم من مقومات الحياة ، فانهاروا تحت تأثير ضربات الثقافة الغربية الفائضة بالروح الجديدة والطاقات العظيمة والثورة الصناعية والعلمية والفكرية ، ولم تستطع فئة العلماء القدامى التي لا تدرك شيئاً عن المقتضيات الجديدة والتطورات الحديثة أن تقف

أمام فئة من الجيل الجديد الذي تلقى ثقافته في عواصم أوروبا أو في بعض الكليات العصرية في تركيا فنشئوا على الاستهانة بالـدين واليأس من مستقبله وكراهة رجاله مع تقديس الحضارة الغربية بكل ما فيها ، وكان ضياء كوك الب هو الممثل الفكري لهذا الاتجاه كما كانت المؤسسات الرسمية التي تولت السلطة بعد الحرب العالمية الأولى اليد المنفذة له . وقد كانت هذه المؤسسات مؤمنة كل الإيمان بالحضارة الغربية ، وكان هدفها واضحاً ومحدداً وهو إقامة دولة على طراز الدول الأوروبية الحديثة ، وكانت تعتقد أن الخلافة العثمانية قامت على أساس الإسلام ، وأن الإسلام بطبيعته عربي وتصرفاته عربية ، وأنه ينظم الحياة من ولادة الإنسان إلى وفاته ويصوغها صياغة خاصة تخنق الطموح في النفس ، وما دام الإسلام منبع الثقافة ودين الدولة فإن الدولة ستكون في خطر ، ولذلك فقد وجّهت كفاحها أولاً وأخيراً إلى الدين الإسلامي وكل ما يتفرّغ عنه ، ولم تكتف هذه المؤسسات بفصل الدين عن الدولة وإقامة المجتمع التركي على العلمانية ، ولكنها أرادت أن تجتث ما يذكّر بالإسلام أو يوحي به ، فتدخلت في لباس الناس ، وأجبرتهم على لبس القبعة والملابس الإفرنجية ، كما أجبرت المرأة على الخروج سافرة ، ثم عمدت إلى الحروف العربية فأبدلتها باللاتينية وعادت إلى التاريخ التركي سلخاً وتشويهاً حتى تقطع كل صلة له بالإسلام وتقيمه على أساس القومية الطورانية ، ولم تحقق هذه المؤسسات ما تريد بالرضى والاختيار ولكنها اتبعت أقصى وسائل العنف والارهاب ، لأن الشعب التركي مؤمن بإسلامه وتاريخه الإسلامي وثقافته وتقاليده الإسلامية ، يقول عرفان أورغا وهو أحد المؤرخين المعجبين بأتاتورك : «وقد حدثت ثورات واضطرابات عظيمة هددت سلامة تركيا حتى أصدرت الحكومة أمرها إلى بارجة تركية بالبقاء بالبحر الأسود ، وأقيمت المحاكم في كل ناحية وصوب وفي أمكنة مختلفة من البلاد ... وأعدم علماء الدين الذين نفخوا في قلوب الناس روح المقاومة وحماس الدين أو اضطروا إلى أن يختفوا عن الأنظار ، ولم يستعمل رفقاً ومسامحة في مناسبة ، وقرّر مصطفى كمال تنفيذ المشروع وإتمامه ، ولم يكن يحفل بالوسائل والطرق التي يستخدمها في هذا الشأن فيلقي

القبض على الناس الذين كانوا يشنقون لمجرد أنهم وجدوا يسخرون من هذه الأحكام واستهدف في ذلك الأبرياء والمجرمون على حد سواء». [1]

وهكذا هيء لهذا الاتجاه أن يسود الحكم في تركيا مدة من الزمن فهل استفادت تركيا من كل ما حصل ، لقد فقدت ماضيها القريب وانفصلت عن التراث العلمي الغني الذي ساهمت في تكوينه الأجيال الكثيرة والعقول الكبيرة ، كما فقدت زعامة العالم الإسلامي ، وأحدثت فجوة كبيرة بين رجال الحكم وبين الشعب المسلم القوي ، فماذا كسبت تركيا في مقابل ذلك كلّه ، لقد قلّدت تركيا الحضارة الغربية وبعض مظاهرها السطحية ، وأخذت ببعض الاصلاحات التي لا تقدم ولا تؤخر في حياة الشعوب ، وأصبح دورها في اقتباس الحضارة الغربية دوراً تقليدياً يخلو من كل أصالة وابتكار ، ولا شك أن هذه المكاسب لا تعدل شيئاً في مقابل ما فقدته تركيا وتخلّت عنه ، ولقد قامت في تركيا أخيراً دعوات عاقلة تدعو إلى العودة إلى التمسك بالإسلام وثقافته وتقاليده ، وإلى إعادة الارتباط الوثيق مع البلاد الإسلامية الأخرى التي تحتل تركيا بينها مكاناً مرموقاً ، فقد تحملت الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه أكثر من خمسة قرون [2] .

أما في الهند فقد تحمس لاتجاه التغريب أحمد خان والمدرسة الفكرية التي أسسها . دعا أحمد خان دعوة ضياء كوك الب وأتاتورك ، أي إلى تقليد الحضارة الغربية وأسسها المادية واقتباس العلوم العصرية بحذافيرها وعلى علاتها ، وتفسير الإسلام والقرآن تفسيراً مطابقاً لما وصلت إليه المدنية الحديثة في آخر القرن التاسع عشر المسيحي ، ويرى سيد أحمد خان أن التقليد والظهور بمظهر سيد البلاد ومجاراته في الحياة والعادات تزيل الهيبة من قلوب المسلمين منه ، وتعالج مركب النقص فيهم ، وترفع مكانتهم في عيون الولاة ورجال الحكومة ، وتضعهم في مكان الشركاء في الحياة ، الاقران في الاجتماع . وأصدر أحمد خان تفسيراً سماه تبيان

---

١ — أبو الحسن الندوي ، المرجع السابق .

٢ — المرجع السابق .

الكلام فسر فيه القرآن كما يخلو له وعلى صورة تطابق أهواء الغربيين وآراءهم ، وكان يقول بآراء الطبيعيين في إنكار كل ما لا يثبته الحس والتجربة وعلوم الطبيعة من الحقائق الغيبية وأمور ما بعد الطبيعة ، وقد أسس أحمد خان بمعونة انجلترا جامعة عليكرة لتكون مركز الدعوة للثقافة الغربية بكلّ أشكالها ، وكتب لهذه الجامعة أن تصبح بعد ذلك من أهم المراكز الإسلامية في الهند .

أما في مصر فقد كان الاتجاه إلى التغريب قوياً ومتحمساً ، والحق ان مصر كانت بيئة صالحة لهذه الدعوة ولجميع دعوات الاستشراق «ومن النادر أن يقرأ الإنسان لعالم مستشرق في الغرب بحثاً ولا يعرف له نظرية إلا ويجد أديباً أو مؤلفاً في مصر يتبنى هذه النظرية بكل إخلاص ويشرحها ويدعو إليها بكل لباقة ، مثل : بشرية القرآن، فصل الدين عن السياسة، وان الإسلام دين لا دولة والدولة إلى العلمانية، والشك في مصادر العربية الأولى، والشك في قيمة الحديث العلمية، وإنكار مكانة وحجية السنة في الإسلام ، والدعوة إلى ما يسمى بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل وإلى السفور ، وكون الفقه الإسلامي مقتبساً من القانون الروماني ، والدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام ، وتمجيد العصر الفرعوني ، والدعوة إلى العامية والتأليف فيها ، واقتباس الحروف اللاتينية ، والتقنين المدني العربي على أساس القانون المدني الغربي ، والدعوة إلى القومية والاشتراكية والشيوعية إلى غير ذلك» (١) .

ولا يسمح لنا الوقت بتفصيل الحديث عن رجال هذا الاتجاه وآرائهم ولكننا سنكتفي باستعراض أقوال أحد زعمائه وهو الدكتور طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» (٢)

إن موضوع هذا الكتاب يدور حول تأكيد ما يعتقد مؤلفه من أن صلة

---

١ — الدكتور محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر .

٢ — صدر للدكتور طه حسين مؤخراً مقالات وكتب يستنتج البعض منها أنه قد عدل عن بعض آرائه حول هذا الموضوع .

المصريين بأوروبا أكثر من صلتهم بالشرق ، وأن الثقافة المصرية جزء من الثقافة الغربية الأوروبية ، وأن فترة الحكم الإسلامي كلّه لم تغير من الأمر شيئاً ، فالثقافة في مصر غربية منذ القدم وستبقى كذلك مهما اختلفت عليها العصور ، فالعقل المصري كما يقول الدكتور طه «منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنّه يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط».

ومن السخف الذي ليس بعده سخف على حد تعبير الدكتور طه «اعتبار مصر جزءاً من الشرق واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية الهند والصين».

وكذلك فإن حياة المصريين المادية في رأيه حياة أوروبية «إن حياتنا المادية أوروبية خالصة في الطبقات الراقية ، وهي في الطبقات الأخرى تختلف قرباً وبعداً من الحياة الأوروبية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات وحظوظهم من الثروة وسعة اليد ، ومعنى هذا ان المثل الأعلى للمصري في حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوروبي في حياته المادية».

بل إن حياة المصريين المعنوية في نظره أوروبية أيضاً «وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوروبية خالصة ، فنظام الحكم عندنا أوروبي خالص نقلناه عن الأوروبيين نقلاً من غير تحرج ولا تردد ، والتعليم عندنا على أي نحو قد أقمنا صرحه ووضعنا برامجه ؟ على النحو الأوروبي الخالص ما في ذلك شك ولا نزاع ، ونحن نكوّن أبناءنا في مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكويناً أوروبياً لا تشوبه شائبة».

وكلّ هذا في رأي المؤلف « يدلّ على أننا في هذا العصر الحديث نريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم ، حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنى وحقيقة وشكلاً » ، وإذن يتعين علينا كما يقول الدكتور طه «أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحسن منها وما يعاب» كما يتعين

علينا «ان نشعر الأوروبي بأننا نرى الأشياء كما يراها ونقوّم الأشياء كما يقوّمها ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها»، وكل ذلك في نظر الدكتور المؤلف لأن «مصر ذات عقلية أوروبية ولم تتغير بالفرس أو الرومان أو العرب أو الإسلام»، ونهضة مصر في نظره امتداد لمصر الفرعونية «وأنا من أجل ذلك – يقول الدكتور طه – مؤمن بأن مصر الجديدة لن تبتكر ابتكاراً ولن تخترع اختراعاً ولن تقوم إلاّ على مصر القديمة الخالدة، ومن أجل هذا لا أحب أن نفكر في مستقبل الثقافة في مصر إلاّ على ضوء ماضيها البعيد – الفرعوني – وحاضرها القريب».

ونختم هذه الأقوال بزبدة الكلام وغاية ما يريد المؤلف أن يقذفه في عقول المصريين: «فأما الآن وقد عرفنا تاريخنا وأحسسنا أنفسنا واستشعرنا القوّة والكرامة واستيقنّا أن ليس بيننا وبين الأوروبيين فرق في الجوهر ولا في الطبع ولا في المزاج فإني لا أخاف على المصريين أن يفنوا في الأوروبيين».

وهكذا فإن العقلية المصرية غربية، وتقاليد المصريين أوروبية، ومصر ترتبط بأوروبا لا بالعرب ولا بالإسلام، وثقافتها لا أثر فيها للثقافة الإسلامية لأنها ثقافة يونانية أوروبية، ولأن مُثل المصريين العليا مُثل أوروبية، وحياتهم المادية والمعنوية أوروبية خالصة، وهو يريد لهم أن يفنوا في أوروبا ويصبحوا جزءاً منها لفظاً ومعناً وحقيقة وشكلاً، ولا نظن بعد هذا الكلام من داع لأن يضيف دعاة التغريب شيئاً.

أما الاتجاه الثالث وهو اتجاه تطوير الإسلام والتوفيق بينه وبين الثقافة الغربية، فإنه يرى أن صالح الثقافة والمجتمعات الإسلامية في هذا التطوير، كيفما يوافق الإسلام الأمر الواقع في الحياة العصرية. وقد بدأ هذا الاتجاه بالشعور بالحاجة إلى مواجهة القضايا الجديدة باستنباط أحكام شرعية توافقها ثم انتهى إلى دعوة هامة إلى مهاجمة التقليد والمطالبة بالنظر في التشريع الإسلامي كلّه دون قيد، وهكذا انفتح الباب على مصراعيه للقادرين وغير القادرين ولأصحاب الورع ولأصحاب الأهواء، وظهرت الآراء التي تجعل الإسلام داخلاً في هذا المذهب أو ذاك من

المذاهب السياسية والاجتماعية والتي ابتدعتها الحضارة الغربية الحديثة ، وبذلك تحولت دعوة التطوير والاجتهاد في آخر الأمر إلى تطوير الشريعة الإسلامية والتخلي عن كثير من أسس الثقافة الإسلامية بحيث تطابق الحضارة الغربية أو تقترب منها إلى أقصى ما تسمح به النصوص والمبادىء من تأويل على أقل تقدير[1] .

إن خطر هذا الاتجاه على الإسلام والمجتمع الإسلامي والثقافة الإسلامية في رأي الدكتور محمد محمد حسين يأتي من وجهتين : «فهو إفساد للإسلام يشوش قيمه ومفاهيمه الأصيلة بإدخال الزيف على الصحيح وإثبات الغريب الدخيل وتأكيده ، فبعد أن كان الناس يشاركون في تصاريف الحياة وهم يعرفون أن هذا الذي غلبوا على أمرهم فيه ، يصبح الناس وهم يعتقدون أنما يفعلونه هو الإسلام ، فإذا جاء بعد ذلك من يريد أن يردهم إلى الإسلام الصحيح أنكروا عليه ما يقول واتهموه بالجمود والتمسك بظاهر النصوص دون روحها».

أما الوجه الآخر لضرر التطوير وهو الذي يعني أعداء الإسلام وما ينبثق عنه من ثقافة وحضارة فهو أن هذا التطوير سينتهي بالمسلمين إلى الفرقة التي لا اجتماع بعدها ، لأن كل جماعة منهم سوف تذهب في التطوير مذهباً يخالف غيرها من الجماعات ، ومع توالي الأيام نجد ثقافة اسلامية تركية وهندية وإيرانية وعربية ...

ومن الغريب أن يُستدرج الشيخ محمد عبده على فضله وجلالة ما قدمه للثقافة الإسلامية لمناصرة هذا الاتجاه والداعين إليه . ونلاحظ بهذه المناسبة أن حياة الشيخ محمد عبده تنقسم إلى مرحلتين : مرحلة الالتصاق الكامل بأستاذه جمال الدين الأفغاني والمناداة بمعظم آرائه وأفكاره ، ومرحلة تبدأ بعد وفاة الأفغاني حيث انفرد فيها الشيخ بموقف خاص ، فقد تحول عن طريق الإصلاح السياسي الذي كان يعمل له أستاذه إلى الوقوف عند الإصلاح الاجتماعي والثقافي ، وبناء على هذا الخط الجديد فقد اعتزل الإسهام في قيادة الجانب الوطني إلى أسلوبه الجديد الذي يعتمد على توضيح الإسلام والدفاع عن الثقافة الإسلامية والتأكيد على أنه

١ — الدكتور محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية .

دين التطور والتجديد وأنه لا يتعارض مع المدنية الحديثة . ومن هذا الأساس انطلق الشيخ إلى تبني مهاجمة التقليد ، والدعوة إلى الاجتهاد وتطوير الإسلام ، وإعادة النظر في وضع المرأة من المجتمع : الحجاب ، الحد من تعدّد الزوجات ، الحد من حرية الطلاق ، والمناداة بالوطنية والقومية ، والعناية بالتاريخ السابق على الإسلام ، والعمل على الأخذ بالنظام السياسي الغربي .

وكان من الداعين إلى اتجاه التطوير قاسم أمين الذي تبنى العمل على تطوير وضع المرأة والعلاقات الاجتماعية عموماً ، وعلي عبد الرزاق وسعد زغلول اللذان تبنيا الدعوة إلى الوطنية والقومية والعناية بالتاريخ الفرعوني والأخذ بالنظام السياسي الغربي على أساس أن الإسلام دين لا حكم .

وقد استغل موقف محمد عبده هذا أسوأ استغلال من أصحاب هذا الاتجاه ومن وراءهم من الأوروبيين ، فقد شبّه اللورد كرومر محمد عبده بالسيد أحمد خان في الهند ، وبيّن أن أهميته السياسية ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب والمسلمين وأنه هو وتلاميذه خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع لأنهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الأوروبي .

وقد يستغرب القارىء هذا الذي نقوله عن أمثال محمد عبده وسعد زغلول وطه حسين وغيرهم لأنه مخالف كل المخالفة للصورة التي قرّت في أذهاننا عنهم ، والحق أننا في حاجة إلى إعادة النظر في تقويم الرجال ، لأن كثيراً ممن نعتبرهم دعائم النهضة الحديثة لم يصبحوا كذلك في أوهام الناس كما يقول الدكتور محمد محمد حسين « إلا بسبب الدعايات المغرضة التي أرادت أن تضعهم في هذه المنزلة، لتحقق بذلك أغراضها في نشر مذاهبهم والتمكين لآرائهم . فوسائل النشر الضخمة التي يسيطر عليها الاستعمار والصهيونية العالمية لا تزال تلقي الأضواء على كتّاب ومفكّرين من نوع خاص في الوقت الذي يهمل فيه الكتّاب والمفكّرون الذي يصوّرون وجهات النظر المخالفة لهم » .

أما الاتجاه الأخير الذي اتجه إليه المسلمون في تحدي الثقافة الغربية لهم فهو

ذلك الذي يواجه الحضارة الغربية مواجهة الواثق بنفسه ، المتمكن مما عنده من إمكانات وطاقات ، فهو يميز بين الثقافة كمذهب ورأي وروح تتميز به الأمة عن غيرها ، وبين شؤون الحضارة والعمران والمدنية ، ويدعو إلى إيجاد تيار قوي يواجه الحضارة الغربية بشجاعة وإيمان ، مترفع عن التقليد غير خاضع للمظاهر داعٍ إلى الأخذ بطريق مبتكر يجمع بين الإيمان المنبثق عن الاعتقاد بالأنبياء والرسل وبين العلم الذي هو ليس ملكاً لبلد أو شعب وإنما هو للناس جميعاً . هذا الاتجاه يحاول أن يأخذ من الدين الدوافع الخيرة ومن الغرب الآلات والوسائل الفنية — إلى أمد — ويعامل الحضارة الغربية كمادة خام يستفاد منها للخير أو للشر .

هذا الاتجاه يحاول أن يجمع بين حسنات الشرق والغرب وقوة الروح والمادة وإخراج منهج جديد يجدر بالغرب نفسه أن يقلده لأنه يوازن بين حاجات النفس والجسد ، الروح والمادة ، الفرد والمجتمع ، وهو يحاول في نفس الوقت أن يبقي المسلم على مستوى الشعور أبداً بأنه صاحب عقيدة ورسالة وثقافة ومنهج في الحياة ؛ وأن هذه العقيدة والرسالة لن تعطي ثمراتها إلا إذا فهمها أصحابها وحملوها للناس .

وقد ظهر هذا الاتجاه في عدد من البلاد الإسلامية :

ففي الهند ندوة العلماء التي أعلنت عن أهدافها بعبارات محددة « إحداث فكر جديد يجمع بين محاسن القديم والجديد ، بين القديم الصالح والجديد النافع ، بين التصلب في الأصول والغايات والتوسع والمرونة في الفروع والآلات » .

وفي باكستان تحدد الجماعة الإسلامية أهدافها على النحو التالي :

١ — دعوتنا للبشر كافة والمسلمين خاصة : أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذوا إلهاً ولا رباً غيره .

٢ — دعوتنا إلى كل من أظهر الرضى بالإسلام ديناً أن يخلصوا دينهم لله ويزكوا أنفسهم من شوائب النفاق وأعمالهم من التناقض .

٣ ـ ودعوتنا لجميع أهل الأرض أن يحدثوا إصلاحاً عاماً في أصول الحكم الحاضر الذي استبد به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الأرض فساداً ، وأن ينتزعوا هذه الإمامة الفكرية والعملية من أيديهم حتى يأخذها رجال مؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويدينون دين الحق ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .

ويرى زعيم هذه الحركة الأستاذ المودودي ، أن تحقيق هذه الأهداف لا يقوم به إلا رجال يؤمنون بالأخلاق الإسلامية ويطبقونها ، ويؤمنون بالحقوق المتساوية لجميع البشر ، ولا يستغلون الناحية العاطفية الأساسية في طبيعة الإنسان لبلوغ أهدافهم .

أما في السعودية فقد بدأت الحركة الإصلاحية الإسلامية بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب المتأثر كلياً بالمجتهد الأكبر ابن تيمية ودعوته الإصلاحية ، وملخص ما دعا إليه ابن عبد الوهاب هو العودة إلى الدين الصحيح ونبذ البدع والخرافات وكل ما هو دخيل على الإسلام والفكر الإسلامي ، والاستقاء من معين الإسلام الصافي : القرآن والسنة وعلم السلف الصالح . وكانت حركته هذه بداية يقظة في العالم الإسلامي تدعو للعمل على سيادة مبادىء الإسلام الصحيحة والقضاء على الفساد وتأسيس دولة إسلامية وحكومة صالحة تحكم بمبادىء الإسلام وتمثل أحكامه وتقيم حدوده .

ومن الحركات التي نحت هذا المنحى في الدعوة إلى الاحتفاظ بالإسلام وثقافته وشخصية الأمة الإسلامية مستقلة متميزة ، الحركة السنوسية في ليبيا ، وقد تأثرت بآراء محمد بن عبد الوهاب ، ولكنها اتخذت لها طابعاً صوفياً ليس فيه انحراف بعض الصوفيين واعوجاجهم . واستطاعت السنوسية أن تقوم بحركة فريدة في المجتمع الإسلامي المعاصر إذ جمعت بين الإيمان والعمل ، بين الفكر والسلوك ، عن طريق نظام التكايا التي تعيش فيها الجماعات المؤمنة ، إلا أن الفرد في التكية لم يكن عاطلاً عن العمل بل كان يعمل في إحدى الفعاليات الجماعية المفيدة كالزراعة والتجارة ، وكانت التكية تكفي نفسها ، وقد استطاعت السنوسية بإيجابيتها ونظامها الفريد لا أن تعيد الثقة إلى المسلمين بثقافتهم وتقاليدهم

فحسب بل وأن تقف أمام الاستعمار الإيطالي وقفة لم يُعرف لها مثيل في حركات المقاومة والتحرير .

أما في الجزائر فقد كان لجمعية العلماء الجزائريين — وزعيمها عبد الحميد بن باديس ثمّ الشيخ الإبراهيمي من بعده — وما انبثق عنها من مؤسسات مختلفة أهمها مدارس القرآن الكريم فضلها في تبني هذا الاتجاه ، وقد استطاعت عن طريق مدارسها أن تحافظ على ثقافة الشعب الجزائري الأصيلة وارتباطه بالإسلام والعروبة .

أما في أندونيسيا فإن أبرز الجماعات الداعية إلى هذا الاتجاه جماعة دار الإسلام ، وفي تركيا نجد الحركة النورية التي أسسها الشيخ سعيد النورسي رحمه الله .

ومن هذه الحركات أيضاً جماعة الإخوان المسلمين التي شملت البلاد العربية بلا استثناء ، والتي تعد أوسع حركة إسلامية شاملة عرفها المسلمون في العصر الحديث .

وقد قامت هذه الحركة على النقد الجريء لحضارة الغرب وثقافته ومواجهتها وجهاً لوجه والظهور أمام الغرب بمظهر الداعي المهاجم ، وكان هذا الموقف يتطلّب دراسة أعمق وجهوداً أكثر ترابطاً وتركيزاً ، ومعرفة أدق بطبيعة الحضارة الغربية وتركيبها ، وحماسة أشد في الدعوة إلى الإسلام ونظمه ومناهجه وثقافته ، كما يتطلب موقفاً غير موقف الزعيم السياسي الذي وقفه جمال الدين أو موقف المحامي المدافع عن الثقافة الإسلامية مع محاولة التوفيق بينه وبين الحضارة الغربية الذي وقفه محمد عبده [1] .

والحق إن نقد الحضارة الغربية كان قد بدأ منذ أمد ، ومن أوائل من ساهم في هذا الموضوع الأمير شكيب أرسلان في كتابه « لماذا تأخر المسلمون وتقدم

---

١ — الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية .

غيرهم » وقد بدأ نقده بالإشارة إلى حقيقة هامة وهي انه « ليس كل شيء قديم منبوذاً ، كما انه ليس كلّ شيء جديد مرغوباً فيه ، بل ينبغي أن ينظر في العلم إلى الأصلح وفي العمل إلى الأصلح بدون ملاحظة إن هذا جديد وذاك قديم » .

وهو يرى أن الدعوة إلى الاستفادة من الغرب في حد ذاتها ليست شيئاً خطيراً ، ولكن الأخذ بالثقافة الغربية على علاته هو الخطر ، يقول الأمير أرسلان « أن الغرب ساد الشرق وغلب على المعمور ، ورأى الشرقيون أنفسهم قد أحيط بهم وأصبحوا لا يملكون مع الغربيين أمراً، فنهضوا يبتغون أسباب الخلاص من سيطرة الغرب فقالوا : ليس لنا إلا أن نقاتله بسلاحه الذي كان سبب نجاحه ولما كان سلاحه هو الثقافة الأوروبية المبني أكثرها على العلوم الطبيعية والتي أمكنت الغرب من تسخير الماء والكهرباء ، قالوا لا بد لنا من أن نختار لأنفسنا هذه الثقافة » .

ثمّ يقول الأمير شكيب « وحتى هنا الأمر ليس خطيراً ولكن الخطير أن نأخذ هذه الثقافة بحذافيرها ونقبلها على علاتها وأن نتلقى هذه النظريات كلها من مادي ومعنوي بدون استثناء » .

ثمّ ينهي الأمير شكيب رأيه بالإشارة إلى أن الاستفادة من العلم شيء والتخلي عن الشخصية شيء آخر ، وليس يقتضي اقتباس علوم الأوروبيين أن ننكر أصلنا ونجحد قوميتنا من أجلها ، لأننا نستطيع أن نتعلمها ونحن باقون على إسلامنا وعروبتنا ، ويضرب لذلك مثلاً باليابانيين الذين نقلوا جميع هذه العلوم إلى بلادهم وفاقوا فيها أهلها ولم يزالوا يابانيّين ، وبالافرنج أنفسهم الذين نقلوا علوم الشرق من قبل إلى بلادهم وأبوا أن يكونوا شرقيين .

وممن ساهم في نقد الحضارة الغربية وثقافتها المفكر الهندي المسلم إقبال ، وقد أشار في نقده إلى أن الدعوة إلى الفناء في هذه الحضارة كانت بسبب الدهشة أو المفاجأة الأولى ، ولكن بعد أن زالت هذه الدهشة وذهب عدد كبير من الشباب المسلم إلى أوروبا للدراسة حيث تكشفت له الحياة الغربية رجع كثير منهم يائساً من مستقبل هذه الحضارة ناقداً لها .

حلّق إقبال في نقده للحضارة الغربية في كتاب « التجديد الديني في الإسلام» تحليقاً يجعله يفوق ما فعله كبار مفكري العالم وفلاسفته ، وفي رأي إقبال أن جميع المذاهب السياسية والفكرية والاقتصادية التي انبثقت عن الحضارة الغربية سواء « ان الرأسمالية والشيوعية تلتقيان على الشره والنهامة والقلق والسآمة والجهل بالله والخداع للإنسانية ، إن الشيوعية تقضي على العلم والدين والقيم ، والرأسمالية تنزع الروح من أجساد الأحياء وتسلب القوت من أيدي العاملين والفقراء ، ولقد رأيت كلتيهما غارقتين في المادة جسمهما قوي ناضر وقلبهما مظلم فاجر » .

إن كل ما تدعيه أوروبا من العلم والحكمة في رأي إقبال ليس إلاّ مظاهر جوفاء تختفي من ورائها أهداف مشبوهة « إن هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومة التي تتبجح بها أوروبا ليست إلاّ مظاهر جوفاء وليست وراءها حقيقة ، إن قادتها يمتصون دماء الشعوب وهم يلقون دروسهم عن المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية » . لذلك فإن إقبال لا يريد للمسلم المعاصر أن يكون كالغربي المعاصر لأن الرجل الغربي بما له من فلسفات نقدية وتخصص علمي يجد نفسه في ورطة ، فمذهبه الطبيعي قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة لم يسبق إليه لكنه قد سلبه إيمانه بمصيره .

ويتطلّع إقبال أخيراً إلى عالم جديد تتغير فيه هذه الأسس وتلفظ فيه حياة المادة والمقامرة أنفاسها الأخيرة « إن العصر يتمخض عن عالم جديد ، إن العالم القديم الذي حوّله الغربيون مكاناً للقمار يقامر فيه بأمن العالم وكرامة الأمم يلفظ انفاسه الأخيرة » .

وقد اشترك الكثيرون من المفكرين المسلمين من أصحاب هذا الاتجاه في نقد الثقافة الغربية وإعادة الثقة بالثقافة الإسلامية ومنابعها الأصيلة ، ولما كنا لا نستطيع في هذه العجالة أن نعرض لآرائهم فإننا سنكتفي بالإشارة إلى بعض مؤلفاتهم .

للأستاذ حسن البنا : مجموعة رسائله .

للأستاذ سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، المستقبل لهذا الدين ، العدالة الاجتماعية في الإسلام ، معالم في الطريق .

للمودودي : تجديد الدين وإحياؤه ، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ، نحن والحضارة الغربية .

لمالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، مشكلة الثقافة ، فكرة كومنولث إسلامي ، آفاق جزائرية ، المعركة المفاهيمية في البلدان المستعمرة .

للأستاذ علي سامي النشار : مناهج البحث عند مفكري الإسلام ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام .

للأمير شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم .

للأستاذ أبي الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية .

للدكتور محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي .

للدكتور محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر .

لمصطفى صادق الرافعي : المعركة بين القديم والحديث .

للأستاذ محمد الخضر حسين : نقض كتاب في الشعر الجاهلي .

للدكتور مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا .

وقد تركت هذه الجهود أثرها وأوجدت تياراً قوي الثقة بالنفس بعد أن وصل فقدان المسلمين الثقة بأنفسهم ومظاهر شخصيتهم حداً مخجلاً جعل الدكتور طه حسين يعتذر عن بدء محاضرة له في اللغة والأدب بحمد الله والصلاة على نبيه قائلاً « سيضحك مني بعض الحاضرين إذا سمعني أبدأ هذه المحاضرة بحمد الله والصلاة على نبيه لأن ذلك يخالف عادة العصر » .

نعود بعد هذا الاستطراد إلى الحركة الإسلامية الحديثة في البلاد العربية

والإسلامية فنجد أنها استطاعت أن تحقق الأهداف التالية :

١ ــ إعادة الثقة إلى المسلمين برسالتهم وثقافتهم وتاريخهم ومستقبلهم .

٢ ــ رد الاعتبار للقيم الإسلامية ورفع ما أثير حولها من شبه وشكوك .

٣ ــ السير بالثقافة الإسلامية من نقطة الركود التي وقفت عندها في حياة المسلمين إلى حياة المسلم المعاصر ، حتى لا يقف مسلم موقف المتردد بين أمسه وحاضره .

٤ ــ تقديم تفكير يقوم على نقد وبناء ، ويخلص إلى اعتبار قيمة واحدة هي قيمة الإسلام في التوجيه الإسلامي .

٥ ــ الكشف عن الإسلام مصدر قوّة وغاية في نفسها ، ومصدر قوة في الحياة كذلك .

٦ ــ إيجاد تيار كبير في البلاد الإسلامية يدعو إلى تحقيق محافظة المسلمين على الشخصية الإسلامية وتميزها واستقلالها .

عالمية الإسلام وإنسانيته

جاء الإسلام ليكون رسالة السماء إلى الأرض في مختلف مجتمعاتها وظروفها ومراحلها الزمنية ، فهو دعوة إلى الناس جميعاً لا يختص بأمة دون أمة ولا زمن دون زمن ولا مجتمع دون مجتمع . وهو لم يميز في دعوته إلى طريق الله شعباً دون آخر ، فليس الإسلام قاصراً على العرب دون سواهم ولكنه بلاغ لجميع البشر . ويبدو ذلك واضحاً من خطاب القرآن للرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن حديثه عن القرآن وهو رسالة الإسلام . يقول الله تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (١) ويقول « وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً (٢) » والآية واضحة الدلالة في أن الرسول كان لعموم البشر . كما أن القرآن هدى لجميع الناس « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » (٣) « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » (٤) « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً (٥) » فلا يجوز لأمة أن تدعي القرآن لنفسها دون الأمم

١ — سبأ : ٢٨ .
٢ — النساء : ١٠٥ .
٣ — آل عمران : ١٣٨ .
٤ — النساء : ٧٩ .
٥ — الإسراء : ١٠٦ .

الأخرى ، لأن الله أراده بياناً لجميع الناس وميزاناً للحكم يرجعون إليه في شؤونهم ومعاملاتهم .

وقد كانت هذه العالمية صفة دعوات الرسل جميعاً ، فما كان الأنبياء ، من قبل يختصون أمة دون أمة أخرى ، ولا كانت كتبهم قاصرة على تلك الأمة دون غيرها ، وإن بدا للناس أن عدداً كبيراً منهم بعث في أمة واحدة . « وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس » [١] .

ولعلّ السبب في هذه الصفة أن الإسلام ينظر إلى الناس على أنهم يشكلون وحدة إنسانية لا تمايز فيما بين شعوبها وأفرادها في الأصل أو الطبيعة أو المصير . فالناس جميعاً ينحدرون من أصل واحد « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » [٢] هذه النفس الواحدة عند التدقيق والتحليل تعود إلى ذكر وأنثى « يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى » [٣] ثمّ إن هذا الأصل يعود بعد ذلك إلى أب واحد ينتسب إلى التراب ، يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه « أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلاّ بالتقوى » [٤] .

والطبيعة الإنسانية واحدة لا تختلف . فقد شاء الله أن يكون الإنسان من طين وأن ينفخ تعالى فيه من روحه « وإذ قال ربّك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » [٥] ، وهذه

---

١ — آل عمران : ٣ — ٤ .
٢ — النساء : ١ .
٣ — الحجرات : ١٣ .
٤ — متفق عليه .
٥ — ص ٧١ — ٧٢ .

الطبيعة أو الفطرة التي فطر الإنسان عليها واحدة من حيث علاقتها بالأرض وما فيها من زينة ومتع وشهوات « زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا » [1] ، وهي واحدة من حيث استعدادها للخير أو الشر ، للصلاح أو الفساد « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » [2] ، وهي واحدة في ميلها إلى كفر النعمة والجحود وعدم الشكر « ولكن أكثر الناس لا يشكرون » [3] « وإن كثيراً من الناس لفاسقون [4] » « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » [5] .

ثمّ إن المصير واحد ، فلا بد أن تلقى كل نفس أجلها ، ولا بد أن تفنى البشرية جميعاً ، ثمّ يكون هناك بعث وسؤال وحساب ، ثمّ جنة الخلد أو نار جهنم . « كلّ نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » [6] « واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً » [7] هذا وإن أبلغ ما يدل على هذه الوحدة في الأصل والمصير قوله تعالى « ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة » [8] فقد جمعت هذه الآية بين الخلق والبعث بعد الموت في أقصر عبارة وأوضحها .

وما دامت الإنسانية واحدة في أصلها وطبيعتها والمصير الذي ستنتهي إليه ، فإن من الطبيعي أن تنزل عليها رسالة واحدة ، وأن تترتب عليها تكاليف متشابهة ، وأن تطالب بعبادة الإله الواحد ، وأن يكون ما في هذا الكون والحياة للناس سواء في

---

١ — آل عمران : ١٤ .
٢ — الشمس ٧ — ١٠ .
٣ — البقرة : ٢٤٣ .
٤ — المائدة : ٤٩ .
٥ — الرعد : ١ .
٦ — آل عمران : ١٨٥ .
٧ — البقرة : ٤٨ .
٨ — لقمان : ٢٨ .

التمتع بما فيه ، أو في تدبر آياته ، أو في اعتباره طريق عبور إلى الآخرة وما فيها من حياة خالدة .

من أجل ذلك توجه القرآن إلى الناس جميعاً بالتدبر والتأمل للوصول إلى اكتشاف حقيقة الكون والحياة « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات »[1] ، ومن أجل ذلك أمرهم جميعاً بعبادة خالق هذا الكون ومدبّره « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم »[2] ومن أجل ذلك أيضاً كانت دعوته إليهم جميعاً بالاستمتاع بما خلق الله لهم « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً »[3] . فالناس أمة واحدة في كلّ هذه الأمور وهذا ما يؤكد عليه القرآن الكريم بقوله « كان الناس أمة واحدة »[4] « وما كان الناس إلاّ أمة واحدة فاختلفوا »[5] ، والميدان الوحيد الذي يتفاضل فيه الناس يتعلق بالرسالة وقبولها والتعلق بها والعمل من أجلها « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »[6] ، « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »[7] وهكذا ينفي الإسلام كافة الأسباب التي تعيق من استقبال الناس لرسالة الإسلام أو تسبب وجود التمايز والتفاضل على غير أساس معقول . ولعل من أهم أسباب التمايز والتعصب التي لا يرضى عنها الإسلام ، التعصب للون أو للطبقة أو للجنس والقوم ، وسنعرض بإيجاز موقف الرسالة المحمدية من جميع أنواع العصبيات .

---

١ — آل عمران : ١٩٠ .
٢ — البقرة : ٢١ .
٣ — البقرة : ١٦٨ .
٤ — البقرة : ٢١٣ .
٥ — يونس : ١٩ .
٦ — آل عمران : ١١٠ .
٧ — البقرة : ١٤٣ .

التعصب للـــون :

إن التمايز باللون ليس له مكان في عقيدة تؤمن بوحدة الإنسانية كالعقيدة الإسلامية ، فليس هناك مجال لافتراض وجود الدم الأزرق النبيل الذي يقسم الناس إلى أجناس وطبقات ، وليس هناك مجال لأن يستغل الجنس الذي ينتمي إلى اللون الأبيض خلتة طبيعية لا يد للإنسان فيها ليتعالى على الآخرين . « إن الحضارة التي لا يستعلي فيها عرق على عرق ولا لون على لون هي الحضارة التي يسعد بها الإنسان العاقل الكريم وتسعد بها الإنسانية الواعية الكريمة ، والحضارة التي يعلو فيها الأبيض ويمتهن الأسود ، ويسعد بها ذوو البشرة البيضاء ويشقى بها الملونون هي الحضارة الجاهلية التي ترتد بها الإنسانية إلى الوراء مئات القرون عمياء متكبرة جاهلة حمقاء »[1] وما أروع وصف الرسول عليه السلام لمن يتعلق بمثل هذه الأوهام بقوله : إنك امرؤ فيك جاهلية ، وقد قالها عليه السلام لصحابي جليل عيّر مسلماً آخر بقوله يا ابن السوداء ، فجاءت هذه العبارة لتكون حداً فاصلاً بين العلم والجهل ، بين الحضارة الإنسانية والحضارة الجاهلية ..

ولم تكن النظرة الإسلامية هنا مجرد نظرية أو دعوة مجردة عن التطبيق العملي ، فقد نفذت على أوسع المستويات وأشملها ، وفي جميع الميادين والموضوعات . ففي المسجد يلتقي الأبيض والأسود على صعيد واحد من العبودية لله عز وجل والخشوع بين يديه ،وفي الحج تلتقي العناصر البشرية كلّها من بيضاء وملونة على صعيد واحد وبثياب واحدة من غير تمييز بين أبيض وأسود أو استعلاء من البيض على السود ، ولقد بلغت النظرة الإنسانية مداها في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم بلالاً الحبشي أن يؤذن فوق الكعبة يوم الفتح ، يعلن كلمة الحق بين الناس ، والكعبة أشرف بيت عند العرب في الجاهلية ، وقبلة المؤمنين بعد الإسلام، وقد اختار الرسول بلالاً ذا البشرة السوداء من بين سائر المسلمين وفيهم أشراف قريش ونبلاؤها ، ليصعد على الكعبة المقدسة ، وكان هذا العمل تأكيداً على

---

١ — مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا : ١٤ .

كرامة الإنسان ومكانته التي يستحقها لعلمه وأخلاقه وإيمانه لا لبشرته وبياضه .

وفي تاريخنا الإسلامي أمثلة كثيرة عن إنسانية الحضارة الإسلامية ومساواتها بين الأجناس والعناصر والألوان ، في تاريخنا أمثلة عن القواد العسكريين الكبار ، وعن العلماء المبرزين ، وعن الحكام الذين يدين لهم الناس بالطاعة ، وعن القضاة وغيرهم ... ولعل مثل هذا الأمر لا يتصور في حضارة حديثة كالحضارة الأمريكية في أيامنا هذه ، غير أن حضارتنا فعلته قبل أربعة عشر قرناً .

يذكر المرحوم الدكتور مصطفى السباعي في كتابه الجليل « من روائع حضارتنا » [1] أنه لما توغل المسلمون في مصر فاتحين حتى وقفوا أمام حصن بابليون ، رغب المقوقس في المفاوضة مع المسلمين ، فأرسل إليهم وفداً ليعلم ما يريدون ، ثم طلب منهم أن يرسلوا إليه وفداً ، فأرسل إليه عمرو بن العاص عشرة نفر فيهم عُبادة بن الصامت ، وكان عبادة أسود شديد السواد طويلاً ، حتى قالوا إن طوله عشرة أشبار ، وأمره عمرو أن يكون هو الذي يتولى الكلام . فلما وصلوا إلى المقوقس تقدمهم عبادة بن الصامت ، فهابه المقوقس لسواده وقال لهم : نحّوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني ، فقال رجال الوفد جميعاً إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو خيرنا والمقدم علينا وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله ، فقال لهم : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعاً وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً ، وليس ينكر السواد فينا ، فقال المقوقس لعُبادة : تقدم يا أسود وكلمني برفق فإني أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك عليّ ازددت لك هيبة ، فقال عبادة وقد رأى فزع المقوقس من السواد : إن في جيشنا ألف أسود هم أشد سواداً مني .

وهكذا ففي حين كان الناس جميعاً — حتى المتحضرون في القرن

---

١ — من روائع حضارتنا ص ٦٤ .

العشرين - يرون السواد منقصة ، ويرون الأسود غير أهــل لأن يتولى مراتب البيض ، كانت حضارتنا تحطم هذه الشرور وتسفه هذه الآراء ، معلنة إلغاء جميع أنواع التفاضل التي تعود إلى لون البشرة أو اختلاف الدم . مؤكدة أن الأسود يتقدم على الأبيض حين يكون أكثر علماً وأحكم رأياً وأجرأ قلباً . إن التمييز العنصري بين البيض والسود لم يكن مما تقره حضارتنا أو تعترف به ، ولم يعرف في التاريخ الإسلامي أن مجتمعاً إسلامياً كان يقيم مجتمعات مغلقة على البيض لا يساكنها فيها السود ، كما انه لم يسجل حادثة واحدة اضطهد فيها إنسان لسبب لونه ، لأن البياض والسواد في حضارتنا ليس إلا بياض الأعمال أو سوادها .

ومع أن الحضارة الحديثة تعد من أشهر الحضارات التي عرفت بأنها قامت على مبادىء الإخاء والمساواة بين الناس ، ومع أن هيئة الأمم المتحدة أعلنت ميثاق حقوق الإنسان الذي يمنع نظرياً جميع أنواع التمايز ويعطي الناس جميعاً حقوقاً واحدة ، إلا أن العالم لا يزال يطبق التمييز العنصري بسبب اللون في أبشع صوره وأشكاله .

ففي أميركا بلد الحرية والعلم الذي يضع الإنسان على القمر ، لا تزال تجري مأساة من أكبر مآسي التاريخ الإنساني ، وهي مأساة اضطهاد الزنوج ، وعدم الاعتراف للعناصر الملونة بالمرتبة الإنسانية التي يتمتع بها الأبيض ، ومع أن الزنوج يعتبرون مواطنين في هذه الدولة التي تحمل أعلام الحضارة الحديثة المعاصرة ، إلا أنهم لا يستطيعون أن يمارسوا عملياً حقوق المواطن كما يمارسها المواطن الأبيض ، وفي ذلك يقول أحد رجال السياسة من البيض هناك ، « ليس لأي رجل ملوّن يغمر قلبه الرغبة في المساواة السياسية عمل ما في ولايات الجنوب إن هذه البلاد ملك للرجل الأبيض ويجب أن تظل كذلك » . (١)

وتبدو مظاهر اضطهاد الزنوج في أمريكا في جميع الميادين ، فالمدارس تقوم في معظم الولايات وخاصة في الولايات الجنوبية على أساس الانفصال

١ - مصطفى السباعي ، من روائع حضارتنا ص ٦٨ .

الكامل بين الزنوج والبيض ، فلا يسمح لأطفال الزنوج أن يتعلموا مع أطفال البيض وإنما لكل فريق مدارسه الخاصة وكتبه الخاصة ، وقد تحدت بعض المدارس أوامر حكومة الولايات المتحدة حين رفضت أن تطبق حكم المحكمة الفيدرالية العليا بإلزامها بالسماح لإبناء الزنوج أن يتعلموا في مدارس البيض ، واضطرت الحكومة المركزية إلى أن ترسل الحرس الوطني ليقوم بحراسة أبناء الزنوج الذين سيدخلون هذه المدارس بناء على حكم القضاء ، وقد كان موقف أبناء البيض : الإضراب عن تلقي العلم مع هؤلاء .

ويفرض على القطارات الحديدية والسيارات العامة والمستشفيات أن تقيم عربات أو غرفاً خاصة بالزنوج ، وتقضي قوانين بعض الولايات بأن لا يسمح للعمال الزنوج أن يقيموا مع العمال البيض في المصانع أو الدخول من الأبواب المخصصة للبيض ، أما في ميدان الزواج فإن معظم الولايات تمنع زواج البيضاء بالزنجي أو الأبيض بالزنجية وتنص على بطلان مثل هذا الزواج . وحتى ممارسة الشعائر الدينية تقوم على الانفصال أيضاً ، إذ لا يسمح للزنوج بدخول كنائس البيض ، وقد حدث أن دخل زنجي من جمهورية بناما كنيسة كاثوليكية في واشنطن : وفيما هو مستغرق في صلاته سعى إليه أحد القسس وقدم له قصاصة من ورق كتب فيها عنوان كنيسة زنجية كاثوليكية ، وحين سئل القس عن سر هذا التصرف أجاب : إن في المدينة كنائس خاصة بالكاثوليك الزنوج يستطيع هذا المرء الأسود أن يقف فيها بين يدي ربه [1] .

وفي إفريقيا نجد أمثلة صارخة عن هذا التمييز الذي لا يعرف الرحمة ، ففي أكثر من قطر من أقطارها أقليات بيضاء دخلت فاتحة غازية ، وهي تعتبر البلاد وما فيها ملكاً لها من دون أهلها ، ولا تقر لأصحاب البلاد وهم الأكثرية الساحقة بالحقوق الإنسانية والوطنية ، نجد ذلك في اتحاد جنوب إفريقيا ، ونجده في روديسيا وفي أنغولا وموزانبيق وغيرها من أقطار هذه القارة الواسعة .

---

١ — ـدر السابق ص ٧٠ .

ولعل قائلاً أن يقول : إن هذا قائم في الطرف الغربي من العالم ، فماذا عن الطرف الشرقي ، عن روسيا السوفياتية وباقي البلاد الاشتراكية الأوروبية الأخرى . لقد اعتادت هذه الأقطار أن تهاجم الدول الأخرى بحجة أنها تمارس التمييز العنصري ، كما اعتادت أن تتشدق كثيراً بالشعارات التي تعلن المساواة وتصب اللعنات على دعاة العنصرية والتفرقة بسبب اللون أو الجنس أو ... وعلى هذا الأساس تحوّل عدد كبير من الطلاب من أقطار إفريقيا النامية الحديثة الاستقلال إلى روسيا وحليفاتها لينعموا بالمساواة والحرية المزعومتين ولكنهم جوبهوا بجدار التمييز يقف حائلاً بينهم وبين أهل هذه البلاد ، ولما تظاهر الطلبة الإفريقيون احتجاجاً على هذه المعاملة صاح فيهم الطلبة الشيوعيون : عودوا إلى الغابة أيها القردة [١] . ويروي صحفي مصري — كان اشتراكياً قبل أن تقع له هذه الحادثة — القصة التالية [٢] « عندما أقمت في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٥٨ كنت أعيش بالمستشفيات أو اتردّد عليها ، وكانت تجري لي كل ثلاثة أيام عملية بذل بالجيب الأنفي ولذلك كانت مناديلي ملوّثة دوماً بالدم ، وكنت آخذها هي وبقية ملابسي إلى مغسلة حكومية رخيصة لأن غسلها بالفنادق باهظ التكلفة ، ومع الزمن نشأت بيني وبين عاملة المغسلة العجوز — ولا يضعون سوى العجائز في مثل هذه الأعمال — علاقة فيها إعزاز كبير رغم قبحها غير المعقول الذي كان يغطيه حنانها .

وذهلت عندما اكتشفت مع تحسن لغتي التشيكوسلوفاكية بعد أربعة أشهر أنها كانت تظنني مع كل ملامحي الشرقية الأصيلة طيلة هذه المدة رجلاً انجليزياً لمجرد انني أتكلم الانجليزية وأدخن سجائر أمريكية كانت تفرح بأن تأخذ بعضها لابنها ، واندفعت أصحح لها خطأها وأخبرها في طيبة قلب بأنني مصري ولست إنجليزياً ، وسألتني مستنكرة : أنت مصري ولست إنجليزياً ، وأجبتها انني

١ — محمد جلال كشك ، الماركسية والغزو الفكري : ٢٨ .

٢ — المصدر السابق ، نفس الصفحة ، نقلا عن كتاب : الاشتراكية ، الشيوعية الأوروبية ، للأستاذ وسيم خالد .

أفتخر بانني مصري ولست إنجليزياً » . وفي سكون أعادت وضع الغسيل في شنطتي (محفظتي) وهي تتأفف عندما تمسك مناديلي من أطرافها كما لو كانت شيئاً نجساً وقالت هذه مناديل قذرة مليئة بالدماء لا يمكن غسلها . وأجبتها في ضحكة باردة انني صحفي وانني سأذهب في الحال إلى وزارة الخارجية لإخبارهم بامتناعها عن تسلم ملابسي بعد أربعة أشهر لمجرد أنها عرفت أنني مصري ولست إنجليزياً . وفي نفس التقزز أعادت فتح شنطتي وتسلمت الغسيل مرة أخرى وأعطتني ايصالاً دون أن تنطق بكلمة واحدة » .

هذا قليل من كثير عن أنباء التمييز بسبب اللون الذي ما يزال قائماً في أجزاء كثيرة من أنحاء العالم مع أننا نعيش في حضارة القرن العشرين ، الحضارة التي وصلت من الناحية المادية إلى أعلى مستوى بلغته أية حضارة أخرى ، وفي ذلك دلالة واضحة على أن الإيمان والمساواة وسائر القيم الأخرى لا تنفع فيها القوانين والأنظمة ومظاهر التقدم المادي لأنها تنبعث من القلب ، وقد أثبت الإسلام تفوقه في صياغة النفوس والقلوب ، ورغم مرور أربعة عشر قرناً على ظهوره فإنه ما يزال في المقدمة في هذا الميدان .

التعصب للطبقـــة :

قبل الحديث عن موقف الإسلام من الطبقية والطبقات ، يجدر بنا أن نلقي نظرة سريعة يقصد منها الوقوف على حقيقة الطبقة الاجتماعية وعوامل تكونها وتطورها التاريخي (١)

ونلاحظ أن في كل مجتمع هيئات أو فئات تقوم على روابط الدم كالأسرة ، أو على روابط المهنة كالنقابات ، أو على روابط الجوار السكاني كأهل القرية والمدينة ، ولكن هناك فئات أخرى لا تقوم على هذه الروابط وإنما تعتمد على أساس التقارب في المراتب والمنازل وهذا ما يسمى بالطبقة الاجتماعية . ويمكن

---

١ ـــ أنظر في ذلك بحثا مفصلا لنا في كتاب « علم الا جتماع » .

أن تعرف الطبقة الاجتماعية بأنها أجزاء من المجتمع أو مجموعات من أفراد يقف كلٌ منهم على قدم المساواة مع الآخر ، ويتميز عن أجزاء المجتمع الأخرى بمعايير لارتفاع المكانة أو انخفاضها ، وهكذا كانت طبقة العمال والطبقة البورجوازية ، والطبقة الرأسمالية وطبقة الفلاحين ، وطبقة رجال الدين عند المسيحيين ، إلى غير ذلك .

وإذا حاولنا التعرف على حقيقة الطبقة فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى النظر إليها من زاويتين مختلفتين : الزاوية الموضوعية أي الطبقة كما يراها الباحث أو الغير على وجه العموم ، والزاوية الذاتية بمعنى الشعور الطبقي أي شعور المنتمي إلى طبقة من الطبقات .

فأما من الناحية الموضوعية فإن الطبقة تعني طريقة في السلوك والكلام والملبس والتعليم وعادات التعامل الاجتماعي ، فالملاحظ أن افراد الطبقة يتقاربون في هذه العادات والأنماط السلوكية ، وهذه العادات تعبر عن القيم التي تضعها المجتمعات على مختلف أساليب الحياة ، ولقد كانت هذه الأمور في الماضي أشدّ اختلافاً عنها في الحاضر ، ومع ذلك فإنّك اليوم تستطيع أن تميز فرداً من طبقة ما بأسلوب كلامه وتعامله لأنه ينبثق عن ثقافة معينة ، وتحرص الطبقة على أن تربي أبناءها على أنواع السلوك هذه وتثقفهم بثقافتها ، وهكذا تصبح أنواع الفروق في السلوك وسيلة لحفظ الحواجز الاجتماعية ونتيجة لهذه الحواجز في الوقت نفسه [1] . ولذلك تنتقل الطبقة بالوراثة وعن طريق الأجيال المتعاقبة .

أما من الناحية الذاتية فإن الطبقة تعني نمو مشاعر أو مجموعة استعدادات وجدانية خاصة ، هذه المشاعر على ثلاثة أنواع :

الأول شعور الفرد بالمساواة بالنسبة إلى أفراد الطبقة التي ينتمي إليها ، لذلك فإنه يحس بالاندماج معهم ورفع الكلفة فيما بينه وبينهم ، وعدم التحرج عندما يكون بين أظهرهم .

---

١ – الدكتور جينزبرج ، علم الاجتماع ص ١٨٦ .

والثاني شعور الفرد بالدونية أو النقص بالنسبة إلى من هم أعلى في التدرّج الاجتماعي ، هذا الشعور قد يدفعه إلى عدم التوازن في سلوكه مع الطبقة الأعلى .

والثالث شعور الفرد بالرفعة أو التعالي بالنسبة إلى من هم دونه في المرتبة الاجتماعية ، وهذه المشاعر هي التي تشد الفرد برباط وثيق إلى الطبقة التي ينتمي اليها لرغبته بالحماية والأمن مع رغبته في الوصول إلى الطبقة الأعلى .

وقد قيلت آراء كثيرة في عوامل تكون الطبقة ، وتعصب بعض الباحثين لعامل أو أكثر ، لهذا فإننا سنعرض لهذه العوامل جميعاً لنرى إلى أي حد تؤثر في نشوء الطبقة وتكون سبباً من أسبابها .

وأول هذه العوامل العامل الاقتصادي ، أو مستوى المعيشة ، أو الثروة التي يمتلكها الأفراد ، لأنها على الأغلب هي التي تحدد نوع التعليم الذي يتلقاه الفرد والمهنة التي يمتهنها ، إلاّ أن الثروة لا تكفي لتكوين الطبقة ، لأن الغنى والفقر بحد ذاتهما ليسا من الأنماط الاجتماعية . وعلى أساس الثروة نستطيع أن نتصوّر تقسيم المجتمع إلى الطبقات التالية : طبقة العمال الذين يتقاضون أجراً محدداً لقاء تأجير عملهم لدى الآخرين ، وطبقة الرأسماليين الذين يجنون فائدة من أموالهم التي يشغلونها بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وطبقة الملاك الذين يحصلون على دخل مما يملكون من عقارات وأملاك أخرى .

وثاني هذه العوامل المهنة ، أو العمل الذي ينتسب إليه الفرد ، ونستطيع أن نلاحظ انقسام المجتمع بحسب هذا العامل إلى : طبقة العمال الذين يعملون بأيديهم في الأعمال الصناعية ، وطبقة الفلاحين الذين يمتهنون العمل اليدوي الزراعي ، وطبقة أصحاب المهن الحرة الذين يتكسبون بمهنهم مستقلين ، وغالباً ما تكون هذه المهن ليست يدوية خالصة وذلك كمهنة الطب أو الهندسة أو التعليم أو نحو ذلك . والواقع أن المهنة لها أثر كبير في الفروق الطبقية ، فالكاتب والعامل قد لا تفصل بينهما الثروة فيكون دخلهما متقارباً ولكنهما من طبقتين مختلفتين ، إلاّ أننا يجب أن نلاحظ بأن الطبقة تسبق المهنة ، فالإنسان ينتسب إلى الطبقة

أولاً ثمّ يكون عاملاً أو كاتباً ، كما نلاحظ أن الطبقة الواحدة قد تجمع بين طياتها أكثر من مهنة .

وثالث هذه العوامل الأسلوب العام في الحياة ، فنوع الحياة التي يحياها كل فرد أو كل فريق من الناس من عوامل تكوين الفروق الطبقية ، فهناك حياة فاخرة وحياة بسيطة ، ونستطيع أن نتصوّر تاجرين يختلفان في أسلوب حياتهما ومعاملتهما مع أنهما ينتسبان إلى فئة التجار ، ومن أجل هذا الاختلاف يكون أحدهما في طبقة والآخر في طبقة أخرى . فالتاجر الذي يشرف على أعماله التجارية من بعيد دون أن يتدخل تدخلاً مباشراً في عمليات البيع والشراء الجزئية يعتبر من الطبقة البورجوازية ، على عكس التاجر الذي يباشر أعماله بنفسه ويقوم بخدمة عملائه فإنه يعدّ من الطبقة العاملة .

ورابع هذه العوامل الثقافة ، فقد ذكر البعض درجة الثقافة والتعليم من جملة عوامل تكوين الطبقة الاجتماعية ، والأقرب إلى الصواب أن تعتبر الثقافة من عوامل التمييز بين الطبقات وليس من عوامل تكوينها ، بمعنى اننا نستطيع أن نميز بين أفراد الطبقات من أسلوب تفكيرهم ودرجة تعليمهم ونمط ثقافتهم .

ونستطيع أن نضيف إلى هذة العوامل عامل الدين ، الذي بقي لمدة طويلة يشكل سبباً من أسباب التمييز الطبقي .

ومن استعراضنا لهذه العوامل فإننا لا نستطيع أن نعتمد على عامل واحد منها في تكوين الطبقة ، لكننا نقول إنها عوامل مترابطة متشابكة يؤثر كل منها في وجود الفروق الطبقية وتدعيمها على مدى الزمن .

ولو أننا ألقينا نظرة على تطور النظام الطبقي في التاريخ ، فإننا نجد انفصالاً كاملاً بين الطبقات في عدد من المجتمعات المعاصرة لظهور الإسلام ، واستمر هذا الانفصال الطبقي في كثير من المجتمعات غير الإسلامية بعد الإسلام ، وما يزال هذا النظام سائداً عند عدد من الجماعات الإنسانية .

لقد كانت قريش قبل الإسلام تفرض لنفسها مرتبة خاصة وحقوقاً وتقاليد

ليست لسائر العرب ، وتقف في الحج بالمزدلفة حين يقف الناس جميعاً بعرفات ، ويقيم القرشيون على هذه الامتيازات منافع اقتصادية يفرضونها على سائر العرب ، فيحتمّون ألاّ يطوفوا بالبيت إلاّ في ملابس يشترونها من قريش وإلاّ طافوا بالبيت عراة [1] .

« وكان المجتمع الإيراني مؤسساً على اعتبار النسب والحرف وكان بين طبقات المجتمع هوة ساحقة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة ، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير ، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه ولا يستشرف لما فوقه ، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها ، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تمييزاً واضحاً ، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع [2] » وكان في هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للإنسانية يظهر جلياً في مجالس الأمراء والأشراف حين يقوم الناس على رؤوس الأمراء وكأنهم جماد لا حراك بهم .

أما نظام الطبقات في الهند فإنه أشد قوة وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة ، حتى يمكن القول انه لم يعرف له مثيل في أمة من الأمم ، وقد امتهنت كرامة الإنسان في ظل هذا النظام واستهين بشرفه ، وزاد من ظلمة هذا النظام أن الهند اعترفت به دينياً ومدنياً وخضعت له آلاف السنين ولا تزال .

وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيها قانون مدني وسياسي يُقسم أهل البلاد بموجبه إلى أربع طبقات متميزة وهي على الترتيب [3] : البراهمة أي طبقة الكهنة ورجال الدين [3] : رجال الحرب [3] : رجال الزراعة والتجارة [3] : رجال الخدمة . وقد مُنحت طبقة البراهمة حسب

---

١ — سيد قطب ، هذا الدين ص ٥٣ .

٢ — عن كتاب إيران في عهد الساسانيين ، نقلا عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للأستاذ أبي الحسن الندوي .

٣ — تعدد الآلهة من اعتقادات الهند الفاسدة .

هذا القانون امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة ، فهم صفوة الله وملوك الخلق وأفضل الخلائق وسادة الأرض ، والبرهمي مغفور ذنبه مهما ارتكب من الموبقات والجرائم وإذا قتل يُكتفي بحلق رأسه ، ولا يصلح أن يُجبي من ماله شيء مهما كانت البلاد في حاجة إلى المال . أما رجال الحرب فهم دون البراهمة وفوق الطبقتين التاليتين ويتمتعون بكثير من الامتيازات ، ويسمى رجال الخدمة وهم أدنى الطبقات بالمنبوذين ، وليس لهذه الطبقة أية حقوق ، حتى أن القانون يعتبرها أحط من البهائم وأذل من الكلاب ، ولا يسمح لأفرادها باقتناء المال أو ادخاره ، كما لا يسمح لهم بمجالسة البراهمة فإذا مسه بيد أو سبه اقتلع لسانه ، وما تزال الهند تعاني من هذه الطبقية القاسية ومن وجود المنبوذين على وجه الخصوص [1] .

أما أوروبا في العصور الوسطى أي في الوقت الذي كان العالم فيه ينعم بإنسانية الإسلام ، فقد كانت تخضع لنظام من الطبقات يفصل أفراد الأمة بعضها عن بعض ، ويجعل منها ثلاث طبقات : النبلاء أو الأشراف ، ورجال الدين ، والشعب وكانت هذه الطبقات متميزة محددة المعالم يختلف بعضها عن بعض بصورة واضحة بحيث لا يخطيء الإنسان معرفتها بمجرد النظر إليها .

وكان نظام المراتب في أوروبا مدعوماً بالقانون ، فالأشراف والنبلاء طبقة تتوارث الشرف بعضها عن بعض ، وكانوا يتمتعون في عهد الإقطاع بسلطان مطلق على الشعب الموجود في الاقطاعية من حيث جباية الضرائب وإصدار العقوبات وتنفيذها ، ثم كانوا بعد ذلك السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية . أما رجال الدين فكان لهم ثيابهم الخاصة التي تميزهم ، وكان لهم في تلك العصور سلطة كبرى ، وكان نفوذ البابا لا يقل عن نفوذ الملوك والأمراء والأشراف إن لم يزد عليهم جميعاً لأنه هو الذي يمنح لهؤلاء على الشعوب . وكان رجال الدين يشكلون طبقة ممتازة كما كان للكنيسة أوقافها وإتاواتها وجيوشها في كثير من الأحيان .

---

١ — أبو الحسن الندوي ، المرجع السابق ص ٤٨ — ٥١ .

أما الشعب – أو الطبقة الدنيا – فكانت عليه الواجبات دون ان تكون له حقوق ، وكان يتوارث القيود والذل والفقر والعبودية ، كما كان النبلاء يتوارثون النبالة . ولئن تغيرت الأسماء في أوروبا ، فحلّت الطبقة الرأسمالية محل طبقة الأشراف القديمة إلاّ أن جوهر الأمور لم يتغير ، فقد بقيت هذه الطبقة تملك المال والسلطان والقوة التي تسير بها دفة الحكم ، على الرغم من مظاهر الحرية التي تتمثل في الانتخابات وغير ذلك من أشكال الديموقراطية ، أما في البلاد الشيوعية فقد قامت طبقة من نوع جديد هي طبقة الحزب الذي يتمتع بالسلطة والسيادة والتصرف بكل مقدرات الأمة وإمكانياتها ، مما لم يعرف له التاريخ مثيلاً في عصر من العصور .

ومن الواضح أن الإسلام الذي أعلن المساواة بين الناس في الأصل والمصير ورسالة الحياة ، وقرر إلغاء جميع أنواع التمايز التي تفرق بين الأفراد والجماعات ، هذا الإسلام لا يعترف بنظام الطبقات الذي تحدثنا عن بعض تطوراته التاريخية . وليس معنى ذلك أن الدين الإسلامي لا يسمح للكفايات والمزايا الخلقية بالمجال الذي يناسبها في الحياة العامة ، ولكنه لا يسمح بأن يحرم أحد حقه أو يقف حائل بينه وبين مجاله الذي استعد له بما هو أهله ، ولو لم يولد فيه ولم يكن منه بالنسب والوراثة . وهو لا يمنع التفاوت بين أقدار الناس وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين[1] «ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض» [2] «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات [3] »ولا يسوي بين العلماء والجهلاء «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» [4] وليس من العدل في الإسلام أن يختلف الناس بالجهد ويتساووا في الأرزاق «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات» [5] «والله فضّل بعضكم على

---

١ – عباس العقاد ، حقائق الإسلام ص ١٩١ .
٢ – الإسراء : ٥٥
٣ – البقرة : ٢٥٣
٤ – الزمر : ٩
٥ – الزخرف : ٣٢ .

بعض في الرزق» [1] ، إلاّ أن هذا التفاضل في العلم أو الرزق لا يقوم على النسب الموروث ولا على الغصب والسطوة وإنما يقوم على العمل ، ويجب أن لا يؤدي إلى إيجاد طبقات يستعلي بعضها على بعض ، والتفاوت في المراتب والأرزاق أمر واقع لا يمكن أن يزول ولا من المصلحة زواله ، وانظر إلى العالم كلّه فإنك لا بدّ أن تجد فيه هذا التفاوت ، ولو نظرت إلى الدول الشيوعية وجدت الأمر لا يختلف كثيراً عن المجتمعات الأخرى وإن تغيرت المصطلحات والأسماء ، وإلاّ فهل يتناول جميع الناس فيها أجراً واحداً أم إن بعضهم مفضل على بعض في الرزق ، وهل جميع الناس هناك رؤساء أم جميعهم مرؤوسون ، وهل جميعهم ضباط أم جميعهم جنود ، لا بد أن بعضهم قد رفع فوق بعض درجات ، فهذا أمر لا معدى عنه وهو حقيقة واقعة في كل مكان [2] . وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم في الآيات السابقة .

مظهر واحد من نظام الطبقات تحدث عنه القرآن هو وجود الأرقاء ، وقد سبق أن ذكرنا أن الرق كان نظاماً مرهوناً بظروف لم يوجدها الإسلام ولا أمكنه التخلص منها في ذلك الحين ، وإن كان قد أوجد السبل الكفيلة بإزالتها ، فالرق ليس أصلا من أصول المجتمع الإسلامي ولكنه ضرورة عارضة تنتهي بزوال أسبابها والظروف الملجئة لها . وقد حلت محل الطبقية في الإسلام أخوة تجمع أفراد المجتمع وتضمهم إلى بعضهم : «إنما المؤمنون إخوة» [3] .

لقد أوجدت هذه الأخوة عند الفرد المسلم الإحساس بالجماعة الإسلامية وخيرها ، وعند الجماعة الإحساس بالفرد ومصالحه وخيره ، ونتج عن هذا الإحساس المتبادل تضامن روحي ومادي هدفهما تمتين هذه الأخوة وبقاؤها [4] وأصبح

---

١ – النحل : ٧١ .

٢ – محمد قطب ، شبهات حول الإسلام ١٠٢ .

٣ – الحجرات : ١٠ .

٤ – د . صلاح الدين المنجد ، المجتمع الإسلامي في ظل العدالة ص ٣٨ .

المجتمع بهذه الأخوة وحدة متآلفة وقد عبر عن هذه الوحدة حديث الرسول عليه السلام بقوله : «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [1]

التعصب للقوم (القومية أو العنصرية) :

مع أن كلمتي — الأمة والقومية — بمفهومهما الاصطلاحي حديثتا العهد إذ ترجعان إلى القرن التاسع عشر الميلادي ؛ إلا أن جوهرهما قديم ، وهو تفضيل آصرة القوم أو الجنس على غيرها من الأواصر الأخرى : «فالهيئة التي يعبر عنها اليوم «بالأمة» و «القومية» كانت في بابل ومصر وفارس والروم واليونان على مثل ما هي عليه اليوم في فرنسا وبريطانيا وأميركا واليابان »[2] إن القومية تتولد من الشعور القوي النامي لدى جماعة إنسانية بالارتباط الوثيق القائم على الشعب أو الجنس أو الاشتراك باللغة والتاريخ والمصالح الاقتصادية .

ومن استقرائنا للعوامل التي تكون القومية يمكن القول بأنّ أهمها : وحدة الجنس أو العنصر ، ووحدة المولد أو المنشأ أو ما يسمى بالوطنية ، ووحدة اللغة ، ووحدة المشاعر والاشتراك بتاريخ واحد ، وأخيراً وحدة المصالح الاقتصادية . وإن هذه العوامل كلها أو بعضها هي التي توثق الأواصر بين جماعة من الناس وتتحكم في عقولهم ومشاعرهم حتى يصبحوا يداً واحدة على من سواهم ، ينتصرون لبعضهم بسبب هذه القومية ، وعلى أساسها يسالمون من يسالمون ويعادون مَن يعادون ويقومون الناس والأفكار والآراء .

وحين تحلل هذه العوامل تجد أنها بحد ذاتها زائفة لا تعتمد على حقيقة ، فالعنصرية أو الانتماء إلى جنس واحد ، شعور وهمي إذ لا يستطيع شعب من الشعوب أن يدعي أنــــه يحتفظ بنقائه الجنسي على مدار القرون ، فالشعوب

---

١ — البخاري ومسلم .
٢ — أبو الأعلى المودودي ، بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية .

متصلة ببعضها ويتم هذا الاتصال على أشكال متعددة ، منها الاتصال العادي الذي يتم بين الناس في حالات الاستقرار ، ومنها الهجرات الطوعية أو الكرهية ، ومنها الغزو الحربي ، والاختلاط الجنسي أصل في جميع هذه الاتصالات والاحتكاكات ، فحين يزعم آري أنه يحتفظ بنقاء دمه ، أو يزعم ساميّ مثل ذلك ، فإن كليهما يقيم زعمه على أوهام وضلالات . ولقد حاولت المانيا في عهد من العهود أن تثبت هذه النظرية ففشلت فشلا ذريعاً ، وهذا مصير كل دعوة تقوم على العنصرية .

أما الوطنية أو وحدة المنشأ فإنها ــ مع اعترافنا بأهمية شعور المرء بالانتساب إلى وطن يرتبط معه بصلة روحية ــ تقوم على أسس اعتبارية وهمية ، وإلا فهل هناك ما يمنع من أن يمتد خط هذا الوطن حتى يشمل الأرض كلها ، إن وطن الإنسان جزء من هذه الأرض فلماذا لا يكون شعوره أنه يستوطن هذه الأرض كلها ، وأن كل من يسكن هذه الأرض فهم إخوة له في الوطن ، له في كل بقعة من بقاعها مثل ما له من الحقوق . إن الآصرة الحقيقية التي تشد الناس إلى بعضهم هي العقيدة ، وليس غريباً أن يشعر كثير ممن ينتسبون إلى وطن ما أن صلتهم بمواطنين من أوطان أخرى أقوى وأشد ، ولعل هذه الظاهرة أقوى ما تكون في مجتمعاتنا المعاصرة .

وليست اللغة عند التحقيق بأكثر أثراً من العوامل السابقة ، إن اللغة لا تعدو أن تكون أداة للتعبير بين الناس ، وهي لا شك توجد عند الجماعات شيئاً من المشاعر المشتركة ، ولكنها لا تستلزم حتماً وحدة التفكير والاتجاه ، وفي مجتمعاتنا الحديثة عدد من القوميات والأمم التي لا توحد بينها لغة واحدة كالهند والصين وسويسرا وغيرها ، وهكذا فإن اللغة لا تصلح أساساً كافياً لتوزيع الإنسانية وإحداث الامتيازات والفروق القومية بين أبنائها (١) .

أما وحدة المصالح الاقتصادية : فإنها إذا بدت سبباً لقيام الوحدة بين أفراد

١ ــ أبو الأعلى المودودي ، المرجع السابق ص ١٢ .

أو جماعة إنسانية إلا أنها لا تكفي لإيجاد الشعور القومي ، ثم إن المغـالاة بالأخذ بالمصالح الاقتصادية لكل أمة من الأمم يضيق دائرة العيش أمام هذه الأمم جميعاً لأنه سيدفع كلا منها إلى نوع من الأثرة وتطبيق أنواع من الحواجز الاقتصادية التي تضيع معها كل فائدة مرجوة .

أما أن وحدة المشاعر والتاريخ هي التي تنشىء القوميات والأمم ، فإنه يشير إلى جزء من الحقيقة ولكنه لا يعبر عنها بجلاء ووضوح ، لأن وحدة المشاعر لا تتكون إلا نتيجة للاشتراك بعقيدة واحدة وأفكار وآراء واتجاهات معينة تنبثق عن هذه العقيدة ، مع ما يصاحب ذلك من تاريخ طويل تتطور فيه هذه الآراء والأفكار عن طريق الاحتكاك الذي يكون ليناً كما يكون عنيفاً ، ساراً أو مؤلماً ، وبهذا المعنى يصح أن نعتبر هذا العامل من أسباب توثيق أواصر الجماعات .

وقد كان الإفراط في النزعة الوطنية والعنصرية وما يترتب عليها من الأثرة وحب الانفراد بالعزة والسلطان وإنكار حقوق الآخرين ، ثم النزاع والتسلح والحرب [1] ، وقد جاء الإسلام ليقيم إخاءً بين الإنسانية جميعها بغض النظر عن جميع الاعتبارات المادية ومصالح الأثرة والأنانية .

يقول الأستاذ سيد قطب في كتابه : «هذا الدين» : «وجاء الإسلام ، فوجد الناس يتجمعون على آصرة النسب أو يتجمعون على آصرة الجنس ، أو يتجمعون على آصرة الأرض ، أو يتجمعون على آصرة المصالح والمنافع القريبة ، وكلها عصبيات لا علاقة لها بجوهر الإنسان ، إنما هي أعراض طارئة على جوهر الإنسان الكريم . وقال الإسلام كلمته الحاسمة في هذا الأمر الخطير الذي يحدد علاقات الناس بعضهم ببعض تحديداً أخيراً ، قال : إنه لا لون ولا جنس ولا نسبَ ولا أرض ولا مصالح ولا منافع هي التي تجمع بين الناس أو تفرق ، إنما هي العقيدة... إن آصرة المجتمع هي العقيدة ، لأن العقيدة هي أكرم خصائص الروح الإنساني ،

---

١ — عبد الرحمن عزام . الرسالة الخالدة ص ٢٠ .

١ — هذا الدين ص ٨٣ — ٨٤ .

فأما إذا نبتت هذه الوشيجة فلا آصرة ولا تجمع ولا كيان . إن الإنسانية يجب أن تتجمع على أكرم خصائصها لا على مثل ما تتجمع عليه البهائم من الكلأ والمرعى ، أو من الحدّ والسياج ...

والأمة هي المجموعة من الناس تربط بينها آصرة العقيدة وهي جنسيتها وإلا فلا أمة لأنه ليست هناك آصرة تجمعها ، والأرض والجنس واللغة والنسب والمصالح المادية القريبة لا تكفي واحدة منها ولا تكفي كلها لتكوين أمة إلا أن تربط بينها رابطة العقيدة».

وهكذا أعلن الإسلام ولأول مرة في تاريخ الإنسانية أن الأمة والدولة وسائر التجمعات الإنسانية لا يجوز أن تقوم إلا على أساس واحد يتناسب مع كرامة الإنسان وما ميزه الله به من قدرة على التفكير والتأمل ، فالعقيدة وحدها هي التي تفرق أو توحد بين الناس ، أما سائر العوامل الأخرى فلا يقر الإسلام بأنها جديرة أن تكون من أسباب التفرقة أو التوحيد .

إن البشر قاطبة من أصل واحد : «خَلَقَكُم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيراً ونساء » [1] وحقيقة الأجناس والقبائل تعود إلى هذا الأصل : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم» فلا يصح أن يكون ما يظهر من اختلاف الشعوب والقبائل والأجناس سبباً للتباغض والتناحر وإنما يجب أن يكون وسيلة للتعارف والتعاون .

أما الأرض فهي لله يعمرها الإنسان بالخير ، والله تعالى يستخلف عليها من يشاء من عباده ويورثها من يشاء ، فلا يجوز للإنسان أن يتقيد ببقعة محدودة من الأرض يتخذها معبوداً له [2] ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : «ألم تَرَ أن الله سخّر

١ — النساء : ١ .
٢ — أبو الأعلى المودودي ، بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية .

لكم ما في الأرض» [1] : «ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها» [2] ، فأرض الله للناس جميعاً ، وأرض المسلمين لجميع المسلمين لا توضع أمامهم الحواجز ولا تقوم بينهم الحدود .

وبهدي من هذا المبدأ الكريم ألغى الإسلام كل نوع من أنواع العصبية والتفاخر بالأرض أو بالنسب أو بالقبلية الجاهلية . يقول الله تعالى : «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين» [3] ويقول الرسول ﷺ : «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان» [4] وإذا كانت بعض القبائل والتجمعات العربية ما تزال تعيش على شعورها بالتمييز والتفوق العنصري فإن الرسول الكريم يضع الأمور في نصابها فيقول : «يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، ويا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ما أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمد : سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئاً» [5]

ويعلن الرسول أنه ليس من الإسلام في شيء من دعا إلى عصبية «ليس منا من دعا إلى عصبية» ويصف العصبية الجاهلية بأقبح وصف داعياً إلى تركها والتخلي عنها بقوله : «دعوها فإنها منتنة» [6] ويزيد في تأكيد هذا المعنى موضحاً مبدأ الإسلام في وزن الأمور : «أنا أخو كل تقيّ ولو كان عبداً حبشياً ، وبريء من كل شقيّ ولو كان شريفاً قرشياً».

---

١ — الحج : ٦٥ .
٢ — النساء : ٩٧ .
٣ — التوبة : ٢٤ .
٤ — أبو بكر البزار في مسنده من حديث حذيفة .
٥ — متفق عليه .
٦ — مسلم في صحيحه من حديث جابر .

ومع أن العناصر الحاقدة على الإسلام آنذاك حاولت أن تثير العصبيات والنعرات القبلية بين الأوس والخزرج .. بين قريش وسائر القبائل .. بين العرب وغيرهم من الشعوب التي دخلت الإسلام وكان لها بلاء كبير فيه ، إلا أن تلك المؤامرات باء معظمها بالفشل واستمر المدّ الإسلامي الذي استطاع أن يصهر هذه الشعوب والعناصر جميعاً في بوتقة العقيدة وآصرة الرأي والمنهج والفكرة . وكان لليهود اليد الطولى في هذه المؤامرات في العصور الإسلامية الأولى .

وكلما ضعف أثر العقيدة الإسلامية في النفوس ، قلت الحصانة التي تكونت لدى المسلمين ضد هذه الانحرافات ، وكان البلاء الأكبر في نهاية عصر الدولة العثمانية ، إذ استطاعت الأفكار القومية التي ظهرت في أوروبا في القرن التاسع عشر أن تغزو العالم الإسلامي وأن تمزقه أشلاء متفرقة متناحرة يكيد بعضها للبعض الآخر ، حتى تمكن اليهود وأعداء العرب والإسلام من وضع أيديهم على معظم أقطار العالم الإسلامي .

وقد نقل الفكرة القومية إلى الدولة العثمانية جماعة الاتحاد والترقي وجمعية تركيا الفتاة ، وكان يهود سيلانيك من وراء قادة الاتحاد والترقي ، ونشروا بينهم النزعة الطورانية والدعوة إلى إحياء جاهليتها القديمة وآدابها وثقافتها ، والنظرة إلى الدين الإسلامي الذي انتشر على أيدي العرب وشريعته وثقافته ولغته على أنه غريب وطارىء على القومية التركية وأن الأولى بهم أن يعودوا إلى وثنيتهم الأولى قبل اعتناق الإسلام [1] ، حتى أصبح المتحمسون منهم يحيطون الأتراك الطورانيين الوثنيين كهولاكو وجنكيز خان بهالة من التقديس والعبادة ويتسمون بأسمائهم ، وقد وجد جيش الملك حسين على جثة أخي القائد التركي في المدينة منشوراً أصدرته إحدى الجمعيات التركية الطورانية جاء فيه «إن هذه البدعة الخيالية المخيفة التي يسمونها الأمة الإسلامية التي ظلت إلى أمد طويل سداً يحول دون التقدم بوجه عام

١ — أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٩٩ .

ودون تحقيق الوحدة الطورانية بوجه خاص هي في طريقها الآن إلى التفكك والزوال» [1] .

وكان العرب المسلمون يبدون شكوكهم في جمعية الاتحاد والترقي وذلك لسببين جوهريين : «أولا لأن قادة جمعية الاتحاد والترقي وزعماءها كانوا جميعاً وبدون استثناء من البنائين الأحرار (الماسونيين) وثانياً : لأن يهود سالونيك كانوا جزءاً لا يتجزأ من جمعية الاتحاد والترقي» [2]

وقد أكملت العناصر اليهودية مؤامراتها بأن دفعت جماعة الاتحاد والترقي إلى تبني سياسة التتريك ، أي دمج جميع العناصر التي تشكل الدولة العثمانية في القومية التركية وفرض اللغة التركية عليها . والدولة العثمانية كما هو معلوم كانت تجمع قوميات متعددة وقد نشأت على أسس العقيدة ، والعقيدة وحدها التي تستطيع أن توحدها ، خاصة إذا علمنا أن الأتراك لم يكونوا يزيدون عن العرب في هذه الدولة الواسعة ، وكان هذان العنصران يشكلان جناحيها الخافقين ولم يكن يجمع بينهما إلى الإسلام .

وكان العربي يرى في الدولة العثمانية دولته ويرى في أمجادها وانتصاراتها أمجاداً له ومفاخر يتغنى بها ، وحتى بعد أن قامت دعوة التتريك وقف العرب موقف المشفق على هذه الدولة التي كانت تفرض احترامها على العالم أن تضيع وتتمزق ، وقد عبروا عن ذلك ببياناتهم ومؤتمراتهم واتصالاتهم التي كانوا يجرونها مع رجال الدولة .

لكن النافخين في النار من هنا وهناك ، والذين خططوا لتمزيق الدولة التي كانت — على ضعفها — ما تزال تمثل وحدة المسلمين وأملهم في استعادة قوتهم وكرامتهم أبوا إلا أن يسير الشوط إلى نهايته ، وهكذا نشأت القومية العربية ، ثم

---

١ — زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ٩٠ .

٢ — المرجع السابق : ٨٦ .

تطورت إلى مثل ما تطورت اليه القومية الطورانية عند الأتراك [١] . وما دمنا قد فتحنا باب القومية على المسلمين فقد كان من الطبيعي أن تنتهي إلى ظهور القومية الكردية وغيرها ، إذ ما الذي يمنع غيرك من المطالبة بما منحته لنفسك ما دمت قد أوصدت عليه الباب الوحيد الذي كان يصله بك وهو الإسلام .

وقد شجع على ظهور القومية العربية في صورتها العلمانية عدد من الدول التي كانت تطمح إلى احتلال الشرق الإسلامي وعلى رأسها بريطانيا ، وفي مذكرات آغاخان فصل عن ضباط بريطانيا السياسيين الذين شجعوا الحركة القومية العربية للوقوف أمام فكرة الدولة الإسلامية .

أما لورنس منفذ سياسة بريطانيا آنذاك فيقول مصوراً ذلك الهدف في كتابه «أعمدة الحكمة» : «وأخذت طول الطريق أفكر في سوريا وفي الحج ، وأتساءل هل تغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية ، وهل يغلب الاعتقاد الوطني الاعتقاد الديني ، وبمعنى أوضح هل تحل المثل العليا السياسية محل الوحي والإلهام وتستبدل سوريا مثلها الأعلى الديني بمثلها الأعلى الوطني ، هذا ما كان يجول في خاطري طوال الطريق».

ومعلوم أن الثورة على الأتراك قامت بتأييد بريطانيا ودعمها الأدبي والمادي ، ودعم حليفتها فرنسا ، وقد ثبت أن عدداً من الزعماء كانوا متصلين بالقنصليات الأجنبية لتلقي هذا الدعم [٢] .

---

١ - كان أول تنظيم لحركة القومية العربية على يد عدد من النصارى ، ثم اتصل هذا التنظيم بالماسونية ، ومعلوم ما بين الماسونية واليهود من اتفاق ، أنظر تفصيل ذلك في كتاب يقظة العرب لجورج أنطونيوس ١٤٩ .

٢ - يذكر جورج أنطونيوس في كتابه يقظة العرب ما يلي : «كان بعض الأتراك قد داهموا قبل وصول جمال باشا دمشق بقليل القنصليتين الفرنسيتين في دمشق وبيروت وفتشوهما ، فعثروا على رسائل فيها اتهام لبعض الشخصيات العربية المعروفة ، وكانت هذه الوثائق تتضمن أدلة على ما بذلوا من نشاط لا فرق بينه وبين الخيانة ولكن جمال باشا الذي عقد العزم على أن يخلف في النفوس أثراً حسناً اكتفى بإخبار الشريف حسين بما عثر عليه ووضع تلك الأوراق في أحد الأدراج وأقفل عليها .

وليس معنى إنكارنا للمبادىء القومية والعنصرية أننا نقف أمام وحدة العرب أو تعاونهم وتمتين أواصر القربى فيما بينهم ، فقد كان للعرب فضلهم على الدنيا حين حملوا لها رسالة الإسلام ، وسيكون لهم هذا الفضل مرة أخرى إذا أقاموا وحدتهم على أساسه وعملوا — وهم مهيأون لذلك أكثر من غيرهم بفضل لغتهم العربية وتوسطهم في العالم — على الأخذ به والتبشير به مرة أخرى . فالعروبة لا تنفصل عن الإسلام ، والمسلمون جميعاً يقرون للعرب بالفضل ، ويرغبون في تعلم العربية لأنها لغة القرآن ، ويكرمون العرب لأنهم يتلون هذا القرآن .

كتب شاه ولي الله عالم دلهي المتوفي سنة ١٧٦٥م يقول : «نحن غرباء في هذه البلاد (أي الهند) فلقد جاء أجدادنا منذ القديم ليعيشوا هنا ، فالنسب العربي واللغة العربية هما موضع اعتزازنا وافتخارنا وبهما كان طريقنا إلى معرفة الله رب الأولين والآخرين ، ولمعرفة محمد أشرف الأنبياء والرسل ، وعلينا أن نشكر الله على سابغ رحمته علينا وذلك بالتمسك قدر استطاعتنا بعادات وتقاليد أجدادنا العرب ، فقد جاء من بينهم نبينا الكريم ، وإليهم توجه أول ما توجه في دعوته» (١)

لكن القومية وعاء يأخذ شكله مما يمتلىء به ، لذا كانت في ذاتها لا تعني شيئاً أكثر من اجتماع مجموعة من الناس تعتقد بصلة خاصة تربطها فيما بينها ، وهكذا أصبحت الدعوة القومية المجردة دعوة رجعية ، «وأصبح نوابغ الفكر الحديث والمفكرون الأحرار ينكرون عليها في صراحة وقوة ويدعون إلى الجامعة الإنسانية والرابطة العالمية» (٢) وقد تأسس المعسكر الشيوعي على أساس عالمي ورفض القوميات وقام على مبدأ وعقيدة وشعار ، وتأسس مقابله ما يسمى بالعالم الديموقراطي ، وبدأنا نحن مع الأسف من حيث انتهت أوروبا ، وهكذا حال الأمة الضعيفة غير الواثقة من نفسها ، فقد ولّى عصر القوميات هناك وبدأ في شرقنا الإسلامي ، مع أن الإسلام أول دين يقيم العلاقات الإنسانية على أساس المبدأ والعقيدة .

---

١ — برنارد لويس ، الغرب والشرق الأوسط ، تعريب نبيل صبحي ص ١٥١ — ١٥٢ .

٢ — العرب والإسلام ، أبو الحسن الندوي ص ٩٤ .

هذا عن عالمية الإسلام ، أما شموله ؛ بمعنى شمول تنظيماته ومبادئه لجميع شؤون الإنسان والمجتمعات البشرية فإنه سيكون حديثنا حين تفصيلنا لنُظم الإسلام .

العبادة والعمل والمسؤولية

العبـــادة :

للعبادة في الإسلام وفي كل دين من الأديان الشأن الأول بين الفرائض والواجبات ، لأنها تؤكد إقرار المرء إقراراً كاملا بقلبه وجوارحه ، وخضوعه خضوعاً مطلقاً يطغى على كل خضوع ، لله الخالق الباقي من وراء كل وجود زائل .

لذلك نجد القرآن الكريم يحدد غاية الخلق بالعبادة ، غير مميز في هذا الخلق بين إنس وجن ، أو جماد وحياة ، فما من شيء في الوجود إلا ويسبح بحمده ويقدس له . يقول تعالى مشيراً إلى هذا المعنى : «وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون» (١)

وقد كانت الدعوة إلى عبادة الله دعوة الأنبياء جميعاً ، منذ شاء الله أن يبعث بالأنبياء والرسل إلى أن ختمت الرسالات والنبوات بمحمد عليه السلام : «ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله» (٢) ، وكان الناس كثيراً ما يضلون عن هذه الغاية لدقتها وسموها ، والقدر الكبير من الوعي واليقظة الذي تحتاج إليه ، فينصرفون

---

١ — الذاريات ٥٦ .
٢ — النحل ٣٦ .

إلى عبادة الأشياء من دون الله ، كالحجارة والشجر والكواكب والناس ، أو يخضعون لهذه المخلوقات خضوع عبادة ورجاء أو يتخذون من أهوائهم وشهواتهم أرباباً لهم من دون الله (١) وهذا ما كان يتطلب توالي الأنبياء والرسل يذكرون الناس بهذه الحقيقة ، ويبينون لهم زيف ما يدعون من دون الله ، ويأخذون عليهم العهود والمواثيق أن لا يعبدوا سواه (٢)

وإذا كانت العبادة غاية الوجود الإنساني كما هي غاية كل وجود ، فإن مفهومها لا يقتصر على المعنى الخاص الذي يرد إلى الذهن والذي يضيق نطاقها حتى يجعلها محصورة بأنواع الشعائر الخاصة التي يؤديها المؤمن ، إن حقيقة العبادة تبدو في معنيين ؛ أولهما عام والآخر خاص .

أما العبادة بالمعنى العام ، فإنها تعني السير في الحياة ابتغاء رضوان الله وفق شريعة الله ، فكل عمل يقصد به وجه الله تعالى والقيام بحق الناس استجابة لطلب الله تعالى بإصلاح الأرض ومنع الفساد فيها يعد عبادة . وهكذا تتحول جميع أعمال الإنسان مهما حققت له من نفع دنيوي إلى عبادة إذا قصد بها رضاء الله . فمن زرع زرعاً أو غرس غرساً فأكل منه إنسان أو دابة كتب له صدقة ، ومن سعى على عياله أو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أو قال كلمة طيبة فهو صدقة إذا كان قد أخلص نيته لله .

قال كعب بن عجرة رضي الله عنه : مرّ على النبيّ ﷺ رجلٌ ذكر أصحابُه من جلده ونشاطه ما أعجبهم ، فقالوا : يا رسول الله ، لو كان هذا في سبيل الله ،

---

١ – ذكر لنا القرآن الكريم أنواعاً متعددة عن هذه العبادات يمكن العودة إليها في الآيات والسور التالية : الأنعام ٥٦ ، مريم ٤٢ ، و ٤٤ ، المائدة ٧٦ ، العنكبوت ١٧ ، الشعراء ٧١ ، الزمر ٣ ، سبأ ٤١ .

٢ – يتضح لنا هذا المعنى إذا استعرضنا بعض آيات القرآن الكريم ، منها : « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله » ، البقرة ٨٣ ، « وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » ، التوبة ٣١ ، « ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً » النساء ١٧٢ ، « يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً » ، مريم ٤٤ .

فقال : «إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان» (١)

وعن أبي ذرّ رضي الله عنه ، أن ناساً قالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدّقون بفضل أموالهم ، قال : أوليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون به ، إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة ، قالوا : يا رسول الله ، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم او وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» (٢)

بل إن الاكتفاء بالعبادة بالمعنى الخاص والاستغناء بها عن إقامة النظام الاجتماعي انحراف في مفهوم الإسلام (٣) ، فقد روي أن النبي ﷺ رأى رجلا يتحامل على الناس فسأل عنه فقيل هذا عابدنا ، فقال عليه السلام ومَن يؤكله ، قالوا كلنا يؤكله ، فقال عليه السلام : كلكم خير منه . كما روي أن رجلا مثل هذا الرجل دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسأل كما سأل رسول الله ﷺ فقالوا له أخوه ، فقال عمر أخوه أعبد منه» (٤) ومن حديث الرسول عليه السلام : «إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصلي وأرقد ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء» (٥)

والعبادة هي العبودية معنى وحقيقة وكل ما يأتي به العبد في طاعة معبوده فهو عبادة . وأما العبادة بالمعنى الخاص فهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان

---

١ — أخرجه الطبراني في معاجمه الثلاثة ، والبيهقي من حديث أنس وابن عمر .
٢ — من صحيح مسلم .
٣ — محمد المبارك ، نظام الإسلام بحث العبادة .
٤ — محمد أبوزهرة ، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام صفحة ٩٨ .
٥ — رواه الشيخان والنسائي .

وحج البيت على المستطيع ، وهي نوع من التربية على العبادة الكاملة الحقة [1]

إن نوع العبادات بمعناها الخاص فرائض دينية يراد بها صلاح الفرد أو صلاح الجماعة أو صلاحهما معاً ، ويتحقق عن طريقها ارتفاع الجماعة عن صغائر الأمور وهموم الدنيا وخروجها من ضيق هذه الشواغل المحصورة ، كما يتعرف الناس بممارستها على غاية أرفع من هذه الغايات القريبة وميزان أقوم من ميزان المادة كلما استغرقتهم المنافع والأهواء . كما أن العبادة بهذا المعنى تنبه الإنسان على الدوام إلى وجوده الروحي الذي يجب أن يشغل بمطالب غير مطالبه الجسدية ، وتذكره بالوجود الخالد الباقي إلى جانب وجوده الزائل المحدود ، وأن عليه إذا أراد أن يعيش هذه الحياة أن يحيا حياة تمتد بآثارها إلى ما وراء معيشته اليومية [2] .

وقد أشار الأستاذ محمد أبو زهرة إلى أن العبادات تنتهي إلى نتيجتين : [3]

أولاهما : الاتجاه إلى تربية الوجدان الديني الذي يجعل المؤمن بالإسلام مؤتلفاً مع غيره ليتكون من هذا الائتلاف مجتمع إنساني متواد متحاب .

والثانية : أن غاية العبادات في الإسلام ليست مجرد التقوى السلبية ، لأنها تتجه إلى النفع الإنساني في العالم ، وإلى إيجاد مجتمع متحاب غير متباغض ولا متنازع ، فعلامة الإخلاص لله فيها أن تكون مطهرة للقلب قاضية على الشر فيه ، مؤلفة بينه وبين الناس من غير مراءاة ولا مغالاة .

ومن أهم ما تمتاز به العبادات الإسلامية أنها خالصة لله وحده ، فالمتعبد لا يتوجه بعبادته لنبي أو غيره ، وإنما يتوجه بها للذي فطر السموات والأرض ، وهي صلة مباشرة بين الإنسان وربه لا تحتاج إلى واسطة أو وسيلة ، ويمثلها بصورة واضحة دخول المصلي محرابه للصلاة فهو يدخل على الله دون إذن أو بواب ،

---

١ — المودودي ، مبادىء الإسلام صفحة ٩٤ .
٢ — عباس العقاد ، حقائق الإسلام صفحة ١٠٨ . .
٣ — المجتمع الإنساني في ظل الإسلام صفحة ٩٦ — ٩٧ .

ويكلمه دون ترجمان ، وهي تجمع بين حضور القلب وتوجه الجوارح لما في الإنسان من فطرة مزدوجة مادية وروحية ، وأخيراً فهي — لأنها تعبير عن الخضوع لله ومظهر له — توقيفية تؤدى كما وردت في الشريعة دون زيادة أو نقصان،[1] وليس معنى كونها توقيفية أنها لا تعلل بعلة ولا يعرف لها أسباب تدعو إليها وتفسر لنا اتباعها دون غيرها ، وإنما يقصد أنها في نهاية الأمر أوضاع توقيفية لا موجب من العقل للتحكم فيها بالاقتراح والتعديل لأن المقترح المعدل ان يستند إلى حجة أقوى من الحجة التي يرفضها أو يميل إلى سواها [2]

إن الصلاة رأس العبادات الإسلامية ، وهي في حقيقتها حضور مع الله تعالى ومناجاة له ، وقد قيل في هذا المعنى : «يا ابن آدم إذا أردت أن تدخل على مولاك بغير إذن وتكلمه بغير ترجمان فعلت ، قيل وكيف ذلك ؟ قال : تسبغ وضوءك وتدخل محرابك ، فإذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن ، فكلمه بغير ترجمان ».

والإنسان في صلاته يستقبل النهار ويتوسطه مرتين ، ثم يختمه، ويستقبل بليل بالوقوف بين يدي الله ، كأنه يستهديه في عمله ويؤدي إليه الحساب عن هذا العمل من ساعة اليقظة إلى الساعة التي يستسلم فيها للرقاد ، فهو يبتدىء يومه للصلاة الفجر التي يستحضر فيها عظمة الله وجبروته فيشرق النور في قلبه ويقدم على العمل بقلب سليم ويتعامل مع الناس بتلك النفس الطاهرة ، حتى إذا أخذ القلب يصدأ أو تعتريه الغفلة عن ذكر الله كانت صلاة الظهيرة ثم صلاة الأصيل ثم صلاة العشاء ، ثم يختم يومه بذكر الله تعالى كما ابتدأه به .[3]

وتُسبق الصلاة بطهارة اليدين والأطراف وفي ذلك تذكير بجوهر الصلاة من حيث هي تطهير للقلب ، وهي لا تقتصر على الذكر والدعاء والتلاوة ، وإنما

---

١ — للأستاذ محمد المبارك بحث قيم عن خصائص العبادة في الإسلام في كتابه : « نظام الإسلام » .
٢ — حقائق الإسلام ، للعقاد صفحة ١٠٤ .
٣ — محمد أبو زهرة ، المرجع السابق صفحة ٩١ .

يرافق هذا كله حركات جسمية كالركوع والسجود والقيام، وذلك حتى تتأكد معاني الخضوع لله والتعظيم والتقديس له، فقد خضع له القلب كما خضعت الجوارح وعظمه اللسان كما عظمه الوجدان، وكل ذلك يؤكد أن حضور القلب شرط أساسي في إقامة الصلاة وإنما يكتب للمرء من صلاته ما عقل منها؛ وإذا لم يكن في الصلاة تذكير بالله ولا تأمل ولا تفهم لم تكن مقبولة وإنما يذم صاحبها، لذلك قال تعالى: «فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون» (١)

وتيسيراً لهذه العبادة الأساسية التي هي عمود الإسلام وركنه الأصيل، فقد جعل الله الأرض كلها مسجداً وطهوراً يقيم فيها المسلم صلاته ويتوجه إلى خالقه، كما جعلها وسائر العبادات الأخرى في غير حاجة إلى وساطة رجال يكونون بين الإنسان وبين ربه، فحين يحضر وقت الصلاة يؤديها المسلم في المكان الذي يشاء، ويؤم المسلمين فيها أقرؤهم أو أعلمهم أو أفقههم، وإذا تساووا، أمّهم أي واحد منهم ما دام يحسن الصلاة ويعرف كيفيتها.

وقد أكد الإسلام تأكيداً شديداً على أداء فريضة الصلاة في جماعة، وافترض عليهم أن يؤدوا صلاة الجمعة في كل أسبوع بالجماعة على وجه خاص، ذلك لأن الصلاة جماعة تنشيء الاتحاد والمحبة والإخاء بين المسلمين، وتجعل منهم كتلة متراصة لأنهم عندما يجتمعون ويقنتون لربهم ويسجدون له ويركعون معاً تأتلف قلوبهم وينشأ فيهم الشعور بالأخوة «ثم إن الصلاة في جماعة تدربهم على طاعة أمير ينتخبونه من بين أنفسهم وتربيهم على النظام والانضباط والمحافظة على الأوقات، وتنشيء فيهم المواساة والتراحم والمساواة والائتلاف فتراهم جميعاً غنيهم وفقيرهم وكبيرهم وصغيرهم وأعلاهم وأدناهم يقومون جنباً إلى جنب يذكرون رباً واحداً ويدينون بالعبودية للإله الكامل.

وعبادة الصوم تؤدي دورها في تربية الوجدان وتهذيب النفس، فهو شهر

---

١ — الماعون: ٤ — ٧.

الرياضة الروحي والتجرد من اللذات والشهوات طوال نهار ذلك الشهر وطرفاً من الليل . ولا يقتصر معنى الصوم على التخلي عن شهوات الجسد ؛ وإنما يشمل كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، أضف إلى ذلك صوم القلب عن الهمم الدنيئة والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل .

إن المسلم في صيامه يذكر حق الروح من شرابه وطعامه ، ويذكر أنه ذو إرادة تأخذ بيديها زمام جسدها ولا تترك لهذا الجسد أن يأخذ بزمامها ويتصرف على هواه ، ولا شك أن من ورائه خشية الله تعالى ، واليقين بكونه خبيراً بصيراً ، والإيمان باليوم الآخر ، والحضور في محكمة الله ، والطاعة الشديدة للقرآن والرسول .

أما عبادة الزكاة فهي المذكر للإنسان بحصة الجماعة من ماله الذي يكسبه بكده وعمله وهي المذكر له بأن يعمل لغيره كما يفعل لنفسه وهي الامتحان فيما تهوى الأنفس من المال والمتاع ، إن الزكاة عبادة روحية يتقرب بها العبد إلى الله تعالى ويستحق بإعطائها مختاراً محتسباً النية راجياً بها أن تكون غنماً له لا غرماً عليه ، وهي من ناحية أخرى فريضة شرعية تجبى كما تجبى الضرائب الأخرى يحاسب عليها حساباً مادياً دنيوياً ، وقد قرنت الزكاة في معظم الآيات بالصلاة تأكيداً على المعاني الجليلة التي جاءت لتقيمها في حياة المسلمين ، فعن طريق أدائها يتحلى المسلمون بأوصاف التضحية والإيثار وتزول من قلوبهم الأثرة وحب الذات وضيق الصدر وعبودية المال ، إن الإسلام لا يحتاج الى البخيل الشحيح الذي يعبد المال ويتكالب عليه ، وإنما يحتاج إلى الإنسان المستقيم الذي يضحي في سبيل الله بماله الذي اكتسبه بعرق جبينه دون أدنى غرض ذاتي ، ولا شك أن الزكاة تروض المسلم على هذه التضحية وتجعله يقبل على إنفاق ماله إذا بلغ الأمر مبلغ الجد بكل انشراح وطيب خاطر منه .

وإذا كان الإسلام ديناً يدعو الناس كافة إلى عبادة رب العالمين ، فالحج هو الفريضة التي تتمثل فيها هذه الأخوة الإنسانية على تباعد الديار واختلاف الشعوب والأجناس . والحج عبادة بدنية ومالية ، يذهب المسلمون فيه من كل فج

عميق إلى بيت الله تعالى ، ويشعرون أنهم في ضيافته ، متخلفين عن الأهل والمال والولد وجميع مظاهر الترف والرفاه ، ويلتقون على مائدته الروحية على تقوى من الله ورضوان . ومن معالم الوحدة الإنسانية التي يتمثلها المسلمون في موسم الحج أنهم يشاهدون آثار أبي الأنبياء ابراهيم عليه السلام فيشعرون بوحدة العبادة في الأديان السماوية كلها ، ويحسون بأصل الإنسان المشترك ويتحققون بالمساواة المطلقة من غير تفرقة بين الأقاليم والأجناس . والحج بالإضافة إلى ذلك ذكر دائم لله في أشهر معلومات وذكر الله دواء القلوب وقرار النفوس الخائفة المستجيرة بالله .

هذا ويمكن أن يعتبر من العبادات المخصوصة ، التأمل والتدبر في آيات الله ومخلوقاته ، وذكر الله ، وتلاوة القرآن ، والدعاء ، والاستغفار ، وتذكر الشهادتين ومعناهما ، فكلها تؤدي واجبها في تذكير الإنسان بوجوده الروحي وتذكيره بوجود أسمى من وجوده وأبقى .

* * *

العمـــل :

والعمل نوع من العبادة بمعناها العام كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، فقد خلق الله الإنسان ليعمر هذه الأرض بالخير وللخير ، ويسرّ له بناء هذا الكون ، واستخلاص ما فيه من كنوز وخيرات .

ويرتبط العمل في الإسلام بنتيجته التي يجب أن تترتب عليه ، وهي شكر الله واستغفاره ، وتذكر المسؤولية الكاملة عن عمله في هذه الدنيا . يقول الله تعالى : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب» [1] فقد نشأ الإنسان من هذه الأرض التي أوكل الله إليه عمارتها وتحري سبل الخير فيها ، لذا كان عليه أن يتذكر هذا المعنى على الدوام بالاستغفار والتوبة مع الاعتقاد الجازم باستجابة الله لكل توبة نصوحة أو عمل خالص .

وقد اقتضت سنة الله في الخلق ، أن لا ينال الإنسان شيئاً مما على الأرض أو

---

١ — هود ٦١ .

ما في باطنها من نعم وأرزاق وأقوات إلا بجهد يبذل وعمل يؤدى : «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه»، فمن مشى أكل ومن كان قادراً على المشي ولم يمش كان جديراً ألا يأكل . .

وقد قيل لأحمد بن حنبل ما تقول فيمن جلس في بيته أو في المسجد وقال لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي ، فقال أحمد : هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبي ﷺ «جعل رزقي تحت ظل رمحي» (١) وقوله حين ذكر الطير : تغدو خماصاً وتروح بطاناً (٢) فذكر أنها تغدو في طلب الرزق ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم ، والقدوة بهم» (٣)

وروي أن عمر رأى بعد الصلاة قوماً قابعين في المسجد بدعوى التوكل على الله فعلاهم بدرته وقال كلمته الشهيرة : «ولا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وإن الله تعالى يقول : «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله» (٤)

إن الله تعالى خلق هذا العالم على نظام وتقدير وترتيب ، وهو يحتاج إلى عقل الإنسان يعمله في الوقوف على نواميس هذا الكون وقواعده ، لأنها مفاتيح مغاليقه ووسائل الاستفادة منه ، ثم هو يحتاج إلى عمله ليكمل دائرة الفائدة ، وحين يقصر الإنسان في استخدام هذه الطاقات التي أمده الله بها ، أو يقعد عن القيام بدوره الصحيح في هذا الكون ، فهو مخالف لحكمة الله من خلقه مجانب لأوامر الله تعالى ، على عكس من يبذل جهده ويستنفد طاقته فانه جدير به أن ينال رضى الله وغفرانه : «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً» (٥)

---

١ — رواه أحمد من حديث ابن عمر .

٢ — الحديث : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » استدل به بعض المتواكلين على عدم جدوى العمل مع أن ذلك يخالف منطوق الحديث .

٣ — يوسف القرضاوي ، مشكلة الفقر وحلها في الإسلام صفحة ٤٦ — ٤٧ .

٤ — الجمعة ١٠ .

٥ — الكهف ١١٠ .

ومن أجل ذلك كان واجباً على المسلمين أن يسلكوا جميع السبل التي تتيح لهم الوقوف على أسرار هذا الكون وتحقيق منفعة الإنسان من هذه الأسرار ، وليس ذلك فحسب ، بل واجب على المسلمين أن يكونوا الرواد في هذا الميدان كما كانوا الرواد في دعوة الناس إلى الإيمان بالله والعبودية له والتخلق بالأخلاق الكريمة ، ويأثم المسلمون حين يكون عند غيرهم علم نافع أو مهنة مفيدة يجهلونها هم ،ومن هنا كان العمل نوعاً من العبادة والقربى إلى الله يؤديها المسلم بكل إخلاص كما يؤدي صلاته بكل تبتل وخشوع .

ولا يترك العمل بحجة الانقطاع الكامل لعبادة الله لإن سعي الإنسان نوع من الجهاد في سبيل الله : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله » (١) كما لا يترك بدعوى احتقاره والاستهانة به فقد رفع الإسلام من قيمة العمل أياً كان نوعه وحقر من شأن البطالة والاتكال على الآخرين ، ولحكمة عظيمة كان الأنبياء جميعاً يعملون : « ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم ، قالوا : وأنت يا رسول الله ، قال كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » (٢) وقال رسول الله ﷺ : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » (٣) وهكذا كان شأن أئمة الإسلام وأعلامه ، فقد كان منهم البزاز والقفال والزجاج والخراز والخصاص والخواص والصبان والقطان ... وغيرهم من الفقهاء والمؤلفين والعلماء المتبحرين في شتى جوانب الثقافة الإسلامية (٤) .

إن التواكل والقعود عن السعي خلق يأباه الإسلام للمسلمين ، لأنه عدا عن كونه يتعارض مع قواعد الإسلام العامة في معنى العبادة ، فإنه يحجب

---

١ — المزمل ٢٠

٢ — رواه البخاري .

٣ — رواه البخاري .

٤ — يوسف القرضاوي ، مشكلة الفقر ٥١ .

المسلمين عن مكان الصدارة في هذا العالم ، فقد أريد للأمة الإسلامية أن تكون الأمة الممتازة في تقديرها لحتميقتها وتقويمها لنفسها ومكانتها بين الأمم ، « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ، والشهادة هنا عامة شاملة لا تقتصر على جانب من جوانب الحياة أو نوع من أنواع السلوك .

وهذه بعض الآيات التي تؤكد الأهمية الكبيرة التي يرتبها القرآن على العمل :

« مَن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »[1] .

« ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى »[2] .

« ومن أحسن قولا ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين »[3] .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً »[4] .

« ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير، وألنّا له الحديد ، أن اعمل سابغات وقدّر في السّرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير »[5] .

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً »[6] .

« فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى »[7] .

« إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه »[8] .

* * *

١ – النحل ٩٧ .
٢ – طه ٧٥ .
٣ – فصلت ٣٣ .
٤ – الكهف ٣٠ .
٥ – سبأ ١٠–١١
٦ – الكهف ١١٠ .
٧ – آل عمران ١٩٥ .
٨ – فاطر ١٠ .

المسؤوليـــة :

إذا كان للمناطقة أن يعرّفوا الانسان — مقدرين مزاياه العقلية — بأنه حيوان ناطق ، أو جاز للاجتماعيين أن يعرّفوه — مؤكدين على جانب علاقاته الاجتماعية — بأنه حيوان مدني بالطبع ، فإنه يمكن تعريف الإنسان من وجهة نظر الشريعة بأنه الكائن المكلف ، لأنه من بين سائر المخلوقات التي تعيش على وجه الأرض مناط التكليف والمسؤولية . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التكليف بقوله : «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » [1] .

وقد كان الإنسان مكلفاً لسبب رئيسي ، هو أنه الوحيد بين هذه الكائنات الذي يملك إرادة حرة يستطيع بها أن يختار طريقه ضمن نطاق السنن والقوانين والأقدار التي أحيط بها . فالجماد يطيع إطاعة آلية دون إرادة أو اختيار خاضعاً للقوانين والسنن التي وضعها الله ، أما الحيوان فإنه محكوم بغرائزه التي ركبها الله فيه ولا يستطيع الخروج على قواعد هذه الغريزة المسيطرة .

إلا أن الإنسان خُصّ بطبيعة أخرى ، ذلك أنه تعالى جعله في بعض جوانب حياته خاضعاً لسنن الكون لا يستطيع الخروج عنها « إذ تنطبق عليه قوانين الجو الذي يعيش فيه بالضغط الجوي وقوانين الجسم من الهضم والدورة الدموية وقوانين الحرارة والضوء وغيرها من هذه السنة الكونية ، ولكنه من جهة أخرى خلق له قدرة وإرادة حرة مختارة تختار ما تريد من الأفعال والتصرفات دون إجبار أو إكراه » [2] ووجود هذه الإرادة هي التي ترتب مسؤولية الإنسان عن جميع أعماله التي يكسبها بنفسه ، وارتفاع الإنسان وهبوطه منوطان بالتكليف وقوامه الحرية والمسؤولية ، فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة الخليفة ، وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين . والمسؤولية التي تترتب على الإنسان مسؤولية

---

١ — الأحزاب ٧٢ .

٢ — نظام الإسلام : العقيدة والعبادة ٨٢ .

فردية ، فليس من العدل أن يتحمل امرؤ نتائج خطيئة لم يرتكبها ، ولا من العدل أن يثاب إنسان بحسنات الآخرين ، وإليك بعض الآيات الكريمة التي تشير إلى هذا المعنى :

« أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفّى ، ألاّ تزر وازرة وزر أخرى » (١) .

« بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار » (٢)

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا » (٣)

« ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلَمون » (٤)

« لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » (٥)

« ووُفيّت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (٦)

« اليَومَ تُجزَى كل نفس ما كسبت ، لا ظلم اليوم » (٧)

« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » (٨)

وما دام حديثنا عن التكليف والمسؤولية فإن مسألة القدر لا بد أن تجابه الباحثين ، لأنها قضية الإنسان الكبرى في علاقته الأبدية بالكون ، كما أنها مسألة الحرية الإنسانية والإرادة المختارة ، وقد بدأ الإنسان بالحديث عنها منذ أن

١ — النجم ٣٦— ٣٨ .
٢ — البقرة ٨١ .
٣ — المائدة ٣٨ .
٤ — البقرة ٢٨١ .
٥ — البقرة ٢٨٦ .
٦ — آل عمران ٢٥ .
٧ — غافر ١٧ .
٨ — البقرة ١٣٤ .

اكتشف نفسه ، وستبقى حتى نهاية الزمان ، ولم تواجهها عقيدة بأفضل مما راجهها به الإسلام [1] .

فقد كان الهنود يعتقدون أن للقدر الحكم الأول والأخير في جميع المخلوقات : الناس والأحياء والنبات والجماد ، [2] أما المجوس فقد آمنوا بانقسام الوجود بين إله النور وإله الظلام ، فكل ما غلب عليه إله النور فهو خير وكل ما غلب عليه إله الظلام فهو شر ، ولا عاصم لإله النور نفسه من غلبة الشر عليه في تلك الحرب الدائمة ، واعتقد اليونان بغلبة القدر على العباد والمعبودين ، وفي عقيدة الشعب المختار عند اليهود تأكيد لغلبة حكم القدر باختيار الإله لشعب يؤثره على سائر الشعوب وذرية يؤثرها على سائر الذريات بغض النظر عن كسب الناس وأفعالهم .

أما في المسيحية ، القائمة عند المسيحيين ، فإن عقيدة الخطيئة أبلغ دلالة على تغلب حكم القدر ، فقد ربطت هذه العقيدة بين خطيئة آدم وقضاء الموت — أو الهلاك الروحي — عليه وعلى أبنائه [3] .

ومذهب الواقعيين من الفلاسفة أن الإنسان يملك الإرادة التي تختار ، لكن هذه الإرادة مقيدة بتكوين الإنسان الوراثي والجسمي والاجتماعي ، فهي تولد معه دون اختياره ، وهكذا فإنه يفعل كما يريد ، لكنه لا يريد كما يريد . بينما يرى الروحيون من الفلاسفة أن جسد الإنسان خاضع لأحكام المادة كسائر الأجساد ، وأن روحه طليقة مختار يخضع لجسده في أمور ويخضع هو جسده في أمور أخرى .

---

١ — العقاد ، حقائق الإسلام صفحة ٨١ .

٢ — يقول الله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » « وكل شي. عنده بمقدار » « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » ، وهكذا يمكن تفسير القدر بأنه سير الكون على نظام معين ووفقاً لسنن معينة في تقديراتها الكمية والكيفية .

٣ — العقاد، المرجع السابق ٨٢ — ٨٣ .

وكل هذه العقائد والمذاهب لا تحل مشكلة القدر على الوجه الذي تطمئن إليه القلوب والعقول كما يفعل الإسلام ، إذ أن العقل مع الإيمان بوجود الله لا يستطيع أن ينكر قدرته وحكمته وعداله في إجراء هذه الحكمة والقدرة ، كما أن العقل لا يستطيع أن يعتقد بأن الإنسان المكلف والحجر الجامد سواء في الاختيار ، وإنما تبرز المشكلة عندما يحتاج الإنسان إلى التوفيق بين قدرة الله وعدله فيما يصيبه من ألم الجزاء وعذاب الندم ، ولا يحل هذه المشكلة إلا أن نتذكر أن العدل الإلهي لا تحيط به النظرة الواحدة إلى حالة واحدة .

إن البقعة السوداء في الصورة الجميلة – كما يقول الأستاذ العقاد[1] – وصمة قبيحة إذا حجبنا الصورة ونظرنا إلى تلك البقعة بمعزل عنها ، ولكن هذه البقعة السوداء قد تكون في الصورة كلها لوناً من ألوانها التي لا غنى عنها أو التي تضاف إلى جمال الصورة ولا يتحقق لها جمال بغيرها . ونحن في حياتنا القريبة قد نبكي لحادث يصيبنا ثم نعود فنضحك أو نغتبط بما كسبناه منه بعد فواته .

فالنظر إلى الكون في ألف سنة ، يكشف لنا من دلائل التوفيق بين القدرة الإلهية والعدل الإلهي ، ما لا تكشفه النظرة إليه في سنة واحدة . وندع القول عن النظرة للحادث الواحد في الناحية الواحدة من حياة فرد معين من أفراد الأمم الإنسانية .

وعلى هذا النحو نقول إننا نقترب من التوفيق بين القدرة الإلهية والعدل الإلهي ، ولا نقول إننا نحيط بدلائل هذا التوفيق جميعها ، فإن الإحاطة بدلائل الحكمة الإلهية أمر غير معقول في حكم العقل نفسه إذا كان العقل المحدود لا يحيط بالقدرة التي ليست لها حدود » .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم ما ورد في القرآن الكريم من آيات تتحدث عن قدرة الله وحرية الإنسان وعدل الله في إجراء قدرته ومحاسبة الإنسان على حريته :

---

١ ــ حقائق الإسلام ٨٦ .

« وما تشآؤن إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليماً حكيماً » (١)

« ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » (٢)

« ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتّى يغيروا ما بأنفسهم » (٣)

« كل امرىء بما كسب رهين » (٤)

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » (٥)

« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ؛ ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها » (٦) .

---

١ — الإنسان ٣٠ .
٢ — السجدة ١٣ .
٣ — الأنفال ٥٣ .
٤ — الطور ٢١
٥ — العنكبوت ٦٩ .
٦ — آل عمران ١٤٥ .

الفصل الثاني

نظم إسلاميّة

النظام السياسي

المعروف عند معظم الذين تأثروا في دراستهم بالمناهج والاتجاهات الأجنبية أن الدين علاقة بين الإنسان وربه ، أو بمعنى آخر أنه أشكال العبادات والطقوس التي يمارسها الإنسان إعلاناً عن اعترافه بوجود الله وخضوعه له . وعلى ذلك فهم يعتقدون أن الدين يقتصر على هذه العلاقة فلا يتعداها إلى تنظيم شؤون الحياة وأمور الكسب والمال ووضع أسس المجتمع وقواعده التي تعتمد عليها مختلف أنواع النشاط الإنساني الفكري والاجتماعي ، مع صور التشكيل الاجتماعي بكل تنظيماته السياسية والاقتصادية والمالية والعسكرية والقضائية وغيرها ، أي إن أصحاب هذا الرأي يفصلون بين أمور الدين والدنيا ويجعلون ما يتعلق بأمور الدنيا خاصاً بالإنسان لا شأن للدين به .

والحقيقة أن الإسلام يختلف عن تصورهم ، لأنه جاء لينظم أمور الإنسان جميعاً ، لذلك فإنه يشمل مفهوم الدين حسب تصورهم من حيث أنه تنظيم للعلاقة بين الإنسان عن طريق أداء عبادات معينة ، ثم هو بعد ذلك تنظيم للعلاقات التي تقوم بين الأفراد والمجتمعات بعضها مع بعض . فالإسلام دين ودولة ، عقيدة ونظام ، أخلاق وتشريع ، سياسة وحكم ويمكن أن نقول إن

---

* نشر هذا البحث في كتاب « النظام السياسي في الإسلام » للمؤلف .

مفهوم العبادة في الإسلام يتسع بحيث يشمل كل أعمال الإنسان ما دام يقصد منها وجه الله تعالى ، فلا يقتصر على طقوس وأعمال معينة يؤديها الإنسان في أوقات وأوضاع محدودة .

وبناء على هذا فإننا سنعرض لتنظيم السياسة والمال والأخلاق والاجتماع الإنساني في النظام الإسلامي ، مبينين أسس كل من هذه التنظيمات وغاياتها وأهدافها ، مع مقارنتها بالأنظمة الأخرى وخاصة الحديثة منها ، لنعلم مدى تفوق نظام الإسلام على الأنظمة الأخرى ، ولا عجب في ذلك فهو منزل من الله الحكيم الخبير ، وما تخطة يد الحكمة الإلـــهية لا يـرقى إليه ما تحدثه أفهام الناس وعقولهم .

وسنبدأ بالنظرية السياسية أو التنظيم السياسي في الإسلام ، لأنه أساس سائر التنظيمات الأخرى ، فجميع أشكال التنظيم إنما تعتمد أولا على الحكم ، فإذا ما وضح شكل الحكومة وأهدافها وغاياتها سهل التعرف على التنظيم المالي وغيره .

هل يجب إقامة الدولة على مبادىء الإسلام ؟

إن شمول الإسلام للسياسة والحكم ، حقيقة لم تكن موضع جدل بين المسلمين حتى نهاية الخلافة العثمانية . يؤيد ذلك طبيعة الإسلام ، وتاريخ المسلمين منذ هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة . ولم تكن هذه الحقيقة موضع شك لدى العلماء ، فقد أجمعت المصادر الرئيسية في الفكر الإسلامي عليها ، ونستطيع أن نوضح هذه الحقيقة من خلال الفقرات التالية :

١ ـ ما ورد في القرآن الكريم حول إقرار فكرة الدولة .

٢ ـ ما أقرته السنّة النبوية وسيرة الرسول من تنظيم الدولة، وما أقره الواقع التاريخي .

٣ ـ ما ذكرته المصادر الرئيسية الإسلامية المعتمدة حول هذا الموضوع .

١ ــ القرآن والدولة :

ورد في القرآن الكريم آيات متعددة في تأكيد فكرة قيام الدولة والسلطة ، من هذه الآيات ما يشير إلى طاعة أولي الأمر ، كقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم »[١] وقوله : « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »[٢]

ومنها ما يأمر به القرآن النبي محمداً عليه الصلاة والسلام بممارسة شؤون متنوعة قضائية وحربية وإدارية ، مما يدخل في نطاق مهام الدولة ، وذلك كقوله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين »[٣] وقوله : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك »[٤] .

٢ ــ السيرة والسنة النبوية وإقرار فكرة الدولة :

لقد مارس النبي ﷺ مهام الدولة والسلطان فقضى في مختلف الشؤون المالية والعائلية والعقوبات ، وأقام الحدود ، وعين الولاة ، وقواد السرايا ، والدعاة إلى الإسلام ، وجباة الصدقات ، وقاتل الأعداء ، وقبض الفيء ، وخمس الغنائم والزكاة ، ووزعها ، إلى غير ذلك من شؤون الحكم ، فتوطد الحكم برئاسته فعلاً ، تنفيذاً لتلقينات القرآن وتوجيهاته .

وقد ارتفعت بعض الأصوات في الفترة الأخيرة تنكر أن تكون تصرفات الرسول من أعمال الحكام أو أن يكون لها علاقة بسياسة الدولة ، وادعت أن

---

١ ــ النساء ٥٩ .
٢ ــ النساء ٨٣ .
٣ ــ آل عمران ١٥٩ .
٤ ــ المائدة ٤٩ .

تصرفاته كلها عليه الصلاة والسلام كانت تختص بشؤون الدين والدعوة إليه . وأراد هؤلاء الكتاب أن يصلوا إلى فصل الدين عن الدولة وإنكار أن يكون نظام الخلافة الذي ساد بين المسلمين عصوراً طويلة ، من النظام الإسلامي . (١)

وللرد على هذا الكلام سنحاول أن نعرض بشكل موجز لمعنى الدولة في القانون الدستوري والدولي العام لنرى إلى أي حد كانت حكومة الرسول تمثل كيان دولة ، وإلى أي مدى كان الرسول ﷺ يباشر أعمالاً سياسية ، وقد قدم رجال القانون تعريفات كثيرة للدولة نستطيع أن نستخلص منها أن الدولة هي : « جماعة من الناس تقيم بصورة دائمة في إقليم معين ، ولها شخصيتها المعنوية ، ونظامها الذي تخضع له وأحكامها واستقلالها السياسي » وهكذا فإن الأركان التي يتحقق بها وجود الدولة وقيامها هي :

١ — شعب يقيم بصورة دائمة في رقعة معينة من الأرض .

٢ — شخصية معنوية يتمتع بها هذا الشعب ويمثلها صاحب السلطان .

٣ — نظام يخضع له ويبين طبيعة الحكم .

٤ — استقلال سياسي يجعل هذا الشعب قائماً بذاته لا تابعاً لدولة أخرى .

---

١ — يقول رائد هذا الاتجاه علي عبد الرزاق في كتابه « الإسلام وأصول الحكم » : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا دعوة لدولة ، وإنه لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم ملك ولا حكومة ، وإنه صلى الله عليه وسلم لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها ، ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل ، وما كان ملكاً ولا مؤسس دولة ولا داعياً إلى ملك » .

وحين يصطدم المؤلف بالحقيقة الواقعة وهي أن الرسول باشر سلطات سياسية شاملة على المسلمين بجانب كونه رسولا يبلغ دعوة الله ، وأن من السلطات السياسية التي باشرها الرسول : الجهاد والحروب وتنظيم ما بعد الحرب من عقد المعاهدات وإقامة الحدود ، ولا يجد المؤلف وسيلة لإنكار ذلك ، فإنه يلجأ إلى القول بأن الرسول باشر كل ذلك كوسيلة من وسائل تثبيت الدين وتأييد الدعوة ، واستمع إليه يقول : « لا يريبنك هذا الذي تراه أحياناً في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيبدو لك كأنه عمل حكومي ومظهر للملك والدولة فإنك إذا تأملت لم تجده كذلك ، بل هو لم يكن إلا وسيلة من الوسائل التي كان عليه صلى الله عليه وسلم أن يلجأ إليها تثبيتاً للدين وتأييداً للدعوة » .

واقد تحققت هذه الأركان كلها في حكومة الرسول في المدينة ، فقد كان هناك شعب يقيم دائماً في المدينة وما حولها ثم الجزيرة العربية كلها ، وكان لهذا الشعب شخصية معنوية يمثلها سلطان الرسول وحكمه ، كما كان له نظام يخضع له فتقام الحدود ويحكم بين الناس ،كما كان هذا الشعب مستقلاً استقلالاً كاملاً لا يتبع أي دولة من الدول الكبرى المعروفة آنذاك كدولة فارس أو الروم أو الحبشة. وكل مطلع منصف على القرآن وواقع التاريخ الإسلامي وحياة الرسول عليه الصلاة والسلام لا بد أن يصل إلى الحكم الجازم بأن الرسول في المدينة كان يؤسس دولة ، بالإضافة إلى أنه كان داعية إلى الله ورسولا نبياً .

بل إن طبيعة دعوة الرسول وحقيقة الإسلام لا يتصوران إلا باندماج مفهوم الدولة والدين معاً ، وقد اعترف بهذه الحقيقة كثير من الغربيين والشرقيين (١) .

ونحن لا ندري كيف يكون الحكم وكيف تكون الدولة إذا لم تكن أعمال الرسول في المدينة من قبيل أعمال الحكم والدولة . أولا يعد من الحكم إقرار النظام ، وإقامة الحدود ، والحكم بين الناس ، وتوقيع المعاهدات ؟ وإذا لم يكن هذا كله من قبيل ممارسة الحكم فما هو الحكم إذن ؟

واستمع للرسول عليه الصلاة والسلام يعلن قيام الدولة الإسلامية في المدينة في كتاب كتبه بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود ، وعاهدهم ، وأقرهم

---

١ — يقول الدكتور فيتز جيرالد : ليس الإسلام ديناً فحسب ولكنه نظام سياسي أيضاً ، وعلى الرغم من أنه قد ظهر في العهد الأخير بعض الأفراد من المسلمين ممن يصفون أنفسهم بأنهم عصريون يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين فإن صرح التفكير الإسلامي كله قد بنى على أساس ان الجانبين متلا زمان لا يمكن أن يفصل أحدهما عن الآخر .

ويقول الأستاذ نللينو : المستشرق الإيطالي المعروف : لقد أسس محمد في وقت واحد ديناً ودولة ، وكانت حدودهما متطابقة طول حياته .

ويقول الدكتور شاخت : إن الإسلام يعني أكثر من دين ، إنه يمثل أيضاً نظريات قانونية وسياسية ، وجملة القول إنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معاً .

ويقول الأستاذ ستروتمان : الإسلام ظاهرة دينية وسياسية ، إذ أن مؤسسه كان نبياً وكان حاكماً مثالياً خبيراً بأساليب الحكم .

على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم . وقد افتتح الرسول الكتاب على النحو التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ؛

هذا كتاب من محمد ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومَن تبعهم فلحق بهم وعاهد معهم ، **إنهم أمة واحدة من دون الناس ..** »

ولعل هذا الكتاب يحتوي أيضاً على ميثاق عدم اعتداء بين الدولة الإسلامية واليهود في ذلك الحين .

ومما وردت به السنة النبوية حول وجوب إقامة الدولة قول الرسول : « مَن مات وليس في عنقة بيعة مات ميتة جاهلية » وقوله في تأكيد هذا المعنى : « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم » ويقول عليه السلام : « لا يحل لثلاثة يكونون في فلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم » .

فإذا كان الرسول لا يسمح لثلاثة من المسلمين أن يبقوا دون أمير أو مسؤول فكيف ، يقبل بقاء ملايين المسلمين دون أن تجمعهم دولة ونظام وحكومة ترعى شؤونهم وتدافع عنهم وتؤمن مصالحهم .

ومن أحاديث الرسول في هذا المعنى قوله : « كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته » وقوله : « مَن أتاكم وأمرُكم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه . ومن خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ، ومَن مات وليس في عنقه بيعة مات ميته جاهلية » .

هذا بالنسبة للرسول وسيرته ، على أننا إذا ألقينا نظرة على واقع المسلمين بعد وفاة الرسول ، فإننا نجد أنهم جعلوا من اختيار الحاكم وانتخابه مهمة تفوق مهمة دفن الرسول ، فقد انصرف بعض المسلمين لتجهيز الرسول ، وانصرف سائرهم للاجتماع في سقيفة بني ساعدة ، وبعد مناقشات طويلة سادتها روح

الديمقراطية والشورى الكاملة أقر المسلمون انتخاب أبي بكر رضي الله عنه خليفة لرسول الله لسابق قدمه في الإسلام وصلته بالرسول . ولم يحدث بعد ذلك أن بقي المسلمون دون خليفة أو مسؤول عن شؤونهم يدافع عن الإسلام والمسلمين ، ويحمي الدولة من عدوان الأعداء ، ويقيم العدل بين الناس ، وقد خلف أبا بكر عمر رضي الله عنه ثم عثمان ثم علي .. حتى انتهت الخلافة بانتهاء الحرب العالمية الأولى وما تزال الشعوب الإسلامية موجودة ..

٣ ـ وإليك أقوال بعض الباحثين المعتمدين في هذه الدراسات :

ولتأكيد ما نقوله من وجوب قيام الدولة المسلمة وعلى أساس إسلامي نورد أقوالاً لبعض الصحابة والسلف الصالح ، كما نسوق بعض ما ذكر من المصادر السياسية المعتمدة حول هذا الموضوع .

يقول أبو بكر رضي الله عنه : (إن محمداً مضى بسبيله ولا بد لهذا الدين ممن يقوم به .) ويقول عمر بن الخطاب : (لا إسلام إلا في جماعة ولا جماعة إلا بإمارة ولا إمارة إلا بطاعة) ويقول الماوردي في الأحكام السلطانية : (عقد الإمامة لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع) . ويقول الغزالي في الاقتصاد في الاعتقاد : (إن الدنيا والأمن على الأنفس والأموال لا ينظم إلا بسلطان مطاع ، وهذا تشهد له مشاهدة أوقات الفتن بموت السلاطين والأئمة ، وأن ذلك لو دام ولم يتدارك بنصب سلطان آخر مطاع دام الهرج وعم السيف وشمل القحط) .

ويقول ابن تيمية في السياسة الشرعية : (يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا يقام الدين إلا بها ، فان بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس ، حتى قال النبي ﷺ : « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم » . وجاء في مسند أحمد أن النبي ﷺ قال : « لا يحل لثلاثة يكونون في فلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم » ، فأوجب الرسول تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع . ثم إن الله أوجب الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يتّم ذلك إلا بقوة وإمارة . ومثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سائر ما أوجد الله من الجهاد والعدل وإقامة الحدود وغيرها مما لا يتّم إلا بالقوة والإمارة ، ولهذا روي : (إن السلطان ظلّ الله في الأرض) وروي : (ستون سنة مع إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان) .

ويقول ابن خلدون في مقدمته : (إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين ، لأن أصحاب الرسول ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وإلى تسليم النظر إليه في أمورهم وكذا في كل عصر بعد ذلك ، ولم يترك الناس فوضى في عصر من الأعصار ، واستقر ذلك إجماعاً دالا على وجوب نصب الإمام ، وقد ذهب بعض الناس إلى أن مدرك وجوبه العقل ، وأن الإجماع الذي وقع إنما هو بقضاء العقل فيه) ..

وهكذا نجد أن الأدلة والأقوال كلها تتضافر على أن الإسلام دين ودولة ، وأن النظام السياسي من النظم التي جاء بها الإسلام ليضمن تطبيق مبادئه وما يدعو إليه من خير ومعروف ومصلحة للناس في الدنيا والآخرة .

ولعل من المناسب أن نختم هذه الفقرة بما ورد في القرآن من نص على وجوب استمرار مهمة الدولة والسلطان بعد النبي ﷺ ، لأن الآيات الواردة تخاطب المسلمين عموماً دون تخصيص لعهد معين أو فترة خاصة ، وهي تأمر المسلمين بالقيام بجميع الواجبات التي تترتب على الدولة والحاكم ، ومن المفروض أن يمارس المسلمون هذه الواجبات بواسطة ممثليهم أو وكلائهم ، وهم أولو الأمر وأهل الحل والعقد .

من هذه الآيات قوله : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، فهل يستطيع المسلمون أن يقاتلوا من يقاتلهم إلا إذا كان لهم نظام يقوم على رأسه عدد من المسؤولين والقادة . ومنها قوله : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » فكيف يمكن تأمين الحدود والقصاص إذا لم تكن هناك حكومة تتولى هذا الشأن ، ويقول القرآن : « وأعدوا لهم ما استطعتم

من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .. فما هي الوسيلة التي تُعد بها القوة إذا لم يوجد نظام ومسؤولون .

استقلال النظام السياسي الإسلامي :

إن النظام السياسي في الإسلام كما سنلاحظ نظام مستقل متميز لا تنطبق عليه المصطلحات التي تردد في قاموس السياسة المعاصرة .

ولقد حاول البعض ، سواء في ذلك أصدقاء الإسلام وأتباعه أو خصومه ، أن يطلقوا على النظام الإسلامي أسماء حديثة أو قديمة ، أما أصدقاء الإسلام فقد ظنوا أن في ذلك تعزيزاً لأمر الإسلام وإعلاءً لشأنه ، وأما خصومه فلأنهم أرادوا تشويه الإسلام في أعين الناس وإظهاره على غير ما هو عليه من نصاعة وجلاء .

من ذلك أن عدداً من المسلمين يطلقون على الإسلام أسماء الديمقراطية والاشتراكية والرأسمالية والامبراطورية والدكتاتورية ، كما أن بعض خصوم الإسلام يسمون الحكومة الإسلامية بالحكومة الثيوقراطية أو حكومة رجال الدين .

ويبدو أن من الواجب بهذه المناسبة توجيه النظر إلى بعض الملاحظات :

١ ـ ليس مما يرفع شأن الإسلام أن تطلق عليه مثل هذه الأسماء والمصطلحات لأن الإسلام كما ذكرنا نظام متميز مستقل له من مبادئه ونظمه في السياسة والحكم ما يستطيع أن يفاخر به سائر الأنظمة التي عرفها الإنسان .

٢ ـ إذا حدث أن اتفق النظام السياسي الإسلامي مع هذا النظام أو ذاك فليس معناه أن يكون الإسلام هو هذا النظام ، فإذا اتفق الحكم الإسلامي في بعض مبادئه مع الديمقراطية فلا يصح أن نقول أن الإسلام نظام ديموقراطي لأن في الديمقراطية ما لا يتفق مع مبادىء الإسلام ولأن للإسلام وجهته الخاصة ونظرته المتميزة إلى الكون والحياة والإنسان ، والأمر نفسه بالنسبة للاشتراكية أو غيرها من الأنظمة .

فهذه المصطلحات والأنظمة كانت نتيجة تجارب حصلت في مجتمعات غريبة على البيئة العربية والإسلامية ، ولقد دخلت على هذه المصطلحات تغيرات كثيرة وتعرضت لتطورات متعددة ، لذا فإنها تأخذ معنى معيناً عند الغربي الذي يستعملها ، أما غير العربي فإنه يستعمل هذه المصطلحات على أنها أحكام مطلقة ، ولا يدور في خلده التطورات المختلفة التي مرت بها . مثال ذلك مصطلح الديمقراطية ، أول ما استعملت هذه الكلمة كمصطلح سياسي أيام اليونان بمعنى حكم الشعب ، وكان الشعب الذي يشارك في الحكم آنذاك هو الشعب اليوناني الأصيل ، وهو لا يشكل في كل بلد يوناني إلا عدداً قليلا جداً ، أما سائر السكان فلم يكن يسمح لهم بممارسة أي أمر من أمور السلطة لأنهم يعتبرون أرقاء أو مواطنين من الدرجة الثانية ، وإذاً فإن الديمقراطية اليونانية لم تكن تعني أن يمارس الشعب كله السيادة والسلطة وإنما نفر قليل منه .

فما هو المفهوم الذي يطلق على الإسلام من هذه الديمقراطية ؛ لا شك أننا نلمح تقارباً بين الإسلام ومفهوم الديمقراطية الحديثة من حيث المساواة في الحقوق والواجبات والرقابة على الحكومة ، إلا أننا لا نستطيع أن نقول بأن الشعب أو ممثليه أحرار في التشريع والتقنين ولهم السيادة المطلقة ، لأن هناك مبادىء سائدة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار سواء في القرآن أو السنة ، وهكذا فإن لفظ الديمقراطية لا ينطبق على الإسلام انطباقاً كاملا [1] .

وكذلك أطلق بعض الكتاب على الإسلام اسم الاشتراكية ، وما قيل بالنسبة للديمقراطية يمكن أن نقوله بالنسبة للاشتراكية ، فإذا كان القصد أن الإسلام اشتراكي في اتجاهاته ودعوته إلى العدالة الاجتماعية وإيجاد نظام يسمح بفرص متكافئة للمواطنين ويمنع الاحتكار والاستغلال فإن هذا صحيح ، أما إذا كان القصد أن النظام الإسلامي نظام اشتراكي كامل ، فإن هذا القول مرفوض لأن الاشتراكية مصطلح حين يطلق يقصد به نظرة خاصة للكون والحياة ، وأنظمة

---

١ – محمد أسد : منهاج الإسلام في الحكم .

معينة ، ووسائل محددة في الإنتاج وتوزيع الثروة وكيفية الحكم ، والإسلام يختلف عن الاشتراكية في هذا المعنى لأن له نظرته إلى الكون والحياة التي تخالف نظرة الاشتراكية ، فالاشتراكية مادية في فلسفتها وتصوراتها والإسلام على النقيض من ذلك ، وللإسلام أنظمته ووسائله في الإنتاج وتوزيع الثروة التي تختلف أيضاً عن أنظمة الاشتراكية .

أما لفظ الحكم الثيوقراطي الذي حاول خصوم الإسلام أن يلصقوه بالنظام السياسي الإسلامي فلاينطبق على طريقة الحكم في الإسلام وإن كان يتفق معه في بعض مبادئه ، فإذا كان القصد بالثيوقراطية أن يتفرع النظام السياسي عن القانون الإلهي فإن الإسلام يقول ذلك مع مرونة تجعله صالحاً للتطبيق في كل زمان ومكان . وأما إذا كان القصد به النظام الذي كان سائداً في أوروبا في القرون الوسطى فإنه خطأ ، لأن ذلك الحكم كان يعتمد على استبداد طبقة رجال الدين وعلى رأسها البابا ، وهي طبقة كان وما يزال لها امتيازاتها واستقلالها عند النصارى ، ولا وجود لمثل هذه الطبقة عند المسلمين ، لأن المسلم لا يحتاج إلى واسطة بينه وبين ربه ، ولأن من المفروض على كل مسلم أن يعلم قدراً من شؤون دينه ، وإذا تعمق بالدين سُمي عالماً ، ولم يتمتع نتيجة ذلك بأي امتياز ، ولم يشكل مع العلماء الآخرين طبقة تطالب بامتيازات وأوضاع خاصة .

وقد كان الحكم الثيوقراطي في أوروبا أسوأ حكم عرفته لفظاعته وقسوته وتسلطه ، ولما كان يدعيه رجال الدين من أنهم يستمدون سلطانهم من الله ، ولرفضهم بالتالي الاعتراف بأي حق بمراقبتهم أو الحد من أعمالهم أو الوقوف أمام أمر من أوامرهم . والحكم الثيوقراطي هذا من أهم أسباب الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة في أوروبا ، ولم يعرف المسلمون حكماً من هذا النوع لسبب بسيط هو انعدام هذه الطبقة ، وإذا ما نادينا بحكم إسلامي فإنما نقصد إيجاد حكم نزيه صالح يستمد تشريعاته وقوانينه من المبادىء الإسلامية ، ويمكن أن يمارس هذا الحكم أي فرد أو جماعة من المسلمين ما دام يملك المعرفة والكفاية والرأي الصحيح والالتزام بمبادىء الإسلام .

* * *

اسس الحكم في الإسلام :

إن كل نوع من أنواع الحكم والأنظمة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية يقوم على أسس معينة ، من هذه الأسس ما يشكل القاعدة الفكرية أو الفلسفية لهذا النظام ، ومنه ما يكون القواعد العملية التي لا تتحقق الأسس النظرية أو الفكرية إلا إذا طبقت أحسن تطبيق .

فإذا طبقنا هذا الكلام على نظام الحكم في الإسلام ، فإن علينا أن نتلمس هذين النوعين ، أي الأسس الفكرية والأسس العملية والتطبيقية .

الأسس الفكريـة :

إن جميع الأنظمة السياسية التي تعيش في عالمنا تعتمد على فلسفة معينة ونظرة واضحة إلى الكون والإنسان والحياة ، ولا بأس من استعراض موجز لبعض هذه الأنظمة وفلسفتها النظرية التي تقوم عليها ، ومقارنتها بعد ذلك بالفلسفة التي يعتمد عليها النظام السياسي الإسلامي .

فالماركسية مثلا تقوم على نظرة مادية بحتة للوجود ، وتعتمد التطور المادي أساساً لكل تغير في الحياة حتى ولو كان تغييراً فكرياً ، وتقرر أفضلية المجتمع على الفرد . ونستطيع أن نفصل هذه النظرة بعض التفصيل ، فنقول إن الماركسية تقوم على المبادىء التالية :

١ ـ المنطق الجدلي (الديالكتيك) الذي يحكم في الكون والإنسان والمجتمع وينتهي إلى إنكار الله وكل وجود سابق على وجود الطبيعة والإنسان .

٢ ـ التحليل المادي للتاريخ ، وبموجب هذا المبدأ يكون التطور المادي في مجتمع ما هو وحده الذي يفرض نظام هذا المجتمع وليس الفكر أو التربية ، لأن أشكال الأنظمة الاجتماعية إنما هي نتيجة تطور وسائل الإنتاج في المجتمعات المختلفة .

٣ ــ إنكار كيان الفرد في المجتمع ومحاربة الحوافز الفردية فيه ، والدعوة إلى وجوب تغيير نظام المجتمع القائم على هذا الأساس .

٤ ــ حتمية الصراع الطبقي من أجل تغيير المجتمع ، وإلغاء الملكية الفردية لجميع وسائل الإنتاج فيه .

٥ ــ إلغاء الدولة عندما تعم الاشتراكية فيصبح الناس جميعاً اشتراكيين .

والديمقراطية الغربية تقوم أيضاً على عدة مبادىء ، والمبدأ الأساسي لهذه الديمقراطية هو حرية الفرد ، لأن هذا النظام ظهر في أوروبا محطماً لنظام سابق هو النظام الإقطاعي ، لذا كان من الواجب أن يتبنى المساواة في الحقوق والواجبات والحرية لأفراد المجتمع جميعاً ، وقد ترتب على هذه المبادىء التي نادت بها الثورة الفرنسية أن تقررت حرية الأفراد (ولو نظرياً) في ممارسة السياسة والاقتصاد ، ومن هنا نشأ مبدأ الحرية الاقتصادية الذي يتمثل بقاعدة حرية المرور والعمل ، وكان من نتيجة إقرار الحافز الشخصي في الربح أن ارتبطت الديمقراطية الغربية بالنظام الرأسمالي .

ولسنا الآن في مجال مناقشة هذين النظامين ، وإنما ذكرنا ما ذكرنا عن مبادئهما النظرية ، لنقارن بينهما وبين مبادىء النظام السياسي الإسلامي ، ونستطيع أن نقول في الحكم عليهما عبارة مختصرة هي : أن كلا من المذهبين ، المذهب الحر والمذهب الماركسي ابتداءً من النظرة إلى الحياة نظرة مادية بحتة على الرغم من اختلاف موقفهما من الإيمان بالله ، حيث لم يحفل به الأول وإن لم ينكره ، بينما عني به الثاني وأنكره ، ومن هنا يبدأ الإسلام .

إن النظام الإسلامي يقوم على أساس الإيمان بالله رب العالمين أولا ، ويستمد نظرته إلى الكون والحياة والإنسان من هذا الإيمان .

إن الله خالق كل شيء ، والخالق له الحق في أن يتصرف في شؤون خلقه ، والإنسان من خلقه تعالى ، لذا فإن عليه أن يمتثل لأمر خالقه في كل ما يريد .

والله عليم بكل شيء ، لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ،

لأنه خالق الأشياء كلها بما فيها الإنسان ، وهو بالتالي أعلم بما يصلح لعباده في شؤون دينهم ودنياهم ، فإذا أنزل عليهم نظاماً كان من الطبيعي أن يكون أفضل الأنظمة وأكثرها مسايرة لمصالح الناس أفراداً وجماعات .

والله حكيم فيما يصنعه ويشرعه ، وإذا أوحى إلى الناس تشريعاً فإنه لا بد أن يضع الأمور بالشكل الذي يؤدي إلى تحقيق المصلحة ومنع الفساد .

(وإذا كان الله معبوداً ، وكانت العبودية تعني الخضوع التام لله مع المحبة الكاملة له ، وإذا كان الإنسان يخضع قسراً للقوانين الطبيعية التي بثها الله في الكون وأقام النظام الكوني عليها ، فإنه ليس على الإنسان إلا أن يتم عبوديته بالخضوع لقوانين الشريعة الإلهية التي ينزلها الله على الرسل ، لتكون نوراً وهداية للناس إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة).

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الإنسان مستخلف في هذه الدنيا من قبل الله تعالى : «وَهُوَ الَّذي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ» [1] ، وقد أوكل الله إليه عمارة الأرض ، وكل مستخلف عليه أن يعمل حسب وكالة المستخلِف ، فلا يصح له أن يخرج عليها أو يتنكر لها .

ومهما بلغ الإنسان من العلم والمعرفة فإنه قاصر عن أن يحيط بطبائع الأشياء ومقتضيات التشريع على الصورة التي تتأمن فيها مصلحة الإنسانية في شتى أحوالها وظروفها ، هذا بالإضافة إلى أنه يتأثر بعواطفه وشهواته وبالبيئة التي يعيش فيها والطبقة التي ينتمي إليها ، وهذا كله يسلبه القدرة على وضع التشريع الكامل للبشر جميعاً .

والنظرية الإسلامية تعتمد أيضاً على أن المنهاج الأخير الذي ارتضاه الله للناس هو الإسلام الذي أنزله على محمد ، فجمع فيه كل ما تحتاج إليه الإنسانية من مبادئ ونظم روعي فيها إمكانية التطور والتجديد ، بحيث تصلح لجميع المجتمعات في شتى الأزمان والأحوال .

---

١ — الأنعام ١٦٥ .

وهكذا فإذا كانت النظريتان الماركسية والديمقراطية (الرأسمالية) تقومان على أساس مادي ، فإن الإسلام يقوم على أساس روحي من الإيمان بالله وبرعايته للإنسان وتكريمه له واستخلافه على الأرض ، ويحتم أن يكون النظام السياسي ضامناً لهذا كله ، فلا يصح أن يقوم حكم على نقض أساس الإيمان أو منع الإنسان من أن يتمتع بكرامته الكاملة وحريته الصحيحة وإنسانيته الحقة .

الأسس العمليــة :

أما الأسس العملية أو دعائم الحكم الإسلامي فإن أهمها :

الشورى كأساس للعلاقة بين الشعب والحاكم ، والطاعة التي يجب أن يتخلق بها الشعب تجاه الحاكم إذا استقام ولم ينحرف ، والعدل كشرط لا بد منه لقيام علاقة صحيحة بين طرفي الحكم : الشعب والحاكم .

وقد سبق أن تكلمنا عن العدل والعدالة حين بحثنا في المثل الإسلامية ، أما مبدأ الطاعة فسوف تكون موضع دراسة مفصلة حين حديثنا عن واجبات الشعب تجاه الحاكم ، وسنتكلم فيما يلي عن مبدأ الشورى .

* * *

الشورى :

عني الإسلام عناية خاصة بمبدأ الشورى ، وافترض أن أي حكم صحيح لا يمكن أن يتحقق في غيبة هذا المبدأ ، وقد أمر تعالى الرسول صراحة بمشاورة المسلمين فقال : «وَشَاوِرْهُمْ في الأمر فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّل عَلى الله» [1] ، وجعل الشورى صفة لازمة للمؤمنين المصدقين المستجيبين لله فقال : «وَالَّذين استجابوا لِرَبِّهم وأقاموا الصلاةَ وأمْرُهُم شُورى بَيْنَهُم ومِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُون» [2] وبلغ من اهتمام القرآن بالشورى أن أطلق هذا الاسم على إحدى سوره (سورة الشورى).

---

١ – آل عمران : ١٥٩ .

٢ – الشورى : ٣٨ .

وقد سبق الإسلام في تقرير هذه القاعدة جميع الأنظمة والمذاهب الأخرى، وكان سبقه الزمني كبيراً جداً لأن معظم المجتمعات الحديثة اقتبست هذه القاعدة عن مبادىء الثورة الفرنسية ، وهكذا يزيد سبق الإسلام الزمني في تقرير هذا المبدأ أكثر من أحد عشر قرناً .

ويزداد إعجابنا بسمو الإسلام في تقريره للشورى إذا علمنا أن إعلانه لها لم يكن نتيجة لمطالبة من الناس أو ثمرة لتطورهم ولرقي الوعي السياسي والاجتماعي آنذاك ، فالمجتمعات في ذلك الحين كانت أبعد ما تكون عن التفكير بمبدأ الشورى أو المطالبة به ، ولو ألقينا نظرة على الدول المعاصرة لظهور الاسلام لوجدنا أن الناس كانوا يعتبرون حكامهم آلهة أو أنصاف آلهة — أو أنهم على الأقل كانوا ينظرون إلى أعمالهم على أنها مقدسة لا يجوز نقدها أو الخروج عليها — وهكذا فلم يكن من حق الشعوب أن تشارك بالرأي أو بالنقد في حكم نفسها . هذا بالإضافة إلى نظرة الاحتقار التي كان الحكام ينظرون بها إلى شعوبهم. وكان الوضع العادي أن يحكم الرسول ومن بعده من الخلفاء بطريقة مماثلة ، ولم يكن ذلك ليلقى أي استغراب أو استنكار لأنه الأسلوب المتبع في الحكم ، هذا بالإضافة إلى محبة المسلمين للرسول ﷺ ، ذلك الحب الذي كان يدفع المسلم إلى التضحية بنفسه لأدنى إشارة يشيرها الرسول الكريم ، والذي كان يدفعه بالتالي إلى تقبل أي نوع من الحكم يراه . ولكن الشريعة الكاملة الخالدة المنزلة من الله تأبى إلا أن تقرر هذا المبدأ ، عاملة بذلك على رفع مستوى الجماعة وجعلها على مستوى النظر في المسائل العامة والمصالح الضرورية ، والاشتراك في الحكم ومراقبة الحكام .

وكان هذا الموقف طبيعياً من الإسلام الذي كرم الإنسان وجعله خليفة لله على هذه الأرض، يعمرها بما يعود على الناس بالخير في دنياهم وأخراهم، الإسلام الذي يقرر مبادىء المساواة والحرية الصحيحة والعدالة المطلقة بين الناس .

ولم يكن النص على الشورى أمراً نظرياً ، فقد طبق الرسول هذا المبدأ على

نفسه ، وطبقه الخلفاء الراشدون من بعده أوسع تطبيق ، فالمتتبع لحياة الرسول عليه الصلاة والسلام يلاحظ أنه كان يستشير المسلمين في معظم الأمور إلا تلك التي ينزل فيها وحي من الله أو ينص عليها القرآن . ولا بأس من الإشارة هنا إلى بعض المواقف لأن المقام لا يسمح بالتفصيل .

١ — في غزوة بدر لما بلغ الرسول خروج قريش لحماية قافلتهم وعلم أنه قد تقوم الحرب بينه وبينها ، استشار أصحابه (انظر سيرة ابن هشام) فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ؛ ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد (موضع باليمن) لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه، فقال له الرسول خيراً ودعا له ، ثم قال : أشيروا علي أيها الناس ، وإنما يريد الأنصار ، لأنهم حين بايعوه بيعة العقبة أخذوا العهد على أنفسهم أن يحموه في مدينتهم من كل من يحاول العدوان ، والمعركة هنا ستكون خارج المدينة، لذلك كان الرسول حريصاً على أن يعرف رأيهم بوجه خاص ، وقد قام على إثر ذلك سعد بن معاذ الأنصاري سيد الخزرج فقال : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال : أجل، فقال : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، فامض يا سول الله لما أردت فنحن معك ... وهكذا أعلن ممثل الأنصار موافقتهم وطاعتهم، وعند ذلك قال الرسول ﷺ : « سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم » . وإذن فإن الرسول ﷺ لم يخرج إلى بدر إلا بعد أن وثق بأن آراء المسلمين كلها تتفق مع رأيه .

٢ — وحصل قبل بدء معركة بدر أن أمر الرسول ﷺ المسلمين أن ينزلوا في أقرب ماء من وادي بدر ، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة . فقال الحباب :

إن هذا ليس بمنزل ، فانهض حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فاستجاب الرسول ﷺ لهذه المشورة الصائبة وقال : لقد أشرت بالرأي .

٣ ـ هناك مثل آخر لاستشارة الرسول لأصحابه ، وكان ذلك في غزوة أحد فقد سمع أن المشركين قد جمعوا جموعهم للانتقام مما أصابهم يوم « بدر » فلما سمع بنزولهم أحداً جمع الناس واستشارهم فيما يعمل وقال : أشيروا عليّ ما أصنع ، وقد أشار عليه الأنصار وبعض كبار الصحابة بالبقاء في المدينة والاستعداد لمنازلة المشركين خارجها ، وكان الرسول ﷺ يميل إلى هذا الرأي ، إلا أن عدداً كبيراً من المسلمين رأوا الخروج إلى أحد ومقابلة المشركين فيها ، وكان معظم هؤلاء من الشباب الذين سمعوا ببدر ولم يحضروها فأرادوا أن تكون لهم بدر أخرى ، وقال قائلهم [1] : لا تحرمني الجنة ، فوالذي بعثك بالحق لأدخلن الجنة ، فقال له : بم ، قال : بأني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وأني لا أفر من الزحف ، وعندما وجد الرسول ﷺ أن معظم المسلمين يريدون الخروج من المدينة ومقاتلة المشركين في أحد دعا بدرعه فلبسها . وعندما ندم الذين أشاروا بهذا الرأي على موقفهم وظنوا أنهم اضطروا الرسول على الأخذ برأيهم ، وقالوا بئس ما صنعنا نشير على رسول الله والوحي يأتيه . وقاموا إليه يعتذرون ويطلبون إلى الرسول ﷺ أن يفعل ما يشاء وقالوا اصنع ما رأيت ، أراد عليه السلام أن يضرب المثل للمسلمين وحكامهم فأعلن رفضه الرجوع عما اعتزم عليه مما استقر عليه المسلمون ، وقال : « لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل » .

إن هناك أمثلة كثيرة أخرى لكن البحث لا يسمح بتفصيلها ، لذا فإننا نكتفي بأن نذكر بأن رسول الله ﷺ وهو قدوة للمسلمين وأسوتهم في أعمالهم لا يتصرف إلا لحكمة وعبرة ، وقد أراد عليه السلام أن يعلم المسلمين شعوباً وحكاماً بوجوب إقامة دولتهم على المشورة والمشاركة بين الحاكم والشعب في جميع الظروف والأحوال .

---

١ ـ النعمان بن مالك الأنصاري .

وإذا استعرضنا تاريخ الخلفاء الراشدين فإننا نجد أنهم ساروا في حكمهم على هذا المبدأ أيضاً ، ذلك المبدأ الذي أمر به القرآن وجرى عليه الرسول ، ويكفي أن نشير إلى ما كان من استشارة أبي بكر للناس في أمر المرتدين ، ثم في العهد بالخلافة إلى عمر رضي الله عنه ؛ وإلى صنيع عمر وكيف ترك الأمر شورى لاختيار الخليفة الذي يليه ، وإلى اجتهاد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في استشارة وجوه المسلمين وأصحاب الرأي فيهم حتى وقع الاختيار على سيدنا عثمان بن عفان ، وقبل هذا وذاك فقد ترك الرسول الأمر بعده للمسلمين ولم يعهد لأحد بالخلافة ، فاختار المسلمون أبا بكر بعد المشاورة والمناقشة التي وصلت إلى درجة كبيرة من الحدة ، لكن رأي المسلمين حين استقر على بيعة أبي بكر التف حوله المعارضون قبل المؤيدين ، وهكذا كان اختيار أول حاكم مسلم بالمشاورة الكاملة ، ولا شك أن ذلك لم يكن يدور في خلد الشعوب المعاصرة لتلك الحقبة من تاريخ الإسلام [1] .

ومن دراسة مبدأ الشورى وتطبيقاته في الحياة الإسلامية نلاحظ عدة أمور [2] :

١ ــ إن النص على الشورى كان من المرونة بحيث لم يقيد المسلمين بصورة معينة ولا بكيفية خاصة للشورى يلتزم بها الناس فلا يخرجون عليها ، فقد ترك لأولياء الأمور وللشعوب عامة أن يختاروا الطريقة المناسبة على أن يكون تطبيق الشورى تطبيقاً حقيقياً صحيحاً .

ولا شك أن هذا يعتمد على ما كنا ذكرناه من أن الاسلام دين الإنسانية ونظامها في جميع عصورها وعهودها ، ومن الطبيعي في هذه الحالة أن لا تقيد الشريعة الناس بالتفصيلات والجزئيات ، بل تكتفي بإرساء القواعد العامة وإقامة الأسس التي لا بد منها .

١ ــ كان لكل خليفة من الخلفاء الراشدين مجلس شورى مصغر بالإضافة إلى الشورى العامة ، وكانت مشورة أبي بكر تتألف من عمر وعثمان وعلي ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت . أما مشورة عمر فقد كانت مؤلفة من علي وعثمان والزبير وطلحة وابن عوف ، كانوا يجلسون عادة بين القبر والمنبر ، فإذا كان الشيء يأتي عمر من الآفاق جاءهم فأخبرهم بذلك واستشارهم فيه .

٢ ــ محمد أسد : منهاج الإسلام في الحكم .

وهكذا فإن الشورى حقيقة لا بد منها ليتصف النظام السياسي بالصفة الإسلامية ، ولكن طريقة تطبيقها قد تختلف ، فإذا كان الرسول يستشير كبار الصحابة ، وإذا كان الخلفاء الراشدون يستشيرون الصحابة وأهل السابقة في الإسلام ، وكان هؤلاء من المجتمع على صدارتهم وأفضليتهم فإن هذا لا يمنع أن يعمد مجتمع آخر إلى تنظيم الشورى ، واختيار أهل الحل والعقد بطريقة أخرى كالانتخاب مثلا .

٢ — إن استشارة المسلمين واجبة في جميع المسائل والمصالح ولا تقيد إلا بقيدين :

أولهما : إن الشورى لا تكون فيما ورد فيه نص إلا أن تكون في حدود التنفيذ والتنظيم لما بيّنه القرآن والسنة .

وثانيهما : أنه لا يصح أن تنتهي الشورى إلى ما يخالف نصاً أو ما يخرج على روح الشريعة ، ومثل هذين القيدين لا يغيران شيئاً من حقيقة الشورى لأن النصوص الواردة لا يمكن أن تقف أمام أي تجديد سليم أو تطور صحيح ، بل إننا نستطيع القول بأن اقتصار الإسلام في شؤون الحياة على القواعد العامة من أهم العوامل لأمره بالشورى ، وذلك لمجاراة الزمن وسد الحاجة للتطور والتقدم .

٣ — اختلف علماء المسلمين ومفكروهم في : هل تكون الشورى ملزمة للحاكم أم اختيارية ، أي هل على الإمام أو الرئيس أن يستشير أم لا ، وإذا كان عليه أن يستشير فهل يجب عليه أن يعمل بما استقر عليه رأي المسلمين ، أم أن له الخيار إن شاء أخذ برأيهم وإن شاء عمل برأيه ؟

لقد كان من رأي بعضهم أن الشورى اختيارية ، واحتجوا لذلك بقوله تعالى بعد أمره بالشورى : « فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّل على الله » قالوا : فالعزم من الحاكم قد يكون على رأيه أو رأي المسلمين ، كما أوردوا بعض السوابق التاريخية من أهمها : أن أبا بكر رضي الله عنه حين استشار المسلمين بمحاربة المرتدين كان من رأي غالبيتهم — ومنهم عمر رضي الله عنه — قبول الصلاة

منهم وتأخير المطالبة بالزكاة ، إلا أن أبا بكر - الذي يعلم أن الصلاة والزكاة لا تفترقان لأن إحداهما حق الله والأخرى حق العباد - أبى أن يقبل الصلاة دون الزكاة ، وقال كلمته المعروفة : والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لحاربتهم عليه ، وأصر على رأيه بوجوب حرب المرتدين ، قال أصحاب هذا الرأي فقد عمل أبو بكر برأيه لا برأي غالبية المسلمين . وهذا يدل على أن الشورى اختيارية . وعلى هذا الرأي الطبري والقرطبي في تفسيريهما .

أما البعض الآخر من علماء المسلمين وفقهائهم ، فإن من رأيهم أن الحاكم ملزم برأي الأغلبية ، فإذا استقر رأي المسلمين أو أهل الحل والعقد منهم على أمر كان من الواجب أن يعمل به غير مختار فيه ، ويحتجون على ذلك بأن الأمر الوارد بالشورى يصبح معدوم القيمة إذا لم يكن الحاكم ملزماً بنتيجتها ، ويوردون مجموعة من السوابق التطبيقية لهذا المبدأ من سيرة الرسول ﷺ وتاريخ الخلفاء الراشدين ، وقد لاحظ أصحاب هذا الرأي أن الرسول في معظم المواقف التي استشار المسلمين فيها أخذ برأيهم ، ومن أهم هذه المواقف مشورته في أحد ونزوله على رأي أغلبية المسلمين .

أما ما احتج به الفريق الأول من استشارة أبي بكر في حرب المرتدين وعمله برأيه دون رأي المسلمين ، فإن أنصار الفريق الثاني يوردون الحادثة على صورة أخرى تؤيد وجهة نظرهم ، فيذكرون أن أبا بكر ما فتىء يوضح رأيه للمسلمين حتى شرح الله صدورهم له على حد تعبير عمر رضي الله عنه ، وهكذا فإن معظم الصحابة بما فيهم عمر وافقوا أبا بكر على رأيه أخيراً ، فلم يكن بذلك خارجاً على مشورتهم .

٤ - إن الشورى في الإسلام ذات فرعين :

١ - شورى في اختيار الحاكم .

٢ - وشورى في إدارة الحكم ومراقبة الحاكمين .

وتتحقق الشورى بالمعنى الأول بأن يتم اختيار الحاكم من قبل المسلمين أو

أهل الحل والعقد أو مجلس الشورى ، فيختار الأصلح ممن تتوفر فيهم شروط معينة .

أما المعنى الثاني فيتحقق بمشاركة الأمة عن طريق ممثليها من أهل الحل والعقد في النصح للحاكم وتقديم المشورة الصالحة ومراقبة العمل الحكومي حتى لا ينحرف الحكم عن أهدافه وغاياته .

والإسلام لم يحدد للشورى شكلا معيناً كما سبق أن ذكرنا ، إلا أنه لا يجوز أن يشارك فيها إلا من كان أهلا لها وكفؤاً ، ونحن نتصور أنه لا بد من نظام لإيجاد مجلس للشورى يكون أعضاؤه من أهل الدين والفقه والاختصاص يتولى التشريع فيما ليس فيه نص ، ويكون من مهمته مراقبة شؤون الحكم .

أما الطرق التي يتم بواسطتها اختيار هذا المجلس أو الهيئة فإنها متعددة :

أ ـ فالبعض لا يرى مانعاً من أن يقوم الحاكم بنفسه باختيارهم على أساس أنه نال ثقة الشعب ورضاه .

ب ـ ويقترح آخرون أن يكون أعضاء هذا المجلس بحسب وظائفهم ، أي أن تحدد وظائف معينة في الدولة يكون شاغلوها مهما كانت أشخاصهم أعضاء في مجلس الشورى ، على أساس أن هذه الوظائف الهامة لا يصل إليها إلا من كان أهلا للمشورة وصاحب رأي وفضل .

ج ـ ويرى آخرون أن يكون اختيار هؤلاء بالانتخاب ، على أساس أنها الطريقة التي تتمثل فيها الشورى أكثر من الطرق الأخرى .

ومع الملاحظة بأن الإسلام لا يحدد طريقة واحدة ينبثق عنها مجلس الشورى بحيث يقال أنها الطريقة الإسلامية دون غيرها ، فإننا يمكن أن نعتبر الانتخاب وسيلة صالحة لاختيار مجلس الشورى ، أما أن الانتخاب يعتمد على ترشيح الإنسان نفسه وأن ذلك يتعارض مع توجيه الرسول بأنه لا يصح أن يتولى المناصب من يطلبها أو يحرض عليها ، فإننا لا نجد فيه ما ينطبق على الترشيح لعضوية مجلس

الشورى إذا خلت انتخاباته من الوسائل المستهجنة التي تتم بها في كثير من المجتمعات المعاصرة ، بحيث يكون الترشيح بمثابة الإعلان عن الأفراد الذين تتوفر فيهم شروط هذه العضوية .

٥ — إن ميزة النظام الإسلامي بالشورى رائعة ومثيرة إذا قورنت بأنظمة أخرى حديثة أو معاصرة ، فإذا كانت الديمقراطية تقوم أساساً على الشورى والتعاون ، إلا أنها تنتهي بسوء التطبيق إلى تسليط المحكومين على الحاكمين ، وإذا كانت الديكتاتورية تقوم على السمع والطاعة والثقة بين الحاكمين والمحكومين فإنها تنتهي إلى انعدام الثقة وتسلط الحاكمين .

أما النظام الإسلامي فإنه يقوم على الشورى والتعاون في مرحلة الاستشارة ، والسمع والطاعة والثقة في مرحلة التنفيذ ، ولا تسمح قواعده إذا طبقت تطبيقاً سليماً بتسلط فريق على آخر [١] .

* * *

شروط رئيس الدولة

أما وقد عرضنا لموضوع إقامة الدولة التي تعتمد على مبادىء الإسلام ، فإن علينا أن نبحث في المؤسسات التي تعمل الدولة من خلالها ، ولا شك أن منصب الرئيس الأول لهذه الدولة من أهم مناصبها ومؤسساتها ، لذا فقد قدمنا الحديث فيه على سائر المواضيع الأخرى .

وقد كان منصب رئيس الدولة الإسلامية مجالا لدراسات واسعة سواء في نطاق كتب التاريخ الإسلامي أو علم الاجتماع أو علم الكلام ، وكان الحديث عنه يرد غالباً تحت عنوان (الإمامة) لأن معظم المؤلفين يطلقون على المسؤول الأول في الدولة الإسلامية اسم الإمام أو الخليفة . وقد تناولت هذه الكتب صفات

---

١ — المرجع السابق .

الإمام وطريقة تعيينه وعزله والوسائل التي يحكم بها والمبادىء التي يقوم عليها حكمه ، إلى غير ذلك من البحوث .

وسنستعرض فيما يلي أهم بحوث مفكري الإسلام حول صفات الحاكم الأعلى وشروطه ، مبينين مدى أهمية هذه الصفات ، وما طرأ عليها من تغير خلال الحقب التاريخية الطويلة .

عرض الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية أهم هذه الصفات فذكر أنها سبعة :

١ ـ العدالة على شروطها الجامعة .

٢ ـ العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام .

٣ ـ سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان .

٤ ـ سلامة الأعضاء من نقص يمنع من الحركة وسرعة النهوض .

٥ ـ الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح .

٦ ـ الشجاعة والخبرة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو .

٧ ـ النسب وهو أن يكون الخليفة من قريش .

أما ابن حزم فقد ذكر في كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » شروط الحاكم وبين أنها :

١ ـ البلوغ ، لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « رُفع القلم عن ثلاثة : النائم حتى يصحو ، والصبي حتى يحلم ، والمجنون حتى يفيق » .

٢ ـ الذكورة ، لقول الرسول ﷺ : « لا يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة » .

٣ ـ العلم بما يلزم من فرائض الدين .

٤ ـ التقوى ، لقوله تعالى : «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

وأورد ابن خلدون في مقدمته أن هذه الشروط خمسة هي :

١ ــ العلم

٢ ــ العدالة

٣ ــ الكفاية

٤ ــ سلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في العمل .

٥ ــ شرط النسب ، وقد ذكر ابن خلدون أن هذا الشرط مختلف فيه .

ولا شك أن الشروط التي أوردها هؤلاء الباحثون تقصد إلى إيجاد الرجل الصالح الذي يستطيع أن يقوم بأمر الأمة ورعاية شؤونها وتدبير مصالحها ، لذلك كان لا بد أن يشترط في الحاكم الإسلامي الأول العقل وقوة التفكير وسلامة الرأي وحكمة التدبير وصحة الجسم وسلامته من العاهات التي تخل بمهمته ، كما كان لا بد أن يشترط فيه القدرة على تدبير الحكم وسياسة الدولة وفق المنهاج الإسلامي . وأن يكون رجلا قوي الإيمان سليم العقيدة حراً عادلاً قائماً بفائض الإسلام معظماً لشعائره لا مطعن عليه في دين ولا خلق ، وأن يكون بالإضافة إلى ذلك عالماً بالشريعة بصيراً بأحكامها ومقاصدها قويّ الإخلاص عظيم الأمانة ، لديه من الحزم والهيبة والشجاعة ما يواجه سلطان المعتدين على حرمات الله ، وحقوق الناس ، وحدود الدولة وسيادتها .

ومن استعراضنا لهذه الشروط والمواصفات المختلفة نلاحظ أنه يمكن تقسيمها إلى نوعين :

١ ــ شروط لا تجوز الإمامة لمن ليست فيه .

٢ ــ شروط مختلف عليها

إن الشروط الأساسية للحاكم المسلم ، والتي اتفق عليها معظم المسلمين هي :

١ ــ الذكورة

٢ ــ البلوغ

٣ ــ العقل

٤ ــ العلم بأمور الدين والدنيا مما يسهل عليه الحكم .

٥ ــ سلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في العلم والعمل .

٦ ــ العدالة ، أي سلامة العقيدة وأداء الفرائض الإسلامية وتعظيم شعائر الإسلام .

٧ ــ الحرية

٨ ــ الكفاية في العمل

أما الشروط التي اختلف فيها فهي :

١ ــ النسب ، أي الانتساب إلى قبيلة أو بيت معين منها ، وعادة ما يقصد فيه النسب إلى قريش أو أحد بيوتها : هاشمي ، عباسي ..

فقد اشترط جمهور المسلمين أن يكون الخليفة من قريش ، لقول الرسول عليه الصلاة والسلام (الأئمة من قريش) ولقوله : (قدموا قريش ولا تقدموها) ، أي لا تتقدموا عليها ، ولم يصر البعض من المفكرين الإسلاميين على هذا الشرط ، وسنعرض لهذه المناقشة قريباً .

واشترط بعض المسلمين كالشيعة أن يكون الخليفة هاشمياً ، وحدد بعضهم أن يكون من سلالة فاطمة زوج علي رضي الله عنه وبنت الرسول ﷺ ، بينما قال آخرون إنه يجب أن يكون من آل العباس بن عبد المطلب .

٢ ــ العلم بجميع مسائل الدين وأصوله وفروعه ، ولم يشترط أكثر المسلمين هذا الشرط بل اكتفوا بأن يكون الحاكم عالماً بما يسهل له القيام بمهمته .

٣ ــ العصمة من الذنوب والآثام ، والإمامية من الشيعة هم الذين يشترطون هذا الشرط ولم يوافقهم عليه سائر المسلمين لأن العصمة لله ، و لا يمكن أن يكون البشر معصومين عن الأخطاء والذنوب .

وسنقف قليلا عند شرط النسب لأهميته في تاريخ المسلمين ، فقد بدأ الخلاف حول هذا الشرط منذ اجتماع السقيفة .. فحين طالب الأنصار أن يكون الخليفة منهم رد عليهم أبو بكر بأن الرسول ﷺ يقول : (الأئمة من قريش) فانصاع الأنصار والمسلمون جميعاً لهذا الحديث ، وولوا أبا بكر القرشي ثم عمر وعثمان وعلي وكلهم من قريش ، ثم بقيت الرئاسة الأولى في الإسلام بين المنتسبين لقريش سواء كانوا أمويين أو عباسيين أو فاطميين ، ولم يجرؤ أحد من غير قريش أن يطالب بمنصب الرئاسة الأولى ، حتى جاء العثمانيون فانتقلت الخلافة إلى الأتراك ويظهر أن إجماع المسلمين بقي قروناً على أن الحاكم يجب أن يكون قرشياً ، لأن أحاديث الرسول ﷺ في هذا المعنى صحيحة لا شك فيها ، ولا قيمة لما حاوله البعض من تضعيف شأنها بأحاديث أخرى كقوله ﷺ : (اسمعوا وأطيعوا ولو أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة) ، لأن هذا الحديث وأمثاله إنما وردت في مجال خاص وهو حض الرسول المسلمين على طاعة ولي الأمر .

وإذا كان حديث الرسول ﷺ وإجماع المسلمين على اشتراط النسب لقريش فكيف يصح الخروج على هذين المصدرين وتوسيد الحكم لغير القرشي ؟ الجواب على ذلك أن الأحكام الشرعية لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع لأجلها ، فما هو المقصد من اشتراط النسب لقريش ؟

لو أننا بحثنا الأمر لوجدنا أن الغاية الرئيسية منه هي أن تكون هناك عصبية تحمي الحكم وترسي قواعده ، ولقد كانت العرب تدين لقريش بالولاء وتلتف حولها وتقبل زعامتها ولا تلتقي إلا عليها ، فلو أن الرسول ﷺ ترك الأمر في يد غيرها لتفرق العرب وتزعزع الحكم ، أما قريش فإنها قادرة على سوق الناس بالغلبة إلى ما يراد منهم فلا يخشى من أحد خلاف أو فرقة ، وقد ظهر هذا جلياً في حروب الردة ، إذ ارتدت معظم القبائل العربية ، وتحملت قريش عبء القضاء على الفتنة ، وإعادة ترسيخ الدولة .

ومن هنا كان اشتراط القرشية ، فلما زالت عصبية قريش ذهبت قوتها ولم

يعد لشرط القرشية قيمة ، ولا بأس أن يلتقي المسلمون حول الحاكم الذي يستطيع أن يجمع المسلمين ويوحدهم ولو لم يكن قرشياً ، وعلى هذا الرأي معظم مفكري الإسلام في الحقب الأخيرة من تاريخ المسلمين ، ويعتبر ابن خلدون أول من نبه إلى ذلك وأكد عليه .

* * *

طريقة تعيين رئيس الدولة

بعد أن علمنا أن الإسلام يوجب على المسلمين إقامة الدولة على مبادىء الإسلام ، وعرضنا للشبه التي ترد حول هذا الموضوع ورددنا عليها ، وثبت لنا ما نقول من آيات القرآن الكريم وسنة نبيه وسيرته ، وتبين لنا أن حكومة الرسول ﷺ في المدينة تملك كل مقومات الدولة حسبما يعرفها علماء القانون الدستوري والدولي ... بعد أن علمنا كل هذا وعلمنا أُسس هذه الدولة الفكرية والعملية نبدأ في تفصيل وضع هذه الدولة وبيان المؤسسات التي تشكل جهازها ، ولما كان موضوع الرئيس الأعلى من أهم هذه الأمور فقد عرضنا في البحث السابق للصفات والشروط التي يجب أن يتحلى بها ، وسنعرض في هذا البحث للطريقة التي يتم بها تعيينه .

ويمكن دراسة طريقة اختيار هذا الحاكم على مرحلتين :

ا ــ فنعرض أولا للسوابق التاريخية والأمثلة الواقعية التي مرت في تاريخ الإسلام في هذا المجال .

ب ــ ثم نعرض لبعض آراء الإسلاميين ، ورأينا حول طريقة التعيين هذه ، وهل تكون بالنص عليه في القرآن والسنة ، أو الخليفة من قبله ، أو تكون بالاختيار ، أو بالعهد له ممن سبقه ، أو بالوراثة . وإذا كان تعيينه لا يكون إلا بالاختيار ، فمن الذي يملك حق الاختيار هذا ؟ هل هو الشعب المسلم كله ؟ أم أهل الحل والعقد جميعهم ؟ أم بعض أهل الحل والعقد ، أم فرد واحد منهم ؟

السوابق التاريخية :

أما بالنسبة للواقع التاريخي أو السوابق التاريخية ، فإننا سنعتمد بصورة خاصة على استعراض طريقة تعيين الخلفاء الراشدين الأربعة ، لأننا نعتبرهم القدوة لنا بعد الرسول ﷺ في كثير من أمور ديننا ودنيانا ، ثم نعرض سريعاً للطريقة التي أصبح يتولى فيهـا الحاكم الأعلى في دولة الأمويين والعباسيين وغيرهما .. وسنلاحظ أن طريقة تعيين كل واحد من الخلفـاء الراشدين الأربعة كانت مغايرة لطريقة اختيار الآخر ، كما أن طريقة اختيار الحكام من بعدهم اختلفت عن أسلوب الخلافة الراشدة .

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام ترك المسلمين دون أن يعين لهم خليفة ، مع أنه كان يشعر بدنو أجله ، كما أن معظم المسلمين تحسسوا هذا حين نزلت الآية الكريمة « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » وحين وقف يوصيهم في حجة الوداع قائلا : (لعلّني لا ألقاكم بعد عامكم هذا) . ثم إن الرسول ﷺ حين مرض مرَض الموت وشعر أنه سيلحق بالرفيق الأعلى ، لم يعين أحداً لرئاسة المسلمين من بعده . وقد كان فكر أن يعهد إلى أبي بكر ، فقد روي أنه قال : « لقد هممت — أو أردت — أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد ، أن يقول القائلون أو يتمنى المتمنون ، ثم قلت : « يأبى الله ويدفع المؤمنون أو يدفع الله ويأبى المؤمنون » .

وروت عائشة رضي الله عنها أنه قال : « ادعوا إليّ عبد الرحمن بن أبي بكر أكتب كتاباً لأبي بكر لا يختلف عليه أحد من بعدي . ثم قال لعائشة : دعيه ، معاذ الله أن يختلف المؤمنون في أبي بكر . ومع هذا فقد استقر رأي الرسول ﷺ على أن لا يعهد لأبي بكر ولا لغيره ، فما هو السبب في موقفه هذا عليه الصلاة والسلام ؟

احتج البعض أن مرضه ﷺ كان شديداً لدرجة أنه لم يكن يستطيع التفكير في تعيين خلفه ، ويرد على هذا القول بأن مرض الرسول ﷺ في الأيام الأولى لم

يكن شديداً لهذه الدرجة، ثم إن هذا المرض لم يمنعه من أن يمارس بعض الأعمال كأمره أبا بكر الصديق بالصلاة بالمسلمين وتفكيره بتعيينه خليفة كما ذكرنا .

وادّعى بعض المستشرقين أن الرسول كان يشعر بأن النظام القبلي لا يقبل التوارث ومن هنا رفض الرسول ﷺ تعيين خلفه ، ويرد على ذلك بأن الرسول ﷺ لم يكن له ولد ذكر حتى يعهد إليه بالأمر من بعده فيكون الحكم وراثياً ، فلو اختار أحداً فإنه سيختاره من الصحابة ، وكان يمكن أن يوجه لأحد المسلمين بالذات أن يكون من بعده ، إلا أنه اكتفى بالإشارة ، كقوله :(لو كنت متخذاً خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر) وقوله :(أرحم الناس بأمتي أبو بكر) إلا أنه عليه السلام لم يتعد الإشارة إلى التصريح .

والذي نراه أن الرسول كان يخشى لو أنه عين خليفة أن يظن المسلمون أن هذا الخليفة تم تعيينه بأمر من الله ، ويظن هذا أن سلطانه مستمد من الله ، وأنه لا حق لمسلم بمراجعته في أمر أو ممارسة الرقابة على أعماله ، فينقلب الحكم إلى نوع من التحكم والدكتاتورية ، أو أن يظن البعض أن الحاكم بمرتبة النبيّ أو غير ذلك .. لذا فإن الرسول ترك للمسلمين حريتهم في اختيار أمرهم ، ولكنه كان يشعر أن أبا بكر هو الأولى بالخلافة ، وكذلك كان يشعر المسلمون لأنه كان رفيق الرسول ﷺ في الغار ، ولأنه صدقه حين كذبه الناس ، ولأن الرسول ﷺ كان يتخذه خليلا له لو أنه اتخذ أحداً من أمته خليلا .

طريقة اختيار أبي بكر رضي الله عنه :

لقد كان أول عمل مارسه المسلمون بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام هو اختيار خليفة للرسول ﷺ ، حتى أنهم قدموا ذلك على تجهيزه عليه الصلاة والسلام ، لأن هذاالعمل يمكن أن يتأخر قليلا ولا يضر شيئاً ، أما أن تترك الدولة الناشئة الوليدة دون مسؤول ولا رئيس فإن ذلك يضعفها ، خاصة وأن معظم قبائل الجزيرة العربية كانت تفكر بالانتقاض على الدين الجديد . كما أن الروم والفرس بدأوا يتخوفون من الدولة الإسلامية الجديدة وأخذوا يجمعون الجيوش للقضاء عليها .

ولقد شعر المسلمون جميعاً بالحاجة إلى اختيار خليفة للرسول ﷺ ، فكر في ذلك الأنصار الذين تلقوا الإسلام فآووه ونصروه ، كما فكر فيه بنو هاشم والمهاجرون عامة .

وعندما علم عمر أن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة أسرع إلى أبي بكر وكان مشغولا بتجهيز الرسول ﷺ للدفن فأخبره الخبر ، وخرجا يقصدان اجتماع الأنصار ، والتقيا في الطريق بأبي عبيدة بن الجراح فاصطحباه معهما .

وقبل أن نتحدث عن اجتماع السقيفة لا بد أن نشير إلى محاولة بعض المستشرقين الدس على التاريخ الإسلامي ، وتصوير لقاء الصحابة الثلاثة — أبي بكر وعمر وأبي عبيدة — على أنه مؤامرة لاستيلائهم على الحكم واحداً بعد الآخر ، وأنهم كانوا يفكرون في هذا الموضوع منذ مدة طويلة يرجعه بعضهم إلى غزوة أحد، بعد أن شاع مقتل الرسول ﷺ فيها .

ولا شك أن هذا أحد تحريفات المستشرقين وأثر من حقدهم على الإسلام والمسلمين ، والحق أن مثل هذا مستبعد ومستحيل ولا يستحق المناقشة لولا أن البعض نقله عنهم ، فالمستشرقون ينظرون في هذا الأمر نظرتهم إلى السياسيين ومؤامراتهم وألاعيبهم ولا يدركون سمو العلاقة التي تربط الصحابة بالرسول ﷺ ، ثم من الذي يضمن بقاء الثلاثة واحداً بعد الآخر حتى يتقاسموها بينهم على التوالي، بالإضافة إلى ما قد ثبت من أن عمر أخذته الرهبة حين سمع الناعي بوفاة الرسول ﷺ وأنكر ذلك وهدد من يقول به بالقتل .

المهم أن اجتماع السقيفة تم وحضره الأنصار ، ثم حضره بعض المهاجرين وعلى رأسهم الصحابة الثلاثة المذكورون رضي الله عليهم ، وسنقف قليلا عند هذا الاجتماع التاريخي الذي نعده من أعظم الاجتماعات السياسية ونعتبر ما دار فيه وثيقة سياسية خالدة في تاريخ الفكر السياسي كله وليس في تاريخ السياسة الإسلامية فحسب .

فقد اجتمع المقدمون بين المسلمين أو أهل الحل والعقد منهم على اختلاف

آرائهم واجتهاداتهم ، وأبدى كل واحد أو فريق منهم آراءهم بكل حرية ، وناقشوا آراء الآخرين بكل وضوح ، ولم يخشوا أن يغضب رأيهم الصريح الفريق الآخر لأن قصد الجميع كان تحقيق مصلحة المسلمين والسعي لخيرهم ، وقد وقف ممثلو المهاجرين يدلون برأيهم ويردون على رأي الأنصار ، ووقف هؤلاء بدورهم يناقشون المهاجرين ، ثم اتفق الجميع على اختيار أبي بكر رضي الله عنه ، وعند ذلك بايعه الذين كانوا مخالفين له قبل الذين رشحوه .

ونظراً لأهمية هذه الجلسة التاريخية رأينا أن نثبت ما جاء فيها مختصراً عن تاريخ الطبري منبهين إلى ضرورة اختيار المصدر الموثوق ، لأن هنالك دساً كبيراً فيما كتب عن تاريخ المسلمين [1]

ذكر هذا المؤرخ الكبير في حديث طويل له رواه بسنده ، أنه لما قبض النبي ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة وقالوا : نولي هذا الأمر بعد محمد عليه السلام سعد بن عبادة ، وأخرجوه إليهم وهو مريض وأخذوا يتداولون فيما بينهم هذا الأمر وفيما يقولونه للمهاجرين . وأتى عمر الخبر ، فأقبل إلى منزل النبي ﷺ فأرسل إلى أبي بكر وكان في الدار هو وعلي بن أبي طالب في شغل بجهاز الرسول ﷺ : أن اخرج فقد حدث أمر لا بد لك من حضوره ، فخرج إليه ، فقال له عمر : أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت بسقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر إلى سعد بن عبادة ، وأحسنهم مقالة من يقول منا أمير ومن قريش أمير .

فخرجا إليهم ، ولقيا أبا عبيدة بن الجراح في الطريق ، فصحبهما إلى اجتماع الأنصار ، وأراد أن يتكلم كلاماً رواه من قبل ، فقال له أبو بكر : رويداً حتى أتكلم . فبدأ أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله بعث محمداً رسولا إلى خلقه وشهيداً على أمته ليعبدوا الله ويوحدوه ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، وإنما هي من حجر منحوت وخشب منجور ،

---

١ — الطبري : أحداث السنة الحادية عشرة .

ثم قرأ : «ويعبدونَ مِنْ دونِ الله ما لا يضرّهم ولا ينفعهم ويقُولونَ هؤلاء شُفَعاؤنا عند الله »«وقالوا ما نَعْبُدُهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى».

فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له والصبر معه ، على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس لهم مخالف ، فكانوا أول من عبد الله في الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ﷺ ، وهم أولياؤه وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم في ذلك إلا ظالم . وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته وفيكم جلة أزواجه وأصحابه فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم ، وأنتم الوزراء لا تفتاتون في مشورة ولا تقضى دونكم الأمور .

ثم قام الحباب بن المنذر الأنصاري ، فتكلم طالباً من الأنصار أن يملكوا عليهم أمرهم فإنه لن يجترىء أحد على خلافهم ، وإن الناس لن يصدروا إلا عن رأيهم لأنهم أهل العزة والقوة وأولوا العدد والمنعة وذوو النجدة ، ثم قال : فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم ، فمنّا أمير ومنهم أمير .

فما كان من عمر إلا أن رد عليه : هيهات لا يجتمع اثنان في قرن — الحبل يشده البعيران — والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيرهم ؟ ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم بينهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين ، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإماراته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في تهلكة.

وبعد أن رد الحباب على مقالة عمر رداً شديداً ذكره الطبري بنصه ، قال أبو عبيدة يا معشر الأنصار ، إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير . ثم قام بشير بن سعد من الأنصار فقال : يا معشر الأنصار : إنا والله أو أولو فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا ، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي

به من الله عوضاً ، فإن الله وليّ لمنّة علينا بذلك ، إلا أن محمداً ﷺ من قريش وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله ، لا يراني أنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولاتنازعوهم .

فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا ؛ فقالا : لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يلي هذا الأمر عليك . ابسط يدك نبايعك .

فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد ، ثم قام إليه الأوس جميعاً ثم تتابع باقي المسلمين على بيعته .

ومن تحليل هذا الاجتماع الرائع والمناقشات العالية التي جرت فيه يمكن أن نقول : إن اختيار إبي بكر رضي الله عنه كان بترشيح عمر له وموافقة أهل الحل والعقد ومبايعة المسلمين جميعاً ، ويلاحظ أن المناقشات الصريحة التي جرت بين وجهتي النظر المتعارضتين كان رائدها مصلحة الدولة الإسلامية الناشئة ، فقد كان الأنصار يعتقدون — لأن الدولة في بلدهم — أنهم أقدر على صيانتها والدفاع عنها ، بينما كان المهاجرون يرون أن المجتمع العربي ما يزال يضع القبيلة أولاً فلم يجدوا أفضل من قريش لتقوم بهذا الأمر .

طريقة اختيار عمر رضي الله عنه :

كان اختيار عمر للخلافة بطريقة أخرى غير تلك التي تم بها اختيار أبي بكر ، فقد حصل العهد لعمر من أبي بكر في حياته ووافق أهل الحل والعقد من المسلمين على اختياره ، وتوفي أبو بكر والمسلمون يعلمون من هو أميرهم من بعده .

وتفصيل ذلك أن أبا بكر وقف بين المسلمين وأحلهم من بيعته وطلب إليهم أن يختاروا لهم خليفة ، إلاّ أن المسلمين تركوا ذلك له .

فبدأ أبو بكر بإجراء استشاراته لاختيار الخليفة ، ويظهر أن سبب رغبة أبي

بكر في أن يرى المسلمين قد اتفقوا على خليفة ، ما كان يخشاه على الدولة الإسلامية التي تبدأ حرباً ضروساً مع أعظم دولتين في ذلك الحين ، فارس والروم . فما كان الأمر يحتمل جدلاً أو تمهلاً في اختيار الرئيس الأعلى الذي يجب أن يباشر أعماله وصلاحياته فور وفاته — وفاة أبي بكر —

وهكذا بدأ أبو بكر يتصل بكبار رجال الصحابة ويدعو إليه أهل الحل والعقد ، ويتحسس رغبة المسلمين ، فاستدعى عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وسعيد بن زيد ، وأسيد بن الحضير ، وقد اتفق الجميع على فضل عمر وأحقيته بالخلافة وأولويته في حكم المسلمين ، إلاّ أن البعض مع اعترافه بفضل عمر أبدى تخوفاً من قسوته ، فبين لهم أبو بكر أن عمر إنما يقسو للينه ، وأنه لو تولى لكان موقفه أقرب إلى اللين والرحمة ، والحق أن عمر كان أصلح المسلمين للخلافة حينذاك لما كانت تمر به الدولة الإسلامية من ظروف صعبة وحروب طاحنة كانت تتطلب وجود الرجل الحازم ذي العزيمة والبأس .

وهكذا ، وبعد أن أنهى أبو بكر مشاوراته ورأى إجماعاً من الناس على اختيار عمر أشرف على المسلمين وأخبرهم أنه اختار عمر للخلافة فرضي المسلمون بذلك . فاختيار عمر إذن كان بترشيح من أبي بكر وموافقة من المسلمين ، وكل ذلك حصل في حياته رضي الله عنه ، وكانت الشورى واضحة في تعيينه كما كانت واضحة ومحققة في تعيين أبي بكر .

طريقة اختيار عثمان رضي الله عنه :

رفض عمر رضي الله عنه بعد أن طعنه ابو لؤلؤة وطلب إليه المسلمون أن يعهد بالخلافة — أن يعهد لابنه أو لأحد غيره بالخلافة ، بعد أن بين أنه لو استخلف فقد استخلف أبو بكر ، أو ترك الأمر فقد فعل ذلك رسول الله ﷺ . ولكن عمر عمد إلى طريقة جديدة فترك الأمر شورى بين ستة من كبار رجال الصحابة ممن توفي الرسول ﷺ وهو عنهم راض ، وهم عثمان ، وعليّ ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ؛ وطلب

إليهم أن يختاروا أحدهم للخلافة ، وحدد لهم ثلاثة أيام كموعد أقصى يجب خلالها أن يتم اختيار الرئيس الأول . وطلب إليهم أن يحضروا معهم في مشاوراتهم ابنه عبد الله على أن لا يكون له حق تولي الخلافة ، وبيّن لهم أنه في حالة انقسام الستة إلى ثلاثة تؤيد واحداً وثلاثة أخرى تؤيد آخر أن يطلبوا الفريق الذي فيه عبد الرحمن بن عوف ، وطلب إليهم أن يقتلوا المخالف والممتنع عن بيعة من تختاره الأكثرية .

وحين اجتمع رجال الشورى أخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه من حق تولي الخلافة ، فطلب إليه الباقون أن يقوم عنهم بالاستشارات اللازمة وترشيح من تتفق عليه رغبة المسلمين.

وقد استشار عبد الرحمن الناس ، وكان يواصل الليل والنهار في اتصالاته ، حتى وجد أن الناس يجمعون على أحد اثنين : علي بن أبي طالب ، أو عثمان بن عفان .

والملاحظ أن أكثرية المسلمين كانت راغبة بعثمان لما يعرفون من لينه ورحمته ، ولعل المسلمين شعروا أن الدولة باتت مستقرة إلى حد كبير ، وأن من حقهم أن يتمتعوا بشيء من اليسر والرفاه .

وحين وصول عبد الرحمن بن عوف إلى هذا الحد من المشاورات كان عليه أن يرشح للمسلمين أحد الاثنين ، فجمع المسلمين في مسجد رسول الله ﷺ ونادى علياً وسأله إن كان يحكم بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ والخليفتين من بعده ؟ فأجاب بأنه يعمل في ذلك قدر استطاعته ، ثم طلب عثمان وسأله السؤال نفسه فأجاب : أن نعم ، دون أن يعلق ذلك بشيء . وعندئذ بايعه عبد الرحمن وبايعه المسلمون بما فيهم علي بن أبي طالب ، وهكذا فقد استشار عبد الرحمن ورشح ، ثم أقر أهل الحل والعقد والمسلمون بالبيعة العامة من اختاره للخلافة .

طريقة اختيار علي رضي الله عنه :

اختلفت طريقة اختيار علي للخلافة اختلافاً كبيراً عن طريقة السابقين عليه ، لأن

ظروف المسلمين كانت مختلفة ، فقد انفتح باب الشر والفتنة ، وانقسم المسلمون على أنفسهم ، وقتل أمير المؤمنين عثمان ، وكان الناس في روع شديد ، والمدينة تغص بالأجناد من مختلف الأقطار وكأنها في حالة حرب ، والناس لا يعرفون ماذا يفعلون بعد مصرع الخليفة الذي جاء صدمة للناس ، لمكانة الخليفة المقتول ، ولحداثة الدولة الإسلامية ، ولفداحة ما حصل وعظم الجريمة التي ارتكبت .

وحين قدم الأجناد على عليّ يطلبون اليه أن يتولى أمر المسلمين رفض ذلك ، ورأى أنهم لا يملكون الحق في اختيار الخليفة ، فقد شعر عليّ انه لو تولى الخلافة ببيعتهم دون أهل الحل والعقد فإنها ستكون سابقة خطيرة ، وعملاً من نوع الإكراه والضغط ، لذا فقد طلب أن يتولى كبار الصحابة وأهل الحل والعقد العمل على اختيار الخليفة كما حصل بالنسبة للخلفاء السابقين .

وعندما حضر كبار رجال الصحابة إلى عليّ يعرضون عليه الخلافة ، حاول أن يردّها عنه ، ولكنهم أصرّوا عليه وألحوا ، وعند ذلك طلب أن تكون البيعة عامة في المسجد ، وقد حصل ذلك ، فاجتمع أهل الحل والعقد والمسلمون اجتماعاً عاماً في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام وبايعوا علياً ، وكان ممن بايعه كبار رجال الصحابة ومنهم طلحة والزبير .

إلاّ أن الاجماع الذي حصل في بيعة أبي بكر وعمر وعثمان لم يحصل في بيعة عليّ ، فقد قال طلحة والزبير رضي الله عنهما أنهما بايعا مكرهين ، وخرجا مع عائشة مطالبين بدم عثمان ، ورفض معاوية وأهل الشام مبايعته للسبب نفسه ، وطلبوا إلى علي أن يسلمهم قتلة عثمان ، وحصل ما حصل من حرب المسلمين الأولى لبعضهم في معركة الجمل ثم في حرب صفين .

وعلى كلّ فإن الذي أقرّ بيعة عليّ هم أهل المدينة بطلب من أهالي الأمصار ، ثم بايعه باقي الأمصار إلاّ أهل الشام .

ثم تنازل الحسن بن عليّ رضي الله عنهما لمعاوية ، وبايعه المسلمون بالخلافة ، وانقلبت الخلافة إلى حكم وراثي وإن كان يأخذ شكل العهد من الخليفة السابق ،

لأن معاوية عهد بالأمر لابنه يزيد ، وعهد مروان لابنه عبد الملك ، وعهد هذا لابنه الوليد ، ثم لسليمان ... وهكذا ... إلا أن بني أمية ومن بعدهم حافظوا على البيعة ، فقد كان كلّ منهم يحرص على أن يأخذ البيعة لابنه أو لمن يعهد له في حياته ثم يبايعه المسلمون بيعة ثانية حين توليه الأمر . ويلتمس البعض لمعاوية العذر في إيجاد هذا النظام الوراثي ، بأن الانقسام الذي حصل بين المسلمين ، وضرورة استمرار الفتوح وقيام دولة قوية في وجه خصوم الإسلام المتربصين به ، كان يتطلب وجود حكم قوي يعتمد على عصبية قوية ، وكانت عصبية بني أمية آنذاك قادرة على أن تتحمل عبء العمل الإسلامي وترسيخ أركان الدولة الإسلامية ، فعمد إلى تلك الطريقة في الحكم وفي تولية الأمر لابنه .

أما وقد انتهينا من استعراض السوابق التاريخية في اختيار الحاكم الأعلى ، فإننا نعود إلى تحليلها لنضع أيدينا على الوسائل التي اتبعها المسلمون في تعيين الخليفة أو الإمام ، علماً بأن كثيراً من هذه السوابق لا يقيدنا باتباعه أو التزامه ، وإنما ندرسه لمجرد الاستئناس به ، فهو ليس أمراً منزلاً من السماء نحن ملزمون بالتقيد به ، وإنما للمسلمين أن يختاروا الطريقة التي تتناسب مع ظروفهم وبيئاتهم وأزمانهم .

ومن تحليل هذه السوابق يمكن أن نلاحظ أن الوسائل التي اتبعها المسلمون في اختيار الخليفة لا تخرج عما يلي :

١ ــ اختياره من أهل الحل والعقد
٢ ــ اختياره بالعهد له ممن سبقه
٣ ــ دعوة مستحق الخلافة لنفسه ومبايعة المسلمين له
٤ ــ تعيين الخليفة السابق طريقة اختيار خليفته
٥ ــ الوراثة
٦ ــ القهر والغلبة
٧ ــ النص عليه في القرآن أو السنة أو من الخليفة السابق .

إن الطريقة المثلى ، والأسلوب الذي يشكل قاسماً مشتركاً لأكثر من طريقة اختيار الخليفة ، هي طريقة اختياره من أهل الحل والعقد . وأهل الحل والعقد ـــ لذين سندرسهم تفصيلا ـــ هم أصحاب الرأي والكلمة في الدولة الإسلامية ، ويرى معظم علماء السياسة وفقهاء المسلمين أن أهل الحل والعقد هم الذين يختارون الخليفة لمكانتهم في الدولة ولأن معنى الشورى يتحقق إذا ما اختاروا أو أشرفوا على اختيار حاكم المسلمين الأول .

وقد اختلفت آراء العلماء فيمن يشترك من أهل الحل والعقد في الاختيار وذهبوا إلى رأيين :

أولهما : يقول بالاكتفاء بمن هو موجود منهم في حاضرة الدولة الإسلامية أو عاصمتها ، وحجتهم في ذلك أن الخلفاء الراشدين الأربعة اختيروا من أهل الحل والعقد في مدينة الرسول ﷺ التي كانت عاصمة الدولة آنذاك ، بالإضافة إلى الحرج الشديد الذي يترتب على استدعاء جميع أهل الرأي في الدولة خاصة إذا كانت ظروف الانتقال صعبة غير ميسورة ، فذلك يؤخر اختيار الحاكم الأعلى أهم منصب في الدولة ، ومن هذا الرأي الماوردي صاحب الأحكام السلطانية .

وثانيهما : يقول بوجوب اشتراك أهل الحل والعقد في جميع الأقطار الإسلامية ، لأن القول الأول في رأي هؤلاء لا سند له من كتاب أو سنة ، وقد هاجم ابن حزم في «الفصل في الملل والأهواء والنحل» القول الأول ولم يجد فيه أي مزية .

والذي نراه أن ظروفنا الحاضرة قد تسمح بما لم تسمح به ظروف أوائل المسلمين ، وذلك لسهولة الانتقال وسرعته ، ولأنه يمكن اتباع نظام يكون بموجبه على أهل الحل والعقد في الأقطار كلها أن يلتقوا في عاصمة الدولة مرات متعددة في كل سنة ، وبذلك يكون ضرورياً اتفاق أهل الرأي في الأمصار جميعاً على الحاكم الجديد ، إلا إذا كانت هناك ظروف تجعل اجتماع أهل الحل والعقد مستحيلا فعند ذلك يجوز الاكتفاء بمن يوجد منهم في عاصمة الدولة .

أما تعيين الخليفة بالعهد له من الخليفة السابق فقد فعله أبو بكر رضي الله عنه

حين عهد إلى عمر بالخلافة ، لكننا ذكرنا أن أبا بكر لم ينفرد برأيه في تولية عمر ، فقد استشار الصحابة وتعرف على آراء معظم رجال أهل الحل والعقد ، والتقت آراء الجميع على أن عمر أفضل المسلمين للخلافة ، إلا ما تخوف منه البعض من شدته رضي الله عنه ، وهكذا أمر أبو بكر بكتابة العهد له بعد أن طمأن المتخوفين بأن شدة عمر إنما هي للين أبي بكر رضي الله عنه .

ويرى ابن حزم أن هذه الطريقة في اختيار الحاكم الأعلى هي أفضل الطرق ، وذلك لما تؤمنه من استقرار الدولة واستشارة أهل الرأي فيها .

وإذا حصل من أهل الحل والعقد لم يختاروا أحداً للخلافة ، وأن الخليفة السابق لم يعهد إلى أحد من بعده ، فإننا يمكن أن نتصور أن يقوم أحد الذين تتوفر فيهم شروط الخلافة فيدعو لنفسه ، فإذا وافقه أكثرية أهل الحل والعقد من المسلمين وبايعوه أصبح حاكماً على الدولة .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن معظم الزيدية — وهم طائفة من الشيعة المعتدلة — في اليمن يميلون إلى هذه الطريقة ، لأن من رأيهم أن الإمامة كانت بالنص لعليّ والحسن والحسين رضي الله عنهم ، وهي بالدعوة من مستحق الإمامة بعد ذلك .

وقد يعين الخليفة السابق طريقة اختيار خلفه دون أن يعين شخصه ، وذلك ما حصل حين عيّن عمر بن الخطاب رجال الشورى وترك لهم أن يختاروا واحداً منهم بعد استشارة المسلمين ، وقد رأينا كيف استشار عبد الرحمن بن عوف الذي أخرج نفسه من الخلافة ، المسلمين على مختلف اتجاهاتهم ، وحين وجد أن معظمهم يميل إلى أحد اثنين ، عثمان أو علي رضي الله عنهما ، أراد أن يستوثق لنفسه فطلب إلى كليهما أن يعملا بالكتاب والسنة وسيرة الخليفتين فوافق عثمان بلا تردد وتحفظ عليّ فبايع عثمان وتابعه المسلمون بما فيهم عليّ . وكانت مبايعة ابن عوف رضي الله عنه بمثابة ترشيح منه ، وببيعته المسلمين استكمل الاختيار شروطه فتم تعيين الخليفة .

وفي رأينا أن هذه الطرق جميعاً تعتمد على موافقة أهل الحل والعقد . وقد أقر

بعض علماء المسلمين الوراثة كطريقة لاختيار الخليفة ، وبموجب هذه الطريقة ينتقل الحكم إلى الابن أو الأخ أو إلى غيرهما حسبما يوجبه نظام الوراثة المعمول به في زمن أو بلد ما ، وعلى رأس من أقر هذه الطريقة من المسلمين العلامة ابن خلدون ، وفي رأي هؤلاء أن هذه الطريقة تشبه طريقة العهد من السابق للخلف ، وأنها أدعى لاستقرار الدولة وأمنها ، إلا أننا لا بد أن نلاحظ بأن خلفاء بني أمية كانوا يحرصون — مع إقرارهم نظام الوراثة — على أن يأخذوا البيعة لمن يعينونه من بعدهم ، ثم تكون بيعة ثانية حين يتولى الحاكم الجديد ، وفي ذلك إقرار بحق الشعب بالبيعة العامة كأمر لازم لإقرار تعيين الخليفة .

وقد أقر بعض فقهاء الأحناف طريقة القهر والغلبة وسيلة لتعيين الحاكم الإسلامي الأول ، فإذا غلب أحد الناس بقوة عصبيته أو عشيرته على الدولة أصبح بحكم الأمر الواقع حاكماً ، ولعل الفقهاء الأحناف يريدون بذلك تأييد ما فعله معاوية مع يزيد ابنه حين اضطر بعض المسلمين إلى مبايعته ، ويمكن أن يكونوا قد قصدوا إلى استقرار الدولة ، إلا أن الموافقة على هذه الوسيلة ستسهل لأي طامع بالحكم أن يعمل على استلام الدولة بالقوة والضغط ، فيفتح على المسلمين باب من الشر كبير يصعب عليهم أن يسدوه .

وأخيراً ، فقد قالت بعض طوائف الشيعة بأن النص هو الوسيلة الأولى لاختيار الإمام ، فمن رأي الإمامية (الجعفرية) مثلا ، أن القرآن والحديث قد نصا على إمامة عليّ بعد الرسول ﷺ ، وأن علياً نص على الحسن ، والحسن نص على الحسين ، والحسين نص على عليّ من بعده ، وهكذا ، وقد اعتمدوا على آيات وأحاديث أولوها بتكلف شديد لا تحتمله ولا تطيقه اللغة العربية ولا الواقع التاريخي. من ذلك قوله تعالى : «إنما وَلِيُّكُمُ اللهُ ورَسولُه والّذين آمَنُوا الّذينَ يقيمون الصلاةَ ويُؤتون الزكـاةَ وهُم رَاكِعُونَ». فقد تأول الشيعة أن المقصود بالذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون عليّ بن أبي طالب . ولعلك تلاحظ أن في هذا التأويل شططاً كبيراً وبعداً عن اللغة العربية والحقيقة ، ومنها قوله تعالى : «وإن تظاهرا عليه فإن الله مولاه وجبريل وصالح المؤمنين» فأول الشيعة

صالح المؤمنين بأنه عليّ رضي الله عنه ، وهكذا ، مما نجده من ضعف الحجة على قدر كبير .

* * *

مصدر السلطة والسيادة في الدولة

ذكرنا أن الحاكم (أو الحكومة بصورة عامة) يمارس سلطة وسيادة على المواطنين ضمن سيادة الدولة ، وقلنا إن هذه السيادة شرط لا بد منه لقيام الدولة التي تتألف عناصرها من شعب وإقليم ونظام تنبثق عنه حكومة تمارس السلطة .

وهذه السلطة تصل إلى حد تقييد الحريات وفرض الضرائب والحكم بالأحكام المختلفة ، ولا بد من أن يمارس الحاكم نوعاً من السلطة حتى يقوم النظام وتستقر الدولة وتتأمن حقوق المواطنين وتنعدم الفوضى .

فمن أين يستمد الحاكم هذه السلطة ؟ هل يستمدها لصفته الشخصية أم أنه يستمدها بصفته حاكماً أو خليفة .

لقد تعددت النظريات التي تبرر ممارسة الحاكم للسلطة ، ويمكن أن نحصر هذه النظريات في اتجاهين كبيرين :

١ — أحدهما يرى أن الحاكم يمارس سلطته بموجب حق أو تفويض إلهي ، فهو في رأي أصحاب هذا الاتجاه وكيل عن الله وخليفته على الأرض ، لذا فإنه لا يستمد سلطانه إلا منه ، وقد سادت هذه النظرية في العصور القديمة واستمرت حتى نهاية القرون الوسطى فيما يسمونه بالحكم الثيوقراطي ، وكان ينظر إلى الحاكم آنذاك على أنه إله أو من سلالة الآلهة ،أو على الأقل أنه متميز عرقاً ودماً وشرفاً عن سائر المواطنين .

وكان من نتيجة هذه النظرية أن وجد نوع من الرؤساء يحكمون بشكل مستبد وبصورة مطلقة ، دون أن يكون لأحد من الناس الحق في مراجعتهم أو نقدهم أو

بيان الأخطاء في حكمهم ، محتجين بأنهم لا يقدمون حساباً على أعمالهم إلا الله تعالى الذي فوض إليهم حكم الناس ، وحكّمهم في رقابهم وأموالهم .

إن أصحاب هذه النظرية يؤيدون الحكم المستبد ، وينسبون ذلك إلى الله تعالى ، وحاشا الله أن يرضى الظلم لنفسه أو لأحد من عباده .

٢ ــ أما الاتجاه الثاني فإنه ينظر إلى الحاكم على أنه فرد من أفراد الأمة لا يتميز عليهم بشيء إلا بالأعباء الثقيلة التي يتحملها ، ويرى أن إرادة الأمة هي السلطة العليا وأن هذه الإرادة تظهر في صورة القانون . فالأمة هي التي تحكم عن طريق الحكام ، وهي التي تمنح هؤلاء السلطة والسيادة وترفعهم إلى سدة الحكم . وقد بدأت هذه النظرية مكملة لنظرية العقد الاجتماعي لروسو .

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه النظرية لم تمنع الاستبداد ، بل إنها في كثير من الأحيان تؤدي إلى الاستئثار بالسلطة بحجة أن الحاكم يمثل إرادة الشعب ، وأن إرادة الشعب مقدسة .

فما هو موقف النظام الإسلامي من هذين الاتجاهين ؟[1]

نحن نرى بأن الإسلام روحاً ونصاً لا يقبل نظرية التفويض الإلهي ، بل يرى فيها مجرد وسيلة للوصول إلى السلطة والاستبداد بالحكم ، وأما ما يدعيه أصحابها من أن الحاكم خليفة الله في الأرض ، فإن الإسلام يعتبر الناس جميعاً خلفاء له في هذه الدنيا يعمرونها مكرمين متفوقين على سائر مخلوقات الله بالعقل والاستعداد لتقبل الهداية ، فليس لأحد من الناس أن يدعي له خلافة خاصة دون الآخر ، وأما القول بأن يصل بإرادة الله الحاكم إلى سدة السلطة ، فإن هذه كلمة حق أريد بها باطل ، فنحن نؤمن أن كل شيء في العالم يتم بإرادته تعالى وقدرته وليس فقط وجود الحاكم في سدة الحكم ، لكن ذلك لا يسمح لأي كان أن يدعي أنه يتلقى سلطة مطلقة من الله أو الأنبياء .

---

١ ــ أنظر لمناقشة هذا الموضوع نظرية الإسلام السياسية للأستاذ المودودي .

ولقد وجد بين علماء المسلمين من يقول بما يقرب من هذه النظرية محتجاً بقول عثمان رضي الله عنه: «كيف أخلع لباساً ألبسنيه الله تعالى».

لكننا نرد على هذا الرأي ، بأن من الواجب أن يوضع قول عثمان رضي الله عنه في إطار الحادثة التي ورد فيها حتى نحكم عليه حكماً صحيحاً . فالمعلوم أن الفتنة بين المسلمين ذر قرنها في أواخر خلافة عثمان ، حين استطاع بعض المشاغبين والمتآمرين أن يستغلوا بعض البسطاء فيثيروا فتنة دامية ، كان قوامها متآمرون على الإسلام من ورائهم عبد الله بن سبأ وعامة وبسطاء ، انخدعوا بمعسول الكلام فصدقوا أكاذيب روجها الحاقدون وضخموها ، فحاصروا المدينة وخيروا عثمان بين أن يعتزل أو يقتلوه .

وكان من الطبيعي أن يقف عثمان من هؤلاء موقفاً شديداً ، وأن يرفض إقالة نفسه من الخلافة ، لأنه لم ير بينهم كبار رجال الصحابة وأصحاب الرأي والمشورة من المسلمين ، ولو أن كل حاكم شرعي استجاب لضغط المتآمرين الخارجين الشاقين لعصا الطاعة ، المفرقين بين المسلمين ، لما استقر الحكم على حال ولما تحققت المحكمة من وجود النظام في الدولة . وفي رأينا أن عثمان لو وجد بين هؤلاء الصحابة وأهل الشورى لكان له موقف آخر ، ولما تردد في النزول راضياً عند رأيهم لأنه يعلم أنهم هم أصحاب السلطة الحقيقية والمشورة الصالحة .

يؤيدنا في موقفنا من أن الحاكم لا يستمد سلطته من شخصه وأنه لا يصح له أن يستبد فيها أو يدعي لنفسه سلطاناً فوق سلطانهم آيات ومواقف متعددة للرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين ، وقد حدث لرجل أن أخذته الرهبة من النبي فتعثر لسانه في الكلام فقال له عليه السلام : «لا تخف فلست ملكاً ولا جباراً ».

أما عمر رضي الله عنه فقد كان يقول للناس وقد أحسوا منه شيئاً من الغلظة والشدة في الحق : (والله ما أنا بملك فاستعبدكم بملك أو جبريه وما أنا إلا أحدكم ، منزلتي كمنزلة ولي اليتيم منه ومن ماله)، فهو يقرر أنه كأحد المسلمين وأنه يرعى

شؤونهم كما يرعى ولي اليتيم مصلحة اليتم بالحسنى والمعروف ، وقد خاطب عمر أحد ولاته قائلا : يا أبا موسى أنا وأنت من الناس ، غير أن الله جعلنا أثقلهم حملا . وقد مدحه أحد الشعراء بكلام يشير إلى هذا المعنى وتقبله منه ، ولو أنه يرى شيئاً آخر لعارضه فيه ونبهه إليه ، قال الشاعر :

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه
ألقى إليك مقاليد النهى البشر

ولكن هل معنى ذلك أننا نقول بنظرية الأمة مصدر السلطات ؟ الواقع أن هذا لا ينطبق على النظام الإسلامي لأن مقتضى أن تكون الأمة مصدر السلطات جميعاً أن التشريع كله يكون عن طريقها أو طريق ممثليها ، ويمكن القول بأن الإسلام إذا لم يعتبر الأمة صاحبة السيادة فإنه يعتبرها صاحبة الخلافة أو حاملتها ، كما أن الخليفة يستمد سلطته من الشريعة ولكنه ليس ظل الله في الأرض وليس له حق إلهي . وهكذا فالحاكم وكيل عن الأمة في أمور الدين وفي إدارة شؤونها حسب شريعة الله ورسوله ، ولها حق نصحه وتوجيهه وتقويمه إن أساء ، بل وحق عزله ، ويتمثل عقد الوكالة بصورة واضحة بعقد البيعة التي يعطيها المسلمون للحاكم المسلم .

وعلى هذا الرأي جمهور الفقهاء ورجال الفقه السياسي من المسلمين القدامى والمحدثين ، ويمكن أن يستدل على هذا ، بأن الله تعالى كان يتوجه إلى الجماعة كلها فيما يتعلق بالأمور العامة وليس إلى فرد بالذات ، من ذلك قوله : «يَا أيها الذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامينَ بالقِسْطِ شُهداء لله ولَوْ عَلى أنفُسِكم أو الوالِدين والأقْرَبينَ ، إنْ يكن غَنيّاً أو فَقيراً فالله أولى بهما ، فلا تَتّبِعوا الهَوَى أن تعدلوا»[1] وقوله : «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود» ، «وتعَاونوا عَلى البرّ والتّقوَى ولا تعَاوَنوا على الإثم والعُدوان»... الخ ... وإذن فإن الأمة الأسلامية بمجموعها

١ – النساء : ١٣٥ .

هي التي ترعى إقامة حدود الله وتطبيق أحكامه ، ولها حق اختيار الرئيس الأعلى للدولة والإشراف على الحكام .

ويمكن أن يستدل على هذا الرأي أيضاً بقول الرسول عليه الصلاة والسلام : «سألت ربي ألا تجتمع أمتي على ضلالة وأعطانيها» ومعنى ذلك أنه متى اجتمعت الأمة على رأي كان هو الحق وكان واجباً الأخذ به لأنه صدر عن صاحب الخلافة وحاملها .

وإذا كانت مكانة الأمة كذلك فإنها تمارس صلاحياتها بواسطة ممثليها الذين عبر عنهم القرآن بـ « أولي الأمر » وقد تعددت آراء الفقهاء والعلماء في تحديد صفات هؤلاء وأشخاصهم ، والجمهور على أنه يجب أن تتوفر فيهم نفس الصفات التي يجب أن تتوفر في الحاكم المسلم الأول إلا شرط النسب لمن اشترط النسب في الإمام .

ويرى الماوردي أن أهم هذه الصفات هي : العدالة ، والعلم ، والرأي والحكمة . أما أشخاصهم فقد رأى بعض العلماء أنهم الأمراء والقواد فقط ، بينما وسع آخرون دائرتهم فقالوا بأن أهل الحل والعقد أو رجال الشورى يتألفون من الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند وسائر الزعماء والرؤساء الذين يرجع اليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة .

وقد سبق لنا أن بينّا في بحث الشورى ما يتعلق باختيار أعضاء الشورى وحقوقهم وواجباتهم ومسؤولياتهم .

* * *

واجبات رئيس الدولة وحقوقه

إن الحاكم الأول في الدولة بمقتضى مبادىء الإسلام فرد من أفراد الأمة لا يتميز عليهم بشيء إلا أنه أكثرهم أعباء وأشدهم مسؤولية ، فهو لا يحتل مركزاً خاصاً يحميه من النصح والتوجيه ويعفيه من الواجبات ، وليس له صفة من صفات

القداسة التي كان يدعيها الحكام لأنفسهم ، وهو ممثل عن الأمة ووكيل عنها ، عهدت إليه تصريف شؤون البلاد ورعاية مصالح الناس [1] .

والرئيس الأعلى للدولة ليس خليفة الله كما يظن البعض وإنما هو خليفة رسول الله ﷺ وأما ما ذكره البعض من أنه خليفة الله فليس إلا تلك الخلافة العامة التي شارك فيها الناس جميعاً حين خاطب الله تعالى الملائكة « إني جاعل في الأرض خليفة » ولا يمنح الإسلام الخليفة أو الرئيس الأول صفة العصمة المطلقة لأنها من صفات الله وحده .

وهو لا يطاع إلا بالمقدار الذي تتفق فيه أعماله وأحكامه مع منهج الإسلام ومبادئه الحقة ، فإذا انحرف عن المنهج أقاموه عليه وإذا اعوج قوموه بالنصيحة ، فالأمة صاحبة الحق في تقويمه ونصحه ومراقبة أعماله ، لأنها هي التي أقامته في مكانه وعهدت إليه أمورها ببيعة حرة خالصة من شوائب الضغط والإكراه ، وفي حياة الرسول الكريم وصحابته : الخلفاء الراشدين أمثلة رائعة عن الشعور بالمساواة الكاملة بين الحاكم والأمة ، وتطبيقات نادرة لهذا المبدأ الرفيع .

فقد خرج الرسول ﷺ كما روى ابن الأثير في الكامل في مرضه الأخير من منزله متكئاً على الفضل بن العباس وعليّ بن أبي طالب حتى جلس على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ، ولا يخشى الشحناء من قبلي فإنها ليست من شأني ، ألا وإن أحبكم إليّ من أخذ مني حقاً إن كان له ، أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس » .

وهكذا كان يفعل الخلفاء الراشدون ، فقد أعطى عمر رضي الله عنه القود من نفسه أكثر من مرة ، ولما قيل له في ذلك قال : (رأيت رسول الله ﷺ

---

١ - الدكتور محمد يوسف موسى : نظام الحكم في الا سلام .

يعطي القود من نفسه ، وأبا بكر يعطي القود من نفسه ، وأنا أعطي القود من نفسي) .

وهكذا فإن الحاكم المسلم كان يرى أن الإسلام لا يفرق بينه وبين المحكوم حتى في العقوبة والأخذ بالقصاص .

وقد أوجب الإسلام عليه أن يقوم بواجبات تمثيل الأمة والوكالة عنها حق القيام ، وألزمه ببعض الأمور المحددة التي سنعرض لها بعد قليل ، وفي مقابل ذلك أوجب على الأمة تجاهه بعض الواجبات هي كالحقوق له عليهم ، لأن كل واجب لا بد وأن يقابله حق والعكس .

واجبات الحاكم :

كانت واجبات الحاكم الأول مجالا للحديث المجمل والمفصل لدى علماء الفقه السياسي ، وقد حدد الماوردي عشرة واجبات رأى أن الإمام ملزم بأدائها ، ووافقه على ذلك معظم العلماء الآخرين ، وسنورد هذه الواجبات ، ثم نعمد إلى تحليلها مستنبطين منها ما نتصوره من واجبات على رئيس الدولة في أيامنا هذه .

قال القاضي أبو يعلي متحدثاً عن هذه الواجبات :

ويلزم الإمام من أمور الأمة عشرة أشياء :

أحدها : حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة ، فإن زاغ ذو شبهة عنه بيّن له الحجة وأوضح له الصواب وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ليكون الدين محروساً من خلل والأمة ممنوعة من الزلل .

الثاني : تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بينهم حتى تظهر النصفة ، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم .

الثالث : حماية البيضة والذب عن الحوزة ، ليتصرف الناس في المعايش وينتشروا في الأسفار آمنين .

الرابع : إقامة الحدود ، لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك .

الخامس : تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة ، حتّى لا يظفر الأعداء بثغرة ينتهكون بها محرماً ويسفكون فيها دماً لمسلم أو معاهد .

السادس : جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتّى يسلم أو يدخل في الذمة .

السابع : جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً من غير عسف .

الثامن : تقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقصير فيه ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

التاسع : استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض اليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال ، لتكون الأعمال مضبوطة الأموال محفوظة .

العاشر : أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتفحص الأحوال ، ليهتم بسياسة الأمة وحراسة الملة ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة ، فقد يخون الأمين ويغش الناصح . وقد قال تعالى : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى » فلم يقتصر سبحانه على التفويض دون المباشرة وقد قال النبي ﷺ « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

وختم أبو يعلي كلامه بقوله : (وإذا قام الإمام بحقوق الأمة وجب له عليهم حقان : الطاعة والنصرة ما لم يوجد من جهته ما يخرج عن الإمامة) .

وإذا أردنا أن نترجم هذه الواجبات بحسب أوضاعنا الحاضرة فإننا يمكن أن نحدد أهم واجبات الحاكم بالأمور التالية :

١ ـ إقامة المجتمع المسلم الذي يحقق الحياة الإسلامية ويحكم الإسلام في

جميع أموره ومشاكله وأنظمته سواء منها ما كان يتعلق بشؤون الفكر والعقيدة أو المال والاقتصاد أو الأخلاق والتشريع والقضاء .

٢ ـ حراسة الإسلام من كل عدوان والمحافظة على الوطن الإسلامي ومنع كل اعتداء يقع على أرضه ، إذ يجب على الحاكم أن يتخذ مختلف الوسائل التي تكفل صد الاعتداء ، ويجب على كل مسلم أن يقدم كل ما يطلبه منهم من تضحيات في سبيل تحقيق هذا الغرض .

٣ ـ العمل على نشر الإسلام بتحقيق مبادئه في نفوس الأمة وتوضيح مبادئه وفضائله للناس جميعاً في كل أقطار الدنيا ، لأن الأمة الإسلامية أمة ذات عقيدة ورسالة . وبهذه المناسبة قد يستغرب البعض أن نضع في واجبات الحاكم العمل على نشر الإسلام بحجة أن هذا يتعارض مع واجبات الحكومات الحديثة ، والحقيقة أن جميع الدول الحديثة التي تقوم على عقائد معينة تعمل على نشر عقيدتها والدعوة لها بمختلف أساليب الدعاية والإعلان والنشر ، فروسيا والدول الشيوعية الأخرى تبذل الكثير من أجل بث عقيدتها وتحسينها في أعين الناس ، وكذلك تفعل أمريكا والدول التي تعتمد ما يسمى بالديمقراطية الغربية فلماذا لا تقوم الدول الإسلامية بواجب نشر عقيدتها ورسالتها .

٤ ـ العمل على تحقيق العدل والانتصار للمظلومين ومحاولة القضاء على الاستبداد والاستعمار ومساعدة الشعوب المستضعفة للتحرر من ذل العبودية والاحتلال ، فالعدل أخطر واجب على الحاكم في نطاق بلده وعلى أمته ومواطنيه ، ونصرة الشعوب المظلومة من أنبل الواجبات التي يؤديها الحاكم المسلم خارج نطاق بلده وأمته ، لأن الإسلام لا يطيق أن يقع الظلم على أي إنسان ، فالله بعث الرسل ليقوم العدل بين الناس جميعاً وأرسل محمداً عليه الصلاة والسلام ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

حقوق الحاكم :

إذا قام الحاكم بالواجبات المترتبة عليه ، وأدى أمانة الحكم ، ونصح المسلمين وعدل بينهم فقد وجب له حقوق عليهم أن يؤدوها حق الأداء . وقد لخص علماء الفقه السياسي ما يترتب على الأمة من واجبات تجاه الحاكم في نقطتين أساسيتين أشار إليهما الماوردي ومن تأثر به من كتاب السياسة المسلمين هاتان النقطتان هما :

١ ـ الطاعة في غير معصية .

٢ ـ نصرته ومؤازرته والنصح له .

١ ـ الطاعة في غير معصية :

إن الحكم إذا اعتمد على العدل والشورى من جانب الحاكم فإنه لا يستقر إلا إذا تحققت الطاعة لولي الأمر والائتمار بأوامره والانصياع له ، فما دام الحاكم يلتزم في تصرفاته من حيث المبدأ ووسيلة التطبيق نصوص الشريعة ، فإن طاعته تصبح فريضة دينية واجبة الأداء من قبل المواطن المسلم ، فمن غير المعقول أن يكون ولي الأمر قائماً بما عليه لله وللأمة ثم لا يكون مسموع الكلمة ولا مطاعاً .

وقد أكد القرآن الكريم على هذا المبدأ : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » ورئيس الدولة من أولي الأمر الذين أوجب الله على المسلمين طاعتهم . كما أن أحاديث الرسول ﷺ كثيرة في هذا الخصوص ، فقد روى مسلم في صحيحه قوله : (عليك بالسمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك) ومن الأحاديث المتفق عليها قوله عليه السلام (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ما لم يؤمر فإن امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) .

وهكذا فإن الطاعة واجبة محتمة ولا يمنع وجوبها إلا أمر واحد وهو خروج

ولي الأمر خروجاً واضحاً على نصوص الشريعة ومبادئها لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وقد خطب أبو بكر رضي الله عنه إثر توليه منصب الخلافة فقال : (يا أيها الناس وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتموني على حق فأعينوني وإن رأيتموني على باطل فسددوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم) .

ولا تشق عصا الطاعة لتصرف خاطىء بسيط أو اجتهاد لم يصب ، وذلك لأن المحافظة على وحدة الأمة أعلى وأهم ، فقد روي عن الرسول قوله : « إنه سيكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان » وروي عنه قوله : « أيما رجل خرج يفرق بين أمتي فاضربوا عنقه » وقوله : « من أتاكم وأمركم جميعاً على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه » .

وإذاً فماذا تفعل الأمة إذا أخطأ الحاكم خطأ لا يصل إلى حد الخروج على الشريعة ، لقد أوجد الإسلام سبيلا إلى تصحيح الخطأ وتقويم الإنحراف بأن أقام الحكم على الشورى فلا يخرج الرأي والأمر إلا بعد تمحيص وتدقيق وأمر بالنصيحة لولي الأمر . وتبدأ حدود النصيحة من المحادثة والرسالة التي تبين الخطأ بأسلوب هادىء رصين ، إلى الاحتجاج على الانحراف البين ، إلى استنكار الاعوجاج الخطير بالجهر بالحق مهما كانت النتائج ، فقد ورد عن النبي ﷺ قوله « أفضل الجهاد من قال كلمة الحق عند سلطان جائر » وقوله: « مَن رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » أما أن إنكار المنكر يصل إلى حد شق عصا الطاعة والخروج على ولي الأمر فسنتحدث عنه في بحث آخر .

وقد استخلص الأستاذ محمد أسد في كتابه : « منهاج الإسلام في الحكم » من مجموعة الأحاديث والآيات الواردة حول هذا الموضوع المبادىء الأربعة التالية :

أولا : أن للأمير الذي يمثل الحكومة الشرعية في الدولة حق الطاعة من المواطنين جميعاً ، بغض النظر عن أن فريقاً أو فرداً منهم قد لا يحبه أو لا يرضى أحياناً عن سياسته في إدارة شؤون الدولة .

ثانياً : إذا ما أقدمت الحكومة على إصدار قوانين أو أوامر تتضمن معصية صريحة بالمعنى الشرعي فإنه لا سمع ولا طاعة على المواطنين بالنسبة لهذه القوانين والأوامر .

ثالثاً : إذا وقفت الحكومة موقفاً تتحدى به تحدياً صريحاً متعمداً نصوص القرآن ، فإن هذا الموقف يعتبر كفراً بواحاً ، الأمر الذي يستوجب نزع السلطة من يدها وإسقاطها .

رابعاً : إن نزع السلطة من يد الحكومة يجب أنلا يتم عن طريق ثورة مسلحة من جانب أقلية المجتمع لأن الرسول ﷺ قد حذرنا من اللجوء لهذه الوسيلة فقال : « من حمل علينا السلاح فليس منا » ، وقال : « من سلّ علينا السيف فليس منا » .

وسنعود لتفصيل الحديث في هذا الموضوع في بحث قادم .

٢ ــ نصرته والنصح له : إذا كان الحاكم قائماً بواجباته ، عادلا بين الرعية ، مؤمناً حياة الشورى ، عاملا على تأمين حقوق الله وحقوق الناس ، منفذاً لجميع المبادىء الإسلامية ، نقول : إذا كان حال الحاكم على هذه الصورة فإن من الواجب على الأمة أن تطيعه وأن تنصره وتؤازره ، خاصة إذا خرج على الإمام من يشق عصا الطاعة لأنه في هذه الحالة يمزق وحدة المسلمين ويفرق صفوفهم ، مما يهدد الدولة الإسلامية بالخراب والدمار . وقد اعتبر الإسلام من يشق عصا الطاعة دون وجه مخرباً ومفسداً في الأرض ومحارباً لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأوجب على الحاكم أن يرده إلى جادة الصواب كما ألزم الأمة أن تؤازر الحاكم وتنصره في عمله هذا .

وحتى تكتمل صورة العلاقة المتينة بين الحاكم والشعب ويكون التجاوب

كاملا ويتحقق الصلاح والرشاد في الحكم الذي يهدف إلى تحقيق شريعة الله والعدل بين الناس ، أوجب الإسلام على الشعب أن ينصح الحاكم إذا اجتهد فأخطأ أو ظهر منه مخالفة لقواعد الإسلام ، وذلك لأن الإنسان مهما كانت رتبته وقيمته ، ومهما كان علمه وإحاطته بالأمور فإنه معرض للخطأ والزلل ، وليس من المعيب أن يخطىء الإنسان ولكن المعيب أن يستمر على خطئه بعد نصحه وتوجيهه ، وقد ضمن الإسلام حرية التعبير والتفكير والانتقاد حتّى لا يتقاعس المسلمون في أداء هذا الواجب الهام ، واجب النصح للحكام ، وإذا أدى المسلمون واجبهم هذا حق الأداء استقر الحكم وثبتت الدولة وأمن كل إنسان على حقه وعرف واجباته ، وقد جاء في الحديث الشريف « الدين النصيحة » ، قلنا لمن ؟ قال : لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

وإذا لم يكن معنى النصيحة الخروج على الحاكم لكل صغيرة أو حادثة ، فإن الإسلام يحتّم اللجوء إلى مثل هذا التصرف العنيف حين تفشل الوسائل كلها في رد الحاكم إلى صوابه والعودة عن خطئه إذا بلغ حد الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » . ولا يكون هذا إلا إذا لم تنفع النصيحة بالرفق والمعروف .

وفي تاريخنا الإسلامي المضيء أمثلة كثيرة مليئة بالمواقف البطولية التي كان يقفها المسلمون وعلماؤهم العاملون أمام الحاكم إذا رأوا منه انحرافاً عن الخط السوي الذي رسمه الإسلام .

* * *

مدة ولاية رئيس الدولة

تنقسم نظم الحكم القديمة والحديثة من حيث مدة ولاية رئيس الدولة إلى قسمين ، فمنها ما يحدد مدة معينة تنتهي في نهايتها ولاية الرئيس سواء كانت المدة قصيرة أو طويلة ، ومنها ما يجعل ولاية الحاكم مستمرة طول حياته .

وإذا أردنا أن نعرف مكان النظام الإسلامي من هذين الإتجاهين وجدنا

أنه لم يرد في القرآن أو السنة ما ينص على اتباع أحد النظامين ، فقد تركت النصوص حرية للمسلمين في اتخاذ الموقف الذي يتناسب مع الزمان والمكان والبيئة والتركيب الاجتماعي والتقدم أو التخلف في الوعي والعناية بالشؤون العامة ، إلا أن الذي جرى عليه المسلمون بعد وفاة الرسول حتى نهاية الدولة العثمانية أنهم أخذوا بالاتجاه الثاني ، أي بقاء الحاكم الأعلى على سدة الرئاسة حتى وفاته . ولكن هل معنى ذلك أنه ليس في النظام الإسلامي وسيلة لتنحية الحاكم غير الكفء ، وهل كتب على المسلمين أن يتحملوا ظلم الحاكم إذا كان ظالماً ، وجنونه إذا كان مجنوناً ، وهل يلزم الحاكم الذي لا يريد البقاء في الحكم أن يبقى مهما كان عزوفه عن الحكم أو كانت رغبته في التنحي ؟

هذا ما سنتناوله بالدراسة في هذا البحث وسنعرض لذلك على النحو التالي :

١ — هل يجوز للرئيس أن يتنازل أو يستقيل ؟

٢ — هل يجوز للأمة أن تنحي الرئيس أو تخلعه ؟

٣ — متى يجب على الأمة أن تفعل ذلك ؟

أما عن خلع الرئيس لنفسه فقد كان مجال بحث عند علماء الفقه السياسي الإسلامي ، لأن منهم من أجاز للرئيس ذلك ، ومنهم من لم يجزه ، وقد اعتمد كل من الفريقين على سوابق التاريخ الإسلامي .

فالذين أجازوا ذلك اعتمدوا على تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما لمعاوية بن أبي سفيان عن الخلافة . فبعد أن استشهد عليّ بايع الناس ابنه الحسن بالخلافة ، إلا أن الحسن نظر إلى الأمر نظرة الحكيم ، فوجد أن من حوله من الأمراء والأجناد لا يعتد بنصرتهم لأنهم لا يطيعون طاعة يشتد بها ظهره ، فهم قلّب مترددون قوالون لا فعالون ، ونظر إلى من حول معاوية فوجد قوماً يطيعونه في السراء والضراء ، ولا يترددون في أمر ينفذه إليهم ولا يناقشونه ما يطلب . وجد ممّن حوله فرقاً وشيعاً وأحزاباً ، وممّن حول معاوية صفاً واحداً ، وعندما عرض عليه معاوية أن يحقن دماء المسلمين ويعيد لهم وحدتهم المفقودة منذ زمن

بأن يتنازل عن الخلافة قبل الحسن ذلك ، فتنازل في سنة ٤١ هجرية وسمى هذا العام عام الجماعة .

أما الذين أنكروا حق الرئيس بالتنازل فإنهم احتجوا بموقف عثمان بن عفان رضي الله عنه حين طلب إليه الأجناد المتغلبون على المدينة أن يخلع نفسه ، وقد أبى عثمان ذلك . وقد سبق أن عرضنا لهذه الحادثة وبيّنا أن عثمان وقف ذلك الموقف حتّى لا يعتاد المغامرون والمتآمرون خلع السلطة الشرعية ، ولا تعتبر هذه الحادثة حجة لأصحاب هذا الرأي .

والذي نراه أن الرئيس حر في أن يتخذ الموقف الذي يريده كما أن كلا منا حرّ في اتخاذ موقفه السياسي ، فإذا وجد الحاكم الأول نفسه غير قادر على الاستمرار في تحمل أعباء الحكم فليس لنا أن نجبره على ذلك ، بل ليس من المصلحة أن نفعله لأن إنساناً وصل إلى هذا المقام لا بد أن يكون وجد أسباباً حقيقية تدفعه إلى اتخاذ هذا الموقف .

وقد بحث علماء المسلمين أيضاً موضوع تنحية الأمة للرئيس غير الصالح وقالوا : إن الرئيس يستحق العزل في بعض الحالات ، فمن المعلوم أن من يتولى منصب الرئاسة الأولى يشترط فيه أن يتمتع ببعض الصفات ، فلو أن الرئيس فقد هذه الشروط أو شروطاً هامة منها فإنه يستحق التنحية والعزل .

وقد ذكر الماوردي والقاضي أبو يعلي الفراء أن الذي يخرج عن الإمامة شيئين : الجرح في العدالة ، والنقص في البدن .

أما الجرح في العدالة ، أو الفسق ، فإن منه ما يتعلق بالسلوك العملي كمتابعة الشهوات وارتكاب المحظورات أو الأمر بذلك ، ومنه ما يتعلق بالاعتقاد كأن يتأول أو يعتقد أموراً مخالفة للحق ومبادىء الإسلام ونظامه .

وأما النقص في البدن فيقصد منه أن يجدّ على حواسّه وأعضائه ما يمنعه من القدرة على ممارسة السلطة ، كأن يداخله الجنون ، أو يفقد حواسه ، إلى غير ذلك .

أما فيما يتعلق بوجوب عزل الرئيس إذا استحق العزل فقد اختلفت فيه آراء علماء السياسة الإسلاميين اختلافاً كبيراً ، فهم يجمعون على أن مستحق العزل يجب عزله إذا كان ممكناً ولكنهم ينظرون من جهة ثانية إلى وجوب المحافظة على وحدة الأمة وعدم الفتنة ، وكون الأصل في الإسلام إطاعة الإمام ، ومن هنا اختلفوا في هل يجب الخروج على الرئيس غير الصالح ولو أدى الأمر إلى العنف واستعمال السلاح أو يكتفي بالنصح له ومحاولة تقويمه بالحسنى والصبر على إساءاته .

ولعل أسباب هذا الاختلاف : الأحاديث الصحيحة الواردة عن الرسول ﷺ والتي تأمر بالصبر وتنهى عن منابذة الولاة أو الأئمة الا في حالة الكفر الصريح ، والسوابق التاريخية التي خرج فيها بعض المسلمين على بعض الخلفاء الأمويين ممن عصوا وبدلوا بينما فضل بعضهم الآخر الاعتزال والامتناع عن الخروج ، بالإضافة إلى رعاية وحدة الأمة واحتمال أخف الضررين .

وهكذا فقد أباح بعض علماء المسلمين الخروج على الإمام إذا استحق العزل بينما منع بعضهم ذلك .

فأما الذين لم يبيحوا الخروج فقد اعتمدوا على الأحاديث الكثيرة التي تأمر بالصبر والطاعة وعدم الخروج إلا في حالة الكفر الصريح ، من هذه الأحاديث « من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له » و « من كره من أميره شيئاً فليصبر فإن خرج عن السلطان شبراً فمات مات ميتة جاهلية » .

أما الذين أوجبوا الخروج على الحاكم الذي أصبح مستحقاً للعزل وجعلوا الصبر على الظالم إثماً ، فإنهم احتجوا بمجموعة من الآيات والأحاديث التي تأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنكاره وعدم التعاون على الإثم والعدوان ، فمن ذلك قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقوله « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » فكل مسلم يعلم يقيناً أن أخذ مال المسلم أو الذمي وضربه بغير حق والحكم

بغير ما أنزل الله إثم وعدوان واجب دفعه والوقوف أمامه .

ومما ورد من أحاديث ، قوله ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » و « لا طاعة في معصية » و « من قتل دون ماله فهو شهيد والمقتول دون دينه شهيد والمقتول دون مظلمة شهيد » و « إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

ولكننا نجد بين أيدينا الآن عدداً من الأحاديث الصحيحة التي تأمر بالصبر وتنهى عن الخروج ، وأخرى تأمر بمنابذة الحاكم الظالم والحض عليه، أفلا يعد هذا تناقضاً ، وكيف نخرج مما يظن من التعارض ، لقد كشف ابن حزم أن في هذه الأحاديث ناسخاً ومنسوخاً ، فالأحاديث التي تأمر بدفع الظلم والخروج على الحاكم الظالم متأخرة عن الأحاديث الأولى وناسخة لها ، وهكذا فليس هناك أي تعارض أو تناقض .

والحق أن هذا الرأي هو الأقرب للصواب كما أنه الرأي الذي يتناسب مع حقيقة الأمة الإسلامية التي وصفها الله بأنها خير أمة أخرجت للناس لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فالإسلام الذي يقول كتابه «ولله العزة ولرسوله» « يأبى أن ينشأ المسلمون على الذل أو يقبلوا بالظلم سواء كان هذا الظلم واقعاً من حاكم منهم أو حاكم أجنبي .

إلا أن من الواجب التأكد من استحالة إعادة الحاكم إلى طريق الصواب بوسائل النصح والموعظة والتنبيه . ثم يجب التأكد من أن الخروج على الحاكم الظالم لن يؤدي إلى ضرر أكبر أو فتنة أعظم ، كأن لا تكون مع أهل الحق إلا فئة قليلة ، ويتحقق أن معركة غير متكافئة ستحصل ويحدث منها مجزرة كبيرة بين المسلمين أو انقسام خطير بينهم . ويصبح محتماً على الأمة أن تخرج على الإمام الظالم إذا تأكدت أو غلب على ظنها أنها قادرة ومتمكنة من إزاحته .

* * *

العلاقات الدولية وحقوق المواطنين والأجانب

يحسن بنا بعد أن انتهينا من بحث شكل التنظيم السياسي في الإسلام أن نعرض لموضوعين هامين لشدة علاقتهما بموضوع دراستنا ، هذان الموضوعان هما : العلاقات الدولية في الإسلام وحقوق المواطنين والأجانب في الدولة الإسلامية.

قبل الإسلام كانت معظم العلاقات بين الدول علاقات خصومة وعدوان ، وكان قانون الغاب : قانون القوة والغلبة وسيطرة القوي على الضعيف هو الذي يتحكم في الميدان الدولي ، فجاء الإسلام ليقرر مبادىء إنسانية عامة تحل محل المبادىء البائدة وتقيم العلاقات بين الدول على أساس جديد .

قرر الإسلام مجموعة من المبادىء لتقوم عليها علاقات بني الإنسان أفراداً وجماعات ، من أهمها : الكرامة الإنسانية والعدالة والمساواة والحرية والوفاء بالعهود والمعاملة بالمثل والتسامح والتعاون ومنع الفساد ، كما أنه جعل السلم لا الحرب أساساً للصلات بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول ؛ قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ »[1] « فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلا »[2] .

ولا بد بهذه المناسبة من أن ندفع فرية كبيرة وجهها خصوم الإسلام ورددها عندنا بعض الذين لا يعقلون ، وهي أن الإسلام دين السيف وأن الإسلام لا يعرف إلا العدوان والحرب سبيلا للعلاقات الدولية .

وكل ذلك مردود عليه فالإسلام لم ينتشر بالسيف وحده ولم يجرد سلاحه للعدوان على الآخرين وأسباب الحرب المشروعة في الإسلام لا تتعدى أسباباً ثلاثة[3] :

---

١ – البقرة : ٢٠٨ .

٢ – النساء : ٩٠ .

٣ – الأستاذ محمد أبو زهرة : العلاقات الدولية في الإسلام .

١ – دفع الاعتداء الواقع بالفعل على الدولة الإسلامية والمسلمين لقوله تعالى : « وقَاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ولا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ... وَقَاتِلُوهُمْ حتى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدينُ لله فَإِن انْتَهَوا فَلا عُدوانَ إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهرِ الحرامِ والحرُماتُ قِصاصٌ فَمَن اعْتَدى عَلَيكم فاعْتَدوا عليه بِمِثْلِ ما اعْتَدى عليكم واتَّقوا الله واعلموا أنَّ الله مَعَ المتَّقين » [1] « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلونَ بأنهم ظُلِمُوا وإنَّ اللهَ عَلى نَصرِهِمْ لَقَدِيرٌ » ، ومثل هذه الحروب مشروعة في جميع القوانينَ والأنظمة .

٢ – ومثل هذا حماية الدولة من اعتداء محتمل ومتوقع ، وذلك كأن يثبت للمسلمين أن دولة أو مجموعة من الدول والشعوب تعد العدة للعدوان عليهم ، ففي هذه الحالة لا يجوز للمسلمين أن يقفوا مكتوفي الأيدي حتى تتخطفهم أيدي المعتدين ، بل يجب عليهم أن يقضوا على العدوان في محله ، وما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا ، وهذا ما تفعله أية أمة أخرى تترقب اعتداء عليها ، والمقصود من هذين السببين حماية المسلمين والدولة الإسلامية من الغزو والاستعمار .

٣ – دفع اعتداء الحكومات غير الإسلامية على عقيدة المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيها ، ورفع الحجر الذي قد تضعه هذه الحكومات على نشر الإسلام : فالدولة الإسلامية تسمح لغير المسلمين من رعاياها أن يمارسوا عباداتهم ويحتفظوا بعقائدهم ، ولم يعلم عن المسلمين أنهم منعوا غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى من أداء هذا كله ، لأن المجتمع الإسلامي يقوم على حرية الاعتقاد والتدين . وما دام الأمر كذلك فإن على الدول الأخرى أن تعامل المسلمين بالمثل فلا تقف أمام حريتهم في الاعتقاد والتدين والدعوة للإسلام ، فإذا حصل أن فعلت ذلك بعض الحكومات فإنها تكون قد نقضت العهود الدولية المتعارف عليها ويجب على المسلمين أن يدفعوا الاعتداء الواقع على العقيدة ولو أدى ذلك

---

١ – البقرة : الآيات : ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤ .

إلى استعمال السلاح ، والمقصود من هذا ، تأمين الدين من أن يطمس والعقيدة من أن تنتهك ، فحرية الدعوة إلى الله يجب أن تكون متوفرة للداعين إليه من المخلصين . إن المسلم يعتقد أنه يحمل للإنسانية رسالة الهداية والرشد وأنه يجب عليه أن يبلغ هذه الرسالة ويدعو الناس إليها ، ويؤيد ما ذكرناه واقع المسلمين وتاريخهم ، فالمستعرض لغزوات الرسول ﷺ وسراياه يجد الرسول ﷺ فيها جميعاً معتدى عليه لا معتدياً ، فغزوة بدر ، لم يكن هدفها في الأصل القتال وإنما استخلاص بعض ما للمسلمين من أموال مغتصبه لدى قريش ، وقد نجت القافلة التي تحمل المال ، وكان بإمكان المشركين أن يقنعوا بذلك فلا يثيروا حرباً ، إلا أنهم أبوا إلا أن يقدموا بدراً فيشربوا ويخمروا ويتحدوا المسلمين ، فكانت غزوة بدر التي دفع فيها المسلمون اعتداءاً وقع عليهم بالفعل . أما غزوة أحد فمن الواضح أنها دفع لحرب عدوانية شنها المشركون ، فقد قدموا على المدينة بجموعهم يريدون القضاء على الدولة في مهدها في المدينة فاضطر المسلمون لرد الاعتداء . كذلك الأمر في غزوة الخندق . أما السرايا التي بعثها الرسول ﷺ إلى حدود الدولة الرومانية فكانت بسبب اعتداء الغساسنة والروم على القبائل التي أسلمت في شمال الجزيرة العربية ، وحين أمر الله تعالى الرسول ﷺ أن يقاتل المشركين كافة فلأنهم يقاتلون المسلمين كافة ، ولأنهم فشلت معهم جميع الوسائل الأخرى كصلح الحديبية مثلا ، وأصروا على القضاء على الإسلام ، ولم يكن المسلمون مختارين في أن يعلنوا الحرب على المشركين وكذلك الأمر في بداية الحروب التي قامت بين المسلمين ودولة فارس والروم .

فالمسلمون لم يدخلوا هذه البلاد لينشروا الإسلام بالقوة ، يدل على ذلك الواقع التاريخي والحال الحاضر ، فهم لم يجبروا إنساناً على أن يغير دينه ليدين بالإسلام ، ولم يهدموا معبداً لغير المسلمين ، وهذا ما تدل عليه العهود التي أعطاها خلفاء المسلمين وقوادهم لسكان البلاد المفتوحة [1] ، كما يدل عليه أن

---

١ — من ذلك ما جاء في عقد أمان عمر لأهل إيلياء من أنه يعطيهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر أهل ملتهم ، انه لا تسكن كنائسهم ولا ينتقص منها ولا من غيرها ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم .

جميع البلاد التي دخلها المسلمون ما تزال فيها أعداد كبيرة من غير المسلمين ، وإذا حارب المسلمون لإعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله فإنما فعلوا ذلك لإيجاد البيئة التي تسمح بالدعوة الإسلامية ولا تقف في طريقها ، أما العقيدة ذاتها فإنها لا تتم بالإكراه « إنك لا تهدي مَن أحببت » وقد كان لفقهاء المسلمين وعلمائهم بالنسبة لآية « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ثلاثة آراء :

١ ـ فمنهم من قال إنها منسوخة لأن النبي ﷺ لم يرض من العرب في الجزيرة غير الإسلام .

٢ ـ ومنهم من قال إنها ليست منسوخة ولكنها خاصة بأهل الكتاب لما جاء في كتاب الرسول ﷺ لأهل اليمن من أنه من كره الإسلام من يهودي أو نصراني فإنه لا يحول عن دينه .

٣ ـ ومنهم من قال بأنها ليست منسوخة ولا مخصوصة، وعلى هذا الرأي الرازي في تفسيره ، وابن تيمية في رسالة القتال ، وابن كثير ، والطبري ، والألوسي ، والجصاص ، وأبو حيان وغيرهم .

تقسيم العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب ودار العهد :

قسم الفقهاء المسلمون العالم إلى أنواع ثلاثة من الدول :

١ ـ دار (أو دول) الإسلام

٢ ـ دار (أو دول) الحرب

٣ ـ دار (أو دول) العهد

وهذا التقسيم لم يرد في القرآن ولا في السنة ، ولكن علماء المسلمين عمدوا إليه بفعل الواقع العملي الذي كان يعيشه المسلمون ، لذلك فإنه قابل للتغيير والتبديل . وهو لا يقوم على أساس تغاير الأديان وإنما على أساس الأمن أو

الفزع الذي يلاقيه المسلم في هذه الدولة أو تلك [1] .

أما دار الإسلام فكل ما دخل من البلاد في محيط سلطان الإسلام ونفذت فيها أحكامه وأقيمت حدوده ، وقد وجب على المسلمين الدفاع عنه وجوب كفاية أو عين ، واستيلاء الأجنبي على إحدى دول الإسلام لا يرفع عنهم وجوب القتال لاسترداده وإن طال الزمان ، كما هو شأن فلسطين . وتسمى دار الإسلام أيضاً دار العدل لأن المفروض أن يكون العدل أساسها ، كما تسمى دار التوحيد مقابل دار الشرك .

وأما دار الحرب فإنها الدار التي لا تطبق فيها أحكام الإسلام الدينية والسياسية لوجودها خارج نطاق السيادة الإسلامية . وتشمل البلاد التي ليس فيها ولاة المسلمين ولا تسود فيها أحكام الشريعة .

إلا أن ذلك وحده لا يكفي لاعتبار الدولة دولة محاربة للمسلمين ، وقد وضع بعض فقهاء المسلمين شروطاً ثلاثة لاعتبار الدولة دار حرب ، وهذه الشروط هي :

١ ــ ما ذكرناه من اختلاف نظام الحكم والشريعة .

٢ ــ المتاخمة لدار الإسلام .

٣ ــ أن لا يأمن المسلم فيها على ماله وعرضه ونفسه ودينه .

وإذاً ، فإن اختلاف نظام الحكم وحده لا يكفي لتعتبر الدار دار حرب ، وإنما يشترط أن لا يأمن المسلم على حياته أو دينه لأن دولة تفعل ذلك لا شك أنها معادية للدولة الإسلامية فتعتبر دولة محاربة ، وأما شرط المتاخمة (المجاورة) لدولة إسلامية فإننا لا نعتبره واجباً الآن لأن الاعتداء يمكن أن يحصل ولو لم تكن هناك حدود مشتركة بين دار الإسلام وهذه الدولة ، لتقدم وسائل الحرب والدمار .

وأخيراً فإن دار العهد هي تلك الدول التي لم يظهر عليها المسلمون وعقدوا

١ ــ الأستاذ محمد أبو زهرة : العلاقات الدولية في الإسلام .

مع أهلها عهداً بالصلح ، وقد يكون من شروط هذا العهد أن تدفع الدولة المعاهدة مبلغاً من المال تؤديه يسمى خراجاً ، وقد لا يكون هذا الشرط موجوداً ، وكثيراً ما يكون من بنود العهد أن يدافع المسلمون عن الدولة المعاهدة ، كما حصل في العهد لأرمينية في عهد معاوية بن أبي سفيان . ودار العهد لا تحكم بنظم الإسلام وشريعته وإنما لها حريتها في ممارسة سيادتها وسلطتها ، شرط أن لا تضر بمصالح المسلمين أو الدولة الإسلامية .

ولا بد من أن نشير إلى أن فقهاء المسلمين حين قسموا العالم إلى دار للحرب ودار للإسلام ، كانوا مضطرين بحكم الواقع إلى الأخذ بهذه القسمة ، لاجتماع العالم في بعض العصور على حرب المسلمين . كما لا بد من أن نلاحظ بأن تقسيم العالم هذه القسمة لم يؤثر إطلاقاً على المثل الإسلامية العليا ، ولا على أن المبدأ في العلاقات الدولية هو السلم .

حقوق المواطنين والأجانب في الدولة الإسلامية :

لم يكن للأجنبي قبل الإسلام حقوق في معظم الدول المعروفة آنذاك ، لأن الدول حينئذ تعد كل ما سواها عدواً لها ، وبالتالي تعتبر أي أجنبي عدواً أيضاً وتعامله معاملة الأعداء ، وكما جاء الإسلام ليقرر مبادىء الإنسانية والسلم في العلاقات القائمة بين الدول ، فإنه يقرر المبادىء نفسها في علاقة الدولة الإسلامية بالأفراد ، سواء كانوا مواطنين أم أجانب ، مسلمين أم غير مسلمين . حتى لقد بلغ الإسلام في تسامحه أنه إذا دخل دار الإسلام حربيّ مشرك فلا يجوز للمسلمين أن يتعرضوا له بسوء ، بل إن مبادىء الإسلام توجب على وليّ الأمر أن يأمر بحماية هذا الحربيّ المشرك حتى يبلغ مأمنه « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » ولا بأس من أن نلقي نظرة سريعة على أحوال المواطنين والأجانب وما يتمتعون به ضمن نطاق الدولة الإسلامية .

قسم الفقهاء المسلمون السياسيون سكان الدولة الإسلامية إلى أنواع ثلاثة هي :

١ — المسلمون

٢ — الذميون

٣ — المستأمنون

ويشكل المسلمون والذميون رعايا أو مواطني الدولة الإسلامية لأنهم يقيمون فيها إقامة دائمة ، أما المستأمنون فهم الأجانب لأنهم يدخلون دار الإسلام لأمد محدود . وقبل أن نفصل في أحوال هذه الأنواع من الناس وحقوقهم وواجباتهم ، لا بد من الإشارة إلى أن الدولة تمارس سيادتها عادة على المواطنين جميعاً ، وعلى جميع الذين يقيمون في نطاق حدودها ، ولا يصح أن يستثنى فرد أو طائفة من القانون السائد والتشريع المطبق ، وإلا عدّ ذلك تمييزاً بين الناس وانتقاصاً من سيادة الدولة . وإذا أخذت الدولة بعين الاعتبار اختلاف أديان السكان وجنسياتهم ، فلا يصح أن يصبح ذلك امتيازاً لهؤلاء الأفراد أو الطوائف لأنه مناقض لسيادة الدولة .

المسلمـــون :

المسلمون في الدولة الإسلامية هم الذين يؤمنون بالإسلام ديناً ونظاماً ، فهم يرتبطون بالدولة ارتباط وطنية وعقيدة ، والمسلم رعوية إسلامية أياً كان موطنه ، ولا يصح أن توضع أمامه الحواجز والحدود ، بل يباح له التنقل والعمل في جميع أقطار المسلمين ، وأما الحدود التي توضع في وجهه الآن فإنها ليست من الإسلام في شيء . والمسلم يرث المسلم أياً كان موطنه ، كما أنه يعاقب بعقاب الإسلام إذا ارتكب جريمة في غير دار الإسلام ، ودار الإسلام تعتبر وطن المسلمين جميعاً .

الذميـــون :

وهم الذين يقيمون بين المسلمين إقامة دائمة بموجب عقد الذمة ، فهم رعوية إسلامية أو مواطنون ، وإذا كان ارتباط المسلمين بالدولة ارتباط جنسية ودين

فإن ارتباط الذميين قاصر على الوطنية والجنسية . والذميون هم أولئك الذين كانوا من سكان البلاد التي فتحها المسلمون وفضلوا البقاء فيها فدخلوا في ذمة المسلمين ، وإذا دخل المواطن في ذمة المسلمين فقد التزم بتكليف مالي بسيط لقاء حماية المسلمين له ، والتزم أيضاً بأن يطبق أحكام المعاملات المالية والعقوبات التي تضعها الدولة ، ويعفى من الخضوع للقانون العام فيما يتعلق بالحقوق الشخصية (الزواج والطلاق والميراث) لأنها تتعلق بأمور دينية ولا يصح أن يجبر عليها .

وقد كان وضع الذميين في الدولة مجالا لبحوث كثيرة وافتراءات ودس على الإسلام والمسلمين ، وأكثر ما تنصب افتراءاتهم على واجب دفع الجزية الذي يرتبه عقد الذمة على الذميّ ، فما هي هذه الأقوال ؟ لا بد من أن نشير إلى أن خصوم الإسلام يتبعون القاعدة المعروفة : الهجوم أفضل وسيلة للدفاع ، فهم حين يُتهمون باستعمال السيف والعدوان على الأمم فإنهم يوجهون التهمة إلى الإسلام فيقولون إنه دين السيف ، حتى يشغل المسلمون عنهم بالدفاع عن أنفسهم ، وحين يُتّهمون بأنهم أساؤوا إلى المسلمين الذين يعيشون في كنفهم واضطهدوهم فإنهم يوجهون إلى المسلمين تهمة التعصب واحتقار غير المسلمين ويضربون على ذلك مثلا بالجزية ، فما هو قول الحق في هذا المجال ؟

قال الله تعالى : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » (1) .

والمقصود بعبارة « عن يدٍ » ، أي عن سعة فلا يكلف من لا يستطيع دفعها من الأولاد والنساء والشيوخ ، أما عبارة وهم صاغرون ، فيقصد منها إعلان الطاعة للدولة الإسلامية والالتزام بقوانينها .

وقد فرضت الجزية بديل حماية المسلمين لهم والمحافظة عليهم وإعفائهم

1 — التوبة : 29 .

من القيام بواجب الدفاع عن كيان الدولة وحماية المواطنين ، وكان المسلمون يردون لهم هذا المبلغ حين لا يستطيعون حمايتهم : حدث ذلك كثيراً في تاريخ المسلمين ، فقد حصل مثلا أن أمر أبو عبيدة برد أموال الجزية لجميع مدن الشام حين علم أن الروم حشدوا جيوشهم على حدود الدولة الإسلامية في الشمال ، وذلك لأنه خشي أن لا يستطيع الدفاع عنها ، وفي كتابه لأمراء الأجناد لتنفيذ هذا الأمر طلب إليهم أن يقولوا لهم : إنما رددنا عليكم أموالكم لأنا قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم ، ونحن لا نقدر على ذلك . وقد ردوا عليهم أموالهم بالفعل ، وكان من نتيجة ذلك موقف رائع يذكره التاريخ ، فقد قال لهم أهل هذه المدن من الذميين : ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أي الروم وهم على دينهم) فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي لنا . كما حصل أن رد صلاح الدين الجزية إلى نصارى الشام حين اضطر إلى الانسحاب منها ، وتكرر نفس التقدير الذي ظهر لدى الذميين أيام أبي عبيدة حين انتصر صلاح الدين ، وعلق أرنولد على ذلك في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » بقوله : لقد سكنوا إلى الحكم الإسلامي وادعين مستبشرين ، كما استمر الحكام المسلمون على عاداتهم القديمة من التسامح وسعة الصدر لأهل الملل الأخرى . وإذاً فإن الجزية ثمن الحماية ، وهي لا تعادل إلا مقداراً بسيطاً مما كان يدفعه المسلم من تكاليف مالية كالزكاة والعشور وغيرها . وأخيراً فإن الجزية ليست من مبدعات الإسلام ، وإنما هي نوع من المعاملة بالمثل ، فقد كانت موجودة لدى الأمم السابقة كاليونان والرومان والفرس ، وحين طبقها الإسلام طبقها على صورة فلم يعهدها مجتمع من السماحة والعدل ومراعاة الظروف والأحوال .

وقد حفظ الإسلام للذميين حريتهم في ممارسة عباداتهم وعقائدهم ، وسمح لهم بأن يتمتعوا بكل ما يتمتع به المسلمون من حقوق التجارة والكسب والعمل والتنقل [1] حتى إنهم ليتمتعون بكثير مما لا يحق للمسلم أن يتمتع بها ، فمعظم

---

١ – جاء في عهد الأمان لمصر على لسان عمرو بن العاص : أنه أعطاهم الأمان على أنفسهم وملتهم =

الفقهاء يبيحون للنصارى تعاطيهم الخمور والخنازير والتجارة فيها إذا كانت غير محرمة في دينهم ، بينما لا يباح للمسلم أن يتعاطى هذه الأعمال .

وأوجب الإسلام حماية الذميّ ، فدمه وماله مصونان ، وحريته وكرامته محترمان ، وقد أكد الرسول ﷺ على هذا في أحاديث عدة منها : « من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة ومن خاصمته خصمته » . كما أن الخليفة عمر كان يسأل عماله أول ما يسألهم عن أحوال أهل الذمة ، ولعلنا نذكر جميعاً كيف أمر بضرب ابن والي مصر عمرو بن العاص لأنه أساء إلى ذمي ، ثم قال قولته الخالدة (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) .

وبلغ من رعاية الدولة الإسلامية لأهل الذمة أنها كانت تفرض لهم من بيت مال المسلمين إذا كانوا في حالة لا يتكسبون بها ، وكان هذا يدخل في عهد الذمة أحياناً ، فقد جاء في عهد خالد لأهل الحيرة : وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله ما أقاموا بدار الإسلام .

المستأمنون (الأجانب) :

وهم الأشخاص الذين يدخلون الديار الإسلامية لمدة محدودة ، وليس بنيتهم الإقامة الدائمة ، فإذا دامت إقامة الشخص عومل معاملة أهل الذمة ، وكان الإسلام أول من يعرف بحقوق الأجانب (المستأمنين) ولم تصل الإنسانية إلى إقرار هذه الحقوق في ظل القوانين الوضعية إلا في القرن العشرين .

فللأجنبي حق الإقامة والتنقل في الدولة الإسلامية ، وله أن يمارس التجارة

= وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا ، ومن بقي فلا يمنع من تجارة صادرة أو واردة .

والعمل ، وأن يتمتع بالمرافق العامة الضرورية ، كل ذلك ضمن حدود نظام الدولة وقوانينها ، وهو لا يلتزم إلا بالخضوع للأحكام المتعلقة بالأمن والنظام واحترام عقائد المسلمين وتقاليدهم ، والامتناع عن كل ما يشعر بإهانة المسلمين .

وقد رتب الفقهاء على تقرير المستأمنين عدة أمور أهمها :

ـ أن ملكية المستأمن لماله الذي اكتسبه في دار الإسلام لا تزول ولو عاد إلى دار الحرب بل ولو حمل السلاح على المسلمين .

ـ وأن ماله يرسل إلى ورثته إذا مات في دار الإسلام ، كما أن ملكيته لماله تنتقل إلى ورثته إذا مات في دار الحرب أو أثناء اشتراكه في حرب المسلمين مع جيش دولته . ولا تزول ملكيته لماله إلا في حالة اشتراكه في حرب المسلمين وأسره واسترقاقه من قبلهم .

ـ أما العقوبات ، فإن ما يتعلق بحقوق العباد فإنه يطبق عليه ، أما ما يتعلق بالاعتداء على حقوق الله تعالى ، فإن الجمهور على عقابه ، وخالف في ذلك أبو حنيفة .

النظام الاقتصادي

سبق أن ذكرنا بأن الإسلام نظام للحياة شامل ، وتأكيداً لهذا المعنى فقد عرضنا لنظام الحكم في الإسلام ، ونحن هنا نشير إلى بعض المبادىء التي يقوم عليها نظام الإسلام الاقتصادي ، والنظرة العامة التي ينظر بها إلى حقيقة نشاط الإنسان في سعيه لضمان حاجاته المادية .

ونعني بالتنظيم الاقتصادي قواعد النشاط الإنساني في الحصول على حاجاته الضرورية والكمالية ، وعناصر الإنتاج والتداول والتوزيع ، وحقوق الأفراد الاقتصادية ، وحدود مصلحتهم تجاه مصلحة الجماعة .

ولا بد من أن نلاحظ في هذا الخصوص ما لاحظناه في بداية حديثنا عن التنظيم السياسي الإسلامي من أن أسس هذا النظام الاقتصادي تختلف عن سائر النظم الاقتصادية الأخرى ، إذ أن هذا النظام مستقل ومتميز ، ولئن التقى مع هذا النظام أو ذاك في بعض مبادئه ، فليس معنى هذا أنه أخذ من هذا النظام أو ذاك ، أو أنه يتطابق مع هذه الأنظمة تطابقاً كاملا .

وإذا كانت الأنظمة الاقتصادية المعاصرة تتجه وجهتين رئيسيتين ، إحداهما وجهة الاقتصاد الحر ، والأخرى وجهة الاقتصاد الاشتراكي ، وإذا كان الاقتصاد الحر يعتمد على المصلحة الشخصية والحرية الفردية في التملك وتنمية

الملكية متحاشياً تدخل الدولة ، وإذا كان الاقتصاد الاشتراكي يعتمد بالعكس من ذلك على تغليب مصلحة المجتمع على مصلحة الفرد ويجعل الدولة مالكة كل شيء وموجهة للاقتصاد كله ، فإن النظام الإسلامي يقوم على تحقيق المصلحتين معاً : مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، لأنه يحد من حرية الأفراد الاقتصادية بالمقدار الذي يؤمن مصلحة الجماعة ، فهو نظام وسط في تحقيق التوازن بين الطبقات والأفراد .

هدف الاقتصاد الإسلامي ووسائله [1] :

إذا كان النظام السياسي في الإسلام يهدف إلى تحقيق العدالة بين الناس ، وتأمين المساواة في الحقوق والواجبات ، فإن النظام الاقتصادي يهدف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية ، أي تأمين حد مادي أدنى لكل إنسان ، يتناسب مع كرامته ، وينسجم مع المرتبة العالية التي أرادها الله ، ويحقق تكافؤ الفرص على صورة يحصل فيها كل امرىء على حاجاته دون أن يبذل شيئاً من كرامته وإنسانيته. يحرص الإسلام لتحقيق هذا الهدف أن يوفر الجو الصالح الذي تعمل فيه وطاقات الإنسان كلها كيما تحقق الفطرة البشرية السليمة آمالها ، ولا ينسى وهو يعالج مشكلات الإنسان الجزئية ، العمل من أجل الغايات البعيدة للحياة .

وهو يعتمد من أجل ذلك كله على وسيلتين أساسيتين هما : التشريع والتوجيه ، والملاحظ أن معظم الأنظمة الاقتصادية لا تقر إلا التشريع وسيلة لتحقيق أهدافها ، أما الإسلام فإنه في الوقت الذي يهتم فيه بتقنين الأهداف العملية التي تحقق مجتمعاً كاملا ، فإنه لا ينسى التوجيه الذي يتسامى الإنسان بواسطته على الضرورات المادية ويتطلع إلى حياة أرفع .

ولعلنا نأخذ مثالا على ذلك تشريع نظام الزكاة الذي يعتبر أساس التضامن الاجتماعي ، فقد دعا الإسلام إلى تطبيقه والحرب دونه ، في الوقت الذي حرص

---

١ — سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الإسلام .

فيه المسلمين على التصدق بالمال كأمر إضافي يحقق فيه الإنسان تساميه وعلوّه على الحرص على المال .

وكما أن الإسلام عامة كان تغييراً لحياة الجاهلية فإن نظامه الاقتصادي كان انقلاباً على الأوضاع الاقتصادية البالية . وقد كان من نتيجة هذا التغيير أن أصبح الفقير هو المستفيد من المال والغني هو الذي يدفع ، وكان الشعب سابقاً يتعرض لشتّى أنواع السخرة ويقوم بمعظم الواجبات ، كما أصبحت الحكومة في جانب التكافل والعدالة الاجتماعية ، وكانت ضد الشعب ومع الطبقات المتنفذة غالباً ، ولعل حروب الردة أول حروب يخوضها المسلمون بعد وفاة الرسول أبلغ دليل على ما نقول ، لأنها كانت حرباً من اجل تحقيق العدالة الاجتماعية وتأمين نصابها ، واخيراً فقد انفك التلازم الذي كان قائماً بين الحكم والغنى ، فأصبح الحاكم من هو أكثر حرصاً على مصلحة الناس وإقامة الحق وكان سابقاً الأكثر قوة ومالا .

ولما كنا لا نستطيع أن نلم بمختلف أجزاء التنظيم الاقتصادي في هذا البحث العاجل ، فاننا سنكتفي بأن نعرض باختصار لبعض موضوعاته الرئيسية وهي :

١ ـــ موقف الإسلام من الملكية

٢ ـــ القيود الموضوعة على الملكية ووسائل تنميتها

٣ ـــ الفــــائدة

٤ ـــ البنوك

٥ ـــ التكافل الاجتماعي والزكاة

موقف الإسلام من الملكية :

تختلف الأنظمة الاقتصادية من حيث نظرتها إلى الملكية ، فبعضها يسمح بالملكية بشتّى أنواعها الفردية والجماعية والعامة والخاصة ، وبعضها لا يسمح إلا بملكية الجماعة ، وخاصة ملكية الإنتاج .

أما الإسلام فإنه يقر حق التملك الفردي على أن يبقى منسجماً مع مصلحة الجماعة محققاً لأهدافها ، متفقاً مع نظرة الإسلام الاقتصادية التي تقوم على تحقيق مصلحة الفرد والمجموع .

وهكذا نستطيع أن نقول بأن الملكية الخاصة في الإسلام تؤدي وظيفة اجتماعية.

وقد ورد في القرآن الكريم آيات تنسب المال إلى الله كما وردت آيات تنسبه إلى الإنسان . من هذه الآيات قوله تعالى : « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم »[1] وقوله : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »[2] وقوله : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة »[3] وقوله : « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار »[4]، ولاشك أن القصد من نسبة المال إلى الله هو إتاحة الحق للجماعة أو ممثليها أن يشرفوا على تنظيم الانتفاع بالمال ، فلا يكون هناك إساءة استعمال أو سوء تصرف تضيع معه مصلحة الجماعة الإسلامية .

وقد جاء تقرير الإسلام لحق الملكية الفردية متمشياً مع طبيعة الإنسان وفطرته ، لأن الإنسان لا يعمل إلا إذا وجد الحافز إلى العمل ، ولا شك أن تملك الإنسان ثمرة عمله يعد من أهم حوافز النشاط البشري . ونحن نلاحظ أن الدول التي لا تسمح إلا بملكية الدولة تبحث دائبة عن الحوافز الفردية لتشجيع الإنتاج ، حتى سمحت أخيراً بما لم تسمح به من قبل من أنواع الملكية الفردية ، وقد عبر القرآن عن الطبيعة الإنسانية في حب المال والتملك بقوله : « وإنه لحب الخير لشديد » « وتحبون المال حباً جماً » . « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » .

أما دلائل إثبات الملكية الفردية فإننا نجدها في الآيات القرآنية التي نسبت

---

١ – سورة النور : ٣٣ .
٢ – سورة الحديد : ٧ .
٣ – التغابن : ١٥ .
٤ – البقرة : ٢٧٤ .

المال إلى الإنسان ، كما نجدها في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وما جرى عليه العمل لدى المسلمين هذه القرون الطويلة [1] .

بل إن الإسلام لا يرى مانعاً من التفاوت في الملكية الفردية ما دام صاحب المال يؤدي حقه ، على أن لا يؤدي ذلك المال إلى وجود دولة بين الأغنياء ، يدل على ذلك قوله تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق »[2] و « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » [3] ، « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » [4] .

والواقع أن هناك أسباباً كثيرة للتفاوت بين الناس ، منها ما يرجع إلى خلقة الفرد وذكائه وطاقاته وعمله ، فمن غير المعقول أن يتساوى الذكيّ العالم بالغبي الجاهل ، أو الكسول العاطل بالمجدّ العامل ، لذا فإننا لا نجد مجتمعاً يخلو من إقرار نوع من التفاوت بين أفراده .

إلا أن إقرار الإسلام للملكية الفردية وللتفاوت فيها لا يعني أنه يسمح بوجود فقير مدقع وغنيّ متخم ، فالإسلام لا يسمح للدولة بالتدخل في الملكية الفردية إلا إذا تعارضت مع الصالح العام ، ولا يكون التدخل حينئذ بإلغائها ، ولكن بالتوفيق بينها وبين المصلحة العامة التي تعد من أسس التشريع الإسلامي ، وفي الحدود اللازمة لتنظيم ممارسة هذه الملكية ، ولا بد من أن نشير إلى أن الذي يؤدي إلى الظلم الاجتماعي ليس مجرد إقرار الملكية الفردية وإنما هو سوء استعمالها.

وإذا كان الإسلام يقر الملكية الفردية فإنه يقر جميع الحقوق التابعة لها على

---

١ — من هذه الأحاديث قوله عليه السلام : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » . ومنها وصية الرسول لمعاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن وقد جاء فيها : « فإن هم أطاعوا لك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم .

٢ — النحل : ٧١ .

٣ — الرعد : ٢٦ .

٤ — الزخرف : ٣٢ .

أن لا يؤدي ذلك إلى الإضرار بالآخرين ، وهكذا فإن للمالك أن يتصرف بملكه بيعاً أو هبة أو إيجاراً مادام تصرفه مشروعاً ،كما أن له أن يوصي بما يريد منه ضمن الحدود القانونية ، وإذا مات فإنه ينتقل إلى ورثته من بعده .

القيود على الملكية ووسائل تنميتها

إن المال في الإسلام في أصله مال الله والإنسان مستخلف فيه أو وكيل عليه، وعلى الوكيل أن يؤدي شروط الوكالة فلا يخرج عليها ، ومعنى ذلك أن تصرفه يجب أن يكون في الحدود التي وضعها الإسلام .

وقد وضع الإسلام على حق التملك ذاته قيوداً مختلفة كما وضع قيوداً على وسائل تنميته الملكية ، وأقر في المال الفردي حقاً للجماعة الإسلامية فيه .

ومن القيود على التملك :

١ ــ أن يكون التملك بوسائل مشروعة .

٢ ــ أن لا يكتنز المال لأن الكنز تعطيل للمال عن أداء وظيفته في خدمة الفرد والجماعة .

٣ ــ أن يستعمل في الحدود المعقولة فلا يكون إسراف فيه ولا بخل : « ولا تسرفوا إن الله لا يحب المسرفين » « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » ويمكن أن يمنع المسرف من استعمال أمواله فتوضع في يد وصيّ يصرف عليه بإحسان وذلك لما يسببه الإسراف من أمراض خبيثة في المجتمع الإسلامي المتعاون .

٤ ــ لا يصح أن يبقى المال محبوساً في أيدي فئة قليلة من الناس تتداوله فيما بينها لقوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . وسبب نزول هذه الآية أن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما أفاء الله عليه أموال يهود بني النضير ، لم يقسمها على المسلمين جميعاً بل وزعها على المهاجرين ،

ولم يعط منها إلا أنصاريين فقيرين ، لأن أحوال الأنصار المادية كانت مستقرة ورائجة على عكس أحوال المهاجرين الذين تركوا أموالهم في مكة ، وكان توزيعه ﷺ لهذه الأموال بتوجيه قرآني كريم .

٥ ـ إن الملكيات التي تتعلق بها مصالح جمهرة المسلمين تبقى ملكيات جماعية أو تشرف عليها الدولة ، كالماء والكلأ والنار التي يشملها حديث الرسول ، ويمكن أن يقاس عليها بملكيات أخرى .

أما عن وسائل تنمية الملكية فإن الإسلام يعطي الحرية في تنمية المال في الحدود المشروعة ، والوسائل النظيفة عادة لا تضخم رؤوس الأموال تضخماً فاحشاً .

ومن الوسائل المحرمة في الإسلام :

١ ـ الغش ، لما فيه من غبن وخروج على معنى التعاون والأخوة الإسلامية ، يقول الرسول عليه السلام : « مَن غشّنا فليس منا » . ويقول : « إنه لا يربو لحم ينبت من سحت إلا كانت النار أولى به » .

٢ ـ احتكار ضروريات الناس ، لما يؤدي إليه من استغلال لحاجاتهم وربح فاحش على حسابهم ، يقول الرسول ﷺ : « من احتكر طعاماً أربعين يوماً فقد بريء من الله وبريء الله منه » . ويقول : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعــون » .

٣ ـ الربا : لأنه ربح بلا جهد ، ولأنه يقضي على روح التعاون ويؤدي إلى تضخم الثروات وزيادة الفروق بين الطبقات ، وكثيراً ما كان اقتراض الدول وسيلة للاستعمار وفقدان الاستقلال الوطني .

وأخيراً فإن الملكية الفردية هي لمنفعة الفرد مباشرة ولمنفعة الجماعة بصورة غير مباشرة . فإذا عطل المالك الانتفاع بملكيته جاز للدولة أن تلزمه بذلك ، وقد وردت أحاديث متعددة في أنه لا يجوز أن تتعطل الأرض عن الإنتاج أكثر من ثلاث سنوات .

الفائدة والبنوك

لقد أفردنا موضوع الفائدة وما يتبعها من دراسة أوضاع المؤسسات المصرفية ببحث خاص لأهمية هذا الموضوع في حياتنا المعاصرة ، ولكثرة ما يتردد من أقوال حول الفائدة : تحليلها وتحريمها ، والبنوك ، والبديل الإسلامي عنها إذا كانت مرفوضة في ظل النظام الإسلامي ما بقيت على أساسها الربوي .

الربـــا (الفائدة) :

إن الربا هو ربح المال المقرض للغير وهو ربح بلا جهد ، لأن المرابي يقرض المال ويأخذ عليه نسبة معينة ، فيربو المال ويزيد دون أي جهد يبذله المقرض ، لأنه يأخذ ربحاً باستمرار ولا يشارك في المخاطر والخسائر التي يتعرض لها المال المقرض .

وقد اعتبر بعض المفكرين في بلاد إسلامية مختلفة أن الربا المحرم في الإسلام هو الربا المضاعف دون البسيط ، والاستهلاكي دون الإنتاجي ، وقبل أن نحدد ما نعتقد أنه موقف الإسلام الصحيح ، يحسن بنا أن نعطي فكرة عن أنواع الربا المختلفة .

إن الربا الاستهلاكي هو الربح الذي يؤخذ عن المال الذي يقترض لإشباع حاجة استهلاكية كأن يستدين امرؤ مبلغاً من المال لإنفاقه على ولده المريض أو لدفع أقساط أبنائه في المدرسة . أما الربا الإنتاجي فإنه الربح الذي يتناوله المرابي عن ماله الذي يقرضه في عمليات إنتاجية ، كأن يقرضه لصاحب مصنع ليوسع مصنعه ، أو لصاحب أرض زراعية ليزيد في قدرتها الإنتاجية ، أو لمؤسسة تجارية لتنمي من أعمالها .

والربا البسيط قد يقصد به الربا القليل ، كأن تكون نسبته غير فاحشة كما يقصد به الفائدة التي تؤخذ على أصل المال . أما الربا المضاعف فقد نعني بـــه الربح الفاحش الذي يتضاعف فيه المال في مدة بسيطة ، كما نعني به الربا الذي يؤخذ على المال مع ربحه ، وهذا ما يطلق عليه اسم الفائدة المركبة .

وقد زعم بعض الكتاب أن ما حرمه الإسلام من أنواع الربا هو الاستهلاكي والمضاعف لأن الاستغلال فيهما واضح ، فهو عمل غير أخلاقي لأنه يستغل حاجة الناس إلى المصالح الضرورية التي لا غنى لهم عنها ، بالإضافة إلى ما ينتجه الربا المضاعف من آثار اقتصادية واجتماعية سيئة . وحجة هؤلاء أن الربا الاستهلاكي هو الذي كان معروفاً أيام بعثة الرسول عليه السلام ونزول القرآن ، لأن الربا الإنتاجي – في زعمهم – لم يعرف إلا بعد ذلك فالتحريم لم يقع إلا على الأول ، أما عن تحريم الربا الفاحش أو المضاعف دون البسيط فإنهم يحتجون له ، بأن القرآن حرم هذا النوع مخصصاً له بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » . ويرد على هؤلاء من عدة وجوه :

١ – من حيث النصوص : حين نستعرض النصوص التي بين أيدينا حول الربا نجد أن الآيات القرآنية والأحاديث تتضافر على تحريم الربا بأنواعه جميعاً دون أن يخص نوعاً دون آخر .

فالله تعالى يقول : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا [١] .

ويقول أيضاً : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلَمون » [٢] كما يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » [٣] .

والرسول الكريم يقول : « كل قرض جر نفعاً فهو ربا » وواضح من هذه النصوص أن التحريم على الربا كله مهما كان نوعه ، وإن تخصيص الربا

---

١ – البقرة : ٢٧٥ .
٢ – البقرة : ٢٧٨ – ٢٧٩
٣ – آل عمران : ١٣٠ .

المضاعف في إحدى الآيات ليس إلا للتأكيد عليه لما فيه من استغلال فاضح ولا أخلاقيـــة .

٢ ـ أما من الناحية التاريخية التي يحتج بها البعض ، فالواقع عكس مـــا يقولونه ، لأن معظم القروض الربوية التي كانت سائدة عند العرب في الجاهلية هي من النوع الإنتاجي ، فالمعروف عن العرب في مكة قبل الإسلام أنهم كانوا يقومون بالأعمال التجارية ، ويسهلون نقل البضائع من وإلى الشام والحجاز واليمن وفارس ، والأعمال التجارية تحتاج إلى أموال موفورة ، فكان التجار يعملون بأموالهم وأموال غيرهم ، وغالباً ما كانوا يعطون من يقرضهم نسبة ثابتة من الربح . وأهل الطائف كانوا يعملون في الزراعة ، وكانوا يقترضون من أصحاب الأموال في مكة ومن الجالية اليهودية التي كانت تسكن الطائف آنذاك ، وكانوا يردون هذه الأموال بعد جني محاصيلهم مع نسبة من الربح . وإذن فقد كانت القروض الإنتاجية معروفة ومنتشرة لدى العرب ، وإننا لنتساءل هل كان العربي في الجاهلية يحتاج إلى قروض استهلاكية ، أي قروض ينفقها على طعامه وطعام عياله ؟ إن الاقتراض من أجل الاستهلاك نادر في بيئة قبلية ذات مطاليب بسيطة ومحدودة ومن هذا نرى أن الربا الذي كان منتشراً آنذاك هو الربا الإنتاجي أكثر مـــن الاستهلاكي ، وقد ورد التحريم عليهما معاً .

٣ ـ ثم إن النظام الاقتصادي الإسلامي جاء نظاماً فريداً متميزاً ، ومن جملة ما يتميز به هذا النظام أنه لم يقر التعاملات الربوية سواء في دائرة الإنتاج أو في مجال الاستهلاك .

وإذا حاولنا التعرف على حكمة تحريم الربا في الإسلام فإن هذه الحكمة تبدو واضحة في منع الربا الاستهلاكي لأنه استغلال غير إنساني لحاجة الإنسان إلى أسباب معاشه الضرورية ، ولأنه يهدر كثيراً من المعاني الأخلاقية ، كما يقضي على كثير من مقومات المجتمع المتماسك المتعاون .

أما حكمة تحريم الربا على القروض الإنتاجية فلعلنا لا نستطيع أن نكشفها

كلها ، إلا أننا نعرض لبعض ما تثبته الوقائع من الآثار السيئة التي تتخلف عنه .

هذه الآثار تلاحظ بالنسبة للمرابي ، وبالنسبة لكل من المنتج والمستهلك . فقد ترتب على ظهور القروض الربوية الإنتاجية في القرون الثلاثة الأخيرة أن ظهرت المؤسسات المصرفية (البنوك) واتسعت ، والمعروف أن هذه المؤسسات لا تعمل بمال أصحابها فقط وإنما تعمل بأموال المودعين أيضاً ، وكثيراً ما يكون رأسمال هذه البنوك صغيراً جداً في بدء تأسيسها ، ولكنها سرعان ما تمتلىء بأموال المودعين ، وربح البنك من هذه الأموال كبير ، فهو يعطي المودعين من الربح نسبة تقل كثيراً عن النسبة التي يقرض بها هذه الأموال ، وهكذا يتضاعف ربح البنك وماله على حساب أموال المودعين . أضف إلى ذلك أن البنوك في العالم تميل إلى التمركز ، بمعنى أنه وجدت بنوك قليلة استطاعت بإمكانياتها أن تسيطر على الأسواق المصرفية في العالم ، وعن طريق هذه السيطرة أمكن لها أن توجه السياسة والاقتصاد وأن تتدخل في كثير من الأمور وغالباً ما يكون معظم رجال هذه البنوك الضخمة من اليهود .

أما بالنسبة إلى المنتج ، فإنه حين يقترض بفائدة يضيفها على مجموع تكاليف السلعة ليرفع سعرها ، فإذا استدان بفائدة قدرها ١٠٪ فإنه سيرفع سعر البضاعة بمقدار الفائدة على الأقل وسيدفع المستهلك هذه الفائدة .

وإذا حدث أن زاد الإنتاج — نتيجة لسهولة القروض الإنتاجية — عن حاجة السوق ، فسيحدث فائض في البضاعة ، ونتيجة لذلك يحصل كساد تتولد من نتيجته أزمة اقتصادية ، مما يدفع المنتج إلى إيقاف التوسع في الإنتاج والتقليل من مصاريفه ؛ فيعمد إلى تخفيض الأجور أو تسريح العمال ، فتحصل البطالة ، وفي كلا الحالتين تتحمل الطبقة العاملة والمتوسطة آثار هذه الأزمة فتنخفض القوة الشرائية وتزداد الأزمة الاقتصادية تحكماً .

وقد يعمد المنتج إلى تخفيض أسعار المواد الأولية ، التي ترد غالباً من البلاد النامية التي تبدأ تطورها الاقتصادي من أوله ، والتي تعتمد على مواردها من هذه المواد لبناء كيانها الاقتصادي .

وكل هذه الوقائع تشير إلى ضخامة الآثار السيئة التي تترتب على القروض الربوية الإنتاجية .

وقد يسأل سائل ، إذا كان الإسلام يحرم الربا بكل أنواعه تحريماً قاطعاً فهل يوجد بد من النظام الربوي ، وما هو هذا البديل سواء في الحاجات الاستهلاكية أو في ميدان الإنتاج ؟ إن هذا ما سنعرض له بعد أن نقدم له بإلقاء نظرة سريعة وموجزة عن البنوك ووظائفها وأعمالها .

المصارف :

يعرف المصرف بأنه جهاز يتولى تقديم الائتمان لعملائه ويتلقى الودائع النقدية منهم ، وتلعب البنوك في حياتنا المعاصرة دوراً هاماً لأنها تؤدي وظائف أهمهـا :

تيسير التبادل ، وتيسير الإنتاج ، وتعزيز طاقة رأس المال ، ومن أجل ذلك أصبحت عند معظم رجال الاقتصاد مؤسسات لا بد منها ، وخاصة في الدول التي يقوم كيانها على الاقتصاد الحر ، فمعظم العمليات الإنتاجية في هذه الدول تعتمد على الأفراد والمؤسسات الخاصة ، على عكس النظم الشيوعية والاشتراكية التي تقوم فيها الدولة بجميع أعمال الإنتاج .

والأمر الهام الذي تقوم به البنوك في مجال تيسير التبادل أنها تفسح المجـال لاختصار تبادل النقود عن طريق وعد بدفع ثمن السلعة أو الخدمة . والوعد بالدفع يتخذ صوراً متعددة هي :

١ ــ الشيك : الذي يصدره العميل إلى مصرفه يأمره فيه بدفع مبلغ من المال إلى شخص معين أو لحامله .

٢ ــ فتح الاعتماد : من البنك إلى أحد عملائه ، فيتعهد البنك بجعل مبلغ معين تحت تصرف عميل لمدة معينة يسحب تباعاً ، وهذه صورة من صور الإقراض تفرض عليه البنوك فائدة ربوية .

٣ ـ خطاب الاعتماد : الذي يوجهه مصرف العميل إلى فرعه في دولة أخرى أو مصرف آخر بدفع المبلغ المطلوب إلى العميل ، والمصرف يتقاضى عن هذا العمل عادة عمولة بسيطة ، ولا يأخذ فائدة ربوية على هذه الخدمة .

٤ ـ السند الإذني : وهو التزام يتعهد فيه شخص معين (المحرر) بدفع مبلغ معين في تاريخ معين لشخص آخر أو لإذنه (المستفيد) . ويستطيع أن يصرف قيمة السند من البنك فوراً قبل حلول تاريخ السند مقابل فائدة ربوية يخصمها البنك أجر انتظاره حتى حلول الأجل .

٥ ـ الكمبيالة : وهي أمر مكتوب يتوجه به شخص يسمى الساحب إلى شخص آخر يسمى المسحوب عليه ، يأمره فيه فيدفع مبلغاً معيناً لإذن شخص آخر (المستفيد) ويستطيع المستفيد بعد أن تظهر الكمبيالة من المسحوب عليه أن يصرفها من البنك بعد خصم فائدة ربوية مقابل الانتظار حتى حلول الأجل .

والملاحظ أن الربا غير موجود في عمليتي الشيك وخطاب الاعتماد ، بينما هو واضح في سائر العمليات الأخرى .

أما عملية تيسير الإنتاج فإن البنك لا يقوم بها إلا بقروض ربوية ، ولا شك أن الخدمات التي تقدمها البنوك في هذا الميدان لها أثرها في تنشيط الإنتاج ولكنها قد تؤدي إلى نتائج معاكسة إذا فتح باب القروض على مصراعيه .

ويلحق بهذه الوظيفة مساهمة البنوك في تعزيز طاقة رأس المال المستعمل في الإنتاج والمساعدة على تخصصه وتركيز بعض أنواع الإنتاج ، مما يساهم في تقليل التكاليف على المنتج .

وقبل أن نبدأ تفصيلنا للبديل الإسلامي للبنوك لا بد من الإشارة إلى بعض المساوىء التي تحدثها هذه المؤسسات الربوية في الاقتصاد .

إن البنك يقرض من ودائعه غالباً لأن رأس المال الذي ساهم به المؤسسون ضئيل بالنسبة لمجموع الودائع ، فالبنك يستفيد من هذه الودائع كما ذكرنا دون

أن يتحمل المخاطر ، لأنه يأخذ نسبة من الربح لا بد أن تدفع له سواء خسر المشروع أم ربح . وقد أدى تعود الناس على إيداع فائض أموالهم في البنوك وإصدار البنوك للقروض الربوية بأضعاف ما لديها إلى خلق قوة شرائية وهمية أو نقود مصطنعة ، لأن أوراقها المالية تستعمل كما تستعمل النقود تماماً ، فكأننا أعطينا البنوك الحق في إصدار العملة إلى جانب الدولة . إن هذه الوظيفة على ما لها من أثر في تيسير الإنتاج ، إلا أنها تؤدي إلى أضرار محققة من أهمها : ما تصيبه البنوك من اغتناء غير مشروع بسبب حصولها المحتوم على فوائدها المقررة من المقترضين واجتنابها المساهمة في مخاطر مشروعاتهم ، وميلها في أوقات الركود إلى التضييق في الإقراض والكف عنه . فهذا البسط والقبض الذي لا تحكم فيه إرادة القائمين على البنوك من أهم عوامل اضطراب الكيان الاقتصادي وحدوث الأزمات .

البديل الإسلامي عن المصارف الربوية :

ويمكن أن نقدم أساساً إسلامياً للمصارف يتجنب المعاملات الربوية ويؤدي ما تؤديه البنوك من تيسير الحركة الاقتصادية والمساهمة في بناء كيان الدولة الاقتصادي .

إذا لاحظنا أن المصارف تتنوع في نوعين رئيسيين : بنوك الودائع وبنوك الإنتاج الطويل الأمد كالإنتاج الصناعي ، فإننا يمكن أن نقيم بنوك الودائع على عقد المضاربة ، بينما نؤسس البنوك الصناعية على عقد شركة الأموال ، وكلا العقدين تجيزه الشريعة الإسلامية وتنظمه تنظيماً يهيىء لنا بلوغ هدفنا من المؤسسات المصرفية .

أما عقد المضاربة فإن أهم أحكامه :

١ — أنه عقد يقوم بين طرفين ، أحدهما يدفع المال والآخر يقوم بالعمل ويسمى المضارب .

٢ ـ أن المتعاقدين يقتسمان الربح بالنسبة التي يتفقان عليها بشرط أن تكون حصة كل منهما في الربح جزءاً شائعاً كالنصف أو الربع الخ ..

٣ ـ إذا اشترط لأحد الطرفين مقدار معين من الربح فسدت المضاربة ، لاحتمال أن الربح الاثنين لا يأتي زائداً على هذا المقدار .

٤ ـ لا نصيب للمضارب إلا من الربح ، فلا يصح أن يُشترط له شيء من رأس المال ، كما أن اشتراط الخسارة على المضارب باطل .

٥ ـ المضارب أمين على رأس المال يعد كالوديعة عنده وهو في تصرفه كيل عن رب المال ، فإذا ربحت مشروعاته كان شريكاً في الربح . وإذا خسرت المشاريع فلا أجر له .

ولو أردنا أن نكيف العلاقة بين المودعين والمصرف وأصحاب المشروعات الذين يقترضون منه ، فإنه يمكن اعتبار المودعين جملة (رب المال) كما يعتبر البنك الشريك المضارب الذي يستثمر المال ، على أن تكون له نسبة معينة من الربـــح .

فالبنك يوظف هذه الأموال في المشاريع ، فيقدم القروض لأصحاب المشروعات المختلفة موجهاً كل عناية لدراستها واختيار الصالح منها ، ولا شك أنه سيكون حريصاً أكثر من البنك القائم على أساس ربوي لأنه شريك في الربح بينما الآخر سيأخذ نصيبه من الربح في جميع الأحوال ، ومن هنا نلاحظ المساوىء الكثيرة والأخطاء البالغة التي تقع فيها البنوك الربوية .

إن المشروعات التي يساهم فيها المصرف على الأساس الذي ذكرناه ، منها ما يربح ربحاً جيداً ، ومنها ما يربح ربحاً متواضعاً ، ومنها ما يخسر ، وهذا قليل ، لأن المصرف لن يساهم في أي مشروع وإنما سيتحرى المشروع الناجح . وفي نهاية السنة أو بعد مضي ستة أشهر إذا استقر العرف على ذلك ، يقوم المصرف بتسوية شاملة بين أرباح وخسائر جميع المشروعات الاستثمارية التي وظف المصرف فيها أموال الودائع وبعض أموال المساهمين ، ويخصم البنك من

الصافي بعد هذه التسوية مصاريفه العمومية بما فيها من أجور واحتياطي قد يفرضه القانون على المصارف ثم ، يوزع الباقي بينه وبين المودعين طبقاً للاتفاق بينه وبينهم .

تكييف العلاقة بين المصرف وأصحاب الشركات الاستثمارية :

إذا اعتبرنا المصرف بالنسبة للمودعين الشريك المضارب ، فإنه بالنسبة لأصحاب المشروعات الذين يقترضون منه هو رب المال ، وأصحاب المشروعات هم الشركاء المضاربون ، وهنا تسري جميع القواعد التي أوردناها عن حقوق رب المال ، وواجباته وحقوق المضارب وواجباته . ونصيب البنك من أرباح المشروع يحدده بالاتفاق مع أصحاب المشاريع ، وإذا خسر المشروع ينظر ، فإن لم يكن بإهمال أو سوء قصد من أصحابه فلا تقع عليه خسارة ، أما إذا ثبت شيء من ذلك فإنه يعتبر متعدياً ويكون عليه الضمان .

أما بالنسبة للبنوك الصناعية : فإن قاعدة عقد المضاربة يسري عليها أيضاً إذا كان البنك يقدم رأس المال جميعه ولا يساهم صاحب المشروع بشيء ، إذ يعتبر البنك رب المال وصاحب المشروع شريكاً مضارباً .

لكن الذي يحدث في التمويل الصناعي أن صاحب المشروع (الشريك المضارب) لا يقتصر على مساهمته في العمل فحسب وإنما قد يشترك بجزء من رأس المال ، وهنا يسري عقد شركة الأموال ، ويقسم الربح على أساس النسبة بين قيمة المال الذي قدمه البنك وقيمة المال الذي قدمه صاحب المصنع ، وقيمة العمل الذي يباشره صاحب المصنع . وهكذا يقسم الربح على ثلاث حصص يتفق على نسبة كل واحدة منها . وقد أجاز فريق من الفقهاء اشتمال محل شركة المال على المال والعمل .

وقد يرافق التنفيذ العملي لهذا التنظيم الجديد للبنوك بعض التعقيد ، إذ لا شك أن النظام الحالي للبنوك — الآن على الأقل — أيسر في التنفيذ ، لكن شيئاً من

التعقيد لا يعدل البعد عن الربا والنجاة من التحريم ، ثم إن هذا التعقيد سيتضاءل تدريجياً ، كما درجت عمليات البنوك وألفها الناس .

أما البديل الإسلامي للربا في القروض الاستهلاكية ، فإنه أيسر وأسهل ، إذ يمكن أن تقوم مؤسسات حكومية تشرف على تنظيم جباية الزكاة وغيرها من أموال الضمان والتكافل الاجتماعي ، فأما مستحقوا الزكاة فإنهم سيأخذون نصيبهم منها ويسدون حاجتهم الاستهلاكية ، وأما غير المستحقين فيمكن لصندوق الزكاة أن يقرضهم قرضاً حسناً إلى آجال غير بعيدة ، كما يمكن للدولة أن تضيف هذه الوظيفة إلى مؤسسة الضمان الاجتماعي ، وأن تقيم مؤسسة للقرض الحسن تقرض أصحاب الحاجات بعد أن تستوثق منهم لضمان رد الأموال المقرضة . هذا ويجب أن لا ننسى أن الإسلام حض المسلمين على التعاون ومد يد المساعدة لبعضهم لأنهم إخوة تجمعهم فكرة واحدة وعقيدة واحدة ، ومن مظاهر هذا التعاون القرض الحسن الذي يقدمه الموسر للمعسر لا يبغي منه إلا مرضاة الله .

التكافل الاجتماعي

إن مبدأ التكافل الاجتماعي أو التبعة الاجتماعية كما أقره الإسلام يختلف اختلافاً أساسياً عن مثيله في الأنظمة المعاصرة ، فالمجتمعات المعاصرة — سواء كانت مجتمعات تقوم على أساس النظم الفردية التي تعدّ الدولة فيها دولة خدمات فقط أو كانت تقوم على النظم الجماعية التي تعتبر الدولة فيها دولة إنتاج وخدمات معاً — قد أفردت تنظيمات للتكافل الاجتماعي ، وأهم ما تختلف به عن التكافل الإسلامي الأمور التالية :

أولاها : أن التكافل في الأنظمة الحديثة تكافل مادي لا يتناول إلا الحاجات المادية ، حيث تضمن المجتمعات نوعاً من الضمان لأفرادها إذا تعرضت لأحد المعوقات التي تحول بين الإنسان وبين تأمين عيشه وعيش عياله أو صحته وصحتهم ، بينما التكافل الإسلامي يتجاوز هذه الصورة المادية إلى صور أرحب وأوسع من التعاون على ضمان الخير والمصلحة الفردية والعامة : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، فالتكافل بمعناه الشامل تعاون على الدعوة إلى الخير ، وإزالة المنكر ، وحماية الضعفاء ، ورزق الفقراء والمعوزين بما يكفيهم ، والإحساس الدقيق بكل ما يصيب الجماعة أو ما تطمح إليه وتعمل له .

وثانيها : أن التكافل في الأنظمة المعاصرة غير الإسلامية لا يشمل إلا حلقة واحدة هي دائرة الفرد والجماعة ، بينما يتسع مفهومه في الإسلام ليشمل سائر الدوائر والحلقات ، فهناك تكافل بين الفرد وذاته ، وبين الفرد وأسرته القريبة ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الأمة والأمم ، وبين الجيل والأجيال المتعاقبة » [1] .

ويبدو تكافل الفرد مع ذاته في تطهير نفسه وتزكيتها ، ونهيها عن الشهوات ، والسلوك بها في طريق الصلاح ، وترك المجال أمامها لتتمتع في الحدود التي لا تفسد فطرتها ، أما تكافل الفرد مع أسرته فلأنها الدائرة الأولى التي يبنى عليها كيان المجتمع ويعيش الفرد في كنفها وحمايتها ، وقد أكد الإسلام على ضرورة تمتين أواصر العلاقات بين أفراد الأسر فأقام فيها تضامناً مادياً ومعنوياً على أساس وثيق من المودة والتراحم ، يقول الله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك » [2] ويقول : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » [3] . وقد شرع الإسلام ليضمن حداً معيناً من التكافل بين أفراد الأسرة نظامين عظيمين هما : نظام الإرث ، ونظام النفقة ، والمتتبع لأحكامهما ، والواجبات المتعددة التي تترتب عليهما ، وتوزيع المال في نظام الإرث ، والطبقات التي يحتمل المرء نفقتها في نظام النفقة يدرك الهدف الكبير الذي قصده الإسلام من هذا التشريع .

ثم هناك تكافل بين الفرد والجماعة ، يقوم على تشريع الزكاة ولكنه لا يقتصر عليها ولنا عودة إلى هذا النوع بعد قليل .

وثالث هذه الفروق أن النظم المعاصرة إنما قررت مبدأ التكافل بعد مطالبات وضغوط كثيرة تعرضت لها من الأفراد ، ومن جهات أخرى ، وربما لو لم يكن الصراع الفكري القائم الآن بين كتلتي النظام الاشتراكي والنظام الرأسمالي لضاق

---

١ – سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الإسلام صفحة ٦٣ – الطبعة ٨ .
٢ – لقمان : ١٤ .
٣ – الأحزاب : ٦ .

مجال هذه الرعاية الاجتماعية إن لم ينعدم ، لأن الطابع المادي الغالب على كلا النطاقين لو ترك وشأنه يأخذ طريقه ، لا يحفل إلا بالمنفعة المادية وحدها وإلا بالمبادلة المادية دون احتفاء بالجانب الإنساني [1] ، أما الإسلام فإنه يقرر هذا المبدأ دون مطالبة من الناس، ودون أن يتعرض لأي نوع من أنواع الضغوط، بل لقد جعل الإسلام هذه الرعاية الاجتماعية نوعاً من العبادة يتقرب بها الإنسان إلى ربـــه .

ورابع هذه الفروق أن النظم المعاصرة عندما أقرت هذا المبدأ جعلته مقابل واجب مادي التزم به الفرد كما التزمت به الجماعة والمؤسسات الاقتصادية المختلفة ، فالدولة في النظام الديمقراطي تجمع مصروفات الرعاية الاجتماعية مسبقاً عن طريق الضرائب وأقساط التأمين ، وهي في النظام الماركسي تجبي الضرائب وتحصل أقساط التأمين بالإضافة إلى كونها مالكة للعمل والمال معاً وهذا ما يجعلها تلتزم مقابل ذلك ببعض الخدمات العامة والرعاية الاجتماعية . وكلا النظامين لا يعرف التكافل القائم على مساعدة الفرد للمجموع والمجموع للفرد ، لأنه يقوم على ما يدفعه الفرد مسبقاً ، أما التكافل الإسلامي فإن المستفيد من المال لا يدفع شيئاً ، لكن الذي يدفع هو المستغني . أما الدولة ومؤسساتها فهي واسطة لجمع المال من القادرين وتوزيعه على المستحقين . ثم إن المال الذي يجمع في الزكاة وهي صلب النظام الإسلامي للعدالة الاجتماعية يقدّر على أساس رأس المال وليس على أساس الدخل كما هو الأمر في نظم التكافل المعاصرة ، وهذا ما يحقق حصيلة طيبة تضمن لفئات المجتمع كله حياة مادية مناسبة .

وآخر هذه الفروق بين النظم المعاصرة والنظام الإسلامي أنها تعتمد على التشريع والتشريع وحده لضمان مورد هذه الرعاية ، أما الإسلام فإنه يضيف إلى التشريع إثارة الضمير الإنساني وتوجيه الوجدان وإحياء الشعور بالواجب . كما يفعل في كل موضوع آخر من المواضيع التي تهم المسلمين ، وهكذا يترك الإسلام

---

١ — الدكتور محمد البهي ، الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ، مشكلات الأسرة والتكافل ٣٤٥ .

المجال رحباً أمام الوجدان الفردي الذي يريد أن يزيد ، على ما فرض عليه ، أو التزم به من واجبات ، وهكذا يوجه الإسلام إلى الصدقة والبر ، ويحبب في الإنفاق طوعاً واحتساباً وانتظاراً لرضى الله وعوضه في الدنيا ولثوابه في الآخرة واجتناباً لغضبه ونقمته وعذابه [1] . فالامتناع عن الإنفاق إلقاء للنفس في مهاوي التهلكة والضياع : « وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » [2] وما ينفقه المنفقون في سبيل الله فقد أوجب تعالى على نفسه مضاعفته عليهم : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ، وله أجر كريم » [3] ومثل المال الذي ينفق ابتغاء مرضاة الله مثل الجنة المحققة الثمرات « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من عند أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير » [4] وقد مثل القرآن الكريم لهذه الثمرات بصورة بالغة الدلالة ناصعة البيان : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » [5] .

إن الزكاة هي الوسيلة الرئيسية لتحقيق العدالة الاجتماعية في الإسلام . وقد جعلها الله ركناً من أركان الدين وضرورة من ضرورات الإيمان ، وفرضها في أموال القادرين ، حقاً تتقاضاه الدولة المسلمة بحكم الشريعة وقوة السلطان إن لم ينفع الضمير ويتحرك الوجدان . ولأهمية الزكاة قرنت في القرآن بالصلاة في معظم الآيات التي ورد فيها الحديث عن هذه الفريضة « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » [6] : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة

---

١ — سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الإسلام ، صفحة ٨٣ .
٢ — البقرة : ١٩٥ .
٣ — الحديد : ١١ .
٤ — البقرة : ٢٦٥ .
٥ — البقرة : ٢٦١ .
٦ — البقرة : ١١٠ .

واركعوا مع الراكعين »[1] « فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم»[2] « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » [3] .

وقرن الصلاة بالزكاة يشير إلى أنها ليست تبرعاً مرهوناً بمشيئة الإنسان وإنما هي حق المال واجب الأداء ويقاتل الإمام من امتنع عن أدائها . ففي حديث رواه الجماعة إلا ابن ماجه عن أبي هريرة أنه [4] « لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر موجهاً الكلام إلى أبي بكر : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله تعالى ؟. فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها . فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق » . فما يردده بعض الكتاب من أن الزكاة لأنها سميت صدقة « إنما الصدقات » هي نوع من الإحسان غير ملزم وليس على الناس أن يتقيدوا بأدائه قول مردود . وما هو إلا تقليد لما يردده الغرب الرأسمالي والشرق الشيوعي الآن في مواجهة نظام الكنيسة ومواجهة حكمها على عهد القرون الوسطى . والدليل العملي على أن قياسه لا يجوز أن أول حرب خاضها المسلمون بعد وفاة الرسول عليه السلام كانت بسبب امتناع بعض العرب عن أداء الزكاة ، ورفض السلطة الإسلامية أن تفرق بين من يترك الشهادة والصلاة وبين من يترك الزكاة .

وليس المجال متسعاً لتفصيل أحكام الزكاة ولكننا نلقي لمحة سريعة على أهم ما يتصل بموضوعنا من هذه الأحكام :

---

١ – البقرة : ٤٣ .
٢ – الحج : ٧٨ .
٣ – الحج : ٤١ .
٤ – نيل الأوطار : ٤ / ١٢٧ .

فالزكاة فريضة مالية وهي تترتب على المال عند معظم الفقهاء . والمال الذي تجب فيه هو المال النامي بالفعل أو المعد للنماء ، فلا تفرض في أموال من الحاجات الأصلية كالملابس الشخصية والسكن الفردي وواسطة التنقل ... ولا تفرض في ملكية عارضة وإنما يجب أن يحول عليه الحول وأن يكون مالا ثابتاً قابلا للزيادة ، كما أنها لا تفرض في المال البسيط وإنما يشترط فيه أن يخرج من حد الفقر إلى الغنى وهو ما يسمى بنصاب الزكاة .

وقد فرضت الزكاة على الأموال التي كانت تشكل ثروة المجتمع في ذلك الحين وهي على أنواع أربعة :

ا — النعم كالإبل والبقر والغنم ، ب — الزرع والثمار ، ج — النقود ، د — عروض التجارة أي الأموال التي يتجر بها .

فتؤدى زكاة النعم (الثروة الحيوانية) عندما يحول عليها الحول وتبلغ نصاباً معيناً وبنسب معينة (١) ، وتؤدى زكاة النقود أو المدخرات منها إذا بلغت نصاباً معيناً هو مئتا درهم من الفضة أو عشرون ديناراً شرط أن يحول عليها الحول ، وزكاة عروض التجارة تؤخذ على أساس ربع العشر من القيمة الكلية بعد أن يحول عليها الحول وهي نفس نسبة النقود ، أما الحلي فلا تؤخذ منها زكاة عند بعض الفقهاء ، إلا إذا اتخذت للتجارة ، وتؤدى زكاة الزروع والثمار (الإنتاج الزراعي) بنسبة نصف العشر إذا سقيت بالآلة ، والعشر إذا سقيت بدونها .

إن هذه الأصناف الأربعة تصور الثروة المادية في المجتمع الإسلامي الأول ، وهي كذلك تصور الأنواع الأساسية لكل ثروة في مجتمع بدائي أو حضاري ، لأن الصناعة عمل إضافي للإنسان في هذه الأنواع نفسها وهي تزيد في قيمتها أكثر من أن تزيد في أعدادها وخاماتها وهي أشبه بالتجارة في أن القيمة الزائدة عن طريقها تعبر عن المجهود البشري في عمل الإنسان ومهنته ، ثم إن السلع

---

١ — يبدأ نصاب الغنم بـ ٤٠ شاة ، والبقر بـ ٣٠ بقرة ، والإبل بـ ٥ إبل .

المصنعة ستتداول عن طريق التجارة وستفرض عليها الزكاة على أساس أنها عروض التجارة .

ومع ذلك فإذا وجد مال غير مذكور في وعاء فريضة الزكاة يدخل فيه قياساً على الأنواع الأربعة ، فقد أدخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخيل لأنهـا أصبحت تقتنى لا للجهاد وإنما للتجارة ، كما أدخل الإمام ابن حنبل الدور ، والأصل في القياس وجود العلة في الأشياء الجديدة ، والعلة هنا هي النماء . ومما استجد ، النقود الورقية لأنها تمثل ذهباً وفضة أو ضماناً من الدولة بقيمتهـا ، والحيوانات التي تدر الربح وعمائر السكن ، والمصانع ، والأسهم والسندات .

ويمكن أن نضيف زكاة الفطر التي تؤدى كل عام عن الإنسان ويؤديهـا رب الأسرة الملتزم بالإنفاق عليها عن جميع أفرادها .

وهكذا فإن مصادر الزكاة هي كل ما للإنسان من نفسه ومما يملك من عمل تمثل في مقتنيات يقتنيها ، ونسبة ما يخرج منها كل عام من العشر إلى ربع العشر من الإنتاج الكلي من قيمة رأس المال ، وهي نسبة كفيلة بإبعاد شبح الحاجة عن المجتمع سواء كان سببها وضع الإنسان يطول أجله أو وضع طارىء مؤقت ينتهي فور استدراكه . ومع ذلك فإن ما يدفعه المسلم لتحقيق التكافل عن طريق الزكاة يمثل أقل ما ينفق في هذا الخصوص ، فالآيات تشير إلى أن في المال حقاً آخر غير الزكاة : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة »[1] ويصبح الإنفاق الإضافي واجباً على المسلمين إذا لم تكف الزكاة لضمان حاجات المجتمع .

أما مصارف الزكاة فقد حددتها الآية الكريمة على النحو التالي : « إنمـا الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ؛ والمؤلفة قلوبهم ؛ وفي الرقاب ،

---

١ – البقرة : ١٧٧ .

والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم»[1]

والدى التدقيق في هذه المصارف يتبين انا أن أهداف المجتمع الإسلامي في تحقيق التكافل بين أفراده هي : الوقاية من مذلة حاجة الأكل والشرب ، والتمكين والمساعدة على تحقيق الاعتبار البشري للإنسان ، وحماية القيم العليا في المجتمع من التدهور أو من اللامبالاة ، واستمالة بعض الأعداء إلى جانب المجتمع الإسلامي [2] .

فالفقراء والمساكين ومن يدخل في اعتبارهم من الطاعنين في السن والعاجزين عن العمل وأصحاب الأمراض المزمنة وأصحاب الحاجة ، والأرقاء وأشباههم اليوم في الشعوب التي تُستَذَلّ من شعوب أخرى ، والذين يلح عليهم الدَّيْن لفاقة أو حاجة أو حلّ مشكل قائم بين المسلمين ، والدعوة في سبيل الله والقيم الإسلامية العليا والمحافظة على المجتمع الإسلامي وحمايته ، والمنقطع في سفره واستمالة الأعداء إلى جانب المجتمع الإسلامي عن طريق ما يسمى بالمؤلفة قلوبهم كل ما تتطلبه هذه الأمور يجب أن تضمنها فريضة الزكاة .

وغني عن الذكر أنه لا يجوز أن تصرف الزكاة في الخدمات العامة كالتعليم والصحة وشق الطرقات وبناء الجسور لأن ذلك من شأن الأفراد يحققونه عن طريق تعاونهم مرتبطين بمجتمع من المجتمعات ويمكن تأمين هذه الخدمات عن طريق الضرائب أو أية موارد أخرى ، ولكنه لا يجوز الخلط بين حصيلتي النوعين ، لأن أداء هذه الخدمات يرتبط بمستوى الحياة المادية والحضارية ومجموع الأفراد الذين تؤدى لهم ، أما الزكاة فإنها تعبر عن تماسك المجتمع ورغبته الدائمة بإبقاء العلاقات الإنسانية على مستوى معين من الإخاء والتعاون ، ومن أجل ذلك كانت الزكاة عبادة كسائر العبادات [3] .

---

١ — التوبة : ٦٠ .
٢ — محمد البهي ، المرجع السابق صفحة ٣٤٩ .
٣ — يمكن الرجوع إلى كتابي العدالة الاجتماعية في الإسلام (سيد قطب) وسياسة المال والحكم في الإسلام (عبد القادر عودة) ففيهما أبحاث قيمة حول الفرائض الأخرى غير الزكاة .

النظام العائلي

الأسرة مؤسسة اجتماعية تنبعث من ظروف الحياة والطبيعة الإنسانية وهي ضرورة واجبة لبقاء الجنس البشري ودوام الوجود الاجتماعي ، فقد أودع الله في الإنسان هذه الضرورة على صورة فطرية .

والأسرة في حقيقتها اجتماع بين الرجل والمرأة واتحاد دائم مستمر بينهما وسكن كل منهما إلى الآخر على صورة يرضى عنها المجتمع .

ولم يعرف الباحثون مجتمعاً إنسانياً يخلو من ظاهرة الأسرة ، فقد وجدت مع أول مجتمع بشري عرفته الأرض ، وكانت هذه الظاهرة وما تزال أكثر الوقائع الاجتماعية عمومية وانتشاراً .

وسنقصر دراستنا لهذا الموضوع على الأبحاث التالية :

١ ــ تطور الأسرة .

٢ ــ الزواج والواجبات المترتبة عليه .

٣ ــ الأسرة في النظام الإسلامي .

تطور الأسرة :

مرت الأسرة منذ نشأتها بمراحل متعددة وعرفت تطورات كثيرة ، ويمكن

أن نلاحظ هذا التطور في نطاقها وفي محور القرابة وفي وظائفها . فأما من حيث نطاقها فإنه يظهر لنا من دراستنا للمجتمعات القريبة البدائية والتي ما يزال يوجد منها نماذج في بعض القبائل في افريقيا وأمريكا الجنوبية ، أقول : يظهر لنا أن عدد أفراد الأسرة قديماً كان كبيراً ، وذلك لأن الصلة أو الرابطة التي تربط بين أفراد الأسرة تقوم على أساس الانتماء إلى توتم [1] واحد ومن الطبيعي أن يشترك الكثيرون في هذا الانتساب وبالتالي يتسع نطاق الأسرة ، ثم أصبحت الصلة بين أفراد الأسرة في المجتمعات اليونانية والرومانية القديمة تقوم على أساس الإدعاء، أي أن يدعي رب الأسرة أن فرداً ما ، من أفراد الأسرة .

وكان الغرب قبل الإسلام أقرب إلى هذا النظام ويلاحظ ذلك من مبدأي التبني والخلع اللذين كانا سائدين في ذلك الحين ، وقد قل عدد أفراد الأسرة بموجب نظام الادعاء . ثم ضاق نطاق الأسرة كثيراً في النظام الإسلامي الذي ألغى نظام الادعاء [2] ومنع التبني والخلع فأصبحت الأسرة تعتمد على ما نسميه اليوم بالأسرة الزوجية ، وهي التي تتألف من الزوجين والأولاد وخاصة الذين لم يبلغوا سن الرشد أو لم يتزوجوا بعد ، لأنهم حين زواجهم يشكلون أسراً زوجية أخـــرى .

وكان تطور النطاق مصحوباً بالتطور في محور القرابة ، فقد كان التوتم هو محور القرابة قديماً ، وكان لهذا الانتساب أشكال ، فأحياناً ينسب الولد إلى توتم أمه ، وأحياناً ينسب إلى توتم أبيه وأحياناً إلى توتم المكان الذي تشعر فيه الأم بابنها لأول مرة .

ثم أصبحت الأم محور القرابة ، ويقال إن هذا النظام هو أقدم الأنظمة المعروفة ، وإنه يرافق مرحلة الصيد والتقاط الثمار ، وذلك لأن الأم كانت مستقرة في الأرض حينما كان على الأب التنقل الطويل والكثير .

---

١ — التوتم هو رمز يقدسه أفراد المجتمع البدائي ، وقد يكون نوعاً من الحيوان أو الشجر أو الجماد أو أحد مظاهرها .

(٢) قال تعالى : « ادعوهم لآبائهم » ، الأحزاب : ٥١ .

ثم كان النظام الأبوي الذي ينسب فيه الولد إلى أبيه ، وبينما تكون الأسرة في النظام الأمي مبعثرة تكون في هذا النظام مجتمعة في نطاق جغرافي واحد ، ويرافق هذا النظام مرحلة زراعة الأرض والاستقرار فيها .

أما في الإسلام فتجد أن الأب والأم معاً أصبحا محور القرابة مع أرجحية جانب الأب ، ويظهر هذا الترجيح خاصة في المسائل المتعلقة بالميراث والنفقة وتحمل مسؤوليات الأسرة .

ويلاحظ أن معظم الشعوب الغربية الآن ، لا تميز بين الأب والأم ، وتعتبرها في درجة من القرابة تكاد تكون واحدة ، ويظهر هذا من استعمالهم ألفاظاً واحدة للدلالة على العمومة والخؤولة وأولاد العمومة والخؤولة .

أما عن تطور وظائف الأسرة ، فقد لوحظ أن هذه الوظائف تتطور من السعة إلى الضيق ، فقد كانت الأسرة قديماً تقوم بجميع الوظائف الاجتماعية ، الدينية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية والقضائية ، وأكثر ما يتضح هذا في الأسرة التوتمية ، وقد بقيت الأسرة الرومانية القديمة تقوم بهذه الوظائف جميعها ممثلة في شخص عميدها ، وكان هذا العميد هو المشرع والقاضي والحاكم وكل شيء في حياة الأسرة . ثم أخذ المجتمع ينتقص من هذه الوظائف بسبب عوامل كثيرة ، أهمها نشوء الدول واستقرارها ، وهكذا أخذ المجتمع من الأسرة الوظائف السياسية والتشريعية والتنفيذية والاقتصادية وأخيراً التربوية ، وإن كان ما يزال للأسرة أثر كبير في الشؤون التربوية ، وستظل المهام التربوية الأساسية من وظائف الأسرة لأن المنزل أو البيئة الأولى التي يعيش فيها الإنسان تترك طابعها على الطفل ، خاصة وأن عناصر هامة من شخصيته تتكون في هذه المرحلة الأولى من حياته ، ولا ننس أخيراً أثر الأسرة في نقل التقاليد إلى أفرادها بالإضافة إلى ما جبل عليه الطفل من حب للتقليد يجعله يقلد أبويه ويتأثر بهما .

الــزواج :

الزواج هو الرابطة التي تقوم بين الرجل والمرأة وتتم على صورة يرضى عنها

المجتمع وينظمها تنظيماً خاصاً ، ومن دراستنا للزواج نجد أنه نظام اجتماعي يقوم على أسس اجتماعية بحتة لا علاقة لها في معظم الأحيان بالأمور الغريزية .

القيود التي توضع على الزواج :

نظمت المجتمعات الطبقات التي يباح منها الزواج أو يحرم ، وحددت القيود التي توضع على الزواج بسبب اختلاف الأديان أو الأجناس أو الطبقات الاجتماعية أو القرابـــة .

فمعظم الأديان تحرم زواج أتباعها بأتباع الديانات الأخرى ، وقد حرم الإسلام زواج المسلم بالمشركة وأباح له الزواج بالكتابية بينما حرم على المسلمة أن تتزوج غير المسلم مشركاً أو كتابياً .

أما القيود التي توضع بسبب اختلاف الأجناس البشرية والطبقات الاجتماعية واعتقاد البعض أنهم متميزون على الآخرين فقد أقرتها مجتمعات كثيرة ، أمـــا الإسلام فقد جاء ليعلن وحدة الجنس البشري من أب واحد وأم واحدة ، لذا فإنه لم يقر هذه القيود ، وقد زوج الرسول ﷺ أقرب الناس إليه إلى رقيق كان قد أعتقه ورباه أما قول الفقهاء باعتبار كفاءة الرجل فإنه من قبيل النظر إلى المصلحة ، إذ غالباً ما يفشل الزواج بسبب التفاوت الكبير بين الزوج والزوجة . وعلى كل حال فإن هذا الشرط لا يعتبر إلا في حالة الاعتراض عليه ممن يملك حق الاعتراض. أما القيود التي ترجع إلى القرابة فقد أقرتها معظم الأنظمة الاجتماعية ، إذ لا يصح فيها زواج الأقرباء الذين هم على نسبة معينة من القرابة من بعضهم ، ولو أننا تتبعنا طبقات المحارم عند الشعوب لوجدنا أنها تبدأ واسعة عند الشعوب البدائية وتضيق كلما تقدمت الحضارة ، حتى إن الشريعة الإسلامية قصرت طبقات المحارم على أربع هي :

١ ــ أصول الإنسان ذكراً أو أنثى مهما علوا ، أي الآباء وآباء الآباء والأمهات وأمهات الأمهات . لقوله تعالى : « حرّمت عليكم أمهاتكم » .

٢ — فروعه مهما نزلوا ، أي الأبناء والبنات ، لقوله تعالى : « وبناتكم » .

٣ — فروع الأبوين مهما نزلوا ، أي الإخوة والأخوات وجميع من ينحدر منهم ، لقوله تعالى : « وأخواتكم ، وبنات الأخ وبنات الأخت » .

٤ — الفروع المباشرة للجدين أي العم والعمة والخال والخالة ، أما أولادهم فيصح الزواج منهم ، هذا بالإضافة إلى القيود التي توضع بسبب المصاهرة والرضاع .

أشكال الزواج :

كما نظمت المجتمعات أشكال الزواج من حيث تعدد الأزواج والزوجات ، ويمكن أن نلاحظ في هذا المجال عدة أشكال من الأنظمة أهمها :

١ — الشيوعية الجنسية : ومؤدي هذا الشكل أن يكون النساء في مجتمع ما حقاً مشاعاً لرجاله بدون قيود زوجية ، وقد وهم بعض علماء الاجتماع لرؤيتهم أشكالا زوجية أخرى كنظام تعدد الأزواج والزوجات فظنوا أن هذا النظام كان أول الأشكال الزواجية في الظهور ، إلا أن هذه النظرية فاسدة إذ لم يعرف مجتمع قديم أو حديث ترك الاتصالات الزواجية بدون تنظيم .

٢ — الزواج الجمعي : وبمقتضاه يتاح لعدد من الرجال أن يتزوجوا عدداً من النساء ويعتبرون زوجات لهم بالمشاركة وغالباً ما تشترط القرابة بين الرجال وبين النساء ، وقد انبثق عن هذا النظام ، الزواج الأخوي وزواج الأقارب والزواج المتبادل .

٣ — وحدانية الزوجة مع تعدد الأزواج : وبموجب هذا النظام يشترك عدد من الرجال في معاشرة زوجة واحدة وغالباً ما تشترط القرابة بين هؤلاء (وقد كانت بعض هذه الأشكال معروفة في الجاهلية فأبطلها الإسلام لما فيها من ضياع النسل واختلاط الأنساب) .

٤ — وحدة الزوج وتعدد الزوجات : وجد هذا النظام وما يزال في مجتمعات

كثيرة ، وقد لاحظ علماء الاجتماع بأنه يوجد عادة في المجتمعات المتقدمة حضارياً . اختلفت صور إباحة هذا النظام ، فقد كان يباح أحياناً على الإطلاق وأحياناً للضرورة ، كما كان العدد أحياناً محدوداً وأحياناً غير محدود ، ثم إن مركز المرأة فيه يختلف فأحياناً تتميز الزوجة الأولى على باقي الزوجات فينسب الأولاد جميعاً لها وأحياناً يتساوى مركز النساء ، ومن المعلوم أن الإسلام قيد التعدد بما لا يزيد على أربعة .

٥ — نظام وحدانية الزوج والزوجة : وقد وجد هذا النظام أيضاً في كثير من المجتمعات القديمة والحديثة وتتقيد الشعوب المسيحية به ، أما النظام الإسلامي فلا يعارضه وإنما يأخذ به إلى جانب إباحة التعدد .

الوسائل التي يتم بها الزواج :

تعرفت المجتمعات البشرية على أكثر من وسيلة لارتباط الرجل بالمرأة ارتباطاً شرعياً ، ونستطيع أن نحدد ثلاثة وسائل يتم بها هذا الاتصال أو يكون مقدمة للزواج :

١ — طريقة التعاقد وهو أهم هذه الوسائل وأكثرها شيوعاً ويكون بأن يقوم عقد بين الرجل والمرأة أو من يمثلها يحل بموجبه للرجل والمرأة معاشرة بعضهما . وقد اختلفت المجتمعات في طريقة إقرار هذا التعاقد وفي تحقيق مبادىء الاختيار بين الزوجين أو الاختلاط بين الخطيبين قبل عقد الزواج .

أما من ناحية الطريقة التي يتم بها اعتماد هذا العقد فإن بعض الأنظمة تتطلب موافقة السلطات الدينية في المجتمع ، وقد وجد هذا النظام وما يزال يوجد لدى بعض الطوائف النصرانية ، والمجتمعات التي يقوم فيها انفصال بين السلطتين المدنية والدينية ، ولا تعترف بعض الأنظمة بعقد الزواج إلا إذا أقرته السلطة المدنية أي المؤسسات التي تنبثق عن الدولة ، ولا يهم هذه المجتمعات موافقة السلطة الدينية أو رفضها ، وأخذت مجتمعات أخرى بالجمع بين النظامين فهي تتطلب ضرورة موافقة السلطتين المدنية والدينية ،.وإلى هذا النظام تسير معظم

الدول الإسلامية ، علماً بأن الإسلام لا يفصل بين السلطتين ، ولا يعتبر شرطاً في صحة عقد الزواج أن توافق عليه أي سلطة مهما كان وصفها ، فإذا ما توفرت شروط صحة العقد كان صحيحاً ، وإذا ما أوجبت تسجيله لدى الدوائر المختصة فلأن هذا أمر يقتضيه طبيعة النظام الحديث ولا يعتبر التسجيل شرطاً لصحة الزواج .

٢ — طريقة ملك اليمين : ولا يوجد هذا النظام إلا في البلاد التي ما تزال تبيح الرق ، فأما إذا لغي الرق فقد ألغيت هذه الوسيلة بصورة تلقائية .

وملك اليمين إما أن يكون طريقاً للزواج بعقد يرتب آثاره ، أو أن يقتصر على مجرد التسري بالمرأة ، ومعظم الأنظمة في أيامنا الحاضرة لا تبيح الرق ، وقد كان للإسلام موقف معين من هذه الناحية ، فقد سلكت المبادىء الإسلامية طريقة عملية في تحرير الرقيق ولا نعرف الآن بلداً إسلامياً يبيح الرق .

٣ — طريقة الاستيلاء على المرأة : وتقترن هذه الطريقة أحياناً بطريقة السبي ، وفي بعض الأحيان تكون هذه الوسيلة وسيلة للاسترقاق ولكنها كثيراً ما تكون تمهيداً للزواج . ويعتبر بعض علماء الاجتماع هذه الطريقة أقدم وسيلة للزواج بسبب النظام الذي كان يسود في المجتمعات البدائية وهو قتل البنات ، فكان الذي يرغب في الزواج يضطر للالتجاء إلى هذه الطريقة .

الحقوق والواجبات المترتبة على رابطة الزواج :

إن الزواج عقد ، وهو كأي عقد يرتب حقوقاً وواجبات متقابلة على كلا الطرفين ، من أهمها :

١ — دفع مقابل لأحد الزوجين : وهذا الحق إما أن يترتب للزوجة على الزوج ويسمى مهراً كما هو الحال في النظام الإسلامي وإما أن يكون حقاً للزوج على الزوجة وهذا هو نظام الدولة الذي عرف في التشريع الروماني وأقرته الكنيسة المسيحية ثم ألغته القوانين المدنية في معظم البلاد التي كانت تأخذ به ، إلا أن

الأعراف لدى بعض الطبقات في هذه البلاد حتّى الآن تقضي بتطبيق هذا النظام .

٢ — نفقة الأسرة : وتترتب بموجب النظام الإسلامي على الزوج فمهما كانت المرأة غنية لا تجبر على المشاركة في نفقات البيت ، وتميل معظم المجتمعات التي تسمح للمرأة بالعمل ، إلى أن تأخذ بنظام المشاركة بين الزوجين في نفقات الأسرة المعيشية .

٣ — رئاسة الأسرة : لما كان كل مجتمع لا بد أن يكون له رئيس أو مسؤول ولما كانت الأسرة مجتمعاً صغيراً فإن من الطبيعي أن يكون لها مسؤول أول ، هذا المسؤول حسب النظام الإسلامي هو الزوج . وليس في ذلك أي انتقاص من حقوق المرأة أو امتهان لشخصيتها وكرامتها ، فالمرأة في ظل الإسلام عزيزة كريمة لها من الحقوق الهامة أكثر مما للمرأة في أي مجتمع آخر ، إلا أن طبيعة عمل الزوج على الأغلب وكونه أقدر على تحقيق مصالح الأسرة والإشراف على شؤونها هو الذي حدا بالإسلام إلى أن يقرر مسؤولية الرجل عنها .

٤ — تربية الأولاد : تقوم الأسرة بإشراف الزوج والزوجة على تربية الأولاد حتّى سن معينة وتختلف هذه السن باختلاف المجتمعات وبدء السن الدراسية في المدارس ، وحتّى مع وجود المدرسة تبقى للأسرة مهام تربوية عظيمة .

٥ — احترام عقد الزوجية : ويترتب على الزواج أن يحترم كل من الزوجين عقد الزوجية ، وإذا حصل أن خان أحد الزوجين هذه العلاقة فإن بعض المجتمعات تعاقب الخائن وتفسخ عقد الزواج بينهما ، بينما لم تجد مجتمعات أخرى أي سبب يبرر فصم عقد الزواج حتّى ولو كان هذا السبب خيانة زوجية ، وبهذا تقول معظم الكنائس المسيحية ، التي أخذت تتساهل بعض الشيء بتأثير الواقع ، فتسمح بالتفريق بين الزوجين في حالة الخيانة الزوجية ، كما أن القوانين المدنية الحديثة حتّى في البلاد المسيحية ، أخذت بالتفريق بين الزوجين لهذا السبب .

الأسرة في الإسلام :

عني الإسلام بالأسرة عناية خاصة ، وجعل منها أساس المجتمع ، ومن أجل ذلك حض الإسلام على الزواج ، وقد وردت في الشريعة الإسلامية نصوص كثيرة ترغب في الزواج وتهيب بالشباب أن يتزوجوا ، وتنهى عن الرهبانية والفردية ، فمن ذلك ما رواه أبو داود في سننه عن عبدالله بن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع منكم فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[1] . ومن ذلك ما روى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : « ألا أخبركم بخير ما يكثر المرء : المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته وإذا غاب عنها حفظته وإذا أمرها أطاعته » .

وقد كان هذا النهج الذي ارتضته الشريعة الإسلامية هو النهج الذي يلائم طبيعة الوجود ويتفق كل الاتفاق مع الحياة الاجتماعية إذا أريد تهذيبها والسير بها صعداً إلى معارج الكمال .

وقد أثبتت التجربة العملية أن الأطفال الذين يعيشون بين أبويهم أقوى جسماً وعقلاً وعاطفة من الأطفال الذين ينشأون في الملاجىء ، وقد هيأت الحرب العالمية الثانية مجالا واسعاً لدراسات مقارنة من هذا النوع إذ وجد الكثير من الأطفال بلا مأوى ، فآوتهم الملاجىء ، ومن أهم ما صدر في هذا الباب كتاب (أطفال بلا أسر) للكاتبة « أنا فرويد » بينت فيه بوضوح كامل تفوق الأطفال الذين يعيشون في أسرهم سواء من حيث النطق أو الانفعال أو التعلم بصورة عامة .

من أجل كل هذا أكد الإسلام على بناء الأسرة المتين وحض المسلمين على الزواج متى استطاعوا ذلك .

وحتى يتحقق هدف الإسلام في إقامة بناء الأسرة على أساس متين فقد

---

١ — معنى له وجاء أن يكسر حدة الشهوة فيكون أشبه شيء بالموجوء (الخصي) .

عنيت الشريعة الإسلامية والفقهاء المسلمون بتفصيل أحكامها ، من تحديد شروط عقد الزواج إلى توضيح آثاره ، والحقوق والواجبات المترتبة عليه من نسب أو ميراث أو نفقة ، إلى بيان انتهائه أو انحلاله وما يترتب على ذلك من نتائج ، إلى غير ذلك .

دفع شبهات عن نظام الإسلام في الزواج :

١ ــ تعدد الزوجات : أباحت الشريعة الإسلامية للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربعة ، وقد أثارت هذه الإباحة تعليقات كثيرة من خصوم الإسلام ، وللإجابة على هذه التعليقات لا بد من الإشارة إلى عدة أمور :

ــ ليس معنى إباحة الشيء الأمر به ، فالإسلام في إباحته للتعدد لم يأمر به كما نعلم ، وإنما شرعه مراعياً الفطرة الإنسانية والرغبة في حل الكثير من المشاكل الاجتماعية التي تترتب على حظر التعدد أو تحريمه تحريماً تاماً .

ب ــ يشترط لمن يعدد أن يعدل بين زوجاته في الإنفاق فمن لم يستطع العدل أو لم يأمن على نفسه من الوقوع في التمييز بين زوجاته كان آثماً في تعداده .

ج ــ ويجب أن يكون قادراً على الإنفاق على الزوجات وأولادهن ، والأصل أن هذا من شروط الزواج حتى بواحدة وهذا ما يقتضيه حديث رسول الله «ص : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج » فالاستطاعة جسدية ومالية .

د ــ هذا ولا بد أن نلاحظ هنا أن تعدد الزوجات كان نظاماً معروفاً قبل الإسلام وكانت بعض المجتمعات تبيح التعدد بلا قيود ، فجاء الإسلام ليحدد العدد فيجعله لا يزيد على أربعة وليشترط العدل والقدرة على الإنفاق .

وحين أباح الإسلام هذا التعدد فإنه عالج أسباباً كثيرة تدعو إليه ، منها :

١ ــ أن تكون المرأة عقيماً ويريد الرجل ذرية وخلفاً ، فإذا لم يكن نظام التعدد قائماً كان على الرجل أن يطلق زوجته رجاء الذرية من زواجه الجديد ،

وفي هذا ما فيه من إساءة للمرأة التي تفضل في مثل هذه الحالة البقاء في بيتها مع زوجها ولو شاركتها زوجة جديدة .

٢ — ويشبه هذا أن تكون المرأة مريضة لا تستطيع القيام بواجباتها الزوجية ، ولا شك أن بقاء مثل هذه المرأة مع زوجها ، مع السماح له بأن يتزوج عليها أصون لكرامتها وأحفظ لحقوقها .

٣ — والتعدد يكون في كثير من الأحيان تصحيحاً لغلط وقع بين رجل وامرأة وكانت المرأة فريسة هذا الغلط إذ يؤذيها في سمعتها وكرامتها ، ولا دافع لذلك الأذى إلا بأن يتزوجها ولو كان متزوجاً ، وقد يكون التعدد واقياً من خطأ قد يقع أو من المؤكد أنه سيقع إذا لم يكن هذا الزواج .

٤ — وقد تدخل الدولة في حرب يترتب عليها فناء عدد كبير من رجالها فتصبح النسبة بين عدد الرجال والنساء متباعدة جداً كما حصل في بعض الدول بعد الحرب العالمية الثانية ، يبدو لنا أنه في مثل هذه الحالة يكون نظام التعدد لازماً للإبقاء على تماسك المجتمع وبقاء العلاقات بين الرجال والنساء مشروعة ، ثم إن التعدد سيتيح لهذه الأمة أن تعيد ترميم كيانها البشري من جديد .

وليست هذة الأسباب هي كل شيء في الموضوع ، وإنما هي أمثلة عن الحكم التي يمكن أن نلمسها من إباحة التعدد ، بحيث أن أي دارس فاحص خبير يعالج الأمور بعمق ، سيكشف أن منع التعدد ضار بالمرأة أبلغ الضرر ، وان من يقول بعكس هذا يقف عند ظواهر الأمور ، وتستولي على نفسه أحوال جزئية لبعض النساء ولا ينظر إلى المصلحة الحقيقية لكل النساء .

٢ — الطلاق :

ومن المواضيع التي أثارت تعليقات كثيرة أيضاً ، إباحة الشريعة الإسلامية للطلاق . فقد اتخذ بعض خصوم الإسلام هذه الإباحة منطلقاً للتهجم على الإسلام . فزعموا أن الطلاق هو السبب الرئيسي لما نراه من تشرد الأحداث في

بعض البلاد الإسلامية ، وزعموا أنه سبب التفكك والانحلال في المجتمع ، وزعموا أيضاً أن في إباحة الطلاق هضماً لحقوق المرأة وهدراً لكرامتها وإنسانيتها .

وللرد على هذه المزاعم نشير إلى عدة أمور :

١ — إن الطلاق كان معروفاً قبل الإسلام واستمر إلى ما بعده ، وحين أباحته الشريعة الإسلامية قضت على مساوئه الكثيرة وجعلت منه حلا لا بد منه لبعض المشاكل الاجتماعية .

٢ — إن الذين ينتقدون إباحة الإسلام للطلاق من كتاب مسيحيين وغربيين ، يعلمون أن جميع الدول المسيحية الآن تسمح قوانينها بالطلاق مع أن النظام الكنسي كان يحظر الطلاق حظراً تاماً ، حتى أن ثبوت الخيانة الزوجية على أحدهما لم يكن كافياً لطالب أحدهما الطلاق ، فكان يحكم بالتفريق الجسدي بين الزوجين دون الحكم بالطلاق ، وفي إباحة الطلاق في هذه الدول ، دليل واضح على فهم الاسلام للطبيعة البشرية وعلى نظرته العميقة الى المشاكل التي قد تقع فيها هذه الطبيعة ، والطريقة المعقولة في حلها .

٣ — وحين أباح الإسلام الطلاق فإنه لم يجعله الحل الأول للمشاكل الزوجية ، فقد بغّض الرسول عليه السلام به وجعله أبغض الحلال إلى الله ، وحض القرآن على وجوب معالجة المشاكل التي يمكن أن تتعرض لها العلاقات الزوجية بمحاولة الصلح والتفاهم ، وحين يصبح الطلاق أمراً لا بد منه فإن الإسلام ترك للرجل والمرأة مهلة التفكير ، فشرع طلاقاً رجعياً يستطيع الرجل أن يراجع فيه امرأته دون عقد أو مهر جديدين ، كما قرر أن الطلاق لا يقع أثناء الحيض ولا في طهر بعد الحيض الذي حصل فيه لقاء بين الرجل والمرأة ، كل ذلك حتى يفسح المجال لمزيد من التفكير ومحاولة رأب الصدع .

٤ — أما ان الطلاق سبب رئيسي لتشرد الأحداث في بعض البلاد الإسلامية ، فإن هذا القول لا دليل له من الواقع لأن إحصائيات الطلاق تشير إلى أن أكثر وقائعه تحصل في السنة الأولى للزواج وقبل الإنجاب ، وذلك يدل على فساد الاختيار في الزواج ، ومنع الطلاق في هذه الحالة أو تقييده ليس في مصلحة واحد من

الزوجين لأن مثل هذه الحياة الزوجية ستصبح جحيماً لا يطاق . وأما ان الطلاق سبب التفكك والانحلال في المجتمع فإن هذه دعوى عريضة تحتاج إلى برهان لا يملكه مطلقوها ، وذلك لأنهم يعتمدون على إحصائيات مبالغ فيها أو مغلوطة لم يحتسب فيها نسبة الطلاق الرجعي ، وعموماً فقد أشارت الإحصائيات إلى أن الطلاق تقل نسبته كلما كثر عدد أفراد الأسرة وهكذا فإن ٧٧٪ من وقائع الطلاق تقع قبل إعقاب أي ولد ، وإن ١٧٪ منها يقع بعد إعقاب ولد واحد ، ثم تتدنى النسبة كلما كثر عدد الأولاد .

وهكذا فإن الطلاق كما شرعه الإسلام يعالج حالات لا يمكن أن تستمر فيها الحياة الزوجية ، وحاله فيها ، حال الطبيب الذي قد يضطر لسلامة الجسم إلى بتر عضو منه .

مكانـــة المرأة :

ومن جملة ما يوجه في الغرب إلى الإسلام من انتقادات أنه حط من شأن المرأة ولم يعطها حقوقها أو يعاملها على قدم المساواة مع الرجل .

وهذه الدعوى لا تقوم على أساس بل إن عكسها هو الصحيح فالإسلام هو الذي كرم المرأة وأعلى شأنها وأعطاها حقوقها الجدية التي لم يعطها لها الغرب حتى الآن . وإن نظرة تاريخية وموضوعية إلى المرأة لتؤكد ما نقول بوضوح .

فلو نظرنا إلى المرأة قبل الإسلام ، لوجدنا أن اليهودية المحرفة تعتبر حواء ومن ثم المرأة عموماً سبباً في شقاء الإنسانية وذلك لأنها أخرجت آدم من الجنة — في زعمهم — وعرضت الجنس البشري للتعب والشقاء ، لذا نجد أن المرأة عند اليهود لا ترث إذا كان لها أخ ذكر .

وقد اقتبست المسيحية المحرفة هذه النظرة عن اليهودية ، فنظرت إلى المرأة باحتقار ، حتى أن المجتمعات المسيحية ، حتى نهاية القرون الوسطى ، كانت تبحث في إنسانية المرأة ، إذ لم يكن هذا المبدأ قد تقرر نهائياً بعد .

أما البرهمية فتعتبر الابتعاد عن المرأة شرطاً لدخول الجنة وتنظر إلى المرأة على أنها مخلوق دنس لا يستحق أن ينال شيئاً من الحقوق ، لذا فقد كان عليها أن تحرق نفسها إذا مات زوجها ، وقد وجد الاستعمار البريطاني في الهند صعوبة كبيرة في القضاء على هذه العادة .

وقد كانت أهلية المرأة ناقصة حسب القانون الروماني ، فقد كانت الأنوثة من أسباب الحجر ، تماماً كالصغر والجنون .

وعلى الرغم من أن بعض المجتمعات العربية قبل الإسلام ، أعطت المرأة شيئاً من الاعتبار ، إلا أنها بقيت تعاملها بصورة عامة على شكل لا يختلف كثيراً عن معاملة سائر المجتمعات المعاصرة ، فقد كانت بعض القبائل العربية تئد البنات ، وكانت المرأة لا ترث بل إنها نفسها قد تورّث كأي سلعة ، حتى إنه إذا مات الأب ورث أبناؤه فيما يرثونه زوجاته ، وكانت المرأة معرضة للسبي الذي كان أمراً سائداً في ذلك الحين ، كما كان الرجل يعدد من النساء ما يريد ، دون أن يكون عليه أي قيد ، ما دام يملك القدرة على ذلك .

وقد جاء الإسلام ليعلن أولا : المساواة الكاملة في الإنسانية بين الرجل والمرأة ، فالخلق من ذكر وأنثى ، بل إن المرأة جزء من الرجل : (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) [1] ولعلك تلاحظ أن القرآن الكريم ، يشير دائماً ، سواء في مجال التكليف ، أو في مجال الثواب على الأعمال ، إلى كل من الرجل والمرأة ، مع أن سياق الكلام يفيد الطرفين دون تفصيل ، مثال ذلك قوله تعالى : « فاستجاب لهم ربهم إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض » ومثاله تكرار عبارة : « المسلمين والمسلمات » « القانتين والقانتات » .. [2] وهذا يشير إلى إلحاح القرآن الكريم على تأكيد معنى التساوي

---

١ — النساء : ١ .

٢ — الاحزاب : ٣٥ .

الإنساني بين الذكر والأنثى ، لوجود عدد من المجتمعات التي لا تعترف بهذه المساواة كما ذكرنا .

ثم إن الإسلام يرفع الظلم الذي كان يقع بالمرأة في الجاهلية ، فقد منع وأد البنات ، ومنع تعدد الزوجات بلا حساب وجعله محصوراً في أربع ، وألغى نظام السبي ، كما ألغى نظام وراثتها كسائر السلع ، وأشركها بالميراث مع الرجل ، ولئن جعل نصيبها نصف نصيب الذكر ، فإن هذا لم يكن إلا تقديراً للواجبات والتكاليف المالية التي تترتب بموجب النظام الاجتماعي الإسلامي على الرجل ، ولا تكلف المرأة بشيء منها مما لا مجال لتفصيله هنا .

وقد أعطى الإسلام المرأة حقوقها الجديدة كاملة ، ومن هذه الحقوق ، حق التصرف بمالها ، هبة وشراء وبيعاً ، ودون أن يكون للرجل ، حتى زوجها ، أي سلطة على هذا المال ، وهذا الحق لم تمنحه القوانين الوضعية في البلاد الأوروبية حتى الآن ، فقد كان القانون المدني الفرنسي حتى سنة ١٩٣٩م لا يبيح تصرف المرأة بأموالها إلا بإذن زوجها وموافقته ، ثم عدل هذا القانون بصورة يعطي فيها للمرأة بعض الحرية في ممارسة هذا الحق ولكن مع بعض القيود . أما القانون المدني الألماني فإنه لم يعط المرأة حق اقتناء الممتلكات حتى سنة ١٩٥٧م .

وقد أوصى الرسول ﷺ بالنساء خيراً ، فهن شقائق الرجال ، وبر الأم مقدم على أي نوع من أنواع البر ، حتى ولو كان بر الأب ، وهو عليه السلام يؤكد على هذه التوصية في آخر خطبة جامعة له بين المسلمين ، وهي خطبة الوداع .

وإذا كان الإسلام يوزع الوظائف الاجتماعية بين الرجل والمرأة ، بصورة تتناسب مع طبيعتيهما فليس ذلك لاختلاف في الرتبة البشرية وإنما لضمان سير المجتمع سيراً حسناً ، وهو نوع من أنواع توزيع الاختصاص الذي نراه في أي مرفق من مرافق الحياة ، فالمرأة تستطيع بل وتحسن القيام بأعمال لا يستطيعها الرجل ولا يحسنها ، والرجل يستطيع أن يقوم بأعمال لا تحسنها المرأة ، من ذلك

مثلاً ، رئاسة الدولة ، فقد نصت الأحاديث على انه لا يفلح قوم يولون شؤونهم امرأة . إن السبب في ذلك أن المرأة بحكم تكوينها ووظيفتها الأنثوية ، لا تستطيع أن تتابع الأحداث على صورة تسمح لها أن تصدر حكماً سليماً أو رأياً صحيحاً فيها ، ومنها المشاركة في الأمور السياسية للسبب نفسه ، ولما يتبع ذلك من اختلاط بين الرجال والنساء لا يقره الإسلام .

أما مشاركة المرأة في تعليم بنات جنسها وفي تطبيبهن ، أو في أي أعمال تعود بالفائدة عليهن أو على المجتمع ، فإن ذلك كله مما لا يتعارض مع الإسلام .

الحقوق الزوجية في الإسلام :

نستطيع أن نقسم الحقوق التي يرتبها الإسلام على عقد الزواج إلى ثلاثة أنواع :

١ ــ حقوق مشتركة بينهما .

٢ ــ حقوق للزوج على زوجته .

٣ ــ حقوق للزوجة على زوجها .

أما الحقوق المشتركة ، فمنها حل الحياة أو العشرة الزوجية إذ أنها لا تحل في الإسلام إلا بالزواج وهي حق للزوجين على السواء ، ومنها حرمة المصاهرة ، إذ يحرم عليه أن يتزوج من أصول زوجته وفروعها وفروع أبنائها وبناتها كما تحرم زوجته على أصوله وفروعه أي على آبائه وأجداده وأبنائه وفروع أبنائه وبناته ، ومنها أن يتوارثا فيما بينهما ، فإذا مات أحد الزوجين ورثه الآخر ، فيرث الزوج زوجته إذا ماتت قبله ، وترثه إذا مات قبلها .

أما حقوق الزوج على زوجته فمنها حق الطاعة ، والقرار في البيت ، فلا تخرج إلا بإذنه ، وقد فصل العلماء كيف يكون ذلك ، ومنها ثبوت نسب من تأتي به من ولد أنه له .

وأما حقوق الزوجة على زوجها فمنها حق المهر ، وهو من قبيل معاونة الزوج

للزوجة على الاستعداد للحياة الزوجية ، ومنها حق النفقة ، هذا ما يقتضيه توزيع الحقوق والواجبات بينهما ، فإذا كان على المرأة أن تقوم على رعاية البيت وتدبير شؤون الأولاد ، فإن على الزوج أن يقوم بالأعباء المالية ، ومنها حق العدل ، والعدالة توجب عليه أن يعاملها بالمعروف ، وألا يؤذيها بالقول أو بالفعل ، وقد قال رسول الله ﷺ : خيركم خيركم للنساء ، وخيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي .

الفــرد والمجتمع

تعتبر العلاقة بين الفرد والمجتمع موضوعاً أساسياً في علم الاجتماع ، كما أن التعرف على حقيقتها أمر لا يستغني عنه عالم النفس ، وقد كان تنظيم هذه العلاقة هدفاً رئيسياً من أهداف الأديان والفلسفات والنظم المختلفة .

ويمكن دراسة هذه العلاقة من زوايا متعددة ، فقد اختلف علماء الاجتماع فيمن وجد أولا على وجه البسيطة ، الفرد أم المجتمع واستقر رأي غالبيتهم على أن المجتمع هو الأصل في الوجود والبادىء إلى الظهور ، وأن الفرد ليس إلا جزءاً من المجتمع بل عنصراً من عناصره متفاعلا معه .

وتتفق هذه النظرية مع آراء معظم الفلاسفة الاجتماعيين الأقدمين منهم والمحدثين ، بل إن النظرية الإسلامية في أصل الوجود تشير إلى أن المجتمع هو البادىء في الظهور لقوله تعالى مخاطباً آدم وأهله بسكنى الأرض : «قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (1) فالحياة أول ما بدأت على سطح الأرض كانت على صورة اجتماع بشري بين رجل وامرأة على الأقل .

وكما اختلفت الآراء حول بداية المجتمعات فإنها اختلفت حول بداية التشكل

---

1 – البقرة : ٣٨ .

أو التنظيم الاجتماعي ، فيرى البعض أن الأسرة هي الخلية الأولى للمجتمعات الإنسانية ، ويستدلون على ذلك بوجود مخلفات من الأسر البدائية في افريقيا ما تزال قائمة ، كما يستدلون بوجود ظاهرة تقديس الأجداد في بعض المجتمعات البدائية . لكن عدداً من الاجتماعيين يرون أن المجتمع ظهر في صورة العشير ، وهو مجموعة من الأفراد ينتمون إلى بعضهم بروابط مشتركة ، كاعتقادهم بالانحدار من أصل واحد مشترك ، أو يقطنون إقليماً مشتركاً ، وفي رأي هؤلاء أن الأسرة لم تعرف إلا في ظروف الحياة المستقرة ، والإنسان لم يعرف الاستقرار في الطور الأول من حياته .

ولكن ما هو المجتمع ؟ هل هو حشد من الأفراد كيفما اتفق أم أنه اجتماع منظم يتدخل كل من الفعل والإرادة في تنظيمه وتقرير أوضاعه وفقاً لما يرتضيه شعور الجماعة وعقائدها وتقاليدها . ومهما كان تعريف المجتمع فإنه ليس مجرد اجتماع أفراد في مكان وزمان معينين ، ولكنه تفاعل الأفراد في مجتمع ما ، يراعى فيه ما في هذا المجتمع وحاضره وطموحه في المستقبل ، فالتركيب الاجتماعي ليس تركيباً حسابياً ولكنه أشبه بالتركيب الكيماوي الذي تتفاعل فيه العناصر المختلفة لتوجد جسماً جديداً تختفي منه صفات العناصر التي شكلته ، كتركيب الماء وهو مائع من مولد الماء ومولد الحموضة وهما غازان ، وهكذا فإن المجتمع في نظمه يختلف كثيراً أو قليلا عن اتجاهات ، وآراء الأفراد الذين يتألف منهم .

ويمكن النظر إلى موضوع العلاقة بين الفرد والمجتمع من زاوية تقويم أهمية كل منهما ، وتحديد الصلة فيما بينهما . إن الفلسفات والنظم المعاصرة تجعل من الفرد والمجتمع خصمين متصارعين ، وهي تتجه وجهتين في تحديد صورة هذا الصراع ، فأما الفلسفات والنظم الجماعية فإنها تقرر الغلبة للمجتمع ، وترى أن النزعة الاجتماعية هي الأصل وأن الإنسان في حاجة إلى الجماعة لاستمرار وجوده ، وأن النزعة الفردية ، — على العكس من ذلك — تصوير خاطىء للواقع ، ومن ثم تتجه هذه النظم إلى إنكار ذاتية الفرد وإلغاء شخصية الإنسان مقابل المجتمع الذي ينظم كل شيء ، ويقرر للأفراد كل صغيرة وكبيرة من شؤونهم العامة ،

بل والخاصة . وأما الفلسفات والنظم الفردية فإنها تقرر أن الغلبة للفرد ، وتفترض أن المجتمع مفروض عليه من خارج نفسه ، وأن نشاط الفرد لا موجه له ولا ضابط إلا مصلحته الذاتية ، لذلك فإنها تلح على شخصية الفرد ولا ترضى بالحدود توضع عليه ، أو تقيد حريته في اختيار طريقه في حياته الخاصة أو العامة (١)

إن الإسلام لا يقر هذا الصراع بين الفرد والمجتمع كما لا يقر التعارض بين مصلحتيهما فالنزعة الفردية والنزعة الاجتماعية كلتاهما متساندتان ، وأصيلتان في فطرة الإنسان ، وقد قرر الإسلام المسؤولية الفردية صريحة حاسمة فمنح الفرد شخصيته المستقلة وأعطاه كل ما يتعلق بذاته من الحقوق : «بل الإنسان على نفسه بصيرة» : «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» ، ولكنه ، في الوقت نفسه قرر على الفرد واجبات مخصوصة نحو الجماعة ودمجه في مسؤولية مشتركة عن المجتمع ، كما أشرك المجتمع في مسؤوليته عن الفرد ، ومن هنا حفلت آيات القرآن الكريم بالدعوة إلى التعاون والعمل المشترك ، كما ألحت أحاديث الرسول العظيم على ذلك . «والعصر ؛ إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر» «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر» «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

وقد كان أبلغ قول يمثل المسؤولية المشتركة بين المسلمين في صورة واقعية جذابة ، قول الرسول عليه السلام : «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا في سفينة فأصاب بعضهم أعلاها ، وأصاب بعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا ، مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا ، وإن أخذوا على يدهم نجوا ونجوا جميعاً».

---

١ — محمد عبد الله عربي ، نظام الحكم في الإسلام صفحة ٢٥ .

إن إعطاء الفرد حرية مطلقة دون أي نوع من أنواع القيود الّتي يتفق عليها المجتمع والّتي تتوخى تحقيق مصالح الأفراد والمجتمعات على حد سواء ستؤدي إلى تغلب الأنانية والمصلحة الذاتية والتفكك والأثرة وبالتالي إلى التحلل الأخلاقي والاجتماعي ، كما أن إلغاء شخصية الفرد وإدماجها إدماجاً نهائياً في المجتمع ونظامه وسلطته سيؤدي إلى تعطيل جهاز التفكير الحر عند الفرد وبالتالي إلى وجود قطعان من الناس لا تختلف كثيراً عن قطعان الحيوانات والبهائم .

والتطرف في السماح للفرد بالاستهانة بتقاليد المجتمع وأخلاقه ليحقق كيانه الذاتي كالتطرف في إخضاع الفرد للنزعة الجماعية ، كلاهما خطأ وكلّاهما خطر على كيان الفرد والجماعة ، والنظام الصالح ، هو الذي يوازن بين دوافع الفرد ومصالحه ، وبين صبغة المكونين له كفرد مستقل وعضو في جماعة ، كما يوازن بين الجيل الواحد والأجيال المتعاقبة في نطاق الإنسانية الشاملة الرحيبة ، وذلك ما فعله الإسلام [1]

إن الإسلام يشمل الفرد والمجتمع بنظرة واحدة شاملة : «ووسيلته إلى ذلك تكوين الفرد المتوازن ، فمثل هذا الفرد بطبيعة توازنه ان يعتدي على حقوق غيره لأن الاعتداء ينشأ من الإسراف ، أي من عدم التوازن في نفس الفرد من الداخل ، وحين يكون كل فرد متوازناً في ذاته يتكون بطريقة ذاتية مجتمع متوازن الأغراض والنزعات ، لذلك يعنى الإسلام عناية شديدة بكل فرد على حدة ، لأنه الوحدة التي ينشأ المجتمع من اجتماعها بغيرها من الوحدات ، واللبنة التي يقوم عليها البناء»[2]

والإسلام في عنايته بالأفراد في جميع مراحل حياتهم : أطفالا ومراهقين وشباباً وكهولا وشيوخاً لا يترك تلك العناية للدولة نفسها تقوم بها عن طريق مؤسساتها الاجتماعية على صورة واحدة تستهدف تقديس الدولة والحاكم ، وإنما يترك ذلك للأفراد والجماعات المشكلة تشكيلا طويلا كمجتمع الأسرة مثلا ، لأن

---

١ — محمد قطب ، الإنسان بين المادية والإسلام صفحة ١٦٠ .

٢ — الإنسان بين المادية والإسلام . ص ١٦٠ .

إيمان الناس بالإسلام وهو عقيدة المجتمع ، إيماناً طوعياً حقيقياً ، هو الذي سيدفع الأسرة إلى تربية أبنائها تربية صحيحة تنشئهم على الأخلاق والأنفة والعزة وتوجد فيهم الصفات الحية ، وكذلك تفعل سائر المؤسسات .

ولا بد من أن نشير إلى أن المجتمع الذي ينشئه الإسلام ، مجتمع فكري خلقي يستند إلى مبدأ وغاية ، ويجمع أفراده الإيمان بهذا المبدأ ، فلا يتكون هذا المجتمع على أساس النسل والسلالة أو اختلاف المستويات الاقتصادية ، وإنما يبنى على عقيدة معينة وضابط خلقي بعينه ، فأفراد البشر جميعاً من سلالة واحدة وكل من «آمن بالله رباً ومالكاً ورضي بما جاءت به الرسل من الهدي ودين الحق منهجاً عملياً لحياته فقد أصبح جزءاً من أجزاء هذا المجتمع وجزءاً من أفراده» [1] .

وهكذا فإن المجتمع الإسلامي مجتمع مفتوح لكل من يؤمن بعقيدة واحدة ؛ أما المجتمعات التي تعتمد على السلالة والعنصرية فإنها مخصوصة لأهلها مغلقة على غيرهم .

ثمّ أن المجتمع الإسلامي لا يعترف بالنظام الطبقي — كما أشرنا إلى ذلك — لأنه يقيم العلاقات بين أفراد هذا المجتمع على أساس الأخوة والتعاون والتكافل ، ولا يعترف بصراع الطبقات وتناحرها ، فهو مجتمع ضمائر ونفوس يخاطبها الدين، فإذا خص الإسلام طائفة بالخطاب فليس إلاّ لتميزها بالعلم والقوامة الفكرية في الأمة .

وأخيراً إن المجتمع الإسلامي لم يقصر روحه المتسامية على أهله من المسلمين ، فقد ارتقى بالروح الجماعية من حدود القبيلة وحدود الإقليم وحدود الدين ذاته إلى أن تكون روحاً إنسانية شاملة رحيبة[2] . فالمشركون مشتبكون في قتال عنيف مع الرسول والمسلمين ، ولكن الرسول يوصي بأسراهم خيراً بسبب من الروح الإنسانية

---

١ — أبو الأعلى المودودي ، نظرية الإسلام وهديه .

٢ — محمد قطب ، المرجع السابق صفحة ١٧٤ .

المتسامية ، واليهود من أشد الحاقدين على الإسلام ، ولكن عمر حين يرى الشيخ اليهودي يتكفف الناس ، يفرض له من بيت مال المسلمين ، وما تزال المجتمعات حتى أيامنا هذه تفتقد هذه الروح الكريمة ، والشعور الإنساني النبيل ، ومع ما يزعم الغرب من الرقي والتحضر فإنه لا يصل إلى شيء من معاملة المسلمين لأصحاب الأديان الأخرى ، وللأسرى ، ولسكان البلاد المفتوحة ، وليس ذلك إلاّ لأنه ينظر إلى الإنسانية على أنها واحدة في الأصل والحياة والممات .

النظام الخلقي

إن الإنسان ، كلّ إنسان ، وفي كلّ عصر من العصور يعيش حياة اجتماعية ، والحياة الاجتماعية تقوم على التعامل والسلوك مع الآخرين ، ومثل هذا التعاون أوجب وجود قواعد وأنماط للسلوك ترضى عنها المجتمعات وتقاليدها وأصولها الاعتقادية أو لا ترضى عنها .

وقد احتاج هذا التعامل إلى التمييز بين الحسن والسيء ، بين الفاسد والصالح ، بين النافع والضار ، كما احتاج إلى إصدار الأحكام على تصرفات الإنسان بالخير والشر ، والحسن والسوء ، بالصلاح والفساد .

والملاحظ أن موضوع الخير والشر والحسن والقبح والسلوك الخطأ والصواب ، شغل اذهان جميع المفكرين والفلاسفة والمصلحين في مختلف أدوار الإنسانية ، فقد أراد الإنسان منذ وجد أن يقوم سلوكه ويحكم عليه حكماً أخلاقياً ، وسواء كانت نتيجة التقويم مدحاً أو ثواباً ، ذمّاً أو عقاباً فإن عملية التقويم تبدو ضرورية لكلّ فعل بشري مهما كانت حقيقته .

إن البحث الأخلاقي يوحي بكثير من التساؤلات ، فما هي البواعث على العمل ؟ ومن أين نعرف الخير والشر ؟ وإلى أين توصلنا هذه المعرفة ؟ ولماذا كان

القتل والسرقة رذيلتين ؟ ولماذا كان الكذب غير أخلاقي ؟ وما هي الغاية من الحياة ؟ هل الغاية منها فعل الخير ، وما هو الخير ؟ هل هو تحقيق السعادة ؟ وكيف تحقق السعادة ؟ هل تتحقق بمعرفة الحق أم تتحقق بفعل ما يسر أو يلذ أو يرضي ؟ وما هو معنى الضمير كصوت باطني يوحي إلى الإنسان بما يفعل ويميز بين الحق والباطل ؟ وكيف ظهرت الأحكام الخلقية التقديرية ؟ إن هذه التساؤلات توجب علينا أن نستعرض بصورة موجزة أهم القضايا التي يتناولها الأخلاقيون لنحدّد موقف الإسلام منها ، وأهم هذه القضايا هي :

١ ـــ أصل الشعور الأخلاقي ، أو بمعنى آخر كيف نعرف أن عملاً من الأعمال أخلاقي وآخر غير أخلاقي . هناك رأيان : أحدهما يقول بأن مصدر هذا الشعور غريزة في الإنسان سابقة على كل تجربة تبدأ متكاملة وترسخها التربية ولكنها ليست نتيجة مباشرة لها ، والآخر يرى بأن معرفة الخير والشر تعتمد على التجربة وتنمو بتقدّم الزمان ورقي الفكر .

والذي ينسجم مع نظرة الإسلام الأخلاقية ، ان هذا الشعور فطري ، فطره الله عليه «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها» ، وهذا الشعور يحمل الإنسان على حب بعض الصفات وكراهة أخرى ، «وهو وإن كان متفاوتاً وعلى أقدار متنوعة في مختلف أنواع البشر ، إلاّ أن الشعور العام بقطع النظر عن الأفراد ، لا يزال يحكم على بعض السجايا الخلقية بالحسن وعلى بعضها بالقبح في كلّ زمان» [١] .

٢ ـــ الباعث الباطني النفسي الذي يحملنا على إطاعة ما يمليه شعورنا الأخلاقي والذي يدفعنا إلى القيام بأنواع من السلوك دون أخرى ، لا شك أن هذا الباعث يتعلّق بالغايات والأغراض التي يهدف إليها الإنسان ، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يقوم بأعمال اختيارية ، والمفروض أنه يفكر بالغرض من عمله قبل أن يشرع فيه ، ثمّ يفتش عن الوسيلة المناسبة لتحقيق هذا الغرض ، وتختلف

---

١ ـــ أبو الأعلى المودودي ، نظام الحياة في الإسلام صفحة ٧ .

الأغراض عند الناس باختلاف تكوينهم العقائدي والفكري كما تختلف حسب أعمارهم وظروفهم ، فقد يكون الغرض عند البعض تحقيق اللذة أو ضمان المنفعة كما قد يتوخى غيرهم الوصول إلى السعادة ومثل هذه الأغراض تتدخل في تشكيل سلوكنا . ويتعلّق الباعث النفسي أيضاً بالشعور ، والشعور يتعلّق بالعاطفة والهوى ، والعاطفة لا تتفق مع العقل على الدوام ، ولكنها قد تتغلّب عليه فتبعث على سلوك ما ، ولو كان مخالفاً لمنطق العقل .

٣ — ويتعلّق بالباعث معرفة الأهداف أو النتائج الأخيرة الّتي نحاول الوصول إليها بأعمالنا الأخلاقية ، إن هذه الأهداف تشكل محوراً تدور حوله الأغراض القريبة وتتلون ، فإذا كان هدف الإنسان في حياته تحقيق مجده الشخصي ، دارت أغراضه جميعاً حول هذا الهدف واصطبغ سلوكه به ، فهو لا ينظر إلى الحوادث ، وبالتالي لا يكيف موقفه إلاّ بحسبها ، كذلك الذي يهدف إلى تحقيق مثل أعلى كإرضاء الله تعالى وتحقيق الخير العام فإنه لا ينظر إلى الأمور إلاّ بهذا المنظار ، ومن هنا كان إلحاح الإسلام على الأهداف السامية الّتي تربط سلوك الإنسان بهدف أعلى يتسامى إليه ويعمل جاهداً لتحقيقه .

٤ — المقياس الذي نقيس به أعمالنا لنحكم عليها بالصلاح أو الفساد ، بالخير أو الشر ، أو بمعنى آخر القانون الأخلاقي وما له من قوّة ملزمة تحمل الإرادة على العمل بموجبه ، قال العقليون : إن هذا القانون في أنفسنا ، فالضمير ذاتي ينبع من داخل الإنسان ، فهو فطري لا مكتسب ولا متطوّر ، وقال التطوريون والاجتماعيون : إن هذا القانون يتكوّن من مصادر خارجية ، منها المعتقدات الدينية ، ومنها ما تواضع عليه الناس من أحكام ثمّ أجبروا عليها بالمعاملة فصارت أعرافاً وعادات ، فالخوف من الله ، والخوف من المجتمع ، هو الذي يشكل القانون الأخلاقي الذي نزن به أمورنا . والإسلام يجعل مقياس كلّ حكم وميزان كلّ سلوك هو القواعد الأخلاقية الّتي جاء بها الرسول عليه السلام ، فقد أرسله الله — كما بعث كلّ رسول — وأنزل معه الكتاب لهداية الإنسان وإرشاده إلى طريق الخير والسعادة ، فما كان في شرع الله حسناً فهو حسن وما

كان في شرعه قبيحاً فهو قبيح .

٥ - مسألة حرية الإرادة أو الجبر والاختيار ، فهل الإنسان حر في سلوكه أم إنه مضطر إليه بحكم الطبيعة والتكوين وقد كانت هذه المسألة وما تزال مثار جدل ونقاش شديدين على مدار التاريخ الإنساني ، وما يزال المفكرون على انقسامهم : منهم من يقول بالجبر ، ومنهم من يقول بالاختيار . والواقع أن الإنسان مجبر ومخير في وقت واحد ، فهو مجبر بالخلقة التي خلقه الله عليها والقوى التي منحه إياها والغرائز التي فطره عليها ، وهو مجبر بالشرائع والأعراف والتقاليد التي يلزم بمراعاتها ، وهو مختار من حيث أنه يفكر في عمله ويقدر أغراضه ثمّ يقوم بالسلوك المناسب فيتحمل بموجب ذلك نتائج عمله .

٦ - نسبية الأخلاق وإطلاقها : وقد اختلف الناس وما يزالون مختلفين فيما هو الحسن والسيء وفيما إذا كان بإمكاننا أن نطلق أحكاماً عامة في الحسن والقبح ، في الخير والشر . وبعبارة أخرى هل نستطيع أن نقول بخير مطلق أو شر مطلق يندرج حكمهما على جميع الأزمان والظروف ، أم أننا أمام أحكام نسبية ، بمعنى ان ما هو شر في مكان أو زمان قد يكون خيراً في مكان أو زمان آخرين والعكس . لقد وجد بين المفكرين القدماء من قال بالقيم العامة المطلقة ، ووجد منهم من قال بعكس ذلك ، ولعل أفلاطون من فلاسفة اليونان ، من أوائل الذين قالوا بالخير والشر المطلقين .

وقد أدلى المفكرون المسلمون بدلوهم في هذا الموضوع واختلفوا فيه كما اختلف غيرهم ، إلاّ أنهم تميزوا عن الآخرين في الأساس الذي قامت عليه نظرتهم له ، فقد جعلوا هذا الأساس متصلاً بالعناية الإلهية من خلال صلتها بالعالم والمكلفين ، أما في العصر الحديث فقد استمرّ النقاش حول هذا الموضوع ، وأصبح يدرس من خلال نظرية القيم التي يتناول الأخلاقيون من خلالها عامة ، قيم الأشياء من خير أو شر وجمال أو قبح .

والنظرة الإسلامية إلى نسبية الأخلاق وإطلاقها تؤكد إطلاق الأخلاق

وعموميتها ، فالصدق والأمانة والعدالة والوفاء بالعهد مثلاً كلّ ذلك مما عدّته الإنسانية من الصفات الخلقية الجديرة بالثناء والمدح ، ولم يأتِ على الإنسانية وقت استحسنت فيه الكذب والظلم والخيانة ، وكذلك أمر المجتمعات ، فما عرفت الإنسانية مجتمعاً يستحق الاحترام إلاّ المجتمع الذي يتمتع بحسن الإدارة وجودة النظام والتناصح والتكافل والعدالة ، ولا هي نظرت بعين الإعجاب إلى مجتمع خيمت عليه أخلاق الفوضى والتباغض والتنافر والتحاسد والتفاضل بين أفراد البشر [1] .

* * *

وقد كانت مكارم الأخلاق من أسمى ما دعت إليه الأديان السماوية «وإنك لعلى خُلق عظيم» لذا فقد تعرف الإنسان منذ وُجد على سطح الأرض ، على معاني الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، عن طريق الأنبياء والرسل . وكانت تمر على الإنسان فترات يغيب عنها التأثير الديني أو يضعف ، فتظهر آراء وأفكار ودعوات أخلاقية تقرب من مبادىء الدين القويم أو تبعد ، لذا فإننا حينما ندرك تطوّر الدراسات الأخلاقية ، فإنه لا يغيب عن أذهاننا أن البذور الدينية التي بذرت في ضمائر الناس ينتقل تأثيرها من جيل إلى جيل ومن مفكر إلى مفكّر .

وقد أحدث الإسلام انقلاباً شاملاً في المبادىء والمفاهيم الأخلاقية ، إنه ألغى قيماً قديمة ، وأوجد قيماً جديدة ، كل ذلك بقصد إيجاد الرجل الكامل والمجتمع الكامل ، يقول الدكتور محمد حسنين هيكل في كتابه «حياة محمد» [2] : طالما صور الكتاب في مختلف العصور والأمم صورة الرجل الكامل ، صوره الشعراء والكتّاب والفلاسفة والمسرحيون ، صوّروا هذه الصورة في العصور القديمة ، وما يزالون يصوّرونها حتى اليوم ومع ذلك لن نجد صورة لهذا الرجل الكامل كهذه الصورة الفذة التي وردت في سياق سورة الإسراء ، وهي ليست إلاّ بعض ما أوصى

١ — المودودي ، نظام الحياة في الإسلام صفحة ٧ و ٨ .
٢ — حياة محمد صفحة ٣٤ .

الله إلى رسوله من الحكمة ، لا يقصد بها إلى تصوير الرجل الكامل ، وإنما يقصد بها أن يذكر الناس بعض ما يجب عليهم ، يقول تعالى :

«وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً . ربكم أعلم بما في نفوسكم ، إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً . وآت ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربّه كفوراً . وإمّا تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعدملوماً محسوراً. إن ربّك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم ، إنّ قتلهم كان خطئاً كبيراً . ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً . ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً . وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلاً . ولا تقفُ ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد ، كلّ أولئك كان عنه مسؤولاً . ولا تمشِ في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً . كلّ ذلك كان سيّئه عند ربك مكروهاً[1] ».

ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم : الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون» [2] .

---

١ — الإسراء : ٢٣ — ٣٨ .
٢ — الحجرات : ١١ .

ومن آيات القرآن الكريم في هذا الموضوع : «يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه» [1] ، ومنها : «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» [2] ، ومثلها كثير .

إن النظام الأخلاقي في الإسلام ينبثق من تصوره للكون والوجود ، ويعتمد هذا التصور على أن لهذا الكون إلهاً وانه ما من إله غيره خلق الكون وأوجده ، وهذا الكون يسير بانتظام مذعناً لأمر الله ومشيئته ، والإنسان جزء من هذا الكون ، خلقه الله بطبيعة متميزة لعبادته والانقياد لأمره ، ولا معنى لحياته إلاّ أن تكون كلّها خالصة العبودية لله ، فالغاية البعيدة من مجهودات الإنسان ومساعيه في في الدنيا هي ابتغاء وجه الله تعالى ونيل رضاه ، وهذا هو القياس الذي يقاس به في الإسلام كلّ عمل من أعمال الإنسان ويحكم عليه بالخير أو الشر [3] ، في مقابل مقاييس اللذة أو المصلحة أو السعادة أو غيرها .

وقد أنعم الإسلام على الإنسان بهذا القياس وزودّه بمرجع دائم لمعرفة الحسن أو القبح الخلقي ، وهذا المرجع ثابت دائم لا يحصر علمنا بالأخلاق على العقل أو التجارب أو العلوم الإنسانية حتّى تتغير أحكامنا باستمرار ، وليس هذا المرجع إلاّ كتاب الله وسنّة رسوله ففيهما خطة كاملة لكل شؤون الحياة ، وانطباق متسع لأصول الأخلاق على شؤون الحياة المختلفة .

وقد ذكر الأستاذ أبو الأعلى المودودي ثلاث خصائص لنظام الأخلاق في الإسلام هي [4] :

١ — انه يجعل ابتغاء وجه الله ونيل رضاه غاية منشودة في الحياة الإنسانية ،

---

١ — الحجرات : ١٢ .
٢ — النساء : ٥٨ .
٣ — المودودي ، نظام الحياة في الإسلام صفحة ١٤ .
٤ — المرجع السابق صفحة ٢٠ .

ويجعل بذلك مقياساً سامياً للأخلاق ، لا يقوم معه في وجه الارتقاء الخلقي شيء يعوقه عن الارتقاء والتقدّم ، ويهيء الأخلاق من خشية الله تعالى قوة تحث الإنسان على القيام من غير أن تكون فيها يدٌ لعامل من العوامل الخارجية .

٢ ــ إنه لا يوجد بهذا التحريض والترغيب أخلاقاً مبتكرة ولا يحاول حط بعض الأخلاق الإنسانية المعروفة «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ، ولكنه يريد أن يجعل الأخلاق مسيطرة في جميع نواحي الحياة ومهيمنة عليها .

٣ ــ انه يطالب الناس ويلتمس منهم إقامة نظام للحياة ينهض بنيانه على المعروف ولا يشوبه شيء من المنكر ، ويدعوهم إلى أن يقيدوا الخيرات في كلّ زمان ومكان ، وأن يشيعوا إقامة هذه الخيرات في العالم ، وهذه هي مهمة المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية .

إن القيم الإسلامية تحقّق وظائف عدّة ، ففيما يتعلّق بالفرد ، تحاول هذه القيم رفعه فوق مرتبته الراهنة ، وتعمل على العلوّ به عن المستوى الحيواني الذي يقتصر على الماديات من طعام وشراب ، إلى المستوى اللائق بكرامة الإنسان وتقدمه ورقيه ، وفيما يتعلّق بالمجتمع فإنها تحقّق أعظم عامل للربط بين أفراده والسمو بالجماعة من المرتبة المادية الحيوانية إلى مرتبة الحضارة والمدنية ، وتقيم الصلات بين الأفراد والهيئات في المجتمع على أسس نبيلة كريمة تعتمد على الإيثار والتفاني في سبيل خير المجموع ، أكثر مما تعتمد على الأثرة والمنفعة الخاصة . والصفات التي وصف الله تعالى بها نفسه تبقى أمام الإنسان منارات يترسمها في فكره وسلوكه ، فالكرم والحلم والإحسان والرأفة والرحمة كلّها قيم عليا ، ترفع المؤمن إلى تمثلها في سلوكه وحياته ، وكم يكون مجتمعاً فاضلاً ذلك المجتمع الذي يتمثل بهذه الصفات الإلهية . وقد كانت تلك القيم جديدة على العالم كلّه شرقيه وغربيه وعلى الفرس والروم والعرب على السواء ، ولعلّ هذا ما يفسر لنا السرّ في انتشار الإسلام بتلك السرعة المذهلة ، كما يفسر لنا سبب تغلّب القيم الإسلامية على القيم

الفارسية واليونانية التي كانت تقوم على أساس مادي . لقد كانت المعركة بين هذه القيم ، لإنقاذ الإنسانية ، والأخذ بيدها في طريق التقدّم والرقيّ ، لذلك كان النصر للقيم الإسلامية [1] .

١ — عبد الكريم عثمان ، أصول علم الا جتماع .

الفصل الثالث

من أثر الإسلام

آثار الثقافة الإسلامية

لقد كان من آثار هذه الثقافة الأصيلة المتفتحة على الكون أنها قدمت للفكر الإنساني جديداً في كل جانب من جوانب نشاطه ، ففي مجال المثل والقيم دعت الثقافة الاسلامية الى مثل جديدة تعتمد على الإيمان والحق والعدالة والحرية والمساواة والإخاء ، وتنبثق هذه المثل من نظرة الإسلام الى الإنسان وتكريمه وإعلان خلافته على الأرض ، كما أنها قدمت نظرة شاملة متوازنة منسجمة الى الكون وما فيه من سنن مطردة ودلالة ذلك على الله ، والى الانسان وصلته بالله بالعبادة والمسؤولية والعمل ، فالعبادة بمفهومها الواسع ليست قاصرة على العبادات المدونة المنصوص عليها ولكنها تتسع لتشمل كل عمل يأتيه الإنسان ، أما المسؤولية فلا تكون إلا على العمل ، ولا يكون الجزاء إلا بمقدار ما يقدم الإنسان من عمل صالح أو خبيث .

أما في مجالات العلاقات الاجتماعية فقد قدمت هذه الثقافة فلسفة جديدة للروابط بين الفرد والأسرة والمجتمع ، فلسفة تقوم على تكافل هذه الحلقات جميعاً وتوجيهها للعمل من أجل صالح الإنسانية ، والتكافل الذي يعرفه الفكر الاسلامي شامل كامل لأنه لا يقتصر على الجانب المادي وانما يعنى بالتكافل الروحي والأخلاقي ، كما أنه ليس التكافل الذي نعرفه حديثاً بين الفرد والدولة ، ولكنه تكافل هذه الحلقات على مستوياتها المختلفة .

وفي مفهوم الدولة وعلاقة الشعب بالحكومة وعلاقة الدول مع غيرها ، كان الفكر الاسلامي سابقاً الى تحديد هدف بعيد للدولة يعمل كل من الشعب والحكومة على تحقيقه وهو ايجاد المدينة أو الدولة الفاضلة التي تُحَكِّمُ أمر الله في كل شؤونها والتي تعمل لإعلاء كلمة الله قبل كل شيء وتحرير الفرد من كل عبودية لغير الله والقضاء على حكم الطواغيت بشراً كانوا أم تقاليد أم حجارة .

وكان من آثار هذه الثقافة أنها أعطت للعرب وللمسلمين عموماً شخصية فكرية متميزة لم تكن لهم من قبل ، صحيح أن العرب كانوا يملكون الفطرة السليمة البسيطة ، وأن لديهم أصولاً طيبة لمكارم الأخلاق ، وبداهة رائعة في الشعر والخطابة ، إلا أنهم كانوا يفتقدون أهم ما يكوّن الأمة ويكمل شخصيتها وشعورها بذاتها ويمنحها الثقة بنفسها ، الا وهو الرسالة والعقيدة والفكر الموحد ، أو ما يطلق عليه اسم (المفهومية) التي تلتقي حولها الطاقات وتتوحد الآراء فتسير بقوة وايجابية محددة أهدافها عارفة حقيقة وجودها ، وهكذا أمكن لهذه الطاقات الفطرية أن تنطلق وتبدع ، لذا نجد حياة العرب في الجاهلية ضحلة سبخة بينما نجدها مع الاسلام والثقافة التي انبثقت عنه غنية وارفة ، لقد وضع العرب أيديهم على سر وجودهم فاستطاعوا أن يحققوا الكثير .. استطاعوا أن يغنوا الانسانية بالمبدأ والحضارة والتاريخ المشرق ، وظهرت بظهور الاسلام ثقافات جديدة وعلوم مبدعة وفنون ومعارف في جميع مناحي الحياة .

وكان من آثار هذه الثقافة في مجال الفكر والتقدم العلمي أنه كما يقول الدكتور حتي «خلال القسم الأول من القرون الوسطى لم يساهم أي شعب من شعوب الأرض بقدر ما ساهم به المسلمون في التقدم البشري ، وظلت اللغة العربية لغة العلوم والآداب والتقدم الفكري لمدة قرون في جميع أنحاء العالم المتمدن آنذاك ، وكان من آثارها أيضاً أنه فيما بين القرن التاسع والثاني عشر الميلادي (الثالث والسادس الهجري) فاق ما كتب بالعربية عن الفلسفة والطب والتاريخ والالهيات والفلك والجغرافية كل ما كتب بأي لسان آخر».

لقد نشأت الحاجة عند المسلمين الى تجديد التعرف على القرآن وسيرة الرسول

وتمتين أصول هذه المعرفة فظهرت علوم التفسير والسيرة وعلوم الرجال ، ونشأت الحاجة الى التشريع والتقنين فظهرت علوم الفقه والأصول ، وطمح المسلمون الى مزيد من التعرف على أحوال الكون لتسخيره وإعماره فظهرت العناية بالعلوم التجريبية والمجردة كالرياضيات والفلك والحياة ، وأرادوا الاستفادة مما عند الأمم الأخرى فاستنجدت دراسة علوم الفلسفة والأديان والعقائد والمقارنة ، وشعروا بأن لغة العرب رابطة متينة بينهم لأنها لغة القرآن فأبدعوا علوم اللغة العربية بشتى فروعها وأقسامها ، وهكذا لم يكتمل القرن الرابع الهجري حتى كانت الشعوب الإسلامية أغنى الشعوب علماً وفكراً وثقافة وكفاية وأقواها عدة وشخصية ، وقدمت ثقافتهم للانسانية أضخم تراث علمي وأدبي ، وكان رجال الفكر الذين جمعهم درب هذه الثقافة الوارف من الكثرة بحيث ضاقت بهم المؤلفات العامة فظهرت كتب طبقات الرجال ، واختص كل نوع من هذه الكتب بفئات خاصة من المفكرين ، فهذه معاجم رجال الحديث ، وهذه معاجم رجال الأدب ، وهذه كتب طبقات الأطباء والحكماء ، وهكذا مما لم يجتمع لأية أمة من الأمم لا في ماضيها ولا في حاضرها . وقد خلف آلاف المفكرين والعلماء المسلمين ، آلاف الآلاف من الذخائر والنفائس ، التي زخرت بها آلاف المكتبات التي كانت تغطي العالم الاسلامي من مشارف الصين الى الاطلسي ومن تركستان الى عدن ودلهي في أضخم نهضة ثقافية عرفها العالم حتى ذلك الحين . ولقد دامت هذه الثقافة حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي(الثاني عشر الهجري) وكانت بداية النهضة والتقدم في أوروبا والعالم الغربي كله .

ولئن كان دور العرب في هذه الثقافة عظيماً إذ ليس بوسع أحد أن ينكر عليهم فضلهم في وضع أسس هذه الثقافة ثم تطويرها نحو المستوى الرائع الذي بلغته ، الا انه يجب أن لا نغمط حق الشعوب الأخرى التي اعتنقت الإسلام وساهمت مساهمة مدهشة في هذه الثقافة ، كشعوب أواسط آسيا وايران وتركيا وامبراطورية المغول في الهند .

وليس بالامكان في هذه العجالة تفصيل ما استطاعت الثقافة الاسلامية أن

تسهم به في تنمية الفكر الانساني ، ولكننا نذكر بايجاز بعض المنجزات العلمية في ميدان العلوم الطبيعية والرياضية ، التي ندين بها لعبقرية البحث الاسلامي المنفتحة على الكون وما فيه ، مسجلين اعجابنا بالبحوث الهامة التي قدمها الاستاذ حيدر بامات عن دور الثقافة الاسلامية في تكوين الفكر الانساني وفي بناء المدنية الغربية بصورة خاصة ، في كتابيه «مجالي الاسلام» و «دور الإسلام في بناء المدنية الغربية» [1] .

ويعد المنهج العلمي التجريبي الذي تدين له الحضارة الحديثة بما وصلت اليه من كشف واختراع بعد ان تبنته واعتمدته طريقاً للوصول إلى حقائق العلوم — نقول — يعد هذا المنهج أحد منجزات هذه الثقافة ، فقد كانت الثقافة القديمة وخاصة اليونانية التي احتك بها المسلمون اكثر من غيرها من الثقافات تجهل الطريقة التجريبية وتحتقرها ولا تعنى إلا بالدراسات النظرية المجردة ، يقول سيديو في «تاريخ العرب» : «ان ما يميز مدرسة بغداد عن سواها الروح العلمية التي سادت أعمالها وذلك المضي من المعلوم الى المجهول ، وملاحظة الظواهر بدقة لاستخلاص الاسباب من النتائج ، وكذلك عدم قبول الأشياء إلا ما كان منها ثابتاً بالتجربة ، وكان العرب في القرن التاسع قد أصبحوا يملكون ذلك المنهج العلمي الخصيب الذي كتب له بعد ذلك بزمن طويل أن يكون ذا فعالية في احداث اكتشافاتهم العظيمة ، ويؤكد المستشرق جيب هذه الشهادة بقوله : «استطاع العلماء المسلمون بتركيز أفكارهم على الحوادث الفردية أن يطوروا المنهج العلمي إلى أبعد مما ذهب اليه أسلافهم في الاسكندرية أو اليونان ، واليهم يرجع الفضل في استخدام أو اعادة المنهج العلمي الى اوروبا».

وبسبب من نظرة العرب العلمية واتجاه الثقافة الاسلامية الى الاهتمام بالعلوم الدقيقة قبل غيرها ، كان الفلك والرياضيات أول العلوم التي لفتت انظار العلماء المسلمين ، حتى لقد تعدى الاهتمام بالفلك العلماء أنفسهم الى الخلفاء والأمراء

---

١ — اعتمدنا على هذين الكتابين في معظم ما أثبتناه حول التقدم الحضاري الإسلامي .

والسلاطين . وفي خلافة هارون الرشيد والمأمون استطاعت مدرسة الفلك في بغداد أن تحقق الكثير ، فقد نقلت النظريات الكثيرة ، وأصلحت الكثير من أخطاء بطليموس وعرفت مقدار تقوس مدار الشمس البيضوي الشكل وانتقاصها المتوالي ، ودرست طول السنة بدقة وتفصيل ، ولاحظت أن أعلى خط عرض للقمر غير منتظم ، واكتشفت اختلافا ثالثاً للقمر يدعى التحول ، وقالت بوجود بقع شمسية ، ودرست الخسوف وظهور النيازك وظواهر سماوية أخرى .

ويعد من مشاهير المشرق الاسلامي في الفلك ، البتاني ، الذي يعتبره لالاند صاحب القاموس الفلسفي المعروف من أشهر عشرين فلكيا عالمياً ، وأبو الوفا الذي يقرن اسمه باحدى قواعد علم الفلك ، وهي قاعدة الانحراف القمري الثالث الذي عزي خطأ بعد عشرة قرون الى أحد العلماء الدانمركيين وابن يونس مخترع الرقاص والمزولة ومؤسس المدرسة الفلكية في القاهرة ، وقد نشر ابن يونس جداوله الفلكية التي فاقت في دقتها كل الجداول السابقة ، واستعيض بها عن الجداول اليونانية جميعاً ، ولا بد أن نضيف الى هؤلاء المشاهير الحسن ابن الهيثم الذي تعد مقالته في البصريات أساساً لبحوث بيكون وكبار فيما بعد ، ونذكر بهذه المناسبة أنه كان أول من لفت النظر إلى إنشاء سد في أسوان لرفع مستوى جريان الماء في النيل .

أما البيروني وهو أحد مشاهير العلماء المسلمين في بلاط محمود الغزنوي فقد استطاع أن يكون حلقة متينة بين تراث بغداد وعلماء الهنود ، ومن أعماله العديدة التي نشرت ، لوائح الطول والعرض لأشهر مدن العالم ، ويعود الى عبد الرحمن الخازني وعمر الخيام بتشجيع من السلطان السلجوقي ملك شاه الفضل في تعديل التقويم وجعله اكثر دقة من التعديل الذي قام به غريغوريوس بعد ذلك بعشرة قرون . أما نصير الدين الطوسي فقد استطاع بتأييد من هولاكو الذي عرف في التاريخ بوحشيته أن يشرف على أضخم مرصد نموذجي وان يخترع أدوات جديدة استخدمت في ذلك المركز الجديد الذي شقت به علوم بغداد والقاهرة الفلكية طريقها الى الصين واوروبا .

وفي المغرب الأسلامي – في الاندلس – كانت الدراسات الفلكية على نفس المستوى من التقدم وإن لم يصل لنا منها الا النذر اليسير بسبب فترة الاضطهاد الديني والدمار الذي خلفته الحروب الأهلية في اسبانيا ، ومن مشاهير علماء المغرب مسلمة المرحيطي وابن خلدون وابن رشد، ويستطيع المرء أن يحكم على جودة انتاج هؤلاء العلماء بالاطلاع على مؤلفات المسلمين الذين عاشوا في نفس الفترة واقتبسوا عنهم ، وكان بناء المراصد وتعميمها من أهم ما عني به علماء الفلك في الاندلس .

أما في الرياضيات فقد اكتشف العلماء المسلمون الكثير من المبادىء الأساسية للحساب والجبر والهندسة ، ان الجبر على أغلب الأقوال من اختراع المسلمين ، وان الاعداد وطريقة العد التي تستعمل فيه حتى الآن من اختراع إسلامي ، ولما كان المسلمون يستعملون المثلثات «فرع من الرياضيات» في علم الفلك ، فقد وجهوا اليه عناية فائقة ، ويعزى الى البتاني استبدال اوتار الاقواس «الخطوط المقابلة في الهندسة» بجيب القوس المشار اليه ، واستعمال جيب الزاوية وجيب تمام الزاوية في حساب التفاضل والتكامل وقد أسماه الظل المطول ، وهو ما يسمى في علم المثلثات الحديث بالظل ، وكان هذا أمراً بارز الأهمية حتى ان مؤلف كتاب المجمل التاريخي في مناهج علم الهندسة «م. تشارلس» يسجل هذه الحقيقة بقوله «ان علماء الرياضيات لم يتوصلوا الى اكتشاف الظل الا بعد البتاني بخمسمائة عام ».

أما اختراع الصفر فقد كان ثورة في علم الرياضيات وان لم يدرج استعماله في الغرب حتى بداية القرن الثامن عشر . وحين نذكر مساهمة المسلمين في الرياضيات والصفر بصورة خاصة لا نستطيع أن ننسى رئيس بيت الحكمة محمود الخوارزمي وما ساهم به في علم الجبر ، فقد اشتق اسم هذا العلم في اللغات الاجنبية من اسمه «اللوغاريتم» حتى ان فيليب حتي يرى «ان الخوارزمي كان يمتلك أفضل عقلية عند العرب وانه بلا شك الرجل الذي مارس اكبر قسط من التأثير على الفكر الرياضي خلال العصور الوسطى بأسرها »وقد كتب لأحد

المسلمين وهو ثابت بن الجراح أن يكمل ما بدأ به الخوارزمي فيحقق تطبيق الجبر في مجال الهندسة .

وإذا كان غير المسلمين قد سبقوا الى دراسة الفلك والرياضيات فإننا يجب ان نعتبر المسلمين الموجدين الحقيقيين لعلم الفيزياء ، ولا شك ان كتاب البصريات لابن الهيثم يعد من أهم منجزات علماء المسلمين في هذا الفرع من العلوم ، فقد كان بداية علم الضوء والمرئيات الحديث ، تناول فيه المؤلف الصور المنعكسة في المرآة وانكسار الضوء والصور واستعمال الغرفة المظلمة ، ولا نشك في أن أبحاث ابن الهيثم في العدسات الكبيرة كانت أساساً لبحوث الغرب في المجهر والمرقب ، يضاف الى هذا ان الخوارزمي كان أول من قدم وصفاً مضبوطاً للعين وللعدسات والإبصار المزدوج .

وفي هذا الميدان نجد ان المسلمين كان لهم الأثر الأكبر في اختراع الأدوات الدقيقة واستعمالها ، وكانوا بذلك السابقين الى علم الميكانيك ، وقد اكتشفوا استعمال البندول في الساعة كما أنهم أكملوا صناعة البوصلة وأدخلوها الى الحياة العملية باستعمالهم الإبرة المغنطيسية في الملاحة .

ومن العلوم التي ابدعها العرب علم الكيمياء ، وكانت المعلومات اليونانية في هذا المجال ضحلة لا تتعدى القول بالعناصر الأربعة : التراب والهواء والماء والنار ، فجاء المسلمون ليكشفوا عن كثير من المواد والعناصر الكيميائية ، كما انهم اول من اخترع طريقة التقطير والتصعيد والبلورة والتخثير وفحص المعادن بالرصاص لاستخراج المواد وتركيبها ، وتعد هذه العمليات أساسية في علم الكيمياء حتى الآن .

ويدل على أثر المسلمين في هذا العلم أن كثيراً من المصطلحات المستعملة فيه حتى الآن من أصل عربي . ومن الاختراعات التي كانت ذات فائدة كبيرة في الصناعة : ملح البارود ، وصناعة الورق من القطن والكتان والخرق ، وتعد صناعة الورق من أهم الاختراعات الحضارية في تاريخ البشرية لأنه استبدل

استعمال الرق القديم وورق الحرير والبردى بالورق العادي الذي نستعمله الآن ، ومن أهم ما فعله العرب والمسلمون بفضل من روحهم العملية أنهم طبقوا الكيمياء على الصيدلة فانتقل هذا العلم من حيز البحث النظري الى مجال التطبيق العملي .

ومن مشاهير علماء المسلمين في الكيمياء أبو موسى جعفر الكوفي الذي كانت مؤلفاته موسوعة علمية حقيقية ترجم معظمها الى اللغة التركية ، وأبو بكر الرازي صاحب كتاب الحاوي الذي كان أول من وصف كيفية صنع حامض الكبريتيك.

أما الطب فقد كان مجال عناية فائقة ، ولعل ذلك أحد الدلائل على عناية ثقافتنا البالغة بالانسان وجميع متطلباته ، واقد كان للأطباء المسلمين أثرهم البالغ على الدراسات الطبية وطريقة المعالجة في الغرب ، فقد ظلت مؤلفات الرازي وابن سينا وابن زهر أساس الدراسات الطبية في الجامعات الأوروبية لقرون عديدة ، كما أن مؤلفات الرازي وخاصة كتاب الحاوي نالت أوسع شهرة في أوروبا ، حتى ان كتابه هذا كان أحد تسعة مجلدات تشكل مكتبة الهيئة الطبية في باريس ، وقد بين الرازي علاج بعض الحميات الطفحية كالجدري والحصبة ، واستحدث استعمال المسهلات الخفيفة والحجامة في حالات الشلل ، والماء البارد في حالات الحمى المستعصية . أما ابن سينا فلا شك انه كان أعظم طبيب عرفه المسلمون ، وقد استعمل كتابه القانون في الطب كأساس لتدريس الطب في الجامعات الفرنسية والايطالية طيلة ستة قرون كاملة أي من القرن الثاني عشر إلى القرن الثامن عشر ، ومما استحدثه في هذا الفن طريقته في علاج أمراض القلب ، ويعد من أهم ما أبدعه ايجاد طريقة العلاج النفسي بعد أن لاحظ أن كثيراً من الأمراض تعود أسبابها الى أوهام أو عقد نفسية فلفت النظر الى علاجها بطريقة خاصة .

وكان للمسلمين القدح المعلى في حقل الجراحة فقد عرفوا التخدير ، اخترعه ابو القاسم خلف بن عباس القرطبي ، واستعملوا المواد الكاوية ووضع الفتائل لإخراج الصديد ، والكي ، وعالجوا امراض البلورية في العين باسقاط او استئصال العدسة البلورية ، وابتدعوا قطعاً لتفتيت الحصاة في المثانة ووقف النزيف الدموي .

ومما قدمه المسلمون في هذا الخصوص ادخال قوانين الملاحظة العلمية الى الطب ، فعل ذلك ابن زهر الأندلسي الأشبيلي الذي كشف عن موضوع هام في الطب وهو قدرة الجسم البشري الطبيعية على اشفاء نفسه بنفسه من أمراض معينة ، بالاضافة الى ما قدمه هذا العالم من طرق مبتدعة في جراحة القصبة الهوائية ، ومعالجة الفك وكسر العظام .

أما ابن رشد فإننا ندين له بالكثير في هذا المجال ، فقد كتب مقالات عن الترياق والسموم والحميات ، ولا يزال كتابه (الكليات) يطبع في اوروبا حتى الآن .

وقد كشف ابن النفيس السوري عن الدورة الدموية ووصفها بدقة ، قبل أن يكتشفها البرتغاليون الذين يعزى اليهم خطأ هذا الاكتشاف الهام .

وأخيراً فلا بد من الاشارة الى علم الصحة ، فنحن نعرف أن الدين الإسلامي يحوي قواعد صحية هامة كالاكثار من الاغتسال ، وتحريم الخمر ولحم الخنزير ، فكان المسلمون يعلقون أهمية كبيرة على مراعاة القواعد الصحية أثناء معالجة المرض ، وهذا ما يعتمد عليه الطب الحديث الآن . يقول غوستاف اوبون «إن المستشفيات العربية كانت مكيفة من الناحية الصحية بشكل ارقى بكثير من مستشفيات اليوم ، وكانت ضخمة وكان الماء والهواء يوزعان على أقسام المستشفيات بسهولة ، وتدل الحكم المأثورة في جامعة سالرنو على تعليمات قيمة تتعلق بموضوع الصحة ، ومن المعلوم ان هذه المدرسة التي كانت تعتبر أفضل معهد في أوروبا تدين بسمعتها الطبية للعرب».

هذا قليل من كثير مما استطاعت الثقافة الاسلامية ان تغني به الانسانية في ميدان الفكر والتقدم العلمي ، ولا شك ان لمبادىء الإسلام في الإيجابية والعمل أثرها في اصطباغ هذه المعارف بالصبغة العملية ، ونستطيع أن نتصور كم تكون عليه حال العلوم والمعارف من النماء لو أن المفكرين المسلمين حافظوا على أصالة التوجيه الإسلامي ولم ينحرفوا عن النهج الصحيح الى الاستغراق في جدل ونقاش

فلسفي وعقائدي ، كان من نتيجته ضياع الطاقات الذهنية في غير ما جدوى

أما في ميدان الدراسات الجغرافية فقد برّز المسلمون بروزاً واضحاً ، إذ أنهم بعد أن نقلوا عن اليونان وغيرهم ما عندهم من معلومات جغرافية توسعوا في مباحثها وزادوا عليها ما شاهدوه في رحلاتهم الواسعة ، فقد كان العرب مولعين بالرحلات ويقال إنهم وصلوا إلى أمريكا ، وقد صححوا كثيراً من أخطاء بطليموس وتعرّفوا على مناطق واسعة لم يعرفها الرومان واليونان من قبل .

وفي زمن المأمون رسم الخوارزمي ومساعدوه خريطة للسماء والأرض ، وقاموا بمحاولة ناجحة لقياس محيط الكرة الأرضية ، ثم صنع الإدريسي كرة سماوية وخريطة للعالم ، وكان من أبرع ما وصل إليه انه رسم خريطة للنيل أبرز عليها منابع النيل الأصلية التي اكتشفها الأوروبيون بعد ذلك .

وقد قام المقدسي قبل ذلك برحلات طويلة استغرقت عشرين عاماً زار خلالها أماكن مختلفة من العالم ودون دائرة معارف جغرافية وصف فيها الأماكن التي زارها بكل دقة وقد سجل البيروني في كتابه عن جغرافية روسيا وشمال أوروبا ، كما استطاع أبو إسحاق إبراهيم بن يحيىّ الزرقالي أن يقرّر أن طول البحر الأبيض المتوسط هو ٣٢ درجة وهو تقدير قريب جداً من تقديرات العلماء الحالية ، ولا ننس كتاب الاصطخري المسالك والممالك الذي ألحق به عدداً من الخرائط الملوّنة لكل قطر من الأقطار الإسلامية ، ولكن أعظم الجغرافيين العرب هو ياقوت الحموي الذي استطاع أن يخرج دائرة معارف جغرافية ضخمة في ستة مجلدات كبيرة بعنوان معجم البلدان [1] ، وقد كانت معلومات المسلمين الجغرافية وما أضافوه إلى الثقافة العلمية فيها معبراً انتقلت بواسطته أفكار اليونان الجغرافية والفكرة الهندية عن صورة الأرض وعقيدة استدارة الكرة الأرضية والنظرية الصائبة عن أسباب المد والجزر وكثير من المسائل الأخرى ، وقد كان للمسلمين فضل كبير

---

١ — الفكر الاسلامي ، م . شريف ، ترجمة أحمد شلبي ، ص ٦٤ .

في استخدام الخرائط البحرية حتى ان فاسكودي جاما أعظم بحار غربي استعمل هذه الخرائط سنة ١٤٩٧ م.

وفي مجال التاريخ وعلم الاجتماع كان للمسلمين أثر كبير في تطوير طريقة البحث وإغناء موضوع الدراسة ، وقد أفادوا من علم مصطلح الحديث الذي دربهم على أساليب النقد ومعرفة الصحيح من الزائف في نقد الروايات التاريخية . وقد احتمل عدد من المؤرخين عناء الرحلات الطويلة لجمع المادة التاريخية أو لتحقيقها .

ومن المؤرخين المسلمين في العصور المبكرة ، وقد حوى تاريخه تاريخ الشرق قبل الإسلام وبعده . ومع ضخامة ما وصل إلينا من كتابه إلا أنه يقال أنه لا يعادل عشر ما كان كتبه . ومن هؤلاء المسعودي الذي زار عدداً كبيراً من أقطار العالم بما في ذلك الصين ومدغشقر وخلّف لنا عملاً علمياً ضخماً يقع في ثلاثين مجلداً ، كتبه عن تاريخ العالم من قبل الإسلام حتى القرن الخامس الهجري ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء المؤرخين الرحالة المشهور ابن بطوطة الذي طاف معظم بقاع الأرض ، وكان كتابه سجلاً حافلاً ما يزال الباحثون يلجأون إليه للدراسة الاجتماعية المقارنة .

ومن الذين كتبوا في التاريخ وانتقلوا من دراساتهم التاريخية إلى علم الاجتماع ، المؤرخ وعالم الاجتماع المعروف ابن خلدون . فقد استطاع هذا المفكر الكبير أن يقوم الدراسات التاريخية السابقة عليه ويضع طريقة ومنهجاً للبحث التاريخي ، ثم انتقل ليفتح آفاقاً واسعة في السياسة والفلسفة وعلم الاجتماع ، فكشف عن قوانين التطور الطبيعي والتدهور الطبيعي للأمم . ، حتى أجمع النقاد على أنه أعظم مؤرخ فيلسوف ظهر في الإسلام . وليس هذا فحسب بل إن ابن خلدون يعتبر المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع .

أما عن الفكر التأملي الفلسفي فقد بدأ قبل الترجمات اليونانية عن طريق موضوعات وجود الله وعدله ورحمته والقضاء والقدر والخلافة الزمنية والروحية ،

وظهر نتيجة لذلك الخوارج والمرجئة والقدريون ، ثمّ ظهرت مدرسة المعتزلة وتلتها مدرستا الأشاعرة والماتريدية ، وكان للدراسات الكلامية الإسلامية تأثير خاص على علم الكلام المسيحي .

ومن الاتجاهات الفلسفية التي ظهرت وتتمتع بالاصالة ، المحاولات التوفيقية بين الدين والفلسفة اليونانية . التي قام بها الفارابي وابن رشد بصورة خاصة ، ومهما يكن حكمنا على النتائج التي انتهى إليها الفكر الفلسفي في الإسلام ، فإن جميع نواحي التأمل الفلسفي ظهرت عند المسلمين من التأمل الفلسفي الإيجابي إلى الصوفية الفرقة . ويمكن أن نذكر في هذا المجال أسماء كثيرة . كالفارابي الذي يعد تصنيف العلوم من أهم أعماله ، وابن سينا الذي قدّم تصنيفاً للعلوم كذلك ، وكان نداً في تفكيره وأثره لأفلاطون وأرسطو ، وابن رشد أكبر شارح لأرسطو والذي عن طريقه عرف هذا الفيلسوف اليوناني في أوروبا وكان له أثره على أعظم لاهوتي كاثوليكي : توما الأكويني وغيرهم كثير .

موقف الإسلام
من العلم وانفتاحه للحياة العلمية

كان لموقف الإسلام بالإشادة بالعقل والدعوة إلى التأمل والنظر والتفكير أثره الكبير في إغناء حياة العرب ، ومن ثم في دفع المسلمين إلى عوالم الكون ، يكشفون مجاهله ويتعرّفون على حقائقه ، ويقدمون حصيلة فكرهم وتجربتهم لخدمة الإنسان والوصول إلى حياة أفضل .

وقد حفلت آيات القرآن الكريم بالآيات التي تدعو إلى التفكير واستعمال العقل ، وتعدّدت الآيات التي تنتهي بكلمة : يتدبرون أو يتفكرون أو يعقلون ، وكانت الدعوة إلى النظر دعوة شاملة لا تقتصر على جانب من جوانب الكون أو ناحية من نواحي الحياة ، فكلّ ما خلق الله يمكن أن يكون موضوعاً للتأمل والتفكير المنظم ، ونؤكد على التفكير المنظم ؛ لأن التفكير العادي الذي يعتمد على الحس المجرد العفوي ، مع أنه مفيد في تأكيد تعرف الإنسان على مكانه في الكون خاصة ، إلاّ أنه لا يؤدي إلى معرفة حقائق هذا الكون على صورة يتوفر للإنسان عن طريقها إيمان أكثر عمقاً ، وتسخير للكائنات لمنفعة الإنسان ، وهو أمر مطلوب من المرء شرعاً أن يفعله .

ففي منطق الإسلام لا يستوي عالم وجاهل ، «قل هل يستوي الذين يعلمون

والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب» [1] «وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور» [2] ، فقد رفع الله الذين أوتوا العلم وقدّمهم على غيرهم «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» [3] ، ولعلّ السبب الرئيسي في ذلك أن الإيمان الحقيقي لا يكون إلاّ مع العلم «إنما يخشى الله من عباده العلماء» [4] .

ومن هنا كانت حملة القرآن شديدة على الذين لا يستعملون عقولهم ومداركهم وما وهب الله لهم من طاقات وقدرات ذهنية ، بل يعطلون عقولهم ، ضاربين في بيداء الضلال ، منقادين وراء سراب التقليد . فالذين لا يستفيدون من عقولهم أقرب إلى الحيوانات منهم إلى الإنسان « إن شر الدواب عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون »[5]. وهم أشبه بالذين حرموا حاسة البصر فلا يرون شيئاً « أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون » [6] . ولكن ماذا تفعل هذه الطاقات إذا قرروا إهدارها وإهمالها « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » [7].

والذين يغمضون أبصارهم وبصائرهم ويسلمون قيادهم لغيرهم أو للتقاليد لا يرتقون كثيراً عن مستوى البهائم التي لا تعلم ماذا تفعل « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » [8] « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون .

---

١ – الزمر : ٩ .
٢ – فاطر : ١٩ و ٢٠ .
٣ – المجادلة : ١١ .
٤ – فاطر : ٢٨ .
٥ – الأنفال ٢٢ .
٦ – يونس : ٤٣ .
٧ – محمد : ٢٤ .
٨ – المائدة : ١٠٤ .

ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلاّ دعاء ونداء ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون »[1] .

والاعتماد على الحجة والبرهان يجب أن يكون أساس كلّ دعوى أو نظرية وقالوا : لن يدخل الجنة الاّ من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيّهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[2] . « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون »[3] : « أمّن يبدأ الخلق ثمّ يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[4] .

فالإسلام يريد من الناس أن يعتمدوا اليقين لا الظن طريقاً إلى المعرفة ، لأن الظن لا يغني شيئاً « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلاّ الظن وإن هم إلاّ يخرصون »[5] « وما يتبع أكثرهم إلاّ ظنّاً ، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً »[6] « وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنون »[7] .

والاعتماد على الهوى غير مجد كذلك ، لأن منطق الهوى لا يتفق مع العلم والحقيقة « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم »[8] « وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم »[9] .

---

١ — البقرة : ١٧٠ — ١٧١ .
٢ — البقرة : ١١١ .
٣ — المؤمنون : ١١٧ .
٤ — النمل : ٦٤
٥ — الأنعام : ١١٦ .
٦ — يونس : ٣٦ .
٧ — الجاثية : ٢٤ .
٨ — الروم : ٢٩ .
٩ — الأنعام : ١١٩ .

أما طريق العلم الصحيح فقد حدّده الإسلام بالوحي فيما يتعلّق بالقضايا الأصلية والأساسية والاعتقادية في حياة الإنسان ، أما ما سوى ذلك فإن طريقه الحواس والتجربة والعقل الذي يزن كلّ معطيات الحواس والفكر ليصل إلى الحق في المعرفة والصواب في الأحكام ، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الطريق الثاني بأصدق تعبير وأسهله ، قال تعالى : « ولا تقفُ ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد ، كلّ أولئك كان عنه مسؤولاً » [1] ، فالسمع والبصر يشيران إلى الحواس ومعطياته ، والفؤاد يشير إلى عمل العقل والتفهم والتأمل والوعي الصحيح .

ولم تكن السنة الكريمة بأقلّ إثارة للعقل الإنساني وإلحاحاً عليه للقيام بوظيفته وأداء مهمته ، فطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ومن سلك طريقاً يطلب فيها علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، والعلماء ورثة الأنبياء ، ومن طلب العلم لله فهو كالصائم نهاره القائم ليله ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها تواضعاً لطالب العلم . وأكثر من ذلك أنه « يوزن مداد العلماء ودم الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر » .

وعن أنس بن مالك قال : أثني على رجل عند رسول الله بخير ، فقال : كيف عقله ؟ قالوا : يا رسول الله إن من عبادته ، إن من خلقه ، إن من فضله ، إن من أدبه ، فقال عليه السلام : كيف عقله ؟ قالوا : يا رسول الله نثني عليه بالعبادة وتسألنا عن عقله ؟ فقال رسول الله : إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر ، وإنما يتقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم » .

أما الدعوة إلى النظر والتفكير فقد كانت شاملة واسعة سعة السموات والأرض وإليك بعض الآيات التي تشير إلى هذا المعنى :

---

١ – الإسراء : ٣٦ .

« إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون » [١] .

« وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كلّ الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشي الليل والنهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » [٢] .

« قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » [٣] .

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم انه الحق » [٤] .

« فلينظر الإنسان إلى طعامه . انا صببنا الماء صباً . ثمّ شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً . وفاكهة وأبّاً . متاعاً لكم ولأنعامكم » [٥] .

« ألم نجعل الأرض مهاداً . والجبال أوتاداً . وخلقناكم أزواجاً . وجعلنا نومكم سباتاً . وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبعاً شداداً . وجعلنا سراجاً وهاجاً . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً . لنخرج به حبّاً ونباتاً . وجنات ألفافاً » [٦] .

---

١ — البقرة : ١٦٤ .
٢ — الرعد : ٣ — ٤ .
٣ — يونس : ١٠١ .
٤ — فصلت : ٥٣ .
٥ — عبس : ٢٤ وما بعدها .
٦ — النبأ : ٦ وما بعدها .

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذي خلق الأزواج كلّها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتّى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلّ في فلك يسبحون »(1) .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت »(2) .

« أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور »(3) .

* * *

إن هذه الدعوة إلى التفكير دعوة غير محدودة فكل معرفة صحيحة نافعة يتوجه إليها خطاب القرآن ، ومع ذلك فإن الإنسان مهما بلغ من العلم فإنه لن يصل إلاّ إلى القليل من مخلوقات الله في هذا الكون « وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً »(4) « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً »(5) .

وهنا قد يتساءل البعض عن العلاقة بين العقل والوحي ، وقد رفع البعض من شأن العقل حتّى جعله مساوياً للوحي أو يزيد ، كما غضّ البعض من شأنه

---

1 – يس : 33 – 40 .
2 – الغاشية : 17–20
3 – الحج : 46 .
4 – الإسراء : 85 .
5 – الكهف : 109 .

حتى أنكروا عليه أن يصل إلى شيء من الحق . وكلا الرأيين لا يتفقان مع وجهة نظر الإسلام . فمن الخطأ الكبير أن نجعل العقل البشري نداً للوحي ، لأنه جهاز من أجهزة الكائن الإنساني يتلقى به الوحي ، وهو يدرك ما يدركه ويسلم بما هو فوق إدراكه ، وبسبب ذلك كما يقول الأستاذ سيد قطب [1] : « انه والكينونة الإنسانية بجملتها غير كلي ولا مطلق ، ومحدود بحدود الزمان والمكان بينما البعض يتناول حقائق مطلقة في بعض الأحيان ، كحقيقة الألوهية وكيفية تعلّق الإرادة الألهية بخلق الحوادث ، وليس على العقل السليم إلاّ التسليم بهذه الكليات المطلقة التي لا سبيل إلى إدراكها » .

فالوحي أوسع وأشمل . وهو الأصل في المعرفة ، والعقل يعود إليه ، وهو الميزان الذي يحتكم إليه العقل وخاصة فيما يتعلّق بجوهريات الحياة والوجود. ومن الخطر أن يقال بوجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل ، لأن العقل مختلف عند الأفراد ومتطوّر حسب الأزمان والبيئات ، وما دام النص محكماً فالمداول الصريح للنص من غير تأويل وهو الحكم الأول والأخير .

فقد يحصل أن يظن أن هناك تعارضاً بين الوحي ونظرية عامية أو حقيقية توصل إليها العلم ... إن المسلم يؤمن بما في القرآن إذا كان النص صريحاً لا يحتمل تأويلاً ولو تعارض هذا النص حقاً مع النظرية العلمية ، فالنظريات والحقائق التي يتوصل إليها العقل في تغير دائم وتطوّر مستمر ، ولا معنى للتقدّم العلمي في كثير من الأحيان إلاّ أنه ينقض ما كان يظهر أنه حقائق بحقائق أخرى جديدة ، أما ما جاء به الوحي فهو ثابت لا يتغير وبه نزن كل ما يأتينا عن طريق العقل والنظريات العلمية .

---

١ — خصائص التصور الإسلامي : ١٩ ، وأنظر لموضوع العقل ، كتاب مقام العقل عند العرب للأستاذ طوقان ، والتفكير فريضة إسلامية للأستاذ العقاد .

مِنْ أعلام الثقافة الإسلاميّة

خلفت الثقافة الاسلامية أعلاماً في كل ميدان من ميادين الفكر ، وكان لنا حظ تقديم بعض هؤلاء الأعلام من إذاعة المملكة العربية السعودية مع واحد من كتبهم الهامة، وقد رأينا أن نضم إلى هذا الكتاب تعريفاً موجزاً بهم، لا يغني القارىء الذي يريد التفصيل عن البحث والتنقيب ولكنه يعطي لمحات ويلقي الضوء على جوانب هامة من تفكيرهم .

- ١ -

شاعر الرسول : حسان بن ثابت
(٥٤ هـ)

* وخير من نفتتح بهم المقال حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه السلام ، وُلد سنة ثلاث وستين وخمسمائة ميلادية ، وهو حسان بن ثابت بن المنذر بن خزام بن زيد الخزرجي ، كان ابوه ثابت من سادة قومه وأشرافهم ، وكان جدّه الحاكم بين الأوس والخزرج في يوم « سميحة » ، حيث أهدر دماء قومه الخزرج ، واحتمل دماء الأوس ، فذكره حسان في قصيدته حيث يقول :

وأبي في سميحة القائلُ الفا
صلُ يوم التقت عليه الخصومُ

* وكان حسان من الشعراء المخضرمين الذين حضروا الجاهلية والإسلام ، وقد اتصل قبل إسلامه بملوك غسان بالشام ومدحهم وسجل ذلك في شعره فقال :

لله درّ عصابة نادمتهم
يوماً بجلّق في الزمان

ثمّ اتصل باللخميين بالحيرة ، ولكن أكثر صلته كانت بالغساسنة في الشام .

* أسلم شاعرنا على أرجح الأقوال مع السابقين من الخزرجيين الذين سمعوا من قومهم عقب عودتهم من بيعة العقبة الأولى ، فقد كان شاعرهم السبّاق إلى كلّ ما يسبقون إليه ، وإنما كان قعوده عن العقبتين لشيخوخة بدأت تدب في

جسمه عند رأس الستين أو لعلّة أصابته ، ومنذ شرح الله صدر شاعرنا للإسلام ، وهو شاعر العقيدة الذي يسجل أحداث المسلمين ، ويتغنى بغزوات الرسول ، ويرد على شعراء المشركين بجزالة وفحولة لم تفارق شعره ، كما لم تفارقه فخامته أو عذوبته .

• وكان لأول شعر قاله في الإسلام قصة ، ففي أعقاب بيعة العقبة الثانية ، خرجت قريش تطلب من بايعوا الرسول وهم في طريقهم إلى المدينة ، فلم يدركوا غير سعد بن عبَادة والمنذر ابن عمرو ، فأما المنذر فقد أعجزهم ، وأما سعد فقد آذوه ولم يخلصه منهم غير قرشيين كان يجير لهما .

• وكان لهذا الحادث شهرة وذيوع لأنه فاتحة التقاء أهل المدينة بالإسلام في شعاب مكة مما دعا ضرار بن الخطاب شاعر مكة إلى ترديده في أوّل شعر قيل في الهجرة ، قال ضرار ولم يكن أسلم بعد :

تداركتُ سعداً عنوةً فأخذتُــــه
وكان شفاء لو تداركتُ منذراً

ولو نلتُه طُلّت هناك جراحُـــهُ
وكان حريّاً أن يهـان ويهدرا

وقد أجابه حسان بقصيدة كانت أوّل شعر له في الإسلام نجتزىء منها الأبيات التالية :

لستَ إلى سعدٍ ولا المرء منــذر
إذا ما مطايا القوم أصبحن حُمّراً

ولولا أبو وهبٍ لمرّت قصائــد
على شرف البرقاء يهوين حسّــرا

فإنّا ومن يهوي القصائد نحونا
كمستبضع تمراً إلى أهــلِ خيبرا

فلا تكُ كالوسنان يحلمُ أنّه
بقرية كسرى أو بقريــة قيصرا

وحين أمر الرسول عليه السلام بالهجرة من مكة إلى المدينة فتوجه إليها مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه ، سجل شاعر الرسول هذا الحدث العظيم بقوله :

لقد خاب قوم غابَ عنهـم نبيّهم
وقد سُرَّ مَنْ يَسري إليهم ويغتدي

ترحّل عن قـوم ٍ فضلّت عقولهم
وحـلّ على قـوم ٍ بنورٍ مجـدّد

هداهـم به بعد الضلالـة ربّهـم
وأرشدهم ، مـن يتبع ِ الحـقّ يرشد

وهل يَستوي ضلالُ قـوم ٍ تَسَفّهوا
عمىً وهـداةٌ يهتدونَ بمُهتَـدِ

لقد نزلت منه على أهـل ِ يَـثرب
ركابُ هُدىً حلّـت عليهم بأسعد

نبيّ يرى ما لا يرَى النّاس حَوْلـه
ويتلو كتابَ الله في كـلّ مَسجد

وإن قال في يـوم ٍ مَقالةَ غائـب
فتصديقُها في اليومِ أو في ضُحى الغدِ

ليَهْنِ أبا بكـرٍ سعـادَةَ جَـدّه
بصُحبتِه ، مَنْ يُسعِدِ اللهُ يسعَدِ

• ويوم بدر وكانت أوّل وقعة كبرى بين المسلمين والمشركين أمر الرسول بجثث القتلى من المشركين فطرحت في القليب ثمّ وقف يناديهم : « بئسَ عشيرة النبيّ كنتم لنبيّكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس » ثمّ قال : « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقّاً ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقّاً » فقال له أصحابه : يا رسول الله : أتكلّم قوماً موتى ؟ فقال لهم : لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حقّ » .

* وقد هزّت حسان نشوة الظفر فأنشد أبياتاً قالها على الارتجال منها :

وخبّر بالذي لا عيبَ فيه
بصدقٍ غير إخبار الكذوبِ
بما صنع المليك غداة بدرٍ
لنا في المشركين منَ النصيبِ
غداة كأن جمعهمُ حراء
بدت أركانه جنح الغروبِ
فلاقيناهموُ منّا بجمعٍ
كأسدِ الغاب مردان وشيب
أمامَ محمّدٍ قد آزروهُ
على الأعداء في لفح الحروبِ
بأيديهم صوارم مرهفات
وكلّ مجرّبٍ خاظي الكعوبِ
ينُاديهم رسولُ اللهِ لمّا
قذفناهم كباكب في القليبِ
ألم تجدوا حديثي كان حقّاً
وأمرُ الله يأخذ بالقلوبِ
فما نَطَقوا ولو نَطَقوا لقالوا
صدقتَ وكنتَ ذا رأيٍ مُصيب

* وبعد غزوة أُحُد تشجّع شعراء المشركين للنكسة التي أصابت المسلمين وأكثروا بالفخر بنصر قومهم في زعمهم فردّ عليهم حسان وأبطل فخرهم وعلّل الابتلاء تعايلاً حسناً مدعماً بأسانين الفخر فكان مما قاله :

ولقد نلتم ونلنا منكُمُ
وكذاك الحربُ أحياناً دول

إذ شددنا شدة صادقة
فاجأناكم إلى سفح الجبلْ
إذ تولون على أعقابكم
هرباً في الشعب أشباه الرسَلْ
نضع الخطيّ في أكتافكم
حيث نهوى علَلاً بعد نهَلْ
فسدحنا في مقامٍ واحدٍ
منكمُ سبعين غير المتحَلْ

* وحين منع المشركون المسلمين من أداء العمرة سجل شاعر الإسلام هذا الموقف وتنبأ بفتح مكة فقال :

عدِمنا خيلنا إن لم تروها
تثيرُ النقع موعدُها كداءُ
يبارين الأعنة مُصعِدات
على أكتافها الأسل الظماءُ
تظل جيادنا متمطرات
تلطمهن بالخُمُرِ النساءُ
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا
وكان الفتح وانكشف الغطاءُ
وإلا فاصبروا لجلادِ يومٍ
يُعِزّ اللهُ فيه من يشاءُ

* وقد حزن شاعر الرسول لوفاة الرسول فما فتىء يبكيه ، وأقلقته الفتنة الكبرى التي أودت بابن عفان رضي الله عنه ، وفقد بصره في آخر حياته وكان قد عمّر حتى وافاه الأجل سنة أربع وخمسين من هجرة الرسول وكان عمره مائة وعشرين عاماً ، رحمه الله وأجزل مثوبته مع العاملين الصادقين .

- ٢ -

امام الرأي : أبو حنيفة النعمان

هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي إمام من أئمة الفقه الإسلامي ، ورجل من رجاله العظام .

وُلد إمامنا الجليل بالكوفة سنة ٨٠ للهجرة من أبوين فارسيين على أرجح الأقوال ، وهذا من دلائل عظمة هذا الإسلام الذي استظلّت بظلّه الوارف شعوب الأرض جميعاً فعاملها على قدر واحد وسوّى بينها في كلّ شيء ، إلاّ بالتقوى ، حتى كانت نسبة الإسلام مقدمة على كلّ نسبة أخرى ، فقد قال الرسول الكريم في هذا المعنى : « سلمان منا آل البيت » وخاطب القرآن نوحاً يصف ولداً له بالدم « إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح » .

• نشأ أبو حنيفة النعمان بالكوفة وعاش فيها أكثر حياته متعلماً ومعلّماً وتاجراً ، فقد احترف التجارة ولم يتركها طيلة حياته ، وكل ما في الأمر أنه كلما زاد انصرافه إلى العلم وانشغاله بالدراسة والتدريس كان يزداد اعتماداً على شريكه في تجارته .

• وكان في عمله التجاري مثال الاستقامة والنزاهة ، بائعاً كان أم مشترياً . من قصصه الذي يروى عنه في الشراء أن امرأة جاءته بثوب تريد أن تبيعه له بمائة درهم . فقال لها : هو خير من مائة فبكم تبيعين ؟ فزادت مائة مائة حتى

قالت : أربعمائة ، قال : هو خير من ذلك ، قالت : تهزأ بي ؟ قال : هاتي رجلاً يقوّمه ، فجاءت برجل ، فاشتراه أبو حنيفة بخمسمائة .

* ومن قصصه في البيع أن صديقاً له جاءه يطلب ثوباً من خزّ على وصف معين ، فاستمهله أياماً ، فمرّ به الصديق بعدها فقال له : قد وقعت على حاجتك ، وأخرج له ثوباً غالي الثمن فقال : كم تريد ثمنه ؟ قال : درهماً ، قال : تهزأ بي ؟ قال : ما هزئت بك ، ولكني اشتريت ثوبين بعشرين ديناراً ودرهم ، وقد بعت الأول بعشرين ديناراً فبقي هذا بدرهم » .

* كانت الكوفة في عصر إمامنا الكبير ثاني مدن العراق ، ومركزاً ثقافياً هاماً . فهي موطن الثقافات القديمة : السريان وفلسفة اليونان ، والفرس وحكمتهم ، وعقائد النصرانية ورهبانها ، هذا بالإضافة إلى الشيعة والخوارج والمعتزلة وغيرها من الطوائف والفرق التي استجدت في العصر الإسلامي .

* وقد نشأ إمامنا في هذا الجو ، فجادل مع المتجادلين ، ونازل أصحاب الأهواء والملل والنحل ، ولعل هذه البيئة الجدلية هي التي فرضت عليه منهج الرأي في الفقه .

* وقبل ذلك نهل الإمام من جميع منابع الثقافة الإسلامية المعروفة آنذاك ، فحفظ القرآن ، وعرف قدراً كبيراً من الحديث ، وقدراً مماثلاً من الأدب والنحو والشعر ، ثم انصرف إلى الفقه ، حتى أصبح أحد الأئمة الأربعة الذين يدين لهم المسلمون حتى الآن بالاحترام والتقدير .

* لزم حمّاد بن أبي سليمان الفقيه ، مدّة طويلة تقرُبُ من عشرين عاماً ، ولم يجلس للتدريس إلاّ بعد أن توفي هذا الشيخ الجليل سنة ١٢٠ من الهجرة . إلاّ أن صحبة إمامنا لشيخه حمّاد لم تمنعه من الاتصال بالعلماء الآخرين حتى قال : « تلقيت فقه عمر ، وفقه علي ، وفقه عبدالله بن مسعود ، وفقه ابن عباس عن أصحابهم » وكان كثير الرحلة إلى بيت الله الحرام حاجاً ، وفي مكة والمدينة التقى بالعديد من العلماء ، ومنهم كثيرون من التابعين فذاكرهم الفقه ودارسهم ما عندهم .

* أدرك أبو حنيفة دولتي بني أمية والعباس ، فقد عاش اثنين وخمسين سنة في العصر الأموي وثماني عشرة سنة في العصر العباسي ، وكان فيه ميل إلى العلويين لكنه لم يكن يظهر ذلك ، إلا أنه على ما يظهر انتقد موقف الخليفة المنصور من بعض العلويين ، فأراد أن يمتحن إخلاصه وولاءه لدولة العباسيين وفرض عليه المنصب الأول في القضاء للدولة العباسية كلها ، لكن أبا حنيفة اعتذر عن قبول المنصب لأنه يرى القضاء عملاً خطيراً لا تقوى نفسه على احتماله، ووجدها المنصور فرصة للنيل منه دون حرج أمام الناس ، وتعرض إمامنا بسبب ذلك لمحنة قاسية .

* وكان إمامنا الجليل يتصف بمجموعة من الصفات تجعله في المقام الأول بين العلماء : كان واثقاً من علمه ، مستقلاً في تفكيره ، حاضر البديهة ، متطلعاً إلى معرفة الحقيقة ، عميق الفكرة ، بعيد الغور على المسائل ، لا يقف عند ظاهر العبارة وإنما يحاول التعرف على مراميها البعيدة والقريبة . لا تحتبس فكرته ، ولا يُغلق عليه في نظر ، ولا يُفحم في جدال . ولعل هذه الصفات كلها هي التي جعلت منه إمام المتجهين إلى الرأي بين فقهاء الإسلام .

توفي إمامنا سنة ١٥٠ للهجرة ، رضي الله عنه ، وأرضاه .

* * *

* أما الكتاب فهو « مسند الإمام أبي حنيفة » .

* وليس المسند من تأليف إمامنا بالمعنى الذي نفهمه اليوم من كلمة التأليف، وإنما هو مجموعة من الأحاديث والآثار التي تسند إليه مرتبة على أبواب الفقه . وقد جمع عدد من أصحاب أبي حنيفة — وخاصة أبو يوسف ومحمد — طائفة كبيرة من هذه المرويات ، وأطلقوا عليها اسم الآثار .

* وقد أشار صاحب كشف الظنون إلى أن الذي روى المسند على شكله الحالي ، الحسن بن زياد اللؤلؤي ، وأن الذي رتبه على أبواب الفقه ، هو الشيخ قاسم بن قطلوبغا .

* وترجع أهمية هذا المسند إلى أن الشائع عند الكثيرين من الناس أن الإمام أبا حنيفة كان يعتمد على الرأي دون الحديث بينما يثبت هذا الكتاب أن حصيلة الإمام من الأحاديث طيبة ووافرة وأنه لا يعتمد على الرأي إلاّ حين لا يجد الحديث أو لا يصح عنده .

* ولئن كانت إضافة هذا المسند إلى أبي حنيفة ليست كإضافة الموطأ إلى الإمام مالك ، لأن مالكاً هو الذي دوّن موطأه ورواه عنه غيره مرتباً مدوّناً ، بينما ما ينسب إلى أبي حنيفة روايات جمعت عنه ورتبت بعد وفاته ، فإن ذلك لا يقلّل من أهمية المسند وجلالة قدره وعظيم الفائدة منه .

- ٣ -

صاحب الموطأ : الامام مالك بن أنس
(١٧٩ هـ.)

أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي الحميري ، إمام عظيم من أئمة الفقه الإسلامي ، وناقل أمين لحديث الرسول الكريم عليه السلام .

* وُلد إمامنا في « ذو المروة » من أعمال مدينة الرسول عليه السلام سنة ٩٣هـ ، وعاش في المدينة وتوفي فيها سنة ١٧٩هـ . إذ لم يعرف عنه رضي الله عنه أنه غادرها إلاّ إلى مكة في مواسم الحج ، ويعلّل المؤرّخون ذلك بسببين : أولهما أن الحجاز آنذاك والمدينة بوجه خاص ، كانت محل لقاء علماء المسلمين ومفكريهم ، يقصدونها للحج وزيارة مسجد رسول الله ، وثانيهما أن المدينة كانت ذات طابع خاص في الفقه الإسلامي يعرف باتجاه الحديث ، وكان الإمام مالك متشبعاً بهذا الاتجاه ، بل إنه كان يمثله خير تمثيل ، لذلك كان يلقب بفقيه أهل المدينة .

* وكعادة المتأدبين الدارسين في عصره ، استوعب الإمام مالك علوم اللغة ، ودرس القرآن ، وأقبل على سماع الحديث وروايته . وكان متبتلاً بالدراسة منقطعاً لها حتى انه كان يصرف يومه كلّه في التحصيل ، وقد حدث عن نفسه فقال : « كنت آتي ابن هرمز بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل » .

* درس إمامنا العظيم على ربيعة ، الرأي ، أخذ عنه الفقه والحديث واستفاد

من عقله وتفكيره وأدبه أكثر مما يستفيد من علمه ، فقد كان معروفاً بنضج الرأي وسلامة التفكير .

* ثمّ انقطع إلى ابن هرمز أبي بكر عبدالله بن يزيد مدة طويلة تزيد على سبع سنوات ، فروى عنه الحديث ، وتعلم منه تقدير المسؤولية ، وعدم التهجم بالإجابة وكبح النفس عن العجب وحب الرئاسة إيثاراً للحقيقة ، كما أخذ عنه ميله إلى التلقي بالتوقف والنقل ، وكان يحدث عن أستاذه قوله : « ينبغي أن يورث العالم جلساءه العلم حتى يكون ذلك أصلاً فيهم » ، كما يروى أنه استفاد منه عدم الاندماج بالقياس واستخراج الأحكام .

* ومن أساتذته أيضاً ابن شهاب الزهري ، أعلم الحفاظ ، ومن فقهاء المدينة المعروفين الذين كانوا يمتازون بثقافة أدبية واسعة .

* كما ان إمامنا تلقى عن نافع بن سرجس الديلمي ، من أشهر رواة الحديث وأكثرهم تحرياً للدقة والضبط في إثبات قول الرسول .

* كان الإمام مالك ينقل العلم رواية ويدوّن ما يرويه ويفسره ، فهو راوية من ناحية ومجتهد من ناحية أخرى ، راوية للحديث النبوي الشريف وآراء من أخذ عنهم من المجتهدين وما رضي به علماء المدينة لأنفسهم مما أخذوه عن السلف الصالح . وهو مقيد نفسه بذلك كلّه لا يحيد عنه ، ولكنه مع ذلك مجتهد في اختيار الحديث ، ناقد مدقق ، يحتاط أشد الاحتياط في روايته ، حتى قال الإمام الشافعي : كان مالك إذا شك في الحديث خرجه كلّه .

* وحدّث ابن أبي أويس قال : سمعت مالكاً يقول : إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذونه . لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله عند هذه الأساطين — وأشار إلى المسجد — فما اخذت عنهم شيئاً ، وان احدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أميناً ، إلاّ أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن .

* شهد إمامنا تحوّل الدولة الإسلامية من أموية إلى عباسية ، وعاصر الصراعات السياسية التي رافقت ذلك التحوّل ، فأبى أن يزج بنفسه في المعركة

القائمة فبقي متحفظاً ، وقد وصف بأنه كان أعظم الخلق مروءة وأكثرهم صمتاً ، قليل الكلام ، متحفظاً بلسانه من أشد الناس مداراة للناس .

* وقد اشتد الجدل العقائدي في زمنه ونشأت الفرق الكلامية ، إلا أن بيئة الحجاز لم تتأثر بذلك كثيراً ، واستطاعت المدينة أن تحافظ على تقاليدها الّتي ورثتها منذ عهد الرسول عليه السلام ، هذه التقاليد الّتي تتمثل في العزوف عن الجدل في الدين والالتزام بالحفظ والنقل ، لذا فقد بقي الناس يفضلون الأخذ برأي أهل المدينة .

* وقد وقف الإمام من هذه الفرق موقفاً شديداً ، ورفض أن يستدرج إلى معركة كلامية لا طائل تحتها إلاّ إهدار الطاقات العقلية الّتي أنعم الله بها على الإنسان ليصرفها في المفيد من التفكير . ومن الأمثلة على ذلك أنه عندما سئل عن استواء الله تعالى على العرش أجاب : الاستواء مفهوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة .

* وكان إذا ذكر عنده أصحاب الأهواء والجدل قال : قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : لقد سنّ رسول الله وولاة الأمر من بعده سنناً ، الأخذ بها اتباع لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوّة على دين الله ليس لأحد بعد هؤلاء تبديلها ولا النظر في شيء خالفها ، فمن اهتدى بها فهو مهتدٍ ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها اتبع سبيل غير المؤمنين .

رحم الله إمامنا العظيم ورضي عنه وأرضاه .

* * *

* أما الكتاب فهو « كتاب الموطّأ » خير ثروة خلفها الإمام مالك لأجيال المسلمين .

* والكتاب يمثل منهج أهل المدينة في الفقه المعتمد على الحديث ، لذا فقد جاء مزيجاً من التفسير والحديث والفقه والتاريخ . وكان له تأثير كبير في حياة المسلمين ، ويعتبر أوّل تصنيف للحديث مرتب على أبواب الفقه .

* قال فيه الإمام الشافعي : ما ظهر على الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : الموطّأ هو الأصل الأوّل واللّباب ، وكتاب البخاري هو الأصل الثاني في هذا اللباب ، وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذي .

* ولعلّ السبب في المكانة العظيمة الّتي احتلهّا الموطأ ، دقة الإمام في إثباته لما أثبت من حديث الرسول وصرامة القواعد الّتي التزم بها لتحقيق ذلك . أما سنده فقد كان أصح الأسانيد ، إذ روي عن الإمام البخاري قوله : أصح الأسانيد : مالك عن نافع عن ابن عمر . وأما التزام صاحبه في إثباته ما أثبته فلعلك تدرك ذلك من حديث إمامنا عن طريقته في تأليف الكتاب وسبب تسميته بالموطّأ ، فقد قال : عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة فكلهم واطأني عليه ، فسميته الموطّأ . وقد اعترف بصحة طريقته المتقدمون والمتأخرون ، فقال الجلال السيوطيّ : ما من مرسل في الموطّأ إلاّ وله عاضد أو عواضد » .

* لقي هذا الكتاب عناية كبيرة من المفكرين والعلماء ، واهتمّ به الناس اهتماماً شديداً حتى قال القاضي عياض : « لم يُعنَ بكتاب من كتب الحديث والعلم اعتناء الناس بالموطّأ ، لذا فقد كان من أكثر الكتب رواية وشرحاً وتعليقاً .

* ولعل من أطرف ما يذكر حول هذا الكتاب ، أنه كان من شروط تولي القضاء في الأندلس ، أن يكون المرشح لهذا المنصب حافظاً للقرآن الكريم ، وموطّأ الإمام مالك .

أيها القارىء الكريم : إنه كتاب يجب أن لا تخلو منه مكتبة أي مثقف مسلم .

- ٤ -

الامام القرشي : أبو عبد الله الشافعي
(٢٠٤ هـ)

الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي القرشي ، عملاق من عمالقة الفقه الإسلامي ، وواحد من كبار مفكري العالم وأحد الأئمة الاربعة بين فقهاء المسلمين .

* وُلد في غزة من فلسطين سنة ١٥٠ هجرية ، ونشأ في حجر أمه يتيماً فقيراً ، وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين .

* بدأ تحصيله بدراسة اللغة والشعر وأيام العرب ، وتأدب بأدب البادية ، ثمّ أقبل على الفقه والحديث وأخذ بالقسط الأوفى من العلوم والمعارف حتّى سما عن كلّ عالم قبله .

* أفاده تمكنه باللغة العربية وآدابها إشراقاً ووضوحاً في العبارة ، فقد كان فصيح اللسان ، ناصع البيان ، في الذروة العليا من البلاغة ، حتّى قال عنه المبرّد « كان أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات » .

* وكانت مؤلفاته كتب أدب ولغة وثقافة لا مجرد كتب فقه ، كما كانت مجالسه محبّبة إلى الناس لما فيها من شعر وأدب يتخلّلان فقهه ، حتى كان رجال العربية يحضرونها ليسمعوا لغة الشافعي ، وقد قال أحدهم في ذلك : « طالت مجالستنا للشافعي فما سمعنا منه لحنة قط ، ولا كلمة غيرها أحسن منها » . وقد

اخذ عنه الأصمعي ، الراوية المشهور ، شعر الهُذليين وشعر الشنفري .

• أخذ فقه الكتاب والسنّة من الحجاز ، وحفظ موطأ الإمام مالك ، ثمّ سافر إلى المدينة فسمعه منه وأخذ فقهه . ثمّ رحل إلى العراق فأخذ عن أهل الرأي علمهم ورأيهم ، ونظر فيه وجادلهم وازداد بصراً بالفقه ونصراً للسنّة .

• وكان إمامنا ذكيّاً مفرطاً ، قويّ العارضة ، نيرّ البصيرة ، مبدعاً في إقامة الحجة وإفحام المناظر ، اجتمع لديه علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث فتصرّف في ذلك حتى أصّل الأصول وقعّد القواعد وأذعن له الموافق والمخالف ، واشتهر أمره .

• سمّاه أهل مكّة ناصر الحديث لأنه كان يُلزم أهل الرأي وجوب اتباع السنّة ، ويثبت لهم الحجة في خبر الواحد ، ويفصل للناس طرق فهم الكتاب ، ويدلّهم على الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنّة ، وعلى الجمع بين ما ظاهره التعارض فيهما أو في أحدهما .

• كان الإمام أحمد بن حنبل بعد أن جلس إليه من المعجبين به حتى قال : « ما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفتى » وقال : « لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث » كما ذكر عنه أنه قال : « ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلاّ للشافعي في رقبته مِنّة » .

• وكان الشافعي يعترف للإمام ابن حنبل وأصحابه بالعلم بالحديث فقد روي عنه أنه قال للإمام : أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا ، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه » .

• وقد كتب الأستاذ أحمد شاكر في مقدمته لتحقيق « الرسالة » للشافعي ، : ولو جاز لعالم أن يقلّد عالماً كان أولى الناس عندي أن يقلد الشافعي . فإني أعتقد غير غال ولا مسرف أن هذا الرجل لم يظهر مثله في علماء الإسلام في فقه الكتاب والسنة وفنون النظر فيهما ودقة الاستنباط منهما .

* وضع الشافعي أساساً لمذهبه في الاجتهاد فقال : « الأصل قرآن وسنّة ، فإن لم يكن فقياس عليهما ، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصح الإسناد فهو سنّة ، والإجماع أكبر من الخبر المفرد ، والحديث على ظاهره ، وإذا احتمل معاني فما أشبه منها ظاهرة أولاها به ، وإذا تكافأت الأحاديث فأصحها سنداً أولاها ، وليس المنقطع شيئاً ما عدا منقطع ابن المسيب ، ولا يقاس أصل على أصل ، ولا يقال للأصل لِمَ وكيف ، وإنما يقال للفرع لِمَ ، فإذا صحّ قياسه على الأصل صح وقامت به الحجة » .

* خلف إمامنا الشافعي مذهباً ضخماً يحترمه المسلمون جميعاً ، وترك تصانيف كثيرة منها : الأم ، في سبعة مجلدات وفيه فقهه ، والمسند في الحديث ، وأحكام القرآن ، والسنن والسبق والرمي ، وفضائل قريش ، والمواريث ، والرسالة في أصول الفقه وهي موضوع حديثنا .

رضي الله عنه ، وأجزل له مثوبة الصديقين والصالحين .

* * *

* أما الكتاب فهو « الرسالة » لإمامنا الجليل .

* وقد يظن البعض أننا كنا سنتكلّم عن كتاب الأم ما دام الشافعي صاحب مذهب في الفقه ضمنه هذا الكتاب ، إلاّ أننا حين نتكلّم عن الشافعي في الرسالة فإننا نتحدّث عن مبدع علم ، ومؤسس منهج فكري جديد . فقد كان أوّل عالم إسلامي يضع علم أصول الفقه ، ذلك العلم الذي يعدّه كثير من الباحثين المسلمين وغير المسلمين أكبر مظهر من مظاهر الأصالة في التفكير الإسلامي .

* وإذا كان البعض يأخذون على الفلسفة الإسلامية ورجالها ، كابن سينا والفارابي والكندي أنهم تأثروا بفلاسفة اليونان ونحوا نحوهم فلم يأتوا بشيء أصيل ، فإن الكل يجمعون على أن ما جاء به الشافعي في « الرسالة » لم يُسبق إليه من قبل .

* فقد كان العلماء قبل الإمام الشافعي يتكلّمون في مسائل الفقه ويستدلون ويعترضون ، إلاّ أنهم لم تكن لديهم قواعد كلية أو أصول عامة يرجعون إليها في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضاتها وترجيحاتها، فجاء الإمام الشافعي يستنبط علم الأصول، فيضع للعلماء قانوناً كلياً يرجعون إليه في معرفة مراتب أدلّة الشرع حتى كانت نسبة الشافعي إلى الشرع برأي الفخر الرازي كنسبة أرسطو إلى علوم العقل .

* شرح الشافعي في الرسالة ما يحتاج إليه المجتهد إزاء القرآن من معرفة بالعام والخاص والناسخ والمنسوخ ، وتكلّم في موقف المجتهد من الحديث وناسخه ومنسوخه وما كان منه من اختلاف وما قُبل فيه وما لا يُقبل ، ثمّ تكلّم في الاجماع وفي اتباع القياس والاجتهاد وحيث يجب وحيث لا يجب ، ومن له أن يقيس ومن ليس له .

* وفي مجال من يصح القياس منه ، بين الإمام أنه لا يصح أن يقيس إلاّ من حصل آلة القياس وهي : العلم بأحكام الله ، وحديث الرسول ، وأقوال السلف ، وإجماع الناس واختلافهم ، واسان العرب . ولا بدّ كذلك أن يكون صحيح العقل نافذ البصيرة مفرقاً بين دقائق الأمور ، لا يعمل بالقول دون التثبت ، ولا يمتنع من الاستماع إلى من خالفه .

* إن أبواب الكتاب ومسائله التي عرض الشافعي للكلام فيها على حديث الواحد والحجة فيه ، وإلى شروط الحديث وعدالة الرواة وردّ الخبر المرسل والمنقطع إلى غير ذلك ، هذه المسائل أدق وأغنى ما كتب العلماء في أصول الحديث ، بل إن المتفقه في علوم الحديث يعلم أن كلّ ما كتب فيها إنما هو مرقوع عنه وعالة عليه .

* والكتاب بعد ذلك فتح في مناهج البحث والتفكير ، وقطعة من الأدب العربي خالد ، يقف في مصاف الكتب الفريدة في تاريخ الفكر الإنسانيّ .

- ٥ -

الرياضي المبدع : أبو عبد الله الخوارزمي
(٢٣٥ هـ)

هو عالم الرياضيات المسلم الشهير أبو عبد الله محمد بن موسى الخُوارزمي .

• وهذا العالم الكبير مثل من الأمثلة الرائعة على الثمرات الناضجة الّتي أينعت في ظلّ هذه الثقافة الإسلامية المتفتحة على الكون ، الداعية إلى التأمل والتفكير ، المميزة في المراتب تمييزاً واضحاً بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

• نبغ أبو عبدالله في عصر المأمون العباسي في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، ونشأ في إقليم خوارزم وهو الآن من أعمال جمهوريات الاتحاد السوفييتّي ، وكان من أعظم مراكز الثقافة الإسلامية ، وقد خرّج عدداً كبيراً من علماء المسلمين .

ثمّ انتقل إلى بغداد عاصمة الدولة والخلافة ، ومطمح أنظار العلماء والنابهين ، ولا يبعد أن يكون المأمون الذي كان يرعى في ذلك الحين حركة علمية واسعة — قد سمع بنبوغه وتقدمه ، فأرسل يستقدمه إلى بغداد ، فقد كان يعلم جيداً ما للعلم من أثر في الشعوب والجنس البشري .

وفي بغداد ارتفعت مكانته العلمية ، وتحققت فيه آمال المتأملين ، فقد ولاه الخليفة أحد المناصب الهامة في بيت الحكمة ، وأحاطه بالكثير من الرعاية والتكريم

والتقدير ، واستفاد منه في الصلات الثقافية التي عقدها مع البلاد الآخرى . فقد أوفده في عدد من البعثات العلمية إلى البلاد المجاورة ، وكان الهدف من هذه البعثات ، القيام بالتحقيقات العلمية والبحث والدرس وتحقيق الاتصال المباشر بعلماء تلك البلاد وزيارة مكتباتها ومراكز الثقافة فيها ، والحصول على أنفس الكتب والمخطوطات .

• ومن بغداد انتقلت شهرة عالمنا الكبير إلى سائر أرجاء العالم الإسلامي بل والعالم أجمع ، وقد أصبح معروفاً بإبداعه في علوم الرياضيات ، وبالإضافات الكثيرة التي أضافها إليها من اختراعه وتفكيره .

• وإلى هذا العالم يُنسب « علمُ الجَبْر » ، فقد ذكر ابن خلدون في مقدمته قوله : « وأول من كتب في الجبر ، أبو عبدالله الخوارزمي » . والحقيقة أن عالمنا أبدع خاصة في هذا العلم ، فقد فصله أوّلاً عن علم الحساب ، ثمّ ألّف فيه تأليفاً مبتكراً وبوّب مسائله تبويباً علمياً جديداً .

• وقد اعتمد العلماء في الشرق والغرب على كتاب الجبر كلّ الاعتماد ، واتخذوه مرجعاً لهم في بحوثهم الرياضية ، وظلّ هذا الكتاب مع كتاب الحساب . الأساس لكل ما ألف في أوروبا أو درس في مدارسها العالية أو جامعاتها طيلة قرون .

• خلف عالمنا النابه مؤلفات عديدة من أهمها : الجبر والمقابلة . الحساب ، كتاب هيئة الأرض ، تقويم البلدان ، كتاب في الهندسة والفلك .

أجزل الله لعالمنا ثواب العاملين .

* * *

• أما الكتاب فهو « الجبر والمقابلة » ، وهو من مؤلفات الخوارزمي وأكثرها تأثيراً في الفكر الرياضي ، وقد كان الأصل في شهرته وذيوع صيته في الأقطار .

• وقد قدم عالمنا بين يدي كتابه عرضاً لطيفاً بدأه بحمد الله والصلاة والسلام

على نبيّه ، ثمّ أشار إلى الأسباب التي تحمل العلماء في مختلف العصور على تأليف الكتب فرأى أنهم يفعلون ذلك إما بقصد نفع الناس وإفادتهم أو رجاء الثواب وحسن الذكر .

* ثم قسم العلماء ثلاثة أقسام : فمنهم المخترع المبتكر لما لم يسبق إليه ، ومنهم الذي يتناول آراء العلماء قبله بالشرح والتفصيل والتوضيح ، ومنهم الذي لم يكلف نفسه أكثر من جمع المتفرق مـــن غير أن يعرض للمسائل بالدراســـة والتمحيص .

* أما عن غرضه من وضع كتابه فقد بيّن أنه كان بأمر من الخليفة المأمون الذي طلب إليه أن يؤلّف مختصراً لكتاب له كبير ، كي يسهل الانتفاع به في كل ما يحتاج إليه الناس في حساباتهم وتقديراتهم ، وحتى يساعد على قضاء مصالحهم الحيوية .

* ونحن لا نريد أن ندخل في شرح مسائل هذا الكتاب ، فهو للمختصين من الباحثين في علوم الرياضيات ، إلاّ أننا نريد أن نلفت النظر إلى واجب الهيئات العلمية والمختصين في البلاد الإسلامية في إخراج الكتب العلمية الإسلامية التي تزخر بها مكتبتنا إلى النور ، لأن في ذلك تحقيقاً لهدف علمي ، ألا وهو ربط حلقات تاريخ العلم بعضها ببعض ، فالذين يكتبون تاريخ العلم من الغربيين يقفزون هذه الفترة الهامة من حياة الإنسانية ، حتى ليظن الباحث أن العالم كان يعيش طيلة هذه القرون في فراغ هائل ، مع أنه كان ينعم بأعظم نهضة علمية شاهدها التاريخ .

* والكتاب أيها القارىء الكريم مطبوع ولا تستغني عنه مكتبة المثقف المسلم صاحب الهواية أو الاختصاص .

- ٦ -

ناصر السنّة : أحمد بن حنبل
(٢٤١ هـ)

هو إمام الأئمة ناصر السنّة وقامع البدعة أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل .

• وُلد إمامنا المجاهد سنة ١٦٤هـ وتوفي سنة ٢٤١هـ عن عمر ناهز السابعة والسبعين ، قضاها في طاعة الله وخدمة السنة والجهاد في سبيل الإسلام ، فضرب في حياته المثل لأصحاب الدعوات في الثبات على دعوتهم والتمسك بالحق الذي يعتقدون .

• بدأ دراسة الحديث وهو ابن ست عشرة سنة ، وساعده على ذلك ذاكرة عجيبة وهبه الله إياها ، وصبر غريب على تتبع الحديث في منابعه وأصوله ، وجلد قوي على تحمل مشاق السفر ليسمعه من أصحابه .

• سافر في سبيل هذا الغرض إلى الكوفة والبصرة ومكّة والمدينة واليمن والشام والثغور والجزائر والعراقين وفارس وخراسان والجبال والأطراف ، وكان ينتقل إلى البلد بينه وبينها مسيرة شهر ليتلقى حديثاً أو حديثين ، وهذا أغرب ما يروى في تحري الحق والرغبة في تحقيق الحديث . فقد ذهب إلى اليمن مرّة ليسمع حديثين فقط من إبراهيم بن عقيل ، وذهب إليها مرّة أخرى ليسمع من محدث آخر كان بإمكانه أن يستمع إليه في موسم الحج ولكنه أبَى أن يفعل ذلك ،

واسمع إلى القصة كما أثبتها ابن الجوزي في « مناقب الإمام » .

* فقد أخبر الإمام أحد أصدقائه وهو يحيي بن معين ، بعزمه على الخروج إلى مكة للحج ثم الذهاب إلى صنعاء للسماع من عبد الرزاق المحدث المعروف . وقد علم يحيي أن الشيخ عبد الرزاق في مكّة للحج فاجتمع به وأخذ للإمام موعداً معه ثم جاء إلى الإمام فأخبره ، واسمع إلى المحاورة التي دارت بينهما : قال الإمام ليحيي ، لم أخذت على الشيخ موعداً ؟ قال : لنسمع منه . قد أربحك الله مسيرة شهر ورجوع شهر والنفقة . فقال الإمام : «ا كان الله يراني وقد نويت نية لي ، أفسدها بما تقول ، نمضي فنسمع منه . فمضى حتى سمع منه بصنعاء .

* وقد كان إمامنا يعتبر نفسه مرابطاً لطلب العلم في كلّ لحظة ، فقد شاهده أحد أصدقائه ومعه محبرة كطالبي العلم يستعد بها للتسجيل والكتابة فقال : يا أبا عبدالله ، أنت قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين فقال : « مع المحبرة إلى المقبرة » وقال له أحدهم : إلى متى تعدو يا أبا عبدالله مع هؤلاء الطلاب ، قال : إلى الموت .

* وكان رضي الله عنه مهاباً فقيهاً ورعاً مخلصاً يقوم بالعمل الصالح ويستره عن الناس ، زاهداً لا يتحدث في أمور الدنيا ، رقيق الحال ولكنه عفيف النفس كريم اليد . قال الشافعي : ما خلفت ببغداد أفقه ولا أورع ولا أعلم من أحمد . وحدث أبو بكر المروزي قال : كنت مع أبي عبد الله نحواً من أربعة أشهر بالعسكر لا يدع قيام الليل وقراءات النهار ، فما علمت بختمة ختمها ، وكان يسر ذلك . وحدث أبو عصمة بن عصام البيهقي قال : بت ليلة عند أحمد بن حنبل فجاء بالماء فوضعه ، فلما أصبح نظر إلى الماء فإذا هو كما كان فقال : سبحان الله ، رجل يطلب العلم ولا يكون له ورد من الليل » .

* على أن أهمّ ما يميّز شخصية الإمام ابن حنبل ويعطيه وصفه الخاص في التاريخ الإسلامي أوّلاً ، وفي تاريخ العقائد والأفكار عامة ، أنه إنسان اعتقد عقيدة ، وآمن بها إيماناً راسخاً ، فلما وضعت مغريات الدنيا كلّها لم تستطع تحويله عن عقيدته ، وعندما سلّط عليه عنف الدواة كلّها بجبروتها وشرطتها

وسجونها وسجّانها وأدوات تعذيبها، لم تستطع أن تحوله عن عقيدته أيضاً . فأصبح الإمام ابن حنبل مثالاً علماً على أصحاب الدعوات وقدوة يحتذى عند أهل الحق . انه الإمام الممتحن .

* وقصة ذلك ، أن الدولة شاءت في عصر المأمون أن تضع ثقلها إلى جانب عقيدة معينة هي عقيدة الاعتزال وأن تنادي بفكرة خلق القرآن . وخلافاً لما يدعيه المعتزلة من مبادىء حرية التفكير فقد أثروا على المأمون ، وهو الخليفة الذي كان يرعى نهضة علمية واسعة ، فجعلوه يتشبث بإلزام علماء الدولة القول بخلق القرآن . وقد اضطر معظم العلماء نتيجة للضغط الشديد أن يسايروا الدولة في قولها وتحايلوا على ذلك بوسائل متعدّدة .

* لكن إمامنا العظيم رفض الرضوخ لجبروت السلطة وسلطانها ، ومع أنه سجن وعذب عذاباً شديداً ، إلاّ أنه لم يلن ولم يتراجع قيد أنملة عما يعتقد أنه الحق ، وتضاءلت الدولة كلها أمام عظمة هذا الإنسان .

* وكان من نتيجة هذا الموقف أن المعتزلة اندثروا وعفّى على أفكارهم الزمن ، بعد أن زالت السلطة من يدهم ، فكان المسلمون في رد فعل عنيف ضد آرائهم واتجاهاتهم ، أما أحمد ابن حنبل ، فقد زاد مهابة في قلوب الناس : حتى انه عندما توفي خرجت بغداد عن بكرة أبيها تودعه الوداع الأخير ، وقد حدّث أبو الحسن التميمي عن أبيه عن جدّه أنه حضر جنازة أحمد بن حنبل : فمكث طول الأسبوع رجاء أن يصل إلى قبره فلم يصل إليه من ازدحام الناس عليه .

* وهكذا أثبت موقف الإمام الممتحن العظيم : أن السلطة مهما بذلت فإنها لا تستطيع أن تنشر فكرة أو تقيل فكرة، وأن الأفكار الحقّة مهما وضعت أمامها من عراقيل فإنها لا بد منتصرة في النهاية .

* * *

وبعد أيها القارىء الكريم ، كان في جعبتنا كلام عن مسند الإمام أحمد بن حنبل ككتاب أوّل لإمامنا الجليل ، إلاّ أن شخصية الرجل الحية صرفتنا عن كتابه ، ونرجو أن نعود إلى الحديث عنه في عدد آخر .

رضي الله عنه ، وجزاه الله عنا خير الجزاء .

- ٧ -

فيلسوف العرب : ابن اسحق الكندي
(٢٥٢ هـ.)

• فيلسوف العرب وحكيم الاسلام ، أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي .

• ولد في أواخر القرن الثاني للهجرة – أوائل القرن التاسع الميلادي ، وهو من آل كندة ، الأسرة القحطانية العريقة التي حكمت اليمن مدة من الزمن ، وكان والده اسحق والياً على الكوفة في عهد الخليفة العباسي المهديّ .

• فهو سليل مُلْك ، وربيب مجد ، ووريث تقاليد جرت في أصلاب الأسرة جيلاً بعد جيل ، وكان بعد وفاة والده يعيش في رَغَد من الحياة ، وينعم بجميع أسباب الترف والرفاهية ، لكن ذلك لم يُغرِه بترك التحصيل والانصراف عن الطلب ، فقد عقد حكيمنا الشاب العزم على أن يسلك سبيل المعرفة ، وصمّم أن يصل الى مرتبة الحكمة ، وكان له ما أراد .

• حفظ القرآن ، ودرس الحديث والفقه ، واختزن في ذاكرته الكثير من أشعار العرب ، وأحاط بأسرار البلاغة ومواطن الفصاحة في اللغة العربية ، ثم انصرف إلى دراسة التوحيد والكلام . وآثر بعد ذلك أن يتجه إلى الحكمة والطب ، فأحاط بجميع فروعهما وتتبع علوم اليونان وفنونها يقرأ ويترجم ويلخص ويفسر ، ثم وجه اهتماماً خاصاً للرياضيات ، فدرس اقليدس صاحب الهندسة ، وبطليموس صاحب المجسطي أشهر كتاب في علم الفلك آنذاك .

• وقد هيأت له معرفته الواسعة أن يرتفع إلى منزلة كبيرة في خلافة المأمون والمعتصم وابنه أحمد ، وكان مؤدباً لهذا الأخير ، وقد وجه عدداً من رسائله وبحوثه إلى هؤلاء الثلاثة ، وكانت هذه عادة سار عليها المفكرون والكتاب في ذلك العصر .

• وكان لتنوع معرفته وضخامتها أثر كبير في غزارة مؤلفاته وكثرتها وتعدد أبوابها ، فقد أورد له ابن النديم صاحب الفهرست ٢٤١ كتاباً موزعة على ١٧ نوعاً ، ومن المؤسف أن معظم هذه المؤلفات تناولتها يد الضياع فلم تبق الا على بضعة وخمسين كتاباً طبع منها أربعون ولا يزال الباقي مخطوطاً .

• ويعد تصنيف العلوم من أبرز ما ساهم به حكيمنا ، فقد كان أول مفكر مسلم يخرج على التصنيف اليوناني التقليدي ، إذ وضع لمفكري الإسلام تخطيطاً عاماً جديداً تصنف العلوم على أساسه ، وقسمها إلى قسمين أساسيّين : علوم فلسفية ، وأخرى دينية فتشمل الأولى الرياضيات والمنطق والطبيعيات والميتافيزيقا والأخلاق والسياسة ؛ بينما تحتوي الثانية على أصول الدين والعقائد والتوحيد والردّ على المبتدعة والمخالفين ؛ وكان هذا التصنيف اساساً حذا حذوه من أتى بعد الكندي من المسلمين كالفارابي والخوارزمي وابن سينا مع شيء من التعديل .

• وكان الكندي مسجلاً للحضارة الإسلامية التي عاش في ظلها إبّان القرنين الثاني والثالث من هجرة الرسول عليه السلام ، كما كان راسماً طريق هذه الحضارة في مستقبلها لعدة قرون ، فقد سجل حركة الترجمة التي نقلت تراث اليونان الى جانب ما كان موجوداً عند الفرس والهند ، بل إنه شارك في هذه الترجمات مشاركة فعالة بالمراجعة والاصلاح وبالتلخيص والاقتباس ، وبذلك حدّد الطريق أمام الكثيرين ممن أرادوا أن يسلكوا هذا السبيل وهذا ما قصدناه من مساهمة في رسم المستقبل الفكري ، بالاضافة إلى ما أضافه للعلوم اليونانية ، وخاصة في الرياضيات واعتماد المنهج التجريبي الذي كان من الأصول التي قررتها الثقافة الاسلامية للوصول إلى المعرفة .

• لكن الكندي لم يسلم من الكيد والمؤامرات فهو مشهور معروف والمشهور محسود على الأغلب ، وقد تحمل بسبب هذه الشهرة الكثير من الأذى والعنت ، على أن أشدّ ما لقيه أن حسّاده وصفوه بالبخل والجرف الجاحظ الأديب الكبير في هذا الطريق فرسم له صورة كاريكاتورية في كتاب البخلاء أصبحت مضرب الأمثال ، حقاً لا بد أن الكندي كان بخيلاً إلى حدّ ما ، غير أنه لم يبلغ من التقتير والشح هذا المبلغ الذي يصفه الجاحظ ، ولا ينبغي أن نحمل روايتنا على محمل الواقع ، لأن الغرض الذي يبغيه هو الفكاهة والفكاهة تعتمد على التهويل والتجسيم .

اختلف الباحثون في سنة وفاته وأرجح الأقوال أنه توفي في أواخر سنة ٢٥٢ هجرية في السنة التي قتل فيها الخليفة العباسي المستعين بالله أثر الفتنة المشهورة رحمه الله ، وغفر له ، وأرضاه .

- ٨ -

امام الأئمة : أبو عبد الله البخاري

(٢٥٦ هـ)

هو أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ، صاحب الجامع الصحيح ، أجل الكتب وأفضلها بعد كتاب الله .

• وُلد أبوعبد الله سنةأربع وتسعين ومائة من هجرة الرسول عليه السلام في بخارى من بلاد وراء النهر ، تلك البلاد التي خرج منها عدد من علماء المسلمين في شتى ضروب الفكر الإسلامي .

• وقد ظهر المسلمون أمام بخارى لأوّل مرة سنة أربع وخمسين هجرية ، ثمّ توطدت أقدامهم فيها نهائيّاً سنة إحدى وتسعين على يدي الفاتح العظيم قتيبة بن مسلم ، ومنذ ذلك الحين وهي بلد إسلامية ، حتى وقعت تحت حكم روسيا في القرن الرابع عشر (العشرين ميلادي) . وهي الآن من بلاد تركستان .

• نشأ إمامنا العظيم يتيماً رقيق الحال في أسرة متواضعة ، وكان نحيف الجسم لا بالطويل ولا بالقصير ، ميّزه الله بحافظة عجيبة كانت مضرب الأمثال ، وهي التي ساعدته على الاتجاه الذي سلكه ، وهو حفظ الحديث وروايته وتدوينه .

• ويروى أنه كان وهو في الحادية عشرة من عمره يصحح لمشايخه من ذاكرته ، ومن حافظته أن زملاءه في الطلب كانوا يصححون ما يكتبونه على ما يحفظه ، وكان العلماء كثيراً ما يجرون له اختباراً في الحفظ دون أن يعلم ، فكان يجتاز

الامتحان بكل براعة ، مثيراً دهشة الناس وإعجابهم .

* كان أوّل سماعه سنة خمس ومئتين من الهجرة ، وانتقل من أجل ذلك إلى معظم حواضر العالم الإسلامي ومراكز الثقافة آنذاك ، فكان من البلاد التي زارها : بغداد ودمشق ومكة وواسط ومصر والكوفة والبصرةوحمص وبلخ ومرو ونيسابور والسرّيّ وقيسارية وعسقلان ، وكانت المرة الأولى التي تتوسع فيها حلقة سماع الحديث على هذه الصورة .

* في هذه الرحلة الطويلة الواسعة ، سمع البخاري عن عدد ينوف على ألف من علماء الحديث وذكر هو نفسه ذلك فقال : « كتبت عن ألف وثمانين شخصاً ليس فيهم إلاّ صاحب حديث » .

* وجلس للحديث وهو شاب ما بوجهه شعرة ، فحدث بالحجاز والعراق وخراسان وما وراء النهر . وكان العلماء يثنون على حفظه وجمعه ، فقد قال عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي : قد رأيت العلماء بالحرمين والحجاز والشام والعراق ، فما رأيت منهم أجمع من محمد بن إسماعيل ، وقال : هو أعلمنا وأفقهنا وأكثرنا طلباً .

* أما إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة فكان: يقول ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل . وسجل عنه الترمذي قوله : لم أرَ أعلم بالعلل والأسانيد من محمد بن إسماعيل البخاري . وقال له مسلم صاحب الصحيح : أشهد أن ليس في الدنيا مثلك .

* وكان مع كل ذلك غاية في الخجل والحياء ، مقداماً شجاعاً ورعاً زاهداً في الدنيا ، قليل الكلام مفرطاً في الكرم ، كما كان معتزاً بالعلم الذي ينتسب إليه .

* فقد حدّثوا أنه عندما عاد إلى بخارى بعد رحلته الطويلة استقبله أهلها استقبال الفاتحين فلم يغتر بذلك ، ولما طلب إليه أمير البلد أن يقرأ له الحديث

في مجلسه الخاص رفض ذلك وطلب إليه أن يحضر درسه مع الناس في المسجد إذا شاء ، فوجد الأمير عليه من ذلك ، وسعى في إخراجه من بخارى ففضل الخروج ، على الاستجابة إلى ما يعتقد أنه إهانة للعلم الذي يحمله .

* على أثر تلك الحادثة طلبه أهل سمرقند ليكون ضيفاً على مدينتهم فتوفي في الطريق إليها سنة ست وخمسين ومئتين هجرية .

رضي الله عنه وأسكنه فسيح الجنان .

* * *

* أما الكتاب : فهو « الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ أوثق كتب السنة الصحاح مصدراً وأثبتها سنداً ، وقد اعتاد علماء الحديث أن يوثقوا ستة من كتب السنة هي : صحيح مسلم ، وسنن أبي داود وسنن الترمذي ، وسنن ابن ماجه ، وسنن النسائي مع صحيح البخاري ، وجرى بعضهم على إضافة مسند الإمام أحمد بن حنبل إلى هذه الستة ، وقد اتفقوا جميعاً على أن صحيحي البخاري ومسلم أولها مرتبة وفضل معظمهم صحيح البخاري على صحيح مسلم .

* وهو أوّل كتاب في الحديث يوضع على أساس منهجي بالنسبة لرواته ، فقد سمع البخاري كما علمنا ، من أكثر من ألف من المحدثين ، وبلغت الأحاديث التي سمعها في بعض الروايات ستمائة ألف ، إلاّ أنه لم يثبت منها إلاّ سبعة آلاف ومئتين وسبعة وتسعين حديثاً فيها مكررات وموقوفة ، فإذا حُذف المكرر واقتُصر على الأحاديث الموصولة السند لم تزد أحاديثه على ألفين وسبعمائة واثنين وستين حديثاً .

* وقد حرص إمامنا على أن لا يثبت في صحيحه إلاّ الحديث المتفق على ثقة اتصاله بالصحابي المشهور من غير اختلاف بين الثقات في الإثبات ،وأن لا يثبت إلاّ ما كان إسناده متصلاً غير مقطوع (إلاّ نادراً) ، على أن يكون كلّ من رواته مسلماً صادقاً غير مدلّس ولا مختلط ، عدلاً ضابطاً سليم الذهن

قليل الوهم سليم الاعتقاد ... وكانت شروط البخاري أقسى شروط وضعت في قبول الحديث.

* ولما كان إمامنا فقيهاً فقد أثر هذا في ترتيبه للكتاب ، فقد قسم على أبواب الفقه ، فبدأ بالوحي وثنى بالإيمان والعلوم والطهارة والصلاة والزكاة ، ثمّ الصوم والحج ، ثم البيوع والرافعات والشهادات والصلح والوصية والوقف والجهاد ، ثمّ أبواب أخرى في فضائل الصحابة والسيرة والتفسير ، ثمّ عاد إلى الفقه ، ثمّ إلى أصول الفقه والتوحيد ، وقد بلغت عدّة كتب الجامع الصحيح سبعة وتسعين ، وبلغت عدّة أبوابه ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسين .

* وبما أن الحديث الواحد قد يدلّ على معان متعدّدة فقد اضطر البخاري إلى تقطيع الأحاديث وتكرارها في الأبواب استشهاداً بالحديث في كلّ موضع يستدل به فيه .

* كان هذا الكتاب أساساً لدراسات كثيرة قامت عليه شرحاً وتعليقاً وتفصيلاً وقد اعتبر علماء الحديث عمله رائداً في هذا الميدان، ومن أهم الدراسات التي أنشئت حوله : فتح الباري لابن حجر العسقلاني ، وإرشاد الساري للقسطلاني.

* قال الحاكم أبو أحمد موضحاً أهمية هذا الكتاب لمن جاء بعده : « وكلّ من عمل بعده فإنما أخذه من كتابه » . وقال ابو الحسن الدارقطني الحافظ : « لولا البخاري لما اح مسلم ولا جاء » .

- ٩ -

الأديب المحدث : ابن قتيبة
(٢٧٦ هـ)

عالم غزير العلم واسع المعرفة متوقد الذهن منسق الفكر هو «أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري»

* ولد على أرجح الأقوال في الكوفة سنة ثلاث عشرة ومئتين من هجرة الرسول عليه السلام، من أصل فارسيّ، قضى معظم حياته في بغداد فأخذ عن علمائها علوم الحديث والفقه واللغة والتفسير والنحو والأدب والأخبار ، وأمضى شطراً من حياته في بلدة الدينور من بلاد الجبل حيث ولي القضاء فيها ، وألّف كثيراً من كتبه لذلك فقد نسب اليها .

* وكان عالمنا طاهر النفس عميق الايمان مستقيم الجادة ليّن العريكة متواضعاً ، لا يأنف أن يأخذ العلم من أيّ كان لأن الحكمة ضالة المؤمن ، وقّافاً عند الحق لا يستنكف أن يرجع عن الرأي إذا تبدّى له الحق في غيره ، يكره الخصومة واللّدد ترفعاً عن أن ينزلق إلى مهاوي الشطط والشتيمة والسباب .

* رسم لنا قواعد السلوك وأدب الحديث فقال : «ولا ترى غبناً أن يتكلم الناس وأنت ممسك، فإذا رأيت حالاً تشاكل ما حضر لها من القول أحضرته أو فرصة تخاف فوتها انتهزتها . وكان يقال : انتهزوا فرص القول ، فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب» .

* وقد تلقى ابن قتيبة العلم عن عدد من العلماء ذوي الاختصاصات المتنوعة لذا كان متنوع الثقافة غزيرها ، من هؤلاء أبو الفضل الرياشي عالم النحو واللغة ، وعبد الرحمن الأصمعي الذي كان حجة في الرواية وحفظ اللغة والأشعار ، وابراهيم بن سفيان الزيادي النحوي اللغوي ، وأبو حاتم السجستاني امام النحو واللغة والعروض والقراءات في عصره ، واسحاق بن راهويه المروزي النيسابوري المحدث أحد أصحاب الإمام أحمد بن حنبل ، وقد أثر عليه هذا الأخير خاصة ، وإنك لتلمس ذلك في اتجاهات ابن قتيبة وكتاباته .

* وكان عالمنا مثالاً للرجل المثقف الذي يمثل ثقافة عصره ، فقد تناولت مصنفاته جميع معارف عصره ، فله مؤلفات في الأدب والنحو واللغة والتاريخ والفلك ، وله مصنفات في القراءات ، وله كتابات في الحديث والفقه ، وله مشاركة في التاريخ وغيره من العلوم والفنون .

* وكان الجميع متفقين على وصفه بسعة الثقافة وغزارة المادة ، كما كان مشتهراً بعقليته المنظمة وفكره المنسق ، قال عنه السيوطي : «كان رأساً في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس ، ووصفه القفطي بقوله «هو صاحب التصانيف الحسان في فنون العلم ، ثقةٌ دينٌ فاضل ، صادق فيما يرويه ، كثير التصنيف والتأليف »

* وكان ابن قتيبة الى جانب ذلك كله داعية كبيراً للاسلام ، حمل لواء الدفاع عن الاتجاه الإسلاميّ الصحيح ، ووقف يصدّ عنه سهام المتكلمين والفلاسفة وغيرهم ممن كانوا يعتبرون في نظره خطراً على العقيدة ، فكان سياجاً منيعاً يحمي الدين من ضلال العقول التي ظنت أن حرية الفكر تعني التخلي عن جميع مقومات الشخصية الأصيلة في الأمة .

* هذا ولا بدّ من أن نذكّر ونحن نتحدث عن هذا العالم الجليل بخطأ كبير وقع فيه عدد من الكتاب قديماً وحاضراً وهو أنهم نسبوا من جملة ما نسبوا له من تصانيف كتاب الامامة والسياسة وفيه أغاليط كثيرة وبعد عن جادة الحق والصواب ، وقد اثبت التحقيق العلمي بما لا يدع مجالاً للشك أن نسبة هذا الكتاب اليه كان

خطأً شنيعاً لا يجوز الوقوع فيه ويجب أن ينبه إليه ويشار الى خطره .

* خلّف ابن قتيبة الدينوري عدداً من المؤلفات من أهمها : الأنواء · المعاني الكبير ، شكل القرآن ، غريب القرآن ، تأويل مختلف الحديث ، فضل العرب ، الشعر والشعراء ، عيون الأخبار ، المعارف ، الرّد على الجهمية والمشبهة .

* توفي رحمه الله سنة ست وسبعين ومئتين هجرية بعد حياة حافلة بالتأليف والدفاع عن العربية والاسلام .

* * *

أما الكتاب ، فهو عيون الأخبار الذي يعدّ من أشهر مؤلفـــات ابن قتيبة ، فهو يقدم للقارىء مادة طيبة تصقل ذهنه وتؤدب نفسه وتزيد من معرفته ، وضعه مؤلفه الكبير ليستفيد منه الخاصة والعامة على السواء .

* والكتاب مقسم إلى أربعة مجلدات كبار ، اختص المجلد الأول بالحديث عن السلطان والحرب والمفاخر والسؤدد ، وعرض المجلد الثاني للطبائع والأخلاق والعلم والبيان وأورد مجموعة من الخطب الشهيرة في التاريخ الإسلامي وعرّج بعدها على الزهد والزهاد والمواعظ المؤثرة المعروفة ، أما المجلد الثالث فقد تناول موضوعات الاخوان والعلاقات التي تقوم فيما بينهم وبعض الآداب الاجتماعية ، واختص المجلد الرابع بالحديث عن النساء وأخلاقهن المحمودة والمذمومة .

- ١٠ -

مؤرخ فتوح البلدان : البلاذري
(٢٧٩ هـ)

* عندما يذكر أصحاب السير والمغازي والفتوح ، فإن احمد بن يحيى بن جابر البلاذري يحتل مكان الصدارة بينهم . وحينما تصنف كتب المعارك الاسلامية في فترة المدّ الاسلاميّ فإن كتاب «فتوح البلدان» يأتي في الطليعة بينها جميعاً .

* ولد البلاذريّ في أواخر القرن الثاني للهجرة وفي بغداد عاصمة الدولة الاسلامية آنذاك ، ونشأ في عصر من أخصب عصور الفكر الاسلامي ، فقد كان المسلمون يفتحون النوافذ على العالم المعروف ، ينقلون علمه وأدبه وفنه ، يترجمون ثقافة فارس والهند واليونان ، ويغنون حضارتهم بالمفيد الطريف ، وقد يغالون فيأخذون من هذه الثقافات دون حساب أو تقويم سليم ، يدفعهم إلى ذلك شوق إلى المعرفة عظيم ورغبة في الاحاطة بكل ما عند الأقوام الأخرى من أسباب الحضارة والعمران .

* وكان صاحبنا من هؤلاء الذين ساهموا في نقل ثقافة الفرس والروم عدا عن احاطته بعلوم هاتين الأمتين ، وقد نُشّيء تنشئة علمية جيدة ، فدرس على علماء بغداد ، وحضر حلقاتهم في الحديث والأدب والسير ، ثم انتقل إلى الشام فسمع من علماء دمشق وحمص وحلب ، ثم زار منبج والرقة وانطاكية والثغور والجزيرة

فاكتسب من هذه الرحلة ثقافة جديدة ، وأخذ من أهل هذه البلاد أخبار فتوحهم واثبتها في كتابه العظيم «فتوح البلدان»

• اتصل البلاذري بعدد من خلفاء بني العباس ودرّس عدداً من أبنائهم ، ومنهم من تولى الخلافة بعد ذلك ، وكان أول اتصاله — وكان شابّا — بالخليفة المأمون ، ثم أصبح صاحب حظوة عند الخليفة المتوكل ، يجالسه ، فينادمه ويحادثه ، وعلت مرتبته عند الخليفة المستعين بالله ، لكنه بعد أن قتل هذا الأخير ، قرر اعتزال مجالس الخلفاء والكبراء والانصراف الى الكتابة والتأليف ، فقدم لنا كتباً جيدة بقي لنا منها كتابان جليـلان هما : انساب الاشراف ، وفتوح البلدان .

• ولم يكن مؤرخنا في كتبه وخاصة «الفتوح» مجرد ناقـل عن الآخرين وإنما كان ينتقي من المواد الخصبة التي يجمعها ، ويهتم بأمور عديدة أهملها كثير من المؤرخين فقد كان يُعنى بماله علاقة بتاريخ الحضارة والنظم الاجتماعية ، كحديثه عن الدواوين ونقلها إلى العربية ، وتنظيمات الخطوط والنقود ، كما كان يهتم ببيان وضع ملكية الأرض في البلاد المفتوحة وتسجيل احكام الخراج والعشر في مختلف مصادرها ،

• وتظهر شخصية البلاذري بملاحظاته النقدية القيمة ، مع تقويم الأخبار وترجيح بعضها على بعض مما لا تجده عنه الآخرين .

• وعلى الرغم من صلته بعدد من الخلفاء العباسيين إلا أنه لم يكن يُغرق كتابه «الفتوح» بمديحهم ، ولا يُعرف مؤلّفٌ في الفتوح بعده يُعتمد عليه ، حتى قال المسعودي عنه في مقدمة مروج الذهب«لا نعلم في فتوح البلدان أحسن منه ، وقد نقل عنه ياقوت في معجم البلدان نقولاً كثيرة واعتمد عليه وجعله من مصادره .

• أما «أنساب الاشراف» فقد بدأه البلاذري بسيرة النبيّ وسيرة الصحابة ، ثم أورد العباسيين بعد العلويين ، وبني عبد شمس بعد بني هاشم ، وذكر

الامويين في بني عبد شمس لكنه لم يفرد لهم مكاناً خاصاً ، ثم تحدث عن بقية قريش وبطون أخرى من مضر وشغل الجزء الأخير من كتابه عن قيس ، وخص بالذكر منهم ثقيفاً واستفاض في سيرة الحجّاج .

• توفي البلاذري في آخر خلافة المعتمد سنة تسع وسبعين ومئتين من هجرة الرسول عليه السلام وقد تجاوز الثمانين من عمره

رحمه الله وجزاه عن المسلمين خير الجزاء .

- ١١ -

شيخ المفسرين والمؤرخين
أبو جعفر بن جرير الطبري
(٣١٠هـ)

هو المفسر الشهير والمؤرخ الكبير والفقيه المتمكّن أبو جعفر محمد بن جرير الطبري .

* وُلد عالمنا في أواخر عام مئتين وأربع وعشرين من هجرة الرسول عليه السلام ، في مدينة آمل عاصمة إقليم طبرستان، وكانت مركزاً كبيراً من مراكز الثقافة الإسلامية آنذاك ، فقد خرجت كثيراً من العلماء والمفكرين .

* وكان العصر الذي عاش فيه أعظم العصور الإسلامية ثراء بالعلم والعلماء فقد استقرت المذاهب الفقهية الأربعة ، واكتملت اتجاهات التفسير بالمأثور والرأي ، ووضعت كتب المغازي والسير ، وجمعت معظم كتب السنّة ، ونضجت علوم اللغة ، وترجمت كتب اليونان وفارس والهند ، وزخرت المكتبات العامة والخاصة بالمؤلفات في كلّ علم وفن ، وافتتحت المدارس والمعاهد على مختلف المستويات في جميع أرجاء العالم الإسلامي ، الذي كان يشكل معظم العالم المعروف آنذاك .

* وقد عاش أبو جعفر الطبري حياة مديدة عاصر فيها عدداً من الخلفاء ورافق ظهور عدد من الدول ، وكان معاصروه من الخلفاء ، المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمكتفي والمقتدر ، أما الدول

التي نشأت في حياته فهي الدولة الطولونية والدولة السامانية والدولة الحمدانية .

* طوّف أبو جعفر في أرجاء العالم الإسلامي كعادة العلماء في عصره، يستقي من ينابيع الثقافة في جميع الحواضر الإسلامية ، فقد درس علومه الأولى في مدينة آمل ، ثمّ تنقل بين مدن طبرستان يدرس التاريخ والفقه ، ثم يعزم على السفر إلى بغداد ليسمع من الإمام أحمد بن حنبل ، ويتوجه إليها ، لكنه يعلم بوفاته قبل أن يصل إليها ، فيتجه إلى البصرة ، ثمّ إلى الكوفة ، فيتلقى الحديث على أيدي كبار علمائه ، ويكشف الجميع فيه حافظة قوية ونبوغاً نادراً .

* وإذا كان قد أحجم عن دخول بغداد بعد سماعه نبأ وفاة الإمام ابن حنبل ، فإنه يشعر أن من الواجب عليه أن يقصدها لأن فيها جلّة العلماء والفقهاء ، وهكذا اتجه نحوها وأقام فيها مدة درس فيها علوم القراءات وتلقى الفقه الشافعي ، لكن شوق الطبري إلى المعرفة ، دفعه إلى السفر إلى الشام ليتعرّف على اتجاهات التفكير فيها ، ثمّ يمم وجهه شطر مصر ، وكان فيها عدد من كبار فقهاء الشافعية كالربيع بن سليمان المرادي ، وإسماعيل بن إبراهيم المزني ، فتلقى عليهم وناقشهم في بعض آرائهم ، وفي مصر تهيأ له أن يلتقي بمحمد ابن إسحاق بن خزيمة ، صاحب السيرة المشهورة ، وقد اعتمد الطبري عليها في تاريخه فيما بعد اعتماداً كبيراً .

* وقد غادر ابن جرير مصر متوجّهاً إلى بغداد ثمّ إلى مسقط رأسه في طبرستان ، لكن بغداد اجتذبته إليها ، فعاد إليها وأقام بها ، منقطعاً للتدريس والتأليف طيلة حياته .

* وكان عالمنا نزيهاً ورعاً حسن القراءة للقرآن الكريم ، كريم النفس أبيّاً ، لا يقبل الهدية إلاّ إذا كان قادراً على المجازاة بمثلها ، شجاعاً ، جريئاً في إعلان ما يعتقد أنه الحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم . وكان مع ذلك متواضعاً دمث الخلق ، لا يباهي بعلم ولا يفاخر بظفره في مناقشة أو مناظرة ، مع لطف في المعشر ومضاء في العزيمة .

* جمع عالمنا أطراف الثقافة كلّها ، فقد كان شديد الكلف بالمعرفة ، دائب التطلّع للاستزادة منها ، لذلك نجد أنه يؤلف في علوم الدين من قراءات وتفسير وحديث وفقه وأصول وتوحيد ، وفي العلوم الأدبية ، من لغة ونحو وصرف وعروض وبلاغة، وفي التاريخ والمنطق والجدل والحساب والجبر والطب ، على أن أعظم شهرة الإمام الطبري تعود إلى علوم ثلاثة :

التفسير : فقد كان صاحب اتجاه خاص فيه ، يدل على ذلك تفسيره الذي ما يزال من أهم مصادر معرفة كتاب الله حتى الآن .

والتاريخ : فقد كان مؤرخاً شهيراً ، وما يزال تاريخ الطبري أوّل كتب التاريخ الإسلامي شهرة ورواجاً .

والفقه : فقد كانت له فيه آراء كثيرة تدل على اجتهاد وقدم راسخة ثابتة .

*** ترك لنا ابن جرير مؤلفات كثيرة من أهمها : جامع البيان في تفسير القرآن ، وتاريخ الأمم والملوك ، واختلاف الفقهاء ، وأدب النفوس ، وكتاب القراءات وتنزيل القرآن .**

*** وكانت وفاته ببغداد سنة عشر وثلاثمائة من هجرة الرسول عليه السلام ، عن عمر قارب التسعين عاماً ، قضاها بالدراسة والتدريس والتأليف ، تغمده الله برحمته ورضوانه .**

* * *

* أما الكتاب : فهو تاريخ الأمم والملوك لإمامنا الطبري ، وهو اوّل كتاب في التاريخ العام ، أكمل به ما ابتدأه السابقون ، وقد ضاع أكثر ما دوّنه هؤلاء وبقي ما سجله الطبري فحفظ لنا تراثاً نفيساً باقياً على الزمان ، حتى أصبح مصدراً للباحثين إلى اليوم ، وخاصة في أخبار العرب في الجاهلية .

* كذلك فقد سجل هذا التاريخ كثيراً من الحقائق الإسلامية الموثقة بالإسناد إلى أصحابها ، ولولاه لضاعت في موجات الزمان ، أما عن تاريخ الفرس فقد

حوى الكتاب حقائق لا توجد في غيره ، ولا يستطيع إغفالها من يريد الوقوف على تاريخ هذه الأمة الضاربة في القدم ، وكذلك ما كتبه عن تاريخ الرومان ، فقد جاء دقيقاً كلّ الدقة ، لأنه نقل ذلك عن وثائق صحيحة ثابتة .

* ينقسم كتاب تاريخ الأمم والملوك إلى قسمين كبيرين : **يتناول أوّلهما ما قبل الإسلام ويتناول ثانيهما تاريخ الإسلام حتّى زمنه .**

* ابتداء القسم الأوّل ببدء الخليقة على عهد آدم عليه السلام ، ثمّ عرض للأنبياء من نوح إلى عيسى عليهم السلام ، وأرّخ للفرس والروم والعرب واليهود متقصياً تاريخ هذه الأمم منذ القدم ، حتّى انتهى هذا القسم بذكر أجداد النبي عليه السلام وطرفاً من أخباره قبل البعثة .

* أما القسم الثاني فيبدأ بحياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأخباره وغزواته ، ثمّ تاريخ الخلفاء الراشدين وفتوحهم ، والدولة الأموية ، والدولة العباسية حتّى سنة اثنتين وثلاثمائة للهجرة .

* وكان حريصاً ، وخاصة في التاريخ الإسلامي ، على ذكر الروايات المتعدّدة لكل حادثة ، وذكر سند كل رواية موصولاً إلى صاحبه على طريقة علماء الحديث ، وإذا أخذ من كتاب أشار إليه ، كلّ ذلك زيادة في الدقة وتحري الصحة في كتابته .

* وقد سلك في كتابته للتاريخ الإسلامي طريقة الحوليات المعتمدة على توقيت الأحداث بالسنين والشهور والأيام فذكر في كلّ سنة ما وقع فيها من أحداث تستحق الذكر ، فإذا كانت الحادثة تستغرق سنوات جزّأها أو أشار إليها ثمّ عاد إليها بالتفصيل في موضعها الملائم ، أما الأخبار التي لا ترتبط بزمن معين فقد كان يختم بها الحديث عن كلّ خليفة .

* كان كتاب تاريخ الملوك أساساً لكثير من كتب المؤرّخين أمثال مسكويه وابن الأثير وأبي الفداء وابن خلدون ، وأشار إلى ذلك ابن الأثير في مقدمة كتابه الكامل بقوله :

« فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الإمام أبو جعفر الطبري إذا هو الكتاب المعول عليه عند الكافة ، والرجوع إليه عند الاختلاف» .

* ترجم الكتاب إلى اللغة الفارسية منذ القرن الرابع عشر الميلادي ، ثم ترجم إلى الفرنسية وبعض اللغات اللاتينية وعدد من اللغات الأخرى ، جزى الله مؤلفه عنا وعن الإسلام خير الجزاء .

- ١٢ -

عالم العقائد : عبد الجبار الهمذاني

(٤١٥ هـ.)

* مفكر كبير في شئون العقيدة الاسلامية ، وقاض عظيم من قضاة دولة الاسلام ، هو قاضي القضاة (ابو الحسن) عبد الجبار بن أحمد الهمذاني .

* ولد ابو الحسن في مدينة أسد أباد في حوالي سنة عشرين وثلاثمائة من هجرة الرسول عليه السلام ، وتلقى دروسه الأولى في اسد أباد وقزوين على أيدي علماء معروفين منهم الزبير بن عبد الواحد الحافظ الثقة وابو الحسن بن سلمة القطان ، ثم انتقل إلى همذان سنة اربعين وثلاثمائة وسمع بها الحديث ، وشد الرّحال بعدها إلى اصفهان فقرأ على جماعة من العلماء ، إلى أن حطّ به المقام أخيراً في البصرة وهي حينئذ مركز كبير من مراكز الدراسات الاسلامية والاعتقادية منها بوجه خاص .

* ثم انتقل منها إلى بغداد يدرس ويدرّس وعندما شعر بحاجة إلى العزلة ليبدأ سلسلة تآليفه لجأ إلى بلدة رامهرمز حيث انقطع إلى الكتابة وبدأ فيها عدداً من كتبه الكبيرة .

* وفي السنة السابعة والستين وثلاثمائة استدعاه الصاحب بن عباد الوزير المشهور ليكون قاضياً للقضاة في مدينة الريّ وهي حينذاك من أكبر مراكز الحضارة الاسلامية فبقي فيها حتى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة هجرية ، وهي

مدة طويلة استقر فيها القاضي عبد الجبار في تلك المدينة العظيمة ولم يغادرها إلا إلى الحج أو إلى البلدان المجاورة كاصفهان والعسكر في زيارات قصيرة .

* وكان من أهم ما يتصف به أبو الحسن تلك الشخصية الجادة الهادفة ، فلم يعرف عنه انه شارك فيما كان ينغمس فيه بعض رجال الدولة آنذاك من ترف ومجون ، وكان باستطاعة القاضي لو أراد أن يحضر كثيراً من مجالس اللهو التي كان يدعو ويدعى اليها الكبراء من أركان الدولة ، ولكن كان يترفع عن ذلك حتى عرف الجميع عنه هذا الخلق ، فكان الصاحب بن عباد يقول : « ان الناس تشرف بالعلم ، والعلم يشرف بقاضي القضاة » .

* ومما كان يتصف به أيضاً ، اعتداده الكبير بنفسه ، واعتزازه بعلمه وشخصيته ، ومن أجل ذلك كان الوزراء وكبار رجال الدولة البويهية وعلى رأسهم الصاحب يعاملونه بكل احترام وإجلال ويقدمونه في مجالسهم ، وروي عنه أنه كان يتواضع مع اصحابه ويتكبر عند العوام واصحاب السلطان ، وقد حدث مرة ان الصاحب حضر من سفر فخرج الجميع لاستقباله وترجلوا عند وصوله الا القاضي فأنه لم يفعل ما فعلوه وإنما قال : أريد أن اترجل ولكن العلم يأبى ذلك » .

* وكانت ثقافة عالمنا واسعة ومتنوعة ، ابتدأت بدراسة القرآن والحديث واللغة والفقه واصوله ، وانتهت إلى دراسة العقائد والمذاهب ، لذا فقد كثرت تصانيفه وتضخمت وتنوعت ، ويعتبر من أجود ما خلفه لنا كتاب تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد » عليه افضل الصلاة والسلام .

* ولأهمية هذا الكتاب وخرافة الموضوعات التي عرض لها والأسلوب الذي تناولها فيه ، كان موضع ثناء العلماء والكتاب متقدميهم ومُحَدثيهم ، فقد اثنى عليه ابن العماد وابن شهبة وابن تيمية ، وكتب عنه الشيخ الكوثري في مقدمة « تبين كذب المفتري » يقول « ولم نر ما يقارب كتاب تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار في قوة الحجاج وحسن الصياغة في دفع شكوك المتشككين » .

* والحقّ أننا نستطيع ان نعدّ هذا الكتاب الاول من نوعه في موضوعه ، ولا نعلم بين ما وقع في أيدينا ما يفوقه او يصل إلى مرتبته .

* توفي قاضي القاضي ستة خمس عشرة واربعمائة من الهجرة بعد حياة طويلة مديدة قضاها منذ الصبا في الدراسة والتدريس والتأليف .

رحمه الله رحمة واسعة وغفر له وأرضاه .

- ١٣ -

فلكي شهير : أبو الريحان محمد البيروني
(٤٤١ هـ)

أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، هو الرياضي والفلكي الشهير ، قال عنه العالم الألماني المعروف : (إنه أعظم عقلية عرفها التاريخ) وذلك بعد اطلاعه على مؤلفاته .

* وُلد عالمنا عام اثنين وستين وثلاثمائة من هجرة الرسول عليه السلام في ضاحية من ضواحي خوارزم وهي الآن مدينة صغيرة في جمهورية أوزبكستان السوفياتية وقد أطلق عليها اسم مدينة البيروني ، تخليداً لذكرى هذا العالم الكبير .

* تلقى علومه في موطنه خوارزم وكان محبّاً للمعرفة دائم الاطلاع واسع الخبرة باللغات حتى انه كان يتقن إلى جانب اللغة العربية ، الفارسية واليونانية والسريانية والسنسكريتية ، وكان هذا خير مساعد له في اتجاهه العلمي إذ استطاع أن يطلع على مصادر الثقافات المختلفة من مراجعها الأولى دون أن يعتمد كلية على الترجمات التي قد تمتلىء بالأخطاء في بعض الأحيان .

* أظهر أبو الريحان في تلك المرحلة اهتماماً خاصّاً بدراسة الرياضة والفلك والجغرافية والنحو ، كما كتب في مواضيع علمية أخرى كالاقتصاد والنبات ، واتصل بعدد من كبار مفكري عصره وعلى رأسهم الشيخ الرئيس ابن سينا ، ونشر عدداً من مؤلفاته حتى أصبح من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان وهو بعد شاب لم

يتعدّ الثلاثين من عمره .

* ثمّ انتقل إلى دراسة الفلك والأجرام السماوية والتدرّب العملي على رصدها ، وكان من نتيجة هذا الاتجاه الجديد مؤلفات عديدة ونظرية جديدة لأستخراج محيط الأرض ، واستخدم من أجل ذلك معادلة لحساب نصف قطر الأرض سميت بعد ذلك في أوروبا « قاعدة البيروني » وقد أخرج البيروني بعد تأليف كتاب الاسطرلاب تلك المعادلة من القوّة إلى الفعل ، مما جعل نللينو ، المستشرق الإيطالي المعروف ، الذي اهتمّ خاصة بمساهمات المسلمين بعلم الفلك ، يعترف بأن قياس المأمون وقياس البيروني لمحيط الأرض ، من الأعمال العلمية المجيدة والمأثورة للعرب » .

* وكان منهم عالمنا في الدراسة العامية يعتمد البحث والتجربة وسيلتين لتحصيل المعارف ، وكان يؤكد على سلوك المسلك الحسي القائم على القياس والاستقراء في طلب المعرفة ، ويحذر من الاعتماد على التقليد ، ويلحّ على التواضع والتجرّد والبعد عن الأفكار السابقة التي قد تضر بسير البحث ، ويرى أن من الواجب العودة إلى المراجع الأصيلة فيما يستعين به المرء أو ينقل عنه ، ومن أجل ذلك دعا إلى إتقان اللغات الأخرى ، كيما تتهيأ للباحث فرصة الرجوع إلى علوم الغير والاستفادة منها .

* وقد بيّن أبو الريحان أن التعصب عند الكتاب هو الذي يحول دون تقديرهم للحق، فقد دعا إلى « تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق ، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، كالعادة المألوفة والتعصب والتظاهر واتباع الهوى والتغالب بالرياسة وأشباه ذلك» . وهكذا فإن الروح العلمية التي كان يتصف بها أبو الريحان، وجرأته في الرأي هي التي جعلت المستشرق الالمــاني الدكتور شاخت يقول عنه : « إن شجاعة البيروني الفكرية وحبّه للاطلاع العلمي وبعده عن التوهم وحبه للحقيقة وتسامحه وإخلاصه ــ كلّ هذه الخصال ــ كانت عديمة النظر في القرون الوسطى فقد كان البيروني في الواقع عبقريّاً ؛

مبدعاً ذا بصيرة شاملة نفاذة ، وكان عالماً إلى جانب ذلك كلّه مؤمناً بإنسانية العلم والوحدة الشاملة التي يؤدي إليها ، والتفاهم العميق الذي يقيمه على أساس المنطق والحقيقة .

* صحب البيروني السلطان محمود الغزنوي إلى الهند وتنقل في حواضرها وبقي هناك مدّة تزيد على أربعين عاماً ، نشر فيها الثقافة الإسلامية وبعض علوم الحضارة الإفريقية ، وجمع عنها وعن أخلاقها وأديانها وطبيعتها معلومات صحيحة لم يتوصل إليها باحث قبله ، وأصبح بذلك من أوسع علماء المسلمين اطلاعاً على الهند ومعارفها .

* يقول سيديو في توضيح هذه الناحية « إن أبا الريحان اكتسب معلوماته المدرسية البغدادية ، ثمّ نزل بين الهنود حين أحضره « الغزنوي » يستفيد منهم الروايات الهندية المحفوظة لديهم ، قديمة أو حديثة ، ويفيدهم استكشافات أبناء وطنه ، وينقلها إلى كلّ جهة مرّ فيها ، وألّف لهم ملخصات من كتب هندية وعربية » .

* خلف البيروني عدداً كبيراً من المؤلفات يصل إلى مائة وثمانين كتاباً ، وقد ضاع الكثير من هذه المؤلفات ، وما بقي منها موزع في مكتبات العالم ، وتبذل دائرة المعارف العثمانية في الهند مجهودات ضخمة لإحياء هذا التراث العظيم ، كما بدأ بعض علماء العرب في العصر الحديث في تحقيق ما يحتويه هذا التراث من نظريات وآراء بعد أن كان الأمر قاصراً على المستشرقين الأجانب .

* ومن مؤلفاته مجموعة من الرسائل في علم الفلك والهندسة ، أثبت فيها تفوّقه في علوم الرياضيات على سائر علماء عصره ، ومنها كتاب تحديد نهايات الأماكن ، الذي يشتمل على عدد من القواعد والتعليمات في مسائل علم الفلك التطبيقي ، وكتاب القانون المسعودي نسبة إلى السلطان مسعود الغزنوي الذي أهدي الكتاب إليه ويعتبر أهم مؤلفات البيروني في الفلك وحساب المثلثات ، ومنها كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة » الذي سنتحدّث عنه بعد حين .

* لم ينقطع عالمنا عن الدراسة والبحث والتنقيب حتى لقي وجه ربه سنة إحدى وأربعين وأربعمائة هجرية ، ويروي ياقوت الحموي عنه وهو على فراش الموت القصة التالية : دخل قاض من أصحاب البيروني عليه وهو في حالة النزع وقد حشرج نفسه بـه وضاق صدره ، قال القاضي : فسألني : كيف قلت لي يوماً حساب الجدّار الفاسدة ، فقلت له إشفاقاً عليه : أفي تلك الحالة ؟ قال لي : يا هذا أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة الا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها » .

رحمه الله وأوسع له في الخلد مع العاملين الصالحين .

* * *

أما الكتاب : فهو « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » ، ويُعدّ هذا الكتاب من أكثر الكتب التي ألّفت عن الهند شمولاً وإحاطة ، وكان أبو الريحان البيروني دخل الهند مع السلطان محمود الغزنوي الذي استعان في حروبه ضد قوات الهند بالعلماء والأدباء وكان منهم عالمنا الذي صاحبه ثلاث عشر مرة في فتوحاته في تلك الغارة المترامية الأطراف .

* وكان قصد السلطان من استصحاب البيروني « أن يدرس أحوال الهنود ويجادل فلاسفتهم ويحذق لغتهم ويقرأ أشعارهم ، ويدرس تقاليدهم وثقافاتهم ، ويصل إلى أعماق مناهجهم في البحث والتفكير ، وهكذا تهيأ له ما لم يتهيأ لغيره من الباحثين ، من الظروف المواتية للدراسة والتنقيب ، وقد توّج هذه الدراسة بكتابنا هذا الذي يصف فيه حضارة الهند وأصولها العقائدية والعلمية ومعالمها الجغرافية ومبادئها الفلسفية .

ومع أن هذا الكتاب الذي ذاع بعد ذلك باسم تاريخ الهند لم يكن الأوّل الذي يتناول الهند وشعوبها بالدراسة ، إلاّ أن كلّ ما تقدمه من دراسات يبدو هزيلاً ضعيفاً إذا قورن بهذا العمل الجليل .

* ويبدو أن كتابنا لم يكتب دفعة واحدة ولعل عناوين بحوثه تدل على ذلك ، إلا أن صورته الأخيرة اكتملت ببلدة غزنة سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة هجرية وكان عالمنا قد بلغ الثامنة والخمسين من عمره ، أي أنه كان في أوج نضوجه العقلي والعلمي .

* وقد قسم الكتاب إلى ثمانين باباً تتحدث عن الكثير من الموضوعات الهامة مثل : معتقدات الهنود وشرائعهم ، وأحكام العبادات عندهم ، ونظام الطبقات في المجتمع الهندي ، وأنواع الخط ، وطرق الكتابة ، والنحو والشعر ، وتراث الهند الأدبي والعلمي ، ومعالمها الجغرافية ، وعلم الفلك عند الهنود ، وأنواع السنين ، والشهور والأيام ، وأحكام التنجيم .

* وكان من أهداف البيروني في هذا الكتاب تقديم الحقيقة التي لمسها بنفسه وسمعها بأذنه ، وقد أشار إلى هذا الهدف في مقدمة كتابه بقوله : « إنما صدق قول القائل : ليس الخبر كالعيان ، لأن العيان إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده ، وفي مكان حصوله ، ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر ، لقصورها على الوجود الذي لا تتعداه آفات الزمان » .

* أما عن أهداف الكتاب عامة فيمكن أن نتبينها من قول البيروني « وليس الكتاب حجاجاً وجدلاً حتى أستعمل فيه بإبراز حجج الخصوم ومناقشة الزائغ منهم عن الحق ، وإنما هو كتاب حكاية ، فأورد كلام الهند على وجهه ، وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله ، لتعريف المقارنة بينهم ، فإن فلاسفتهم وإن تحروا التحقيق فإنهم لم يخرجوا فيما اتصل بعوامهم من رموز نحلتهم ومواصفات ناموسهم ، ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم إلا أن يكون للصوفية أو لأحد أصناف النصارى لتقارب الأمر بين جميعهم في الحلول والاتحاد » .

* وعن اعتقادات أهل الهند عموماً وفلسفتهم الدينية كتب البيروني يقول : « ويعتقدون في الأرض أنها أرضهم ، وفي الناس أنهم جنسهم ، وفي الملوك

أنهم رؤساؤهم ، وفي الدين انه نحلتهم ، وفي العلم أنه معهم ، فيترفعون ولا يظنون أن في الأرض غير بلدانهم ، وفي الناس غير سكانها ، وأن للخلق غيرهم علماً غير علمهم ، حتى أنهم إن حدثوا بعلم أو عالم في خراسان وفارس استجهلوا الخبر ولم يصدقوه .

* وعلى الرغم من أن البيروني كان قد قرّر حين حدّد منهج الكتاب أنه لا يناقش معتقدات الهنود لأنه يكتب للخاصة الذين لا يعوزهم تقييد تلك المعتقدات أو نقدها ، إلاّ أنه كان يخرج أحياناً على هذا المبدأ الذي التزم به محاولاً المقارنة بين ما عند الهنود وما عند غيرهم من الشعوب ، ويفيض عن ذلك ويسترسل شأن العلماء المتمكنين .

* ومن ذلك أنه انتقد المنهج الذي أتبعه الهنود ، لأنه في رأيه غير علمي فلم يبعدهم علمهم عن الأوهام ، واستطاع بأسلوبه أن يبين بوضوح ، وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورية والأفلاطونية والحكمة الهندية والكثير من مبادىء الصوفية .

* وقد ذكر البيروني عن الترقيم في الهند « إن صور الحروف وأرقام الحساب تختلف باختلاف الأماكن ، وإن العرب أخذوا ما عند الهنود من أشكال الأرقام فهذّبوها وكوّنوا منها سلسلتين ، عرفت إحداهما بالأرقام الهندية ، وهي التي استعملها أكثر الأقطار العربية والإسلامية ، وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية ، وقد انتشر استعمالها في بلاد المغرب والاندلس وعن طريقها دخلت هذه الأرقام إلى أوربا وعرفت عندهم باسم الأرقام العربية .

وفي عام ١٨٨٧ نشر العالم الألماني (ادوارد سخاو) تاريخ الهند لأول مرة وكتب في مقدمته : « إن هذا السفر القيم تضمن فيما تضمنه الوفير من المعلومات الهامة ، التي كان يجهلها الكثيرون في عصر البيروني ، والأوربيون حتى العصور الحديثة » .

- ١٤ -

العالم الجريء : أبو محمد بن حزم
(٤٥٦ هـ)

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، عالم الأندلس الشهير ، والمفكر الإسلامي العظيم الذي ندر أن يجتمع لمثله ما اجتمع له من سعة الثقافة وقوّة الحجة وسلامة التفكير .

* وُلد ابن حزم في قرطبة سنة ٣٨٣ من هجرة الرسول عليه السلام ، من أسرة غنية عريقة في العلم والسياسة ، وكان أبوه أحمدُ سعيد كبيرَ وزراء الحاجب المنصور ثم ابنه المظفّر من بعده .

* وكان العصر عصر اضطراب سياسي ، فقد رافق عالمنا بداية تفكك الدولة الإسلامية في الأندلس ، وشاهد بعينه استقلال كلّ والٍ بولايته ، او ظهور ما يسمى بملوك الطوائف . وقد عاصر من هؤلاء بني جَهْوَر في قرطبة وبني عباد في إشبيلية ، وشارك في السياسة من أوسع أبوابها ، فولي الوزارة مرّتين ، لكنه عن طريق الوزارة عرف الطريق إلى السجن ، فطلق المناصب الوزارية واعتزل السياسة إلى غير ما رجعة .

* ولئن ترك شيخنا أبو محمد العمل السياسي إلاّ أنه لم يترك الاهتمام بشؤون المسلمين ، وانتقاد الحكام الذين كان بعضهم يسلّم الحصون إلى الروم دون قتال ، واستهجان مسلك من يتساهل بشؤون المسلمين ويهتم بمصالحه الخاصة .

* تلقى العلم عن عدد من العلماء المعروفين كأبي علي الحسين ابن علي الفاسي ، وأبي القاسم عبد الرحمن بن يزيد الأزدي — وقد تلقى عنه الحديث والنحو واللغة — وأحمد بن محمد الجسور أحد مشايخه في الحديث ، وأبي عبدالله ابن دحون الفقيه ، مفتي قرطبة ، وعبدالله الأزدي بن الفرضي الفقيه ، قاضي بلنسية ، ومحمد بن الحسن المذحجي أستاذه في الفلسفة وعلوم الأوائل .

* على أن شيخه أبا الخيار سعد بن سليمان بن مفلت كان أبلغ هؤلاء أثراً عليه لأنه لقّنه أصول الفقه الظاهري حتّى أصبح أكبر المدافعين عنه والداعين إليه ، وحتّى دفعه حماسه لمذهبه للدخول في مناقشات عنيفة مع أصحاب الآراء والمذاهب الأخرى ، وللانتقال بين بلاد الأندلس وشمالي إفريقيا حاملاً راية المذهب وأصوله .

* وقد عرف عن ابن حزم أنه يملك ذاكرة قوية ، وبديهة حاضرة ، وقدرة عجيبة على الاستدلال ، كما عرف عنه أنه لم يحصر نفسه في دائرة من دوائر الفكر ، فقد كان مفكراً موسوعياً وافر الثقافة ، كتب في كلّ علم وفنّ وأجاد في كلّ ما كتب .

* وكان شيخنا شجاعاً في الحق ، عنيفاً في الخصومة ، صلب الرأي ، لا يخشى لومة لائم ، ولا يحسن المجاملة أو المصانعة أو الرياء ، ولعل حملة العلماء عليه اشتدّت بسبب قسوته في الجدال ، فقد كان كما تحدّث عنه أحد معاصريه : « لا يلاطف صدعه بما عنده بتعريض ولا يزفه بتدريج ، بل يصكّ به معارضه صك الجندل وينشقه متلقيه انتشاق الخردل » .

* لكنه كان منصفاً لخصومه ، لا يستكبر أن يشهد لأصحاب الفضل منهم بالفضل ، ولا يتوخى في نقاشه تحقيق انتصار شخصي له ، وإنما يقصد الوصول إلى الحق ، وما أكثر ما كان ينتصر على خصومه في المناقشة ثمّ يذهب إلى بيته فتحضر له فكرة فيتتبعها فيكشف أن الحق إلى جانب خصمه ، فيعود إلى المجلس الذي شهد انتصاره ليعلن عودته إلى الحق .

من أجل ذلك قسم عالمنا الجايل الجدل إلى نوعين : ممدوح ومذموم ، فأما الممدوح من الجدل فشعاره قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن ، إلاّ الذين ظلموا منهم » ، وأما المذموم من الجدل فهو الذي يكون بغير علم ، ويتوخى مناصرة الباطل والشغب والتمويه بعد ظهور الحق .

* كتب ابن حزم في المنطق والجدل والكلام والفقه والأصول وعلم النفس والأخلاق والتاريخ والأنساب ، وكان شاعراً أديباً . ومن أشهر مؤلفاته : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، المحلّى في الفقه ، الإحكام لأصول الأحكام ، جمهرة الأنساب ، جوامع السيرة ، المفاضلة بين الصحابة ، الأخلاق والسير في مداواة النفوس ، طوق الحمامة .

* من أقواله : « أزهدُ الناس في عالمٍ أهلُه » ، « الحق لا يصير حقّاً بكثرة معتقديه ، ولا يستحيل باطلاً بقلّة منتحليه » ، « إن لم يكن بدّ من إغضاب الناس أو إغضاب الله ، ولم يكن مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الخالق ، فأغضب الناس ونافرهم ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق » ، « المخلص من إذا عمل خيراً لا يهمه أن يحمده الناس » .

رحم الله أبا محمد وأوسع له مع الخالدين .

* أما الكتاب الذي نعرضه لابن حزم دون سائر كتبه فهو « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، وذلك لأنه من أجمع البحوث المستقصية في الديانات والنبوات ، وآراء الفلاسفة والخلاف بينهم وبين أصحاب الملل ، والردّ على منكري الألوهية ومعتنقي الأديان المخالفة للإسلام .

* سبق عالمنا بكتابة هذا أوروبا ببضعة قرون ، لأن تأريخ الأديان في أوروبا لم يعرف إلاّ في منتصف القرن التاسع عشر ، ويعد الكتاب مثلاً رائعاً على مقدرة ابن حزم الهائلة على الجدل ، وطول باعه في المناقشة ، وصلابة عوده في مضمار التحدي الفكري .

* وقد عرض فيه لجميع الاتجاهات الفكرية التي عرفها تاريخ الإنسانية

حتى عصره ، سواء منها ما كان دينياً أم فلسفياً ، وهاجم الأفكار المخالفة هجوماً شديداً ، وكان للسوفسطائيين والنسبيين واللاأدريين النصيب الأوفى من هذا الهجوم .

• أما في عرضه للفرق الإسلامية فإن ابن حزم لم يكتف بدراسة آرائها ، ومعرفة أدلتها ، وإنما كان يدرس إلى جانب ذلك مختلف البواعث النفسية والاجتماعية التي ساعدت على كثرة هذه الفرق وتشعبها مع اهتمامه في الوقت نفسه بالكشف عن الأسباب التي جعلتها تختار هذه الآراء .

• اعتمد شيخنا في نقاشه للأديان والملل والفرق على أساسين : أولهما : المبادىء العقلية المقرّرة في أوائل الحس وبدائه العقل ، وثانيهما : النصوص ، وهو يرفض في نقاشه بوحي من مذهبه الظاهري نظريات التأويل والباطن لأن دين الله ظاهر لا سرّ تحته ، ولأن الرسول لم يكن عنده سرّ ولا رمز ولا باطن إلا ما دعا الناس جميعهم إليه .

• أيها القارىء الكريم ، لقد جاءت بحوث عالمنا في « الفصل » في مستوى من الفهم والإحاطة والشمول بحيث أصبحت أساساً لمعظم الدراسات العقائدية ، وسيظل هذا الكتاب مثالاً يحتذى في الدراسة العميقة الجادة الهادفة .

- ١٥ -

أعجاز القرآن : عبد القاهر الجرجاني
(٤٧١ هـ)

أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، رجل من رجال العربية والاسلام ، وإذا قلنـــا ذلك، فلأن القرآن عربي ، ولغة الحديث والبحوث والدراسات التي كان للإسلام فضل بعثها في العالم هي العربية ، فالمحافظة على اللغة العربية والنهوض بها والدفاع عنها أمور لا تنفصل عن العمل الإسلامي لذلك رأينا جهود كثير من متعصبي المستشرقين والدعوات المنحرفة ، تنصب على تهديم كيان هذه اللغة ، والقضاء على أركانها ، لأنها لغة القرآن ولأنها من أهم عوامل حفظ الإسلام في هذا المعترك الدولي .

* وقد ظهرت الحماة على العربية في عصرنا الحاضر على أشكال متعددة ؛ فمرة تبدو بمظهر الإشفاق عليها والدعوة إلى تبسيطها ، ومرة تظهر بالدعوة إلى كتابتها بالحروف اللاتينية ، وأخرى بالدعوة إلى اللغة العامية ؛ وغيرها بأن يكون التدريس العالي باللغة الأجنبية وهكذا .

* وقد كان للجرجاني جهود موفقة تركت أثرها الكبير على اللغة العربية وبيان جمالها وتميزها ، كما كان موفقاً في عرضه لدلائل الاعجاز القرآني البلاغي ، لذلك استحق منا أن نقف عنده وقفة متأنية ، وأن نصنفه في أعلام الفكر الإسلامي .

* وُلد الجرجاني في أوائل القرن الخامس الهجري من أسرة فارسية رقيقة الحال ، ولا مجال لأن تعجب إذا علمت أنه فارسي ، فقد كان الكثير من علماء العربية والإسلام من أهل فارس فقد وحّد الإسلام بين هذه الشعوب وجمعها على عقيدة واحدة فكانت مصادر تفكيرها واحدة وكان ما يصدر عنها من نتاج الفكر واحداً .

* وكان العصر الذي عاش فيه عصر حروب ومغامرات بين طلاب الملك والسلطان ولكنه من جانب آخر عصر يرث جهود أربعة قرون بذلها العلماء في الدرس والتحصيل والإنتاج ، لذا فقد تعدّدت ينابيع الثقافة فيه ، وتنوّعت المذاهب الاعتقادية والاجتهادية ، وكان على عالمنا أن يتبين طريقه خشية التيه والضلال .

* درس على عدد من الأساتذة المشهورين في جرجان ، ثمّ عكف الجرجاني بعد ذلك على الكتب يقرؤها بفكر مستنير وعقلية منظمة ، فتعرف عن طريق القراءة إلى سيبويه والجاحظ ، وابن قتيبة ، وأبي علي الفارسي ، والقاضي الجُرْجاني ، وأبي هلال العسكري ، وقرأ كتاب الألفاظ للهمذاني ، والشعر والشعراء للمرزباني ، والإيضاح للزجاجي .

* ومع أنه كانت له مساهمة في العلوم الفقهية والاعتقادية إلاّ أن شهرته كانت في علوم العربية ، فكان إنتاجه موزعاً بين النحو والأدب . وقد ذاع صيته في البلاد وقصده طلاب العلم من كل مكان يقرأون عليه كتبه ويأخذونها عنه .

* وقد عرف عالمنا بالورع والتديّن الشديد حتى انهم حدثوا بأن لصاً دخل عليه وهو في الصلاة فأخذ ما وجد ولم يقطع صلاته ، كما كان قنوعاً كريم النفس لا يتملق العظماء ليغدق عليه المال ، وقد قال في ذلك شعراً وهو شاعر كبير :

خلع الناس إهاباً وتبدّوا في إهابِ
وأرى نفسيَ تأبى غيرَ ما كان ثيابيَ
ليس بالإقبال ما نيـ ـل بتقبيل الكلابِ

إن باغـــــي الربح والخسـ ـران في بـــــابٍ وبـــــابِ
تـــاجـــر غـــير بصـــير بمقـــاديـــر الحســـابِ

* أعجب مؤرخوه بعلمه وخلقه ، وكتب عنه أحد معاصريه يقول : «اتفقت على إمامته الألسنة ، وأثنى عليه طيب العناصر ، فهو فرد في علمه الغزير ، لا بل هو العلم الفرد في الأئمة المشاهير .

* ترك لنا عبد القاهر آثاراً كثيرة في النحو والصرف والبلاغة وتفسير القرآن والعروض ، ثمّ مختارات من الشعر ، ومن أهم هذه الكتب شرح المبسوط ومختصره ، الإيجاز ، الجُمَل في النحو ، العمدة في التصريف ، شرح الفاتحة ، أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز .

* ووافته المنية في جرجان بلده التي لم يغادرها طيلة حياته سنة ٤٧١هـ على أرجح الأقوال ، تغمده الله بفضله ورضوانه .

* * *

أما الكتاب : فهو «دلائل الإعجاز» ، من أشهر كتب الجرجاني ، وكان أبو بكر ألّف في هذا الموضوع كتاباً آخر سمّاه الرسالة الشافعية في الاعجاز بيّن فيه جُمَلاً «من القول في بيان عجز العرب حين تحدوا إلى معارضة القرآن وإذعانهم وعلمهم أن الذي سمعوه فائت للقوى البشرية ومتجاوز للذي يتسع له ذرع المخلوقين».

* وفي دلائل الاعجاز يتابع توضيح هذا الموضوع الهام واقفاً وقفة خاصة عند قول بعض المفكرين المسلمين بالصرفة ، أي إن الله صرف العرب بقدرته عن معارضة القرآن .

والجرجاني يرفض هذا القول لأن القرآن معجز بنفسه لبلاغته وفصاحته ، فالله جلّ وعزّ جعل معجزة كلّ نبيّ فيما كان أغلب على الذين بعث فيهم وفيما كانوا يتباهون به ، ولم يكن ذلك في عهد رسول الله إلاّ البلاغة والبيان.

• وقد كتب في ردّ مذهب أصحاب الصرفة قائلاً: «إنه لو لم يكن عجزهم عن معارضة القرآن وعن أن يأتوا بمثله لأنه معجز بنفسه، لكن لأن أدخل عليهم العجز عنه وصرفت هممهم وخواطرهم عن تأليف كلام مثله، لكان ينبغي ألاّ يتعاظمهم ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمره وتعجبهم منه وعلى أنه قد بهرهم وعظم كل العظم عندهم» نتيجة لذلك فقد عدّ عبد القاهر مثل هذا المذهب لا اعتداد به وقرر أن العقلاء قد اتفقوا على أن الوصف الذي تناهى بالقرآن إلى حدّ عجز عنه المخلوقون هو الفصاحة والبلاغة.

• وقد اقتضى ذلك من أديبنا وعالمنا أن يبين معنى الفصاحة والبلاغة، فمضى يوضح معناهما فيما بقي من الكتاب، مستشهداً بأمثلة وافية من القرآن والشعر وأقوال العرب.

• ولما كان الجرجاني يؤمن بأن الشعر من مظاهر البلاغة التي لا تنكر يجد من واجبه أن يقف وقفة خاصة عند ما ورد في القرآن الكريم من منع الرسول عليه السلام من تعلم الشعر، ومن ذمّ الشعراء. فيرى أن المنع ليس منع تنزيه وكراهية وإنما سببه أن الرسول عليه السلام كان معدّاً لأداء رسالة، وسبيله في هذا السبيل منع من الخط حين جعل الرسول لا يقرأ، فلم يكن ذلك لكراهة في الخط، بل لأن الحجة تكون أبهر وأقهر، والدلالة أقوى وأظهر.

• ومع مضي الزمن وتوالي السنين يكتسب كتاب دلائل الاعجاز كل يوم تقديراً جديداً مما يجعله ضرورياً لمكتبة كل مثقف مسلم.

- ١٦ -

امام الحرمين : أبو المعالي عبد الملك الجويني
(٤٧٨ هـ)

إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبدالله الجويني ،أحد كبار رجال الفكر الإسلامي في القرن الخامس الهجري ، وعلم من أعلام الدراسات الأصولية والعقائدية .

وُلد في جوين نيسابور من أعمال خراسان ، واختلف في موعد مولده ، والأرجح أنه كان في المحرّم من عام ٤١٩هـ ، وقد نسب إلى جوين كما نسب إلى نيسابور ، وجوين بلد من خراسان ولد فيها والده وعاش فيها معظم حياته .

* وقد لقّب بأبي المعالي لأنه قضى حياته في تحصيل ونشر العلوم الإلهية ، ولم يألُ جهداً في الله على إعلاء شأن الدين حيث جمع بين سلامة المنطق وقوّة الحجة ، ولقب بإمام الحرمين لأنه جاور في الحجاز متنقلاً بين مكة والمدينة مدة أربع سنوات كان خلالها يناظر ويلقي الدروس في المسجد النبوي في المدينة والمسجد الحرام بمكة المكرمه، ولقبه البعض كابن العماد وابن خلكان بضياء الدين لما كان عليه من القدرة على إنارة الطريق للمدافعين عن العقيدة ، فقد كان له الفضل الكبير في الردّ على الفرق الضالة المنحرفة .

* ونشأ إمام الحرمين في كنف والده العالم الجليل عبد الله ابن يوسف الجويني ، الذي كان له نعم المربي والموجه والمرشد ، فأخذ عنه الفقه ، ودرس المذهب الشافعي

في مدرسة أبيه التي كانت تتميّز بطابع ديني خالص ، ثمّ درس الخلاف والأصول وعلوم العربية ، حتى برز على من كانوا يتلقون العلم في مدرسة أبيه ، وتوج هذه الثقافة الواسعة بحفظ القرآن الكريم وما كادت تنتهي هذه المرحلة من حياة إمامنا الكبير حتى كان قد أتقن العلوم الإسلامية جميعها ، وأقرّ له العلماء بالتفوّق فيها ، مما جعل الناس يعدّونه إماماً من الأئمة وهو ما يزال في سن مبكرة . ويضاف إلى ذلك أنه وهب عقلاً راجحاً وذهناً لمّاحاً وميلاً إلى البحث والتمحيص ، وكان لا يقبل من آراء العلماء إلاّ ما اتفق مع عقله حتى انه كثيراً ما كان يرفض آراء والده ، فكان يزداد إعجاباً به وتقديراً لتفوّقه ونبوغه .

* وحتى لا يبقى جانب من جوانب المعرفة محجوباً عنه فقد خاض في العلوم على اختلافها ، ودرس الفلسفة اليونانية وغيرها ، وبعد أن حصّل منها ما حصّل اقتنع بما فيها من نقص وضعف وعدم قدرة على إيصال المرء إلى الحق كلّه ، لذلك فقد هجرها وأعرض عنها ، وقد قال في ذلك : « والآن قد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق ، عليكم بدين العجائز ، فإن لم يدركني الحق بلطف برّه فأموت على دين العجائز وتختم عاقبة أمري عند الرحيل على مذهب أهل الحق وكلمة الإخلاص ، فويل لابن الجويني — يريد نفسه — » .

وحين توفي والده ، وكان في سن العشرين ، لم يجد صعوبة في القعود للتدريس مكان ذلك الوالد ، يشفع له كلّ ما ذكرناه عن تحصيله ونبوغه ورجاحة فكره ، لكن عمله في التدريس لم يمنعه من استكمال علمه على أيدي مشايخ العصر وعلمائه ، فقد درس الفقه والتوحيد والأصول بتوسع وتفصيل على الإمام أبي القاسم الاسفرائيني ، وقد أخذ عنه كثيراً من أساليبه في المناظرة والتدريس والفتوى كما أخذ الحديث عن البيهقي ، وتردّد على شيخ القراء أبي عبد الله محمد بن علي النيسابوري فتلقى عنه علوم القرآن .

ثم ترك إمام الحرمين بلده نيسابور إلى العسكر ، ومنها إلى بغداد حيث ذاع صيته واشتهر أمره ، ثم رحل إلى الحجاز فأقام فيها أربع سنوات ، وعاد بـ . .

نيسابور حيث درس في المدرسة النظامية ، إحدى المدارس التي بناها الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك ، لتكون مركزاً للثقافة الإسلامية الأصيلة ، وحشد لها كبار العلماء من كل انحاء العالم الإسلامي .

وقد عاصر الجويني في نيسابور عدد كبير من العلماء المعروفين ، كعبد السلام القزويني ، وأبي بكر البيهقي ، وأبي القاسم القشيري ، ولا عجب في ذلك فإن العصر كان يفيض بالإنتاج العلمي الوفير في مختلف ميادين المعارف ، من كلامية وفلسفية وصوفية وفقهية .

استمرّ أبو المعالي في حياته الجديدة بين التدريس والتثقيف، وكان إنتاجه غزيراً لم يطبع منه حتى الآن إلاّ أربعة كتب ومناظرتان، ومن أهم مصنفاته في أصول الفقه : البرهان في أصول الفقه، والإرشاد في الأصول، وكتاب المجتهدين، ومن مصنفاته في أصول الدين : الإرشاد إلى قواطع الأدلة، والشامل ، وشفاء الغليل ، والعقيدة النظامية ، ولمع الأدلة، ومن مصنفاته في الفقه : نهاية المطلب في دراية المذهب ، في أكثر من عشرين جزءا ، ورسالة في الفقه ، ورسالة في التقليد والاجتهاد ... ويضيق بنا المجال عن استعراض جميع مؤلفاته وأبحاثه .

وفي ليلة الاربعاء الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وسبعين وأربعمائة أسلم إمام الحرمين الروح حيث توفاه الله بعد صلاة فجر ذلك اليوم ، رحمه الله وجزاه عنا خير الجزاء .

* * *

أما الكتاب : فهو : الإرشاد إلى قواطع الأدلّة في أصول الاعتقاد ، أشهر كتب الجويني في أصول الدين .

خصّص المؤلّف كتابه هذا لبحث اهم مسائل أصول الدين بحثاً متوسطاً لا تطويل فيه يملّ ولا إيجاز يخلّ بأهمية هذه الأبحاث . وقد قدّم له بان بيّن الأسباب التي دفعته إلى تصنيفه ، وتتلخص في رأيه بأن أصول الاعتقاد تحتاج إلى حجج وبراهين عقلية تثبتها .

وقد وضح الجويني معنى كلامه ، فهو لا ينتقص من قيمة المصنفات السابقة في أصول الدين ، ولكنه يعتقد أن أهل كلّ عصر لهم مطالب عقلية تخصهم ، وذلك لتطوّر الذهن الإنساني واختلاف التيارات الفكرية التي تسود كلّ عصر عن تلك التي تهيمن على العصر السابق له . ثمّ بدأ إمام الحرمين بشرح المسائل الأساسية في الأصول ، كإثبات حدوث العالم ، ومسألتي الجوهر والعرض ، لينتقل بعدها إلى بيان احتياج المحدَث أو المخلوق إلى محدث أو خالق وهو الله ، ثم تكلّم في الله وصفاته : ما يجب لله من الصفات ، وما يستحيل عليه ، وما يجوز من أحكام .

ومن جملة ما حرص عليه المؤلّف ، بيانه ان الله تعالى لا يريد الإيمان من عباده إجباراً وإنما اختياراً ، فالله سبحانه يريد أن يعطي عباده فرصة الاجتهاد وإعمال الفكر فيما يجب عليهم وما لا يجب من الأعمال ، هذه هي إرادة الله ، والحاصل ما أراده الله .

وقد تعرّض الإمام فيما تعرّض له إلى مسائل الرسالة والنبوة والمعجزة ، فهو يبحث في جواز النبوات ، ثمّ في المعجزات وشرائطها ، ثمّ في إيضاح وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول وينتقل بعد ذلك إلى نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام .

وفي رأيه ، أن دليل نبوة محمد هو القرآن ، ووجه الاعجاز في القرآن ما اختص به من الجزالة والنظم الذي فاق جميع أساليب العرب ، كما ان من وجوه إعجازه أضواؤه على قصص الأوّاين والنبي صلوات الله عليه وسلامه كان أمياً ، يضاف إلى هذه الوجوه اشتمالة على تنبؤات تتعلّق بالمستقبل صدقت كلّها دون أن تتخلّف واحدة . ثمّ يذكر معجزات النبي الأخرى كانفلاق القمر وتسبيح الحصى ونبع المياه من بين الأصابع ونحوها . لقد جذب هذا المؤلف أنظار الباحثين المعاصرين ، فكتب له أن يشاهد نور الطبع مع الكتب القليلة التي طبعت من مؤلفات الجويني حتى الآن ، فقد نشر لأوّل مرّة في باريس سنة ١٩٣٨ مع ترجمة فرنسية له ، ثمّ حقق ونشر في القاهرة سنة ألف وتسعمائة وخمسين ميلادية .

- ١٧ -

حجة الاسلام : الامام الغزالي
(٥٠٥ هـ)

هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي

نادرة من نوادر الفكر الإسلامي والإنساني ، كتب عنه الشيخ مصطفى المراغي فقال : « **أما إذا ذكر الغزالي فقد تشعبت النواحي ، ولم يخطر في البال رجل واحد ، بل خطر في البال رجال متعدّدون لكل واحد قدرته وقيمته ، يخطر في البال ، الغزالي الأصوليّ الحاذق الماهر ، والغزالي الفقيه الحر ، والغزالي إمام السنّة وحاميها ، والغزالي الاجتماعي الخبير بأحوال العالم وخفيات الأمور ، والغزالي الفيلسوف الذي ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف ، والغزالي المربي ، والغزالي الزاهد ، وإن شئت فقل يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره ، رجل متعطش إلى معرفة كلّ شيء ، نهم إلى جميع فروع المعرفـــة** » .

* والحقيقة أن من النادر أن تجد في تاريخ الفكر البشري من يماثل الغزالي في نهمه للمعرفة ، وجلده على البحث ورغبته في الوصول إلى الحقيقة . وقد كان طموحه إلى معرفة الحقيقة دافعاً له إلى تحصيل أكثر أنواع المعارف في عصره ، وتستطيع أن تلمس هذا من سجله الحافل عن حياته العقلية . والذي أودعه كتابه « المنقذ من الضلال » ، حتى انك إذا أردت أن تصف الغزالي بوصف يلخص لك حياة هذا الرجل العظيم وأمانيه لقلت إنه « **الباحث عن اليقين** » .

* عمد إلى الفلسفة فقتلها بحثاً وتنقيباً ، وخرج من دراستها بتآليف عدّة ، ويعدّ كتابه « **مقاصد الفلاسفة** » أحسن كتاب يلخص الفلسفة اليونانية والإسلامية ، أما كتابه « **تهافت الفلاسفة** » — موضوع حديثنا — فقد كان حدثاً فكريّاً فاصلاً في تاريخ الفلسفة .

* ولم يكن شغفه بمعرفة مذاهب التعليمية — الباطنية — أقل قوّة ، خاصة وان الباطنية كانت قد استشرت في زمنه وباتت تهدّد العالم الإسلامي وتفرض عليه إرهاباً أسود ، فجاء كتابه « **فضائح الباطنية** » ، الذي يعدّ حتى الآن أفضل كتاب في موضوعه — ليوضح حقيقة هذه الفرقة الحاقدة على الإسلام المتآمرة عليه ، العاملة على تهديمه وتخريب كيانه .

أما في الفقه فقد كان شافعيّاً ، وقد خلّف لنا عدّة مؤلفات في الفقه الشافعي كالوجيز والوسيط وغيرهما ، وتعدّ كتبه من أفضل ما كتب في هذا المذهب ، وكان له فيها اجتهادات وآراء خاصة تنم عن فكر حرّ مستنير واسع المعرفة جيّد الاطلاع .

* أما في الأصول ، فقد وضع كتاب « **المستصفى** » الذي ما يزال يدرس في كثير من المعاهد الإسلامية العالية كأفضل كتاب في موضوعه عبارة وفكرة ومنهجاً ودراسة .

* هذا ولا يغيب عن أذهاننا أن الغزالي كان أوّلاً وقبل كلّ شيء كاتباً أخلاقياً وانه نال شهرته في العالم الإسلامي عن طريق ما كتب في هذا الموضوع ، ويعدّ كتابه « **الإحياء في علوم الدين** » أوسع كتب الأخلاق الإسلامية انتشاراً في العالم حتى الآن .

* وقد كان لهذا الرجل العظيم تجربة عقلية رائعة ورائدة في طريقه إلى الحقيقة ، ولعلّها أوّل تجربة مسجلة في تاريخ الفكر الإنسانيّ كلّه ، وجاء تسجيله لها في كتابه الرائع « **المنقذ من الضلال** » .

* خلّف الغزالي مكتبة ضخمة ، وقد زعموا أن مؤلفاته لو قسمت على

أيام حياته لخصّ كلّ يوم أربعة كراريس ، أي ما يعادل ثمانين صفحة مما نكتب اليوم .

* وإليك حياة أبي حامد في سطور :

وُلد في طوس من بلاد فارس سنة ٤٥٠هـ ، وبدأ فيها دراساته الأولى في القراءة والكتابة وحفظ القرآن والنحو واللغة العربية والفقه ، ثمّ انتقل سنة ٤٧٣هـ إلى نيسابور وكانت حاضرة اسلامية كبيرة ، فدرس على أبي المعالي الجويني وتفوق في مجلسه حتّى حدثوا أنه كان يغار منه ، وهو شيء شبيه بما كان بين أرسطو وأستاذه أفلاطون إن صحّت رواية القدماء .

* ثمّ انتقل سنة ٤٧٨هـ إلى العسكر حيث اتصل بنظام الملك وزير السلاجقة المشهور صاحب المدارس المعروفة باسمه ، فعينه سنة ٤٨٤ مدرّساً في نظامية بغداد حتّى أصبح من علمائها المشهورين ، وحتّى باتت حلقته أوسع حلقة علمية فيها ، فكان يحضرها ما لا يقلّ عن ثلاثمائة من العلماء المعروفين في مختلف العلوم الإسلامية والعربية والفلسفية .

* وفي سنة ٤٨٨هـ ترك التدريس بعد أزمة نفسية تحدث عنها في المنقذ من الضلال ، فحج ثمّ تنقل بين دمشق وبيت المقدس ، وفي دمشق وفي الجامع الأموي الكبير ألّف أعظم كتبه وأبعدها أثراً في الفكر الإسلامي **«كتاب الإحياء»**

* وفي سنة ٤٩٣هـ عاد إلى طوس فأقام فيها مشتغلاً بالتدريس والتأليف حتّى سنة ٤٩٩هـ حيث عاد لمواصلة التدريس العام في نظامية نيسابور بعد أن ألحّ عليه العلماء والكبراء، إلاّ أنه لم يستمر هذه المرّة طويلاً فقد ترك نيسابور مرّة أخرى سنة ٥٠٣هـ عائداً إلى مسقط رأسه طوس فبقي فيها معتكفاً على دراسة الحديث حتّى لقي وجه ربه سنة ٥٠٥هـ .

رحمه الله رحمة واسعة وأوسع له فسيح الجنان مع الخالدين ...

* **أما الكتاب فهو « تهافت الفلاسفة »** ، ولاختياره من بين كتب الغزالي

قصة ،. فقد ترجم المسلمون بتأثير من روح إسلامهم العظيم ، معظم ما خلفه رجال الفلسفة اليونانية وخاصة المشهورين منهم : كأفلاطون وأرسطو وأفلوطين وغيرهم ، وتداول المسلمون كتب هؤلاء وأعجب كثير منهم بها ، وتأثروا بما فيها أبعد تأثير ، وأصبحت دراسة الفلسفة اليونانية بدعة المثقفين في ذلك العصر . ولا شك أن الفلسفة اليونانية تختلف في نظرتها إلى الحياة والكون والوجود عن نظرة الإسلام ، فهي فلسفة لا تعتمد على أساس من الإيمان بالله والرسالات الإلهية ، والذين يسمون بالإلهيين منهم لا يؤمنون بالله كما يؤمن به المسلمون رباً خالقاً مدبراً لشؤون العالم متميزاً عنه ، وإنما يعتقد معظمهم بالله على أنه مثال من المثل ، وإن كان أرقى منها شأناً ، والله جلّ جلاله عندهم ليس خالقـاً مدبراً لشؤون الكون والإنسان كما يعتقد المسلمون ، وهم بالتالي لا يؤمنون بالحساب أو الثواب أو العقاب ، وإنما يؤمنون بما يشبه تناسخ الأرواح الذي يوجد مثله في الديانات الشرقية القديمة . ثم إن نظرة الفلسفة اليونانية إلى الأشياء نظرة حسية مادية ، والسعادة عند معظمهم سعادة هذه الدنيا ، ولا تتجاوز هذه الحياة .

* لذا فقد كان أمراً خطيراً أن تحتلّ هذه الفلسفة مكان الصدارة في الفكر الإسلامي بل وأن تعتبر ممثلة له معبرة عن قضاياه ، ولقد بلغ الاستهتار بكثير ممن يسمونهم بفلاسفة الإسلام كابن سينا والفارابي ، انهم نقلوا هذه الفلسفة كما هي وتبنوها على صورتها اليونانية ، حتى جاء عدد من مؤلفاتهم نسخاً طبق الأصل عنها ... وهكذا كان لا بد لأبي حامد الغزالي من أن يندب نفسه لوضع هذه الفلسفة في مكانها الصحيح ، فلا يغتر بها المغترون ، ولا تنتظر أكثر مما تستحقه من التقدير .

* وكان شيخنا أبو حامد أصلح من يقوم بهذا العمل ، ذلك لأنه درس الفلسفة اليونانية دراسة المتعمّق المتخصص ، وألف فيها كتاب المقاصد ، عرض فيها هذه الفلسفة عرضاً موضوعياً محايداً على شكل لم يسبق إليه أحد من الذين تشبعوا بهذه الفلسفة من المسلمين .

* وهكذا عرض الغزالي في تهافته ، وفي تسع وعشرين بحثاً ، مسائل الفلسفة

اليونانية وأقوال بعض فلاسفة الإسلام عرضاً منصفاً، وبيّن ما هو منها مخالف للإسلام مخالفة صريحة واضحة ، وما هو دون ذلك ، وانتهى إلى تكفير الفلاسفة في ثلاث مسائل هي :

١ ـ مسألة قدم العالم ، وقول الفلاسفة إن الجواهر كلها قديمة .

٢ ـ قولهم إن الله تعالى لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الأشخاص .

٣ ـ إنكار بعث الأجساد وحشرها .

* ومع أن ابن رشد حاول أن يردّ على هذا الكتاب ، فألف في نقضه كتاباً سمّاه « **تهافت التهافت** » يقصد تهافت كتاب الغزالي ، إلاّ أنه لم يكتب لمحاولته هذه قدر من النجاح ، وبقي كتاب الغزالي قاصمة الظهر للفلسفة اليونانية في المشرق الإسلامي إذ لم تقم لها بعده قائمة .

* أما قيمة هذا الكتاب بالنسبة لنا فهو مثل على ما يمكن أن تؤدي إليه الدراسة الجادة من تغيير لمعالم الفكر ، وهو حافز لنا على أن نعالج ما يجد علينا من تحديات فكرية بمثل هذه الروح ، ولعل خير ما نختم به هذه الحلقة أن نسجل ما قاله الأستاذ شبلي النعماني ، من أركان الثقافة الإسلامية في الهند عن هذا الكتاب :

« لا وجود الآن لأولئك الملاحدة ولا لتلك العلوم اليونانية ، ولا يعتقد سبقها وصحتها المتنورون ولا من يدعي الفطنة ، لذلك فقدت تأثيرها ولا خطر على الإسلام اليوم منها ، وقد احتلّت مكانها علوم حديثة وقضايا جديدة ، وقد أصبح من الضروري أن يطلع علماؤنا على الأبحاث الجديدة والعلوم العصرية المفيدة ليقدموا حلولاً للمعضلات الحديثة ، وليردوا على الشبهات ردّاً علمياً مؤسّساً على الدراسة والتحقيق » .

- ١٨ -

عالم من المغرب : أبو بكر بن العربي
(٥٤٣ هـ)

هو أبو بكر محمد بن عبد الله العربي الإشبيلي .

في ثقافتنا الإسلامية ، وفي تاريخ أعلامها العظام ، ظاهرة متميّزة ندر أن تلقاها في ثقافة أخرى أو تاريخ آخر ، تلك الظاهرة هي الرحلات الطويلة في طلب العلم وتلقيه من أصحاب الاختصاص ، فقد كان علماء المسلمين مؤمنين بأن العلم لا يستنبط من الكتب فحسْب ، وإنما يكون العالم عالماً بمقدار ما يلقى من أصحاب الاختصاص والمعرفة كل في الفن الذي يجيده . لذا فقد كانوا يغادرون ديارهم للأخذ عن العلماء الآخرين ، وكان الحرص على تحري الحقيقية يبلغ ببعضهم إلى السفر الطويل لسماع مسألة واحدة من عالم مختص ، أو حديث واحد يرويه محدث معروف .

• ولعل من أوضح الأمثلة على هذه الظاهرة عالمنا الجليل أبو بكر بن العربي .

• وُلد في اشبيلية سنة ٤٦٨هـ وتلقى فيها علومه الأولى ، وقد حدّث عن نفسه فقال : « حذقت القرآن وأنا ابن تسع سنين ، ثمّ ثلاثاً لضبط القرآن والعربية والحساب ، فبلغت ست عشرة سنة وقد قرأت من الأحرف — يعني القراءات — عشرة ، وتمرنت في الغريب والشعر واللغة » .

• ثم رحل عن إشبيلية في السابعة عشرة من عمره في رحلة طويلة استمرّت

أكثر من ثماني سنوات قضاها في تلقي العلم والتعرّف على العلماء .

• حضر في الجزائر على علمائها ، ثمّ التقى في ثغر المهدية من المغرب بعدد من المفكرين وأخذ عنهم ، وكان منهم خاصة الإمام المعروف أبو عبدالله محمد بن علي المازري .

• ثمّ شاء الله أن تقع له في رحلته أحداث وأهوال ، وأن يطلع على أحوال كثير من بلاد العالم الإسلامي في شمالي إفريقيا ، وقد سجل هذا كلّه في كتاب سمّاه « ترتيب الرحلة للترغيب في الملة » إلاّ أنه يعتبر مفقوداً حتى الآن .

• وحين كتب له النجاة وصل إلى مصر وكانت تحت الحكم الفاطمي ، ولم يكن من السهل عليه أن يلقى علماء أهل السنّة ، إلاّ أنه كان حريصاً على الاجتماع بهم والأخذ عنهم ، فكان يفتش عنهم ، حتى كان يذهب إلى المقبرة الصغرى قريباً من قبر الإمام الشافعي ليلقى أحد مشايخه .

• وفي القدس التقى بعالم مغربي آخر كان يدرّس في القدس وهو أبو بكر الطرطوشي من كبار فقهاء المالكية في الأندلس والمغرب ، فاخذ عنه واستفاد منه كثيراً كما أشار إلى ذلك صاحب نفح الطيب وهو مغربي أيضاً .

• وحين كان في دمشق أخذ عن عدد من علمائها وفقهائها وعلى رأسهم شيخ الشافعية الحافظ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي .

• ثمّ حطّ الرحال في بغداد التي ظلّت ... رغم المصائب التي توالت عليها — محجة العلماء ومقصد المتعلمين ، وقد تهيأ له فيها أن يتلقى العلوم عن أهلها حتى برع في علوم السنّة وتراجم الرواة وأصول الدين وأصول الفقه وعلوم العربية والآداب .

• وقد كانت عودته إلى إشبيلية رحلة علمية أخرى ، حتى وصل إلى الإسكندرية ، فبدأ فيها بكتابة أوّل مؤلفاته .

• وعندما وصل إلى بلده استقبله أهلها استقبالاً لا نظير له ، وقصده طلاب

العالم من كلّ حدب وصوب ، وتحوّل منزله إلى جامعة كبيرة ، وظلّ يفتي ويدرس أربعين سنة كان فيها مثال العدل والاستقامة وحسن القيام بأمر القضاء .

• وكان من تلاميذه القاضي عياض ، وابن رشد العالم الفقيه الشافعي المعروف والد الفيلسوف أبي الوليد . أما مؤلّفاته فقد جاءت متنوّعة في موضوعاتها ، جليلة في أغراضها جديدة في أسلوبها .

• من هذه المؤلفات : أنوار الفجر في تفسير القرآن (٩٠ مجلداً) ، الإنصاف في مسائل الخلاف (٢٠ مجلداً) أحكام القرآن ، الناسخ والمنسوخ في القرآن ، ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك ، والعواصم من القواصم موضوع حديثنا ، وغيرها كثير .

رحمه الله رحمة واسعة ، وأسكنه جنانه .

• أما عن اختيارنا — كتاب العواصم دون سائر كتبه ليكون موضوع حديثنا فإن له سبباً .

• ذلك أن التاريخ الإسلامي تعرّض — وما يزال — لكثير من محاولات الدس والتزييف والتشويه ، وقد اشترك في هذه المحاولات عناصر كثيرة لا مجال لتفصيل الحديث عنها الآن ، ويعتبر كتابنا أوّل محاولة علمية جادة لكشف هذا الزيف والتشويه ، وعرض أحداث تاريخنا على حقيقتها ، ودون أن تفقد موضوعيتها.

• سماه بهذه التسمية لأنه مقسم إلى « قواصم » يعني نوائب أو حوادث فاجعة أو تشويهاً خطيراً لأحداث تاريخية هامة ، و « عواصم » يعني مواقف تعصم الإسلام من شر كبير أو تصحيحات تقوّم انحرافات المتخرصين .

• ويقع هذا الكتاب في جزءين ، والجزء الذي نهتّم بالإشارة إليه ، هو مبحث الصحابة أحد مباحث الجزء الثاني من الكتاب ، والكتاب بأكمله موجود ، وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية ، ونسأل الله أن يكتب له أن يرى النور .

* في المبحث الذي أشرنا إليه — وهو مطبوع — يصحح المؤلّف الأخطاء التي وقع فيها بعض المؤرخين سهواً أو عن قصد وسوء نية في حياة الصحابة والتابعين خلال المائة الأولى من هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام .

* ولا شك أن تشويه أحداث هذه الفترة يؤدي إلى تحقيق غرضين من أغراض أعداء الإسلام أوّلهما : تقليل أهمية وقيمة هذه الحقبة من تاريخ الإسلام ، مع أنها كانت من معجزات التاريخ.. إن العمل الذي قام به أهل المائة الأولى من ماضينا السعيد لم تعمل مثله أمة الرومان ولا أمة اليونان قبلها ولا أمة من الأمم بعدها .

* فلقد كتب للإسلام أن ينتشر أوسع انتشاراً ، وكتب للدولة الإسلامية أن تمتد رقعتها أكثر مما امتدّت في سائر القرون التي تلتها ، بل اننا نستطيع أن نقول بأننا ندين بوجودنا وعقيدتنا لهؤلاء الرجال الأعلام الذين عمر بهم هذا القرن وخلدتهم صفحات التاريخ .

* أما ثاني هذين الغرضين فهو القضاء على المثل والقدوة الصالحة في حياة المسلمين ، ولا شك أن الأمم تحذو في سيرها الطويل حذو أبطال تتخذهم أسوة لها تسلك مسلكهم وتسير مسيرتهم ، وأصحاب رسول الله ﷺ ، هم قدوتنا في ديننا ، وهم حملة هذا الكتاب الإلهي والسنّة المحمدية ، ولعلّك تقدر معي مستمعي الكريم مقدار الخسارة التي تصاب بها هذه الأمة إذا ما تحطمّت هذه المثل السامقة ... إنها إذا تحطّمت فقد تحطم كل معنى للقداسة في الأمة .

* وزاد في أهمية هذا الجزء تعليقات أستاذنا الجليل محب الدين الخطيب أمد الله في عمره ، فقد أربت على أصل الكتاب ، والذين قرأوا لأستاذنا الجليل أو استمعوا له يدركون مدى إحاطة هذا الإنسان بعقيدة الإسلام وتاريخه ، ويقدرون بالتالي أهمية هذه التعليقات .

* فهل تريد يا أخي القارىء مرجعاً ثقة صادقاً ، وهل تريد أن تقف على حقيقة ما حيك لتاريخك من دسائس ، إذن ، عليك بقراءة العواصم فإنه يعصمك من القواصم كلّها .

- ١٩ -

المحدث المؤرخ : ابن عساكر
(٥٧١ هـ.)

محدّث كبير ، ومؤرخ شهير ، وأديب مطبوع هو الحافظ ابن عساكر ، عليّ بن الحسن بن هبة الله الشافعي .

* ولد بدمشق سنة تسع وتسعين وأربعمائة هجرية ، وأقبل على تلقي العلم منذ نعومة أظفاره ، فقد بدأ بالسماع وهو ابن ست سنين ، وكان للبيئة التي نشأ فيها أثره الواضح على هذا الاقبال المبكر : فقد كان أبوه الحسن بن هبة الله شيخاً صالحاً عالماً ، وكان أخوه الصائن فقيهاً ثقة سمع كبار رجال عصره وعني بعلوم القرآن والنحو واللغة. اما جدّه لأمه يحيى بن عليّ بن عبد العزيز فقد كان فقيهاً محدثاً عالماً بالنحو والعروض .

* لم يقنع ابن عساكر بما حصله من العلم في دمشق وكانت يوم ذاك مركزاً هاماً من مراكز الثقافة والفكر ، ولكنه — شأن سائر علماء عصره — شدّ الرحال في طلب العلم والاجتماع بكبار أصحاب المعرفة في كل ناحية وفن ، فسافر إلى بغداد ، ثم إلى خراسان ، وطوف في جميع البلاد التي تعرف اليوم باسم ايران وافغانستان واذربيجان حيث لقي العلماء والمحدثين والأدباء ، وحيث جلس للحديث في عدد من حواضر العالم الاسلامي كنيسابور وأصبهان .

* وفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة بدأ الحافظ مرحلة جديدة إذ تفرغ للعطاء تدريساً وتأليفاً وكانت مرحلة خصبة مليئة بالانتاج المتنوع الوفير ، حتى

أصبح امام عصره وانتهت إليه الرئاسة في الحفظ والاتقان والمعرفة التامة بالحديث والتاريخ . وقد شجعه الأمير نور الدين الشهيد على تأليفه لتاريخ دمشق ، كما اسس له دار الحديث وهي أول مدرسة تنشأ في الإسلام للحديث خاصة، وتولى ابن عساكر التدريس فيها ثم خلفه عليها ابنه وبنو عساكر وتخرج منها كبار العلماء في القرنين السادس والسابع .

* بلغ عالمنا ارفع المراتب العلمية وتمدح العلماء بالألقاب التي يطلقونها عليه ، فقالوا : ثقة الدين ، وصدر الحفاظ ، وناصر السنة ، وجمال السنة ، والثقة والحافظ وهو اشهر القابه .

* ترك ابن عساكر مؤلفات كثيرة تنوف على الستين في مختلف العلوم والفنون على أن أهمها في الحديث والتاريخ وفضائل المدن والرجال ، على أن أعظم هذه المؤلفات شأناً هو تاريخ مدينة دمشق » الذي يعدّ أوسع ما ألف عن هذه المدينة الشهيرة وأكثر شمولاً إذ لم يؤلف مثل هذا التاريخ في سعته واحاطته قبله ، ولم يلحق بالحافظ أحد ممّن ألف في تاريخ المدن بعده .

* وفي أوائل عهد صلاح الدين الأيوبي أي في سنة احدى وسبعين وخمسمائة ختمت حياة هذا الرجل العظيم الحافلة بالجدّ والعلم، وخرج صلاح الدين يشيع جنازته ودفن بمقبرة الباب الصغير في دمشق إلى جانب حجرة معاوية .

طيّب الله ثراه ، ورحمه وارضاه .

* * *

قالوا في الاسلام :

* يقول الشاعر المهجري المعروف رشيدسليم الخوري «إني لموقن ان الانسانية بعد أن يئست من كل فلسفاتها وعلومها وتنطت من مذاهب الحكماء جميعاً ، سوف لا تجد لها مخرجاً من مآزقها وراحة لروحها وصلاحاً لأمرها الا بارتمائها في حضن الاسلام ، اذ تجد فيه حلاً لمشكلة الحياة والتوفيق بين قوى الانسانية جميعاً جسداً وعقلاً وروحاً . »

- ٢٠ -

المؤرخ : عز الدين بن الأثير
(٦٣٠ هـ.)

هو عز الدين بن الأثير ، عليّ بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ، وُلد في جزيرة ابن عمرو سنة خمسمائة وخمس وخمسين من هجرة الرسول عليه السلام ، وهي الآن من أعمال تركيا وتقع على الحدود التركية العراقية.

• وكان علمُنا أحد ثلاثة إخوة اشتهروا في تاريخ الفكر الإسلامي ، أما أكبرهم سنّاً ، مجدُ الدين ، فقد كان ذا باع طويل في الحديث وقد ترك لنا « جامع الأصول في أحاديث الرسول » جمع فيه بين الصحاح الستة ، وأما أصغرهم سنّاً ، ضياء الدين ، فقد كان علماً في الأدب العربي ، خلّف للمكتبة العربية كتاب « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » ، وأما أوسطهم ، صاحبنا عز الدين ، فقد كان مؤرخاً مشهوراً ولا نظن أحداً من المبتدئين أو المختصين في الثقافة الإسلامية إلاّ وقد سمع بالكامل، لابن الأثير أو استفاد منه ورجع اليه.

• نشأ مؤرخنا في أسرة ذات وجاهة ويسار ، فقد كان والده ئيساً لديوان الجزيرة ، وصاحب تجارة رائجة وزراعة ناجحة ، ويظهر أن المدينة الصغيرة ضاقت بالوالد وأبنائه النابهين ، فانتقل بهم إلى الموصل ، وكانت آنذاك حافلة بالعلماء والأدباء ، فأخذ عن مجموعة من أهل العلم فيها ، كابن شبّة النحوي ، وأبي الفضل عبدالله بن أحمد الطوسي ويحيى بن محمود الثقفي .

• ثم رحل ابن الأثير إلى بغداد لينهل العلم من منابعه الأصيلة ، فاتصل بعدد من العلماء وأخذ عنهم ، وعني بصورة خاصة بحضو مجالس أصحاب الحديث ، ولعل هذا سبب دقة تاريخه حتى عُدّ من أصح ما ألّف في التاريخ الإسلامي ، فقد اعتمد طريقة المحدثين في تحرّيهم وإخلاصهم في النقل عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

• وسافر بعد ذلك إلى حلب ، فالتقى بالنخبة من أهل العلم منها ، ثم قصد دمشق ، وكان قد أصبح ذا قدم راسخة في العلوم كلّها ، وخاصة في التاريخ والحديث ، فأملى الحديث في مسجد بني أميّة ، ولكنه لم ينسَ طلب العلم ، فاتصل بعلماء دمشق يحضر مجالسهم ويأخذ عنهم ما اشتهروا به أو اختصوا فيه .

• كان عالمنا قد اتخذ بلدة الموصل مقرّاً وموطناً ، فأصبح معروفاً من أهلها ، ذا حظوة عند سلطانها ، حتى كان يعهد إليه بكثير من المهام السرية إلى الخليفة أو غيره ، كما كان يقرأ له التواريخ وخاصة في شهور رمضان .

• ويظهر أنه كان يتنقل في الفترة الأخيرة بين الموصل وحلب ، وفي حلب تردّد عليه العلماء يستفيدون من معرفته ، وكان منهم ابن خلّكان صاحب وفيات الأعيان ، وياقوت الحموي صاحب المعجمين : معجم الأدباء ، ومعجم البلدان .

• وكان ابن الأثير على ثقافة واسعة ، فقد تنقل لتحصيل العلم بين الحواضر الكبيرة المعروفة آنذاك ، بغداد وحلب ودمشق والموصل ، وتهيأ له أن يلتقي بعلماء عصره المعروفين ، وصفه ابن خلّكان بأنه « كان إماماً في الحديث ومعرفته وما يتعلّق به ، حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، خبيراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم » . وقال عنه الذهبي إنه « محدث أديب نسّابة متقن إخباريّ ، أقبل في آخر عمره على الحديث إقبالاً تاماً وسمع العالي والنازل » .

• كانت أكثر شهرة عز الدين ابن الأثير في الحديث والتاريخ ، على أن أعظم أعماله كانت في التاريخ ، ومن مؤلفاته « الكامل في التاريخ » و « اللباب

في تهذيب الأنساب » و « أُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة » و « تاريخ الدولة الأتابكية » .

* توفي في الموصل سنة ثلاثين وست مائة من الهجرة ، ودفن فيها ، وقبره معروف حتى أيامنا . رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه .

* * *

* أما الكتاب : فهو « الكامل في التاريخ » من أوسع الكتب التاريخية والتاريخ الإسلامي على وجه الخصوص شهرة ، وأكثرها انتشاراً . وليس ذلك بمستغرب ، فالكتاب خلاصة منتقاة لعدد من كتب التاريخ التي ألّفت قبل ابن الأثير أو في عصره ، نذكر منها كتب الطبري والبلاذري والمسعودي وابن الكلبي والقاضي الفاضل وغيرهما .

* قدم مؤلفه لكتابه بمقدمة منهجية ، نقد فيها كتب التاريخ من قبله ، فذكر أنها « بين مطول استقصى الطرق والروايات ، ومختصر أخلّ بكثير مما هو آتٍ » وان بعضها « ترك العظيم من الحادثات والمشهور من الكائنات » هذا بالإضافة إلى « أن الشرقيّ أهمل أخبار المغرب ، والمغربي أخلّ بذكر أحوال المشرق » مما جعل القارىء لا يستغني عن « الرجوع إلى المجلدات الكبيرة والمصنفات الكثيرة » .

* من أجل ذلك أدلى ابن الأثير بدلوه بين دلاء المؤرخين ، وحرص على أن يتجنب ما أخذه على السابقين ، وأن يجمع فيه جميع الحوادث المهمة في الشرق والغرب ، في الماضي والحاضر ، حتى اجتمع في كتابه على حد تعبيره « ما لم يجتمع في كتاب واحد » وحتى شهد له ابن خلّكان فقال : « إنه من أخيار التواريخ » وابن كثير فقال : « إنه من أحسن التواريخ حوادث » ، أما ابن حجر فقد قال عن الكامل : « إنه أحسن التواريخ بالنسبة إلى إيراده الوقائع موضحة مبينة حتى كأن السامع في الغالب حاضرها ، مع حسن التصرّف وجودة الإيراد » .

* بدأ ابن الأثير تاريخه على عادة معظم المؤرخين المسلمين من أول الزمان ،

ووصل به إلى آخر سنة ثمان وعشرين وست مائة ، اي قبيل وفاته بسنتين ورتّبه ، على السنين ، إلاّ أنه كان يجمع أطراف الحوادث الكبيرة ويجعل الحوادث الصغيرة في آخر السنة ، فحين يذكر ملكاً من الملوك يترجم له ترجمة واحدة في مكان واحد ، ثمّ يعود إلى ذكر الحوادث كل السنة ويحرص على ذكر وفيات الأعيان والعلماء في آخرها .

* وكان يتحرّى اختيار الحوادث ، ولا يكتفي بجمع الروايات وتلخيصها ، بل كان يعمل النقد فيها ، ويحاول أن يجمعها ويستخلص القواعد العامة لها ويعلّلها ، وكثيراً ما كان يصيب في استقرائه وتعليله .

* أيها القارىء الكريم : كان كتاب الكامل وما يزال مصدراً هاماً للمؤرّخين الذين جاؤوا بعد ابن الأثير ، وقد تأثر به كثيرون منهم ، ونهجوا نهجه ، وعلّقوا عليه ، وأخذوا منه ، ونقل منذ القرن التاسع الهجري إلى اللغة الفارسية .

- ٢١ -

صاحب المعجمين : ياقوت الحموي
(٦٢٦ هـ.)

* ياقوت بن عبدالله الحموي شيخ كتاب العربية في الاعلام والبلدان .

* ولد سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، ولا نكاد نعلم شيئاً عن حياته الأولى ، ولا عن اسرته أو ابيه او بلده ، وكل ما نعلمه عن هذا انه روميّ أسر وهو صغير وحُمل إلى بغداد فابتاعه تاجر حموي . وأُطلق عليه اسم ياقوت ، وهو اسم كان شائعاً بين الرقيق ولما كان والده مجهولاً فقد قالوا ياقوت بن عبدالله ، اما نسبة « الحموي » فهي لمولاه الذي اشتراه ، لا لأنه ولد في حماة .
* وكان مولاه تاجراً فوضعه في الكتاب حتى تعلم القراءة والكتابة ، فأصبح يعمل معه في ضبط تجارته ، ثم صار مساعداً له ، فتعرف بسبب ذلك على بلاد متعددة ، وعندما بلغ الحادية والعشرين أعتقه فترك العمل عنده .

* وكان طيلة هذه المدة ينمي ثقافته كلما أمكن له ذلك ، وأولع خاصة بالنحو واللغة وعندما ترك العمل التجاريّ انصرف إلى القراءة والمطالعة ، واشتغل بنسخ الكتب ، فاستفاد من هذا العمل ؛ واطلع على كثير من نتاج الثقافة الاسلامية والعربية في مختلف العلوم والفنون .

* ثم عادت الصلة بينه وبين مولاه . فاصبح شريكاً له في تجارته ، إلى ان توفي هذا الأخير فاستقل بالعمل ولكنه قصر تجارته على الكتب ، فكان ينتقل

في أقطار العالم الإسلامي يعرض ما عنده ويتصل برجال الفكر والعلم والأدب، فقصد الشام وتجول في بلدانها، والتقي علماءها، وناظر بعضهم، وأصابه بعض العنت بسبب آراء خاصة له لم ترق لمناظريه: ثم سافر إلى شمالي العراق، وقصد منها إلى خراسان، وطاب له المقام في مدينة مرو لحسن مناخها وطيب معشر سكانها، وعكف فيها على كتابة معجم البلدان؛ أوسع ما ألف حتى الآن في التعريف بالأقطار والبلاد، ولكنه اضطر إلى الخروج منها عند مجيء التتار.

* ومرّ ياقوت بعد ذلك بمرحلة قاسية من حياة التعب والشقاء وشظف العيش لأنه سافر إلى بلدة أخرى في خراسان فلم يعجبه جوها، فانتقل إلى خوارزم فكره شتاءها، وكان يمكن أن يقيم فيها لولا وصول التتار اليها فاضطر إلى مفارقتها تاركاً كل ما يملك..

* ثم امضى مدة بالموصل كاتب خلالها الوزير القفطي الكاتب المعروف، وكان وزير حلب، حتى قدم عليه ولازم بيته ومكتبته يستفيد منها في اكمال ما بدأه من المؤلفات لمعجم البلدان ومعجم الادباء حتى وافاه الاجل المحتوم سنة ست وعشرين وست مائة.

* وتبدو ثقافة ياقوت الواسعة العميقة في جميع ما ألّف وخاصة في المعجمين: معجم البلدان ومعجم الادباء. أما في معجم البلدان فقد سلك منهجاً فريداً، اذ هو عندما يتحدث عن البلدان يبدأ دائماً بضبط اسم البلد ويذكر اشتقاقه وعرضه وطوله وأثر الكواكب فيه. وخواصه الطبيعية، ومعادنه وسكانه، والحوادث التاريخية التي جرت فيه، والأعلام الذين خرجوا منه أو نسبوا اليه. وهكذا يبدو ياقوت في هذا المعجم مؤرخاً بما يذكر من فتوح البلدان واحكام اراضيها، واخبارياً بما يروي من اخبارها، ولغوياً بما يذكر من اشتقاق اسمائها وصيغها، وجغرافياً بما يذكر من أقاليمها وأوصافها، ونسّابة بما يذكر من رجالها الذين نسبوا اليها، واديباً بما يروي من الأشعار التي قيلت فيها. وندر أن تجد كتاباً جامعاً للعلم مثله.

• أما معجم الادباء . أو ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب : فقد جمع فيه أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء والاخباريين والمؤرخين والورّاقين والكتاب ، وكل من صنف في الأدب .

• وانت تجد في هذين الكتابين ما لا تجد في غيرهما . لأنه اعتمد على مصادر كثيرة لم يصل أغلبها إلينا ، وكان يتحرى الدقة في اثبات ما يجب أن يثبت وطرح ما يجب ان يطرح ، ويعرض الاخبار على الشك والنقد حتّى تتبين له الحقيقة وهذه هي طريقة العالم المدقق الباحث الامين .

رحمه الله وغفر له .

- ٢٢ -

سلطان العلماء : العز بن عبد السلام

(٦٦٠ هـ)

هو سلطان العلماء أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السّلمي الدمشقي المشهور بالعز بن عبد السلام ، أحد العلماء العاملين الذين نذروا أنفسهم للجهر بكلمة الحق ، وتحملوا في سبيل ذلك العنت الكبير ، ولكنهم مع كلّ ما أصابهم رفضوا أن يهادنوا أو يساوموا على موقفهم ، وقد بذلت أمامهم الدنيا بكل ما فيها من جاه ومال وسلطان ، إلاّ أن ذلك كلّه لم يعدل عندهم جناح بعوضة ليستحق أن يحولهم عما يعتقدون أنه الحق .

• وقد كان عالمنا في هذا الطريق الذي اختطه لنفسه حلقة من السلسلة العظيمة التي كان منها سعيد بن جبير ، والإمام أبو حنيفة ، والإمام مالك ، والإمام ابن تيمية والإمام محمد بن عبد الوهاب ، وذلك مصداق لحديث الرسول عليه السلام « لا تزال طائفة من أمّتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم » .

• وُلد العزّ بن عبد السلام في دمشق سنة ٥٧٧هـ ، ونشأ في أسرة رقيقة الحال فلم يتهيأ له أن يبدأ الدراسة وهو صغير ، إلاّ أنه حين بدأ التحصيل أقبل عليه بهمة لا تعرف الملل ، فحصّل في مدّة وجيزة ما يعجز عنه الكثيرون .

• وكعادة السالكين في دراسة العلوم اللغوية والدينية ، فقد درس الشيخ العلوم العربية والدينية بمختلف فنونها وأنواعها من نحو وبلاغة وحديث وفقه وأصول ،

وحضر على كبار أئمة العلم في عصره .

* سمع الحديث من أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير علي ابن عساكر محدث دمشق ومؤرخها ، ودرس الفقه على الإمام فخر الدين بن عساكر ، وأخذ علم الأصول عن العالم الثقة سيف الدين الآمدي ، وسافر إلى بغداد فتتلمذ على عدد من علمائها المشهورين .

* وقد وهبه الله بالإضافة إلى ذلك فهماً عميقاً وذكاء نادراً ، فأصبح من كبار علماء عصره حتى لقب بسلطان العلماء، وبلغ مرتبة عالية في الفقه والأصول، والفهم الشامل لحقائق الشريعة الإسلامية ومقاصدها ، والإحاطة بروح الإسلام إحاطة قلمّا تتأتّى لإنسان، حتى وصل مرتبة الاجتهاد ، قال السيوطي : « ثم كان في آخر عمره لا يتعبد بالمذهب ، بل اتسع نطاقه ، وأفتى بما أدّى إليه اجتهاده » .

* وقد تهيأ لشيخنا أن يمارس ما تعلمه أو فقهه عن طريق الكتب ، وعمل في القضاء فترة من الوقت ، وفي الإفتاء طول حياته ، فكان مثال الاستقامة والنزاهة في قضائه وفي فتاويه ، وحادثة أمره ببيع أمراء الأتراك المماليك في القاهرة لحساب بيت مال المسلمين خير شاهد على ما نقول .

* عاش سلطان العلماء في عصر مضطرب ، فقد مني العالم الإسلامي في القرون الثلاثة ، الخامس والسادس والسابع ، بسلسلة من الفتن الداخلية والحروب الخارجية ، وأهمها حروب الصليبيين والتتار ، فاصطرع المسلمون مع بعضهم ، وضعفت نفوس الكثيرين حتى اتفق مع العدوّ الدخيل على أخيه ، وسكت كثير من العلماء عن الجهر بالحق ، واعتزل كثير منهم الحياة العامة .

* وفي هذا الجو الذي يوحي بالتشاؤم ويدفع إلى اليأس ، عاش سلطان العلماء ، فكان وجوده نسمة من نسمات الرجاء وعزمة من عزمات الإيمان ، أعاد إلى الأذهان صورة مشرقة للعالم العامل المجاهد الداعي إلى الحق .

* وقد كان من أهم صفات هذا الرجل العظيم جرأته النادرة في الحق وشدته

على المبطلين ، وسنشير إلى موقفين من مواقفه الرائعة أمام سلاطين عصره ، لنرى إلى أي حد كان هذا الإنسان واثقاً من الحق الذي يعتقد .

* فقد ذكر السبكيّ في طبقاته أن الشيخ عز الدين طلع إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة (في القاهرة) فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ، ومجلس المملكة ، والأمراء تقبل الأرض أمامه ، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه : يا أيوب ، ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوىء لك ملك مصر ثمّ تبيح الخمور ؟ فقال : هل جرى هذا ؟ فقال الشيخ : نعم . الحانة الفلانية تباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات » يقول راوي الحكاية : « يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون » .

* فقال : يا شيخنا ، هذا من أيام أبي . فقال الشيخ : أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة » .

* وقد أمر السلطان بإقفال الحانة على الفور ، ثمّ يسأل الشيخ أحدُ تلاميذه ، أما خفته ؟ قال الشيخ : والله يا بني : استحضرت هيبة الله تعالى ، فصار السلطان أمامي كالقط .

* أما الموقف الثاني فهو موقفه من الملك الصالح إسماعيل ، فقد تحالف هذا الملك ، وكان في دمشق ، خوفاً على حكمه مع الصليبيين ، وتنازل لهم عن بعض المواقع ، فأنكر الناس الأمر وأفتى الشيخ عز الدين بتحريم بيع السلاح للإفرنج ، وكان الملك سمح لهم بذلك ، ولم يكتف شيخنا بإصدار الفتوى ، بل وقف على منبر جامع بني أمية ينتقد الملك الصالح ويذمه على فعاله الشنيع وقطع الدعاء له من الخطبة ودعا عليه ، والناس يضجون بالدعاء .

* وعزل الشيخ عن الخطابة واعتقل ، ثمّ طلب الخروج إلى مصر فسمح له ، إلاّ أن الملك الصالح رأى أن يستميل الشيخ إليه مرّة أخرى فأرسل إليه في الطريق رسولاً يبلغه رسالة الملك :

* قال له الرسول : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك ما كنت عليه وزيادة ،

أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير . فقال الشيخ : والله ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده ، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد ، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به .

• فقال له الرسول : قد رُسِمَ لي أن توافق على ما يطلب منك وإلاّ اعتقلتك ، فقال الشيخ : افعلوا ما بدا لكم .

• مع هذه الحياة العاصفة التي عاشها شيخنا سلطان العلماء فإنه لم يترك التأليف ، وقد كتب فأكثر الكتابة ، وأتقن وأجاد ، وأشاد بذكره في هذا المجال فحول العلماء وكبار المؤلفين ، وقد تناولت تآليفه فنوناً شتى : كالتفسير ، وعلوم القرآن ، والحديث والعقائد ، والفقه ، وأصوله ، والسيرة والتصوف ، وفضائل الأعمال . ويعدّ كتابه قواعد الأحكام موضوع حديثنا من أهم ما كتب .

رحمه الله ، وأجزل له أجر العاملين .

* * *

• أما الكتاب فهو « قواعد الأحكام في مصالح الأنام » .

• وترجع أهمية هذا الكتاب التاريخية إلى أنه أول مؤلف يوضع خارج المذهب الحنفي لبيان القواعد الكلية أو ما يسمى بالاصطلاح التشريعي المعاصر : المبادىء التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية .

• وقد اختلف العلماء في تعداد هذه القواعد وبيان الأسس التي تقوم عليها ، أما شيخنا فيرجع الفقه عنده كما يقول الجلال السيوطي إلى أساس واحد ، وهو اعتبار المصالح ودرء المفاسد ، فالكتاب يدور حول هذا الأساس « بناء الأحكام الشرعية على مصالح العباد ، وقد أثبت المؤلف نظريته بتطبيقها في المئات بل والألوف من المسائل .

• ولم يكن العز بن عبد السلام مبتدعاً في هذا ، لأن هذه النظرية تقوم على الحديث المعروف « لا ضرر ولا ضرار » ، وقد اعتبرها الأئمة المالكية والأحناف

قبله في كثير من الأحكام الفرعية . إلاّ أن سلطان العلماء أول من ألقى عليها ضوءاً أوسع ، وأثبت صلاحها في مسائل لا تحصى وأحكام لا تعد ، أصلية كانت أم فرعية .

• ومع أن شيخنا كان يكتب في عصر غلبت فيه الصنعة على اللغة حتّى أفقدتها رونقها وبهاءها . إلاّ أنه استطاع أن يؤدي هذا الموضوع الصعب بعبارة عالية ، فقد كان واضح الأسلوب صافي الكلام ، مشرق البيان في كلّ ما عالجه من موضوعات ، ندر أن تجد في كتابته سجعاً أو تنميقاً ، وإذا ورد مثل هذا السجع كان سهلاً مشرقاً غير متكلف ولا مستقبح .

- ٢٣ -

مفسر الاحكام : أبو عبد الله القرطبي
(٦٧١ هـ.)

• يعد ابو عبد الله القرطبي من كبار المفسرين الذين عرفهم تاريخ الثقافة الاسلامية ، كما يعتبر كتابه «الجامع لأحكام القرآن» من أوائل الكتب التي نهجت هذا النهج في استخراج الأحكام من كتاب الله يستعينون بها على حل مشكلاتهم ويقيسون عليها ما جد من مصالحهم .

• ولا يذكر المؤرخون تاريخ ولادة عالمنا الجليل محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي ، ولكنهم يتفقون على أنه توفي سنة إحدى وسبعين وستمائة للهجرة ، وقد ولد في قرطبة من الأندلس المفقود ، وعاش حياة عبادة وصلاح وزهد ، وأتقن علوم العربية والعلوم الاسلامية جميعها ، وسمع الحديث عن عدد من الحفّاظ الثقات .

• ثم رحل إلى المشرق طلباً للعلم من مصادره فسمع وكتب ، وكان يقظاً حسن الحفظ مليح النظم حسن المذاكرة ثقة حافظاً ، وأخيراً استقر به المقام بمنية ابن خصيب في شمالي أسيوط بمصر ، فاتخذها داراً له ومقاماً ومركزاً للتدريس والتأليف ، ولم يتغير شيء من نمط حياته السابقة فقد بقي على زهده في الدنيا واشتغاله بالآخرة ، يملأ وقته بالعبادة والدراسة ويكفيه الثوب الواحد .

• ترك أبو عبد الله القرطبي عدة مؤلفات منها : التذكرة بأحوال الآخرة ،

والاسنى شرح أسماء الله الحسنى ، وقمع الحرص بالزهد والقناعة ، إلا أن الذي اشتهر به كتابه في التفسير الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمن من السنة وآي القرآن ، وقد طبع في عشرين مجلداً .

* ويعد هذا التفسير كما ذكرنا من أجل التفاسير وانفعها ، أسقط منه القرطبي القصص والتواريخ وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والاعراب والناسخ والمنسوخ ، وعني بذكر أسباب النزول والرد على أهل الانحرافات مع اهتمام خاص بإيراد المناسب من الأحاديث .

* ولعل خير دليل لنا على أسلوب هذا التفسير العظيم مقدمته التي وصفها المؤلف قال القرطبي : «فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذي استقل بالسنة والفرض ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض ، رأيت أن اشتغل به مدى عمري وأستفرغ فيه قوتي ، بأن أكتب فيه تعليقاً وجيزاً يتضمن نكتاً من التفسير واللغات والاعراب والقراءات والردّ على أهل الزيغ والضلالات . واحاديثنا كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات جامعاً بين معانيهما ومبينا ما أشكل منهما بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف ، وعملته تذكرة لنفسي وذخيرة ليوم رمسي وعملاً صالحاً بعدموتي ، قال االله تعالى « ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر» وقال تعالى :«علمت نفس ما قدمت وأخرت» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية او علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »

* وكان أبو عبد الله حريصاً إذا استفاد من قول أن يضيفه إلى قائله وإذا أورد حديثاً أن يذكر رواته وكان يكرر دائماً :«ان من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله».

* وفي ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة احدى وسبعين وستمائة وفي منية ابن حضيب لقي القرطبي وجه ربه ، راضياً مرضياً ، رحمه الله وأجزل له مثوبة العاملين .

- ٢٤ -

المؤرخ الأديب : ابن خلّكان
(٦٨١ هـ)

فقيه مشهور وأديب مطبوع وعالم بالتاريخ والرجال ، ذلك هو أحمد ابن محمد بن إبراهيم بن خلّكان ، صاحب (وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان

* ولد ابن خلّكان في (إربل) سنة ثمان وستمائة من اسرة كريمة عرفت بالعلم والشرف ، وكان أبوه مدّرساً في المدرسة المظفرية التي أسسها الملك المظفر كوكبوري لتدريس الحديث ، فكان العلماء والمتعلمون يقصدونها وينزلون فيها ، وكان الملك المذكور يغدق علىهذه المدرسة من العطاء والمرتبات ويهيء للدارسين والمدرسين حياة هادئة لينصرفوا إلى العلم المفيد .

بدأ أحمد بن خلكان حياته العلمية في المدرسة المظفرية برعاية اصدقاء أبيه من الشيوخ المدرسين وكان والده توفي بعد ولادته بقليل ، وسمع صحيح البخاري مبكراً على الشيخ محمد بن هبة الله ، وفي السابعة عشرة قرأ الفقه والخلاف على المفضل الأبدي . وقد أتاحت له إقامته في إربل وهي حاضرة الملك المظفر آنذاك أن يلتقي رجال العلم والأدب الذين كانوا يفدون عليها ، ثم كان يتردد على مدينة الموصل وكانت في ذلك الوقت مركزاً علمياً مرموقاً .

* إلا أنه كعادة النابهين من علماء المسلمين لم يكتف بما حصله على أيدي علماء بلده وما حولها فطمح الى مزيد من العلم والمعرفة وهكذا قرر السفر إلى

حلب فترك إربل وهو في العشرين من عمره متوجهاً اليها حاملاً رسالة توصية من الملك المظفر إلى عالمين جليليين فيها هما: قاضي حلب أبو المحاسن بن شداد، والمؤرخ الشهير ابن الاثير، وكانا على صلة علمية وثيقة بوالده.

• وقد وجد ابن خلكان من ابن شداد حدباً ورعاية وحباً خفف عنه وحشة الغربة فأقبل على العلم يعبّ منه وعلى العلماء، يلتقي بهم، ويصادقهم ويناقشهم، وكان لابن شداد اكبر الاثر عليه في هذه الرحلة حتى كتب يقول عنه «وكان شيخنا، وأخذنا عنه كثيراً وحصل الانتفاع بصحبته».

• ثم قصد عالمنا الشاب إلى دمشق وهي يومئذ أرحب من حلب واوسع في ميادين العلم والادب، تزخر بمئات المدارس وآلاف الطلاب وتلقى رعاية خاصة من ملوك الأيوبيين، وهناك التقى بعالم دمشق الكبير ابن الصلاح فقرأ عليه الحديث والتفسير والفقه والرجال.

• ولم يقنع أبن خلكان بما حصل فترك الشام متوجهاً إلى مصر، وطاب له المقام في القاهرة فتزوج بها وخالط علماءها، وعاد إلى دمشق بعد أن غاب عنها ثلاثة وعشرين عاماً، ولكن عاد اليها بحال جديد، فقد تركها طالباً للعلم وعاد اليها قاضياً للقضاة بأمر من الملك الظاهر بيبرس.

• واستقر صاحبنا في دمشق يقضي بين الناس، ويشرف على قضاء الدولة، ويدّرس في عدد من المدارس، ويؤلف، ويفتي في المذهب الشافعي، ويشيع من حوله مرحاً ودعابة فقد كان حلو المحاضرة جيد الحديث، فأحبه الناس وتعلقوا به.

ويعدّ كتابه «وفيات الأعيان» افضل كتاب في التراجم عرفه تراثنا التاريخي، فقد بلغ مبلغاً عظيماً من الاتقان والتنقيح والتثبت، ترجم فيه مؤلفه لطائفة من الأقدمين والمعاصرين له، ورتب أسماءهم على حروف المعجم، والتزم أن لا يذكر فيه إلا من وقف على تاريخ وفاته وثبت عنده، وبلغ عدد من ترجم له ثمانمائة، ليس بينهم أحد من الصحابة أو التابعين أو الخلفاء مكتفياً بالمصنفات الكبيرة التي ألفت عنهم.

• وكانت مصادره لتأليف هذا الكتاب ، الكتب القديمة ، وما خبره او سمعه وشاهده بنفسه ، وتبدو فائدة الوفيات في أنه يرجع إلى كثير من المؤلفات التي فُقدت أو جرت عليها عاديات الزمان وهذا ما يجعل له قيمة خاصة .

ومع كثرة المصادر الا ان ابن خلكان كان ينتقي منها انتقاء حسناً ، فهو لا يثبت الا الخبر الجيد أو الحادثة ذات المغزى أو القصيدة البارعة الحلوة، أما ما سمعه وشاهده فهو كثير أيضاً ويضفي على الكتاب الكثير من الحياة، وهو يقول في مقدمته « وأخذت من أفواه الأئمة المتقنين ما لم أجده في كتاب ؛ وخلاصة القول أنك تحس أثناء مطالعتك للوفيات بأنك أمام كتاب متقن منقح بذل مؤلفه في كتابته واختياره وصياغته جهداً شخصياً واضحاً ، فليست الترجمة عنده مواد تجمع وتسرد بل تجمع وتغربل وتصاغ صياغة جديدة .

• توفي ابن خلكان سنة احدى وثمانين وستمائة عن عمر ناهز الثالثة والسبعين . جزاه الله عن المسلمين خير الجزاء .

- ٢٥ -

طبيب من دمشق : ابن النفيس القرشي
(٦٨٧ هـ)

هو العلامة الحكيم علاء الدين بن النفيس القرشي الدمشقي ، من أشهر مشاهير أطباء المسلمين وعلمائهم في القرن السابع الهجري .

• وُلد بدمشق سنة ٦٠٧ لهجرة الرسول عليه السلام ، أيام حكم السلطان الأيوبي العادل سيف الدين . وكانت دمشق في ذلك الحين تعيش في ظل نهضة علمية واسعة راسخة ، أرسى قواعدها وأقام أركانها السلطان الأيوبي الشهير نور الدين زنكي .

• وكان لهذا الرجل العظيم عناية خاصة بشؤون الطب والمستشفيات ، فقد أسس في عهده من المستشفيات ما لم يؤسس في عهد أي حاكم آخر . وتوافد الاطباء على دمشق من مختلف أنحاء العالم الإسلامي يضعون جهودهم ويبذلون طاقاتهم لخدمة الإنسان ورفع مستوى الصحة والعلاج في ذلك البلد الهادىء الأمين .

• في هذا الجو العلمي الصحيح ، القائم على الخبرة الطويلة والتجربة الأصيلة ، وعلى أيدي نُطُس الأطباء الذين أمّوا دمشق من كلّ مكان ، درس ابن النفيس علم التشريح وفنون الطب .

• ثمّ انتقل إلى المستشفى الكبير بدمشق للتدريب ، وليضع خبرته النظرية

موضع التجربة ، وكان مستوى هذا المستشفى لا يقلّ عن مستوى نظرائه من المستشفيات المعاصرة في أي بلد من البلاد الراقية ، كما كانت وسائل العناية بالمرضى فيه لا تختلف عن أحدث الوسائل المتبعة في المشافي الملحقة بكليات الطب الآن .

* وكان عالمنا زميلاً في الدراسة والتمرين لابن أبي أصيبعة ، صاحب كتاب طبقات الأطباء ، وقد وصفه في كتابه بقوله : « كان علاء الدين إماماً في علم الطب لا يضاهي في ذلك ولا يداني استحضاراً واستنباطاً ، وله فيه التصانيف الفائقة »[1] .

* اشتغل ابن النفيس أول أمره ، في دمشق ، ثمّ استدعاه سلطان مصر الأيوبي الملك الكامل محمد ليستفيد من علمه وخبرته ، فعمل في أكبر مستشفياتها : في المستشفى الناصري ، ثمّ في المستشفى المنصوري ، وكان في مصر محفوفاً بالرعاية والإكبار ، وعليه وعلى العماد النابلسي — كما يقول ابن أبي أصيبعة — تخرج أطباء مصر والقاهرة .

* ولم تكن ثقافة عالمنا قاصرة على شؤون التشريح والطب ، وإنما كانت له مشاركة في فنون أخرى كالحكمة والمنطق والفقه وأصوله وعلوم العربية والحديث وكانت له بحوث فيها جميعاً ، ولئن لم يكن باعه فيها طويلاً كشأنه في الطب ، إلاّ أن مؤلفاته تدل على قدم راسخة له في جميع هذه الفنون .

ولئن عُرف عن بعض الحكماء — كابن سينا — بعض التساهل في أمور السلوك ، إلاّ أن عالمنا كان على غاية من الورع والصلاح والتقى ، يتحرى الاستقامة في كلّ عمل من أعماله ، حتّى أنه في علّته الّتي توفي فيها نصحه بعض أصحابه الأطباء بأن يتناول شيئاً من الخمر إذ كان صالحاً بزعمه لعلّته ، فأبَى أن يتناول شيئاً وقال : لا ألقى الله وفي باطني شيء من الخمر .

---

١ — من قسم نشره الدكتور يوسف العش ، من طبقات الأطباء في مجلة « المجمع العلمي » ولم ينشر في الكتاب .

• كان ابن النفيس يمثل مرحلة الأصالة والتجديد في الطب ، وقد دعا للخروج على القيود التقليدية ، والتحرّر من سيطرة الأطباء القدماء كجالينوس وأبقراط وابن سينا ، مع أنه كان معجباً بهذا الأخير ، حتى لقد شرح عدداً من كتبه ؛ إلا أن هذا لم يمنعه من الدعوة إلى تحري الاستفادة لما استجد من خبرة وتجارب وأساليب لم تكن معروفة لدى القدماء .

• وكانت له جولات واسعة في نقد جالينوس ، كما كان له الفضل في الكشف عن عدد من الوظائف الجسمية . وقد توصل لهذه النتائج بعد دراسات واسعة قائمة على الملاحظة الدقيقة والمنطق السليم .

• إلا أن أهم ما يسجل لعالمنا من كشوف ، هو شرحه للدورة الدموية بما يقارب ما نعرفه في أيامنا الحاضرة ، معارضاً بذلك جميع النظريات القديمة ، وقد أثبت العلم صحة رأيه .

• لقب ابن النفيس بابن سينا الثاني ، ولئن لم تكن له شهرة الشيخ الرئيس ، فلأن معظم كتبه ومؤلفاته ظلّت مجهولة لدينا ، حتى قُيّض له من ينفض عنها الغبار منذ مدّة قصيرة ، ومنذ ذلك الحين أخذ العالم يعرف الكثير عن حياة هذا الرجل العظيم ، وجهوده الرائدة في تقدم العلم من أجل حياة أفضل للإنسان .

• توفي ابن النفيس بالقاهرة سنة ٦٨٧هـ ، وكان وفيّاً للعلم الذي نذر له حياته ، فأوقف أمواله وداره وكتبه للمستشفى المنصوري فيها .

رحمه الله ... وغفر له ... وأفسح له جنانه .

* * *

أما الكتاب : فهو « شرح تشريح القانون » :

• لقد خلف عالمنا ابن النفيس عدداً وافراً من الرسائل والكتب كالشامل في الطب ، والمهذب في الكحل ، والمختار من الأغذية ، وتعليق على كتاب الأدوية لأبقراط ، وشرح مفردات القانون ، وتفاسير العلل وأسباب الأمراض ،

لكن أعظم كتبه جميعاً هو كتاب « شرح تشريح القانون ».

* والكتاب شرح لبعض أجزاء القانون في الطب لابن سينا ، تلك الأجزاء التي تتعلّق بالتشريح بصورة خاصة ، فالقانون كتاب عام في جميع فنون الطب ، وقد استطاع أن يفرض نفسه على العلماء والأطباء قروناً طويلة في العالم الإسلامي وفي أوروبا .

* إلاّ أن كتاب « شرح التشريح » لابن النفيس يمتاز بأنه يهتم بقسم التشريح فقط من مختلف أبواب الكتاب ، فيشرحها ويتوسع فيها ويضيف إليها ما استجد من مكتشفات جديدة .

* وإليك بعض ما كتبه عالمنا في مقدمة هذا الكتاب ليتبيّن لك غرضه منه ، قال : « وبعد حمد الله والصلاة على أنبيائه ورسله ، فإن قصدنا الآن هو إبراز ما تيسر لنا من المباحث على كلام الشيخ الرئيس أبي عليّ الحسين بن عبدالله بن سينا ، رحمه الله ، في التشريح في جملة كتاب القانون ، وذلك بأن جمعنا ما قاله في الكتاب الأول من كتاب القانون إلى ما قاله في الكتاب الثالث ليكون الكلام في التشريح جميعه منظوماً » .

* وقد قُسّم الكتاب إلى عدّة أبحاث بيّن فيها مؤلّفه اختلاف أعضاء الحيوانات ، وقواعد علم التشريح ، والمبادىء التي يستخرج بها العلم بمنافع الأعضاء عن طريق التشريح ، وماهية التشريح وآلاته ، ثمّ يستعرض كل جزء من أجزاء الجسم الإنساني على حدة بدراسة تفصيلية دقيقة .

* إلا أن أهم ما في الكتاب نظريته في الدورة الدموية ، فقد مرّت هذه النظرية بمراحل متعدّدة ، فمن مرحلة الغموض ، إلى مرحلة تعتبر الكبد هو الأصل في الدم وحركته ، وتنظر إلى القلب على أنه لا قيمة له في حركة الدم ، إلى مرحلة جالينوس التي تابعه فيها ابن سينا والتي تميز بين حركة الأوردة والشرايين دون أن تدرك حقيقة ما يتم في القلب من تصفية للدم وتنقية » .

* حتى يجيء عالمنا في هذا الكتاب ليشرح الدورة الدموية الكاملة ، ويبين

أن القلب هو مركز حركة الدم ومكان تصفيته ، وان الدم المصفى يعود ليتابع دورته في الجسم الإنساني حاملاً إليها الغذاء والطاقة والحياة .

* أيها القارىء الكريم ، ليس في وسعنا أن نقدم لك دراسة شاملة لهذا الكتاب الهام ، ولكنها دعوة إلى المتخصصين المسلمين لدراسته ، فلعلنا نكشف عن شيء جديد انتحله غيرنا وكان الفضل فيه لحضارتنا الزاهرة .

- ٢٦ -

أديب من تونس : أبو محمد التيجاني
(٧٠٨ هـ.)

كان للمسلمين عناية خاصة بالرحلات والأسفار ، وكان للمغاربة اهتمام شديد بها وولع خاص بتدوينها ... وتعدّ رحلة الحجّ بالنسبة للكثيرين منهم بداية رحلة أخرى تشمل معظم اقطار العالم الاسلامي ، ولم يكن هؤلاء ليكتفوا بالمشاهدة ، والنظر ، بل كانوا يسجلون مشاهداتهم ويدونون ملاحظاتهم حول مسالك البلاد ومهالكها ، ويحدثون عن بلدانها ، وعادات أهلها ، ويضيفون إلى ذلك الشيء الكثير عن ادبائها وعلمائها ورجال الحديث فيها حتى نشأ أدب خاص بالرحلات يهتم بمراعاة ذوق جمهور القراء ويسجل في الرحلة كل ما يمكن أن يقال عن البلد من الناحية الجغرافية والتاريخية والعمرانية والاقتصادية والعلمية .

وعلى هذا المنوال نسج القاضي أبو بكر العربي ، وابن جبير الوزير الأندلسي ، وابن بطوطة اشهر رحالة المسلمين . ومن هؤلاء عالمنا الذي نتحدث عنه عبدالله ابن محمد التيجانيّ .

ولد أبو محمد عبدالله بتونس في نهاية القرن السابع الهجري من عائلة معروفة بالعلم والأدب من قبيلة تيجان وتربىّ في حجر أبيه العالم الأديب ، ودرس على عدد من علماء تونس والمغرب وعقد صلات وثيقة بالعلماء والأدباء داخل القطر وخارجه ، وكان شغوفاً بالثقافة ووسائلها ، مهتماً بالكتب من كل صنف وفنّ ،

يملك مكتبة ضخمة تضم مختارات المصنفات وعدداً من المخطوطات النادرة والمؤلفات التي كتبت بخطوط اصحابها .

انضم إلى سلك كتاب ديوان الإنشاء عمل والده وادبائه ، وكان يحوي عدداً من أصحاب الأقلام المعروفين ، ثم استصفاه لنفسه كبير الدولة وشيخ الموحدين الامير أبو يحي زكريا بن اللحياني . وعندما اصبح هذا الأمير سلطاناً للبلاد ومالكاً عليها ولى ابا محمد منصب كبير الديوان .

• وحين عزم السلطان أبو يحي على تفقد شئون المملكة — وكانت تشمل تونس وطرابلس الغرب — . وأذاع نيته على محاربة الأسبان الذين اغتصبوا جزيرة جربة وحدد موعد سفره إلى تلك الجهة ، عين أبا محمد لمصاحبته والاشراف على رسائله وكان أن كتب « تمهيد الرحلة » يقصد رحلته في شمال افريقية وما جرى له فيها من أحداث .

• ويعد هذا الكتاب من غرر المصنفات التونسية ، بل لعله الوحيد من نوعه في وصف البلاد الأفريقية والتعريف بعمرانها في أوائل القرن الثامن للهجرة ، وقد حرص التيجاني على ذكر اخبار المدن والقرى التي مر بها بانفرادها وما مضى من احداثها مع التعريف بالنابهين من أبنائها وأسماء الأوطان والنواحي ومن يسكنها من القبائل ، كما اهتم بتدوين تقاليد هذه البلاد وعاداتها في افراحها وأحزانها مما يعد الآن ثروة ثقافية ضخمة لا غنى للباحث — في تاريخ هذه البلاد وأحوال الاجتماع فيها — عن دراستها .

- ٢٧ -

شيخ الاسلام : تقي الدين بن تيمية
(٧٢٨ هـ.)

• ان العَلَم الذي نتحدث عنه هنا هو شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية ، احمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي . واما الكتاب فهو « الرد على المنطقيين » لامامنا المذكور .

• يزخر تاريخ الامم بالعظماء في كل علم وفن ، ويزخر تاريخ امتنا الاسلامية خاصة باعداد لا تحصى من النابهين النابغين في كل ميدان من ميادين الفكر ، وان نظرة على مكتبتنا الاسلامية المليئة العامرة تعطيك صورة واضحة لما نقول .

• ان بعض هؤلاء العظماء يؤثرون في مجتمعاتهم الخاصة ، وبعضهم يتجاوز تأثيرهم عصرهم كله ، لكن قلة منهم يتجاوز اثرها العصور والمجتمعات فيلوحون من وراء كل دعوة اصلاح ، ويظهرون وراء كل حركة تجديد ، ومن هؤلاء شيخ الاسلام العظيم ابن تيمية .

• ولد امامنا في حران . وهي بلدة قرب الرها «اورفة» من اراضي الجزيرة بين دجلة والفرات . ثم انتقل به والده وهو بعد صبي صغير الى دمشق بعد غزو التتار لبلاده ، فنبغ فيها واشتهر .

• نشأ في اسرة تعنى بالعلم ، وقد حدثوا عن والده انه «**كان يلقي دروسه**

غير مستعين بقرطاس مكتوب أو كتاب يتلو منه أو مذكرات يستعين بها، بل كان يلقي الساعات من ذاكرته الواعية وعقله المستذكر» ، ولعل شيخنا اقتبس هذا عن ابيه فهي صفات بارزة فيه ، وكانت اخص صفاته التي كان يقرع بها الحجة ويشده بها المحارب ويتحير لها المناظرون والاقران .

• حفظ القرآن ، ودرس الحديث وسمع كل كتاب الصحاح عدة مرات ، واتقن العربية وعلومها ، وتوسع في دراسة الفقه ، وكان يجمع بين غزارة العلم : وعمق الاحاطة بعلوم الشريعة والعلوم الفلسفية والكلامية في عصره وقبل عصره .

• وكان شيخنا يتصف بثلاث مزايا اهلته لان يحتل مكانته العالية بين اعاظم مفكري الاسلام : اولها الجد والاجتهاد والانصراف الى المجدي من العلوم والدراسات والبعد عن لهو الصبيان وعبثهم ، وثانيها تفتح نفسه وقلبه لكل ما حوله ، يدركه ويعيه ، فلم يكن منطعا عن الحياة والاحياء الى الحفظ والاستذكار فحسب وثالثها الذاكرة الحادة والعقل المستيقظ والفكر المستقيم والنبوغ المبكر .

• كان من اكثر علماء الاسلام انتاجا وتأليفا ، ألف في معظم العلوم المعروفة في عصره ، وقيل أن تآليفه تزيد على أربعة آلاف كراس ، تصل الى ثلاثمائة مجلد ، وقيل خمسمائة .

• لم يقتصر ابن تيمية على الجهاد بعلمه وقلمه ولسانه ، فقد كان فقيها عالما مجاهدا ، جرد السيف لقتال التتار ، وكان شجاعا في ميدان القتال كما كان شجاعا في ميدان العلم والفقه ، لم يتردد في الجهر بكلمة الحق ومصارحة الحكام بها ، وتعرض من اجل ذلك لمحن كثيرة حتى انه مات معتقلا في قلعة دمشق . وقد خرجت دمشق كلها في جنازته ، وكان ذلك سنة ٧٢٨هـ.

رحمه الله رحمة واسعة ، واسكنه فسيح الجنان .

• **اما الكتاب فهو «الرد على المنطقيين»** وهو من أعظم ما الفه شيخ الاسلام ابن تيمية ، ولو لم يكن له الا هذا الكتاب لكان كافيا لان يرفعه الى مراتب عظماء الفكر الانساني ، فكيف وثروته الفكرية الهائلة التي خلفها نادر ان تجد لها مثيلا عند أي مفكر آخر .

• تصدى شيخ الاسلام في هذا الكتاب للمنطق اليوناني كله ، او ما يسمى بالمنطق القياسي الذي بقي حتى عصره اسلوب الناس المفضل في التفكير والتعليل والتدليل والقياس ، بل لقد بقي هذا المنطق حتى ما بعد عصر النهضة الاوروبية المنطق السائد لدى العلماء والمثقفين ، فلم يكن امرا هينا ان يتصدى هذا العالم الجليل لهذا المنطق الراسخ في مختلف الثقافات وعند سائر الشعوب ، وقد كان كتابه قاصما للفكر اليوناني كما كان كتاب التهافت قاصما للفلسفة اليونانية ، وائن لم يتح له ما أتيح للثاني من الانتشار فلطبيعة المنطق التي تدق على كثير من الافهام والعقول .

• لقد هاجم الغزالي الفلسفة اليونانية ولكنه قبل منطق ارسطو او منطق اليونان عموما ، وادخل هذا المنطق في الفكر الاسلامي وزجه مع علوم المسلمين والف فيه ، وقصد من ذلك ان يطلع العلماء المسلمون على أساليب الجدل اليوناني التي نشطت في نشرها الفرق الباطنية في ذلك العصر ، لكن ابن تيمية رفض ما قبله الغزالي وابى الا أن يكون الورد نقيا صافيا منبعا وطريقا وغاية .

• ونقد المنطق اليوناني يأخذ على يد ابن تيمية وجهة اخرى غير الوجهة المعروفة آنذاك فهو لم يهاجمه في صورة فتوى تقرر تحريمه وعدم الاشتغال به ، وانما اتخذ هجومه شكل النقد المنهجي الذي يعتمد على اسس منطقية واضحة ، وهكذا لم يكتف شيخ الاسلام بالقول ، ودال على ذلك .

• واضاف الكتاب الى ذلك كله جانبا انشائيا ، وهو بناء منطق اسلامي يعتمده فكر اسلامي نقي خالص ...

• لم يطبع الكتاب الا مرة واحدة في الهند ، الا ان هذه الطبعة أصبحت نادرة ، وحبذا لو رأينا طبعة جديدة بين ايدي القراء لهذا الكتاب العظيم .

- ٢٨ -

الملك العالم : أبو الفداء
(٧٣٢ هـ)

* هو الملك العالم المؤيد أبو الفداء ملك حماه ، إسماعيل بن علي بن محمود .

* وُلد أبو الفداء في دمشق سنة ٦٧٢هـ ، وهو أحد ملوك الأيوبيين على حماه وتوابعها ، وقد كان على الأيوبيين أن يقوموا بعملين جليلين استطاعوا أن يؤدوهما حق الأداء ، أما أولهما فهو توحيد العالم الإسلامي ، الذي كانت التفرقة أضعفته إلى الحد الذي جعله نهباً لكل طامع ، وأما الثاني فهو إخراج الصليبيين الغزاة من بلاد المسلمين .

* وقد شارك ملكنا المؤيد في كلا العملين منذ صباه ، فقد كان في الثانية عشرة من عمره حين حضر مع أبيه أول معركة له عند قلعة المرقب في شمال سورية ، وحين كان عمره سبع عشرة سنة كان يشارك في حصار طرابلس الشام وكانت بأيدي الصليبيين .

* وبعد سنتين ، وكان في التاسعة عشرة ، شارك في فتوح عكا ، وفي السنة التالية كان يشارك في استخلاص قلعة الروم من الصليبيين ، وهكذا .

* وفي سنة ٧١٠هـ أصبح أبو الفداء نائباً على حماه وتوابعها ، ثمّ أصبح ملكاً عليها سنة ٧١٢هـ ولقب بالملك المؤيد ، ثم منح رتبة السلطنة بعد ذلك .

* كان محباً للعلم وأهله . يقرب العلماء ويغدق عليهم . ويجري على كل عالم وأديب ما يكفيه . فأقبل عليه الشعراء والأدباء يمدحونه ويلهجون بذكره ، وأصبح بلاطه مجلسهم وندوتهم .

* لقّب بالملك العالم ، ووازنه المؤرخون بالمأمون ، الخليفة العباسي : فقالوا ليس بعد المأمون أفضل منه ممن جمع الملك والعلم معاً .

* ويظهر أن ملكنا العالم كان على ثقافة واسعة ومعرفة شاملة ، فقد جمع ما يتصل بالدين من فقه وقرآن وتفسير وأصول ، وأتقن علوم العربية من أدب ونحو وعروض وشعر ، ودرس الفلسفة والمنطق ، وبرع في علم الفلك والطب . ولم تخرجه دراسته للفلسفة والمنطق عن الاعتقاد الصحيح ، فقد بقي سليم العقيدة صحيح الفكرة حسن الاتجاه .

* إلاّ أن شهرة أبي الفداء كانت لمعرفته الواسعة بالتاريخ والجغرافيا وتآليفه فيهما ، وبهما اشتهر وعرف .

* خلف عالمنا ثروة ضخمة من التآليف والبحوث ، منها : نظم الحاوي في الفقه الشافعي ، وشرح الكافية في النحو ، وكتاب الموازين ، ومختصر اللطائف السنية في التواريخ الإسلامية ، وتقويم البلدان ، والمختصر من أخبار البشر وهو المعروف بتاريخ أبي الفداء .

* توفي أبو الفداء في حماه سنة ٧٣٢ من هجرة الرسول عليه السلام ، تغمده الله برحمته ورضوانه .

* أما الكتاب : فهو : « المختصر من أخبار البشر » أوسع كتب أبي الفداء شهرة بين الكتاب والمفكرين ، ويعد من أفضل ما ألّف في التاريخ . فقد اطلع مؤلفه على أهم كتب التاريخ المعروفة حتّى ذلك الحين ، وعدد منها في مقدمته حوالي ١٥ مؤلفاً . منها ما هو موجود حتّى الآن ، ومنها ما فقدته المكتبة الإسلامية مع الكثير الذي فقدته من كنوزها .

• سمّاه « المختصر » ليغني القارىء عن الرجوع إلى الكتب المطولة ، فقد قام بمهمة عظيمة هي : حذف المكرّر من الكتب وما أكثره ، واختصار المفصّل منها .

• ثمّ قسم كتابه إلى قسمين كبيرين : خصّص القسم الأوّل للتاريخ القديم أو تاريخ ما قبل الإسلام ، ويتألف هذا القسم من مقدمة وخمسة فصول ، ذكر فيها الأنبياء على الترتيب ، وملوك الفرس ، وفراعنة مصر ، وملوك العرب ، وسائر الأمم .

• أما القسم الثاني فقد خصصه للتاريخ الإسلامي ورتبه على السنين ، كما فعل ابن الأثير وغيره من مؤرخي المسلمين ، وهو يذكر في كلّ سنة ما وقع فيها من أحداث ، ويتبع ذلك بما جرى فيها من أشهر الوفيات . ويبدأ هذا التاريخ بالرسول عليه السلام وينتهي بسنة ٧٣١هـ أي قبل وفاته بسنة واحدة .

• ولم يقتصر تأريخه على جزء من العالم الإسلامي آنذاك ، بل كان شاملاً لجميع أنحاء هذا العالم ، وتبدو أهميته القصوى بالجزء المتعلّق بعصره ، لأنه عاصر هذه الفترة وعاش أحداثها ، فاستطاع أن يصفها وصفاً صادقاً أميناً .

• كان تاريخ أبي الفداء موضع ثناء المعاصرين والمتأخرين ، وترجمت أقسام منه إلى عدد من اللغات الأوروبية .

- ٢٩ -

العالم العامل : ابن قيم الجوزية
(٧٥١ هـ)

هو ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي .

• وحين نتكلّم عن ابن القيّم فإننا نتكلّم عن باحث حرّ قوي الشخصية ، اعتاد أن يعمل فكره في كلّ مسألة ، فلا يلتزم برأي غيره دون حجة أو دليل ، حتى ولو كان هذا الغير ، شيخه العزيز عليه ، تقي الدين بن تيميّة ، إذ أنه مع طول ملازمته له والتي استمرّت ستة عشر عاماً ، كان كثيراً ما يناقشه ويرد على رأيه بما يبدو له أنه أرجح منه حجة ، وأقوى منه دليلاً .

• وُلد شمس الدين بن القيّم في دمشق سنة ٦٩١هـ وتوفي فيها سنة ٧٥١هـ ، وتتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيميّة منذ سنة ٧١٢هـ حتى وفاته سنة ٧٢٨ وسجن معه في قلعتها .

• عرف عنه ملازمته للاشتغال بالعلم في الليل والنهار ، واشتهر بحسن الخلق ، وشدّة الوفاء والتودّد إلى الأصدقاء . وكان كثير العبادة والصلاة ، وقد حدّثوا عنه أنه كان إذا صلّى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار ، ويقول : هذه غذوتي ، ولو لم أقعدها سقطت قواي .

• راع ابن القيّم تعصب الناس لمذاهبهم أكثر من تعصبهم للحق ، حتى يصل التعصب ببعضهم ليقول : « كلّ آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة

أو منسوخة ، وكلّ حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ » ، فأعلنها حرباً على التقليد المتعصب الأعمى ، ودعا القادرين على الاجتهاد إلى الاجتهاد .

* ولكن ! هل يعتبر كلّ تقليد تقليداً محرماً لا يجوز الاقدام عليه ؟ .. ميّز ابن القيّم بين نوعين من التقليد : أحدهما محرم والآخر محمود .

* أما التقليد المحمود ، فهو تقليد من بذل جهده في اتباع ما أنزل الله ، وخفي عليه بعضه ، فقلّد فيه من هو أعلم منه .

* وأما التقليد المحرم فأنواع ثلاثة : أولها ، الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء . وثانيها ، تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ قوله . وثالثها ، التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد .

* لقد حزّ في نفس ابن القيّم ما شاهده من تلاعب بأمور الدين باسم الحيل الشرعية ، التي تبطل رغبة الشارع وتنفذ رغبة المتحايلين ، وكانت هذه الحيل قد كثرت في ذلك العصر حتى تسببت في ضياع الحكمة من تشريع الشارع الحكيم ... فالأوامر إنما شرعت لما فيها من مصلحة ، فالزكاة شرعت للأخذ بيد الفقير ، والمنهيات شرع اجتنابها لما يترتب عليها من مفاسد ، وليس وراء التحايل على إسقاط الأوامر كالزكاة وفعل المنهيات كالربا الاّ إبطال لمقصود الشارع ، وتعطيل لمصالح المسلمين ، لذا فقد شنّها ابن القيّم حرباً شديدة على الحيلة بأنواعها ، لا تعادلها في شدّتها إلاّ حربه على التقليد .

* وإذا كان شيخ الإسلام ابن تيميّة قد كرّس حياته لإصلاح المجتمع ، وأهاب بالحكام أن يراعوا مصالح الشعوب ، وبالعلماء ألا يذلوا فيقضي الأمر وهم غائبون ، ولا يستأذنوا وهم شهود ، فإن ابن القيّم حمل الأمانة من بعده ، محاولاً إصلاح عقائد الأمة الإسلامية والعودة بالدين إلى ما كان عليه السلف من نقاء ، وبعد عن انحراف الزائفين وأوهام المبطلين .

* ترك ابن القيّم تآليف كثيرة ، في مواضيع متنوّعة ... من أهم ما ألّف

في الفقه والأصول : أعلام الموقعين ، والطرق الحكمية ، وفي السيرة : زاد المعاد (موضوع حديثنا) وهو كتاب فقه وأدب واجتماع وطب بالإضافة إلى كونه كتاب سيرة ، وفي التصوف : مدارج السالكين ، وعمدة الصابرين ، وروضة المحبين ، وفي علم الكلام : شفاء العليل ، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، وله كتب في مواضيع مختلفة ككتاب إغاثة اللهفان وغيره .

• من أقواله :

« لا بدّ للسالك من همة تسيّره وترقيه ، وعلم يُبصّره ويهديه . وهل وَصَل مَنْ وَصَل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلاّ على جسر من المحنة والابتلاء » .

« إن العالم بعد وفاته ميت وهو حيّ بين الناس ، والجاهل في حياته حيّ وهو ميت بين الناس » .

« إن سرور القلب بالله وفرحه به وقرّة عين المؤمن إليه لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا ، وليس له نظير يقاس به . إن هذا السرور يبعث المؤمن على دوام السير إلى الله عزّ وجلّ وبذل الجهد في طلبه وابتغاء مرضاته » .

رحم الله شيخنا وأسكنه عالي الجنان مع الشهداء والمقربين .

* * *

• أما عن « زاد المعاد » فلا شك أن الإنسان يحتاج إلى القدوة الصالحة كما يحتاج إلى العقيدة الصحيحة ، لذا فقد اقتضت إرادة الله وحكمته أن يكون حامل رسالة السماء إلى الأرض إنساناً رسولاً ، ولا نجد طائفة من الناس كانت القدوة في سلوكها وحياتها ، فأصلحت من فساد الأخلاق وقوّمت من عوجها وهذّبت النفوس وهدتها من ضلال ، كما كان شأن الأنبياء عليهم السلام ، فهم الذين أصّلوا الحياة الاجتماعية ، وأقاموا العدل في الدنيا وحكموا بالقسط بين الناس ، وزكّوا القلوب ، وأخذوا بيد الإنسانية إلى الحق والخير ، وأنقذوها من حمأة الرذائل .

• نعم ، إن جميع الأنبياء كانوا شهداء ودعاة ومبشرين ومنذرين ، بيد أن هذه الصفات لم تكن سواء في جميع الرسل ، بل كان بعضها في بعضهم أظهر ؛ فمن الأنبياء من غلب عليهم صفة التبشير فكانوا مبشرين كإبراهيم وعيسى ، ومنهم من غلب عليهم صفة الشهادة فكانوا شهداء بالحق كيعقوب وإسحق وإسماعيل ، ومن الأنبياء من غلب عليه وصف الإنذار لمن خالف الحق وجحده كنوح وموسى وشعيب ... أما محمد عليه السلام فقد كان جامعاً لهذه الصفات جميعاً .

• شيء آخر يميز حياة الرسول وهي أننا لا نكاد نعرف إلاّ القدر اليسير من حياة الأنبياء السابقين ، وهذا القدر اليسير مليء بالكثير من الخرافات والأساطير ، أما حياة نبيّنا فإننا نعلم جميع وقائعها ودخائلها بحيث نستطيع أن نفتخر ونحن واثقون أنها أصلح سيرة لأي إنسان على وجه الارض .

ويُعَدّ كتابنا « زاد المعاد » من أفضل ما أُلّف في حياة الرسول عليه السلام . وقد جاء الكتاب في أربعة مجلدات تناولت كلّ ما يتعلقّ بهدْي الرسول الكريم .

• حياته الشخصية مع أهله ومعَ الناس ، نومه ويقظته ، سيره وركوبه ، كلامه وسكوته وبكاؤه ، صلاته وصومه وصحبته ، جهاده وغزواته ، طبه وعلاجه ، دعوته إلى الله ، رسائله إلى الملوك والرؤساء ، استقباله للوفود ، تجهيزه للدعاة والسرايا ، قضاؤه وأحكامه وقسمته للغنائم ، إلى آخر ما هنالك من حياة الرسول ، حتى لم يغادر الكتاب قليلاً أو كثيراً مما يجب أن يعلم المسلمون من حياة نبيهم .

• إن هذا الكتاب ما يزال مبعث بهجة وأنس لقارئه ، يدفعه إلى النظره في حاله وقياس سلوكه بميزان الرسول ، ومن ثم التأسي به والاقتداء .

إنه كتاب لا تستغني عنه مكتبة أي مسلم .

- ٣٠ -

رحالة المسلمين : ابن بطوطه
(٧٧٩ هـ)

ابن بطوطة هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللّواتي الطنجي ، أمير الرحالة المسلمين ، وصاحب أشهر رحلة كتبت باللغة العربية وانتشر ذكرها في الخافقين .

وُلد في طنجة من أعمال المغرب آنذاك سنة ٧٠٣ من هجرة الرسول عليه السلام ، أي في بداية القرن الرابع عشر الميلادي ، ونشأ في أسرة كانت تعنى بالدراسات الدينية والفقهية ، فدرس الأدب وتوسع في دراسة الفقه ، وكان معدّاً لأن يكون قاضياً كما كان شأن الكثيرين من أفراد أسرته ، إلاّ أن القدر كان يعدّه لأمر آخر .

* عُرف رحالتنا بقوّة عاطفته الدينية منذ شبابه ، وقد ألحّ على والده بالسماح له بالحج إلى بيت الله الحرام ، وخرج الشاب من بلده طنجة ، سنة ٧٢٥ هجرية ، عن عمر يناهز الثانية والعشرين ، وكتب له أن لا يعود إلى بلاده إلا بعد ربع قرن من الزمان ، قضاه في الترحال في شتى أنحاء المعمورة ، مسجلاً رحلة من أغرب الرحلات في التاريخ .

* في الطريق إلى مكة المكرمة ، كان قاضياً للقافلة التي أعجبت بعلمه وحكمته وحسن تقديره للأمور فأسلمت إليه قيادها في أمورها الهامة .

* وكان سفره إلى الحج بداية رحلته الطويلة ، ففي الإسكندرية التقى بشيخ فاضل لمس من صاحبنا ميله إلى السياحة والترحال ، فشجعه على ذلك ودفعه إليه دفعاً حين طلب إليه أن يسلم على إخوته الثلاثة في الهند والسند والصين ، وكان هذا الشيخ واسمه برهان الدين ، يوحي له بحدود الرحلة وأطرافها .

* ثم بدأ الشاب ابن بطوطة ، يرى الأحلام التي تدور حول الرحلة ، فمرّة يرى نفسه كأنه على جناح طائر عظيم يطير به ، ومرّة يتخيّل البلاد التي سيقصدها وأهلها وغرائبها ، فعزم على البدء برحلته الأولى وبدأ منها بالقاهرة وبعض بلاد مصر ، ثم بلاد الشام .

* وبعد أن أدّى فريضة الحج ذهب إلى العراق وإيران ، ولكن الشوق إلى البلاد المقدسة شدّه إلى الحج مرّة ثانية قصد بعدها إلى اليمن وإفريقيا الشرقية ، ثم عاد إلى بلاد العرب فزار مناطق الخليج العربي وعُمان والبحرين ، ورجع إلى مكة فحجّ للمرّة الثالثة .

* ثمّ ارتحل ابن بطوطة إلى مصر والشام مرّة أخرى ، لينطلق من الشا إلى آسيا الصغرى ، ثمّ شبه جزيرة القرم ، ثمّ القوقاز وبلغاريا والقسطنطينية ، وليعود بعد ذلك إلى خوارزم ، وبخاري وأفغانستان ، وليحط رحاله في الهند سنة ٧٣٤ بعد تطواف تسع سنوات ليقيم فيها ثماني سنوات يتولى فيها القضاء ويعيش عيشة أهل البلاد .

* وشاءت إرادة الله أن يكل إليه سلطان الهند القيام بسفارة إلى ملك الصين ، وكان هذا غاية ما يتمناه رحالتنا الكبير ، فقد شد الرحال على رأس وفد من مسلمي الهند مع الهدايا الكثيرة وقصد الصين ، ذلك البلد المجهول ، إلاّ أن السفينة تغرق في الطريق ليبدأ ابن بطوطة رحلة طويلة قبل وصوله إلى غايته .

* فقد تنقل في جزائر المولديف ، وتولى القضاء فيها مدّة طويلة وتزوّج من أهلها الاّ أن الحنين إلى الترحال عاوده مرّة أخرى ، فتركها قاصداً الصين عن طريق سيلان والبنغال ، ثم ركب البحر مارّاً بشبه جزيرة الملايو ، ثم

سومطرة ، ثم عاد من رحلته عن طريق بلاد العجم وما بين النهرين ثمّ بلاد الشام .

* وبعد أن حجّ مرّة رابعة بدأ رحلة العودة إلى بلده فمرّ بمصر ثم تونس والجزائر ومراكش ووصل إلى فاس سنة ٧٥٠ . ومع أن سلطانها أبا عنان المريني ، احتفى بقدومه احتفاء بالغاً وطلب إليه الاستقرار ليتفرغ لكتابة أخبار رحلته وما فيها من عجائب وطرائف ، إلاّ أن الشوق إلى الترحال دفع أبا عبدالله إلى القيام برحلتين جديدتين . أولاهما إلى الأندلس حيث يعيش عدد كبير من أفراد اسرته ، والثانية إلى بلاد السودان الغربي ومجاهل إفريقية المتوسطة . ثمّ عاد إلى فاس حيث أمضى بقية حياته .

* وقد أُعجب السلطان أبو عنان بما يرويه ابن بطوطة من غرائب الأخبار وطرائف الأسفار ، فعهد إلى كاتبه الأديب محمد بن جُزَيّ أن يسجل هذه الرحلة وقد سماها « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وقد جاءت لتكمل رحلة سابقة قام بها رحالة مسلم ، هو ابن جُبَيْر ، ولتؤكد حرص المسلمين على التعرّف على أحوال العالم عن طريق الاتصال المباشر والدراسة الدقيقة .

* استغرقت رحلات ابن بطوطة الثلاث تسعاً وعشرين سنة ، ولقيت رحلته عامة اهتماماً من المستشرقين منذ أوائل القرن الماضي ، فنشروا منها أجزاء وقطعاً ثم نشرت كاملة مع ترجمة باللغة الفرنسية ، كما ترجمت إلى لغات أخرى منها اللغة الألمانية والبرتغالية والإنكليزية .

* كان رحالتنا دقيق الملاحظة ، أميناً في عرض مشاهداته ، فكهاً ، ظريفاً ، حرص على أن يصف جميع ما شاهده من رجال ونساء وغرائب ، وقدم وصفاً كاملاً للعادات والتقاليد والأخلاق لجميع البلاد التي زارها ، ولم ينسَ أن يصف ملابس السكان وطريقة طعامهم وسكنهم مما جعل رحلته سجلاً هاماً لحياة الأمم التي تكلّم عنها .

• وزاد في أهمية هذه الملاحظات أنها لم تكن دائماً نتيجة نظرة عابرة وإنما كانت على العكس من ذلك ، بعد اختلاط ومعايشة تصل إلى حد الزواج وتولي القضاء ، كما حصل له في الهند وجزائر المولديف والصين .

• ولئن كان رحالتنا دون بعض ما أخبر به من خرافات لكنه غالباً ما كان يستعمل لفظ « يزعمون » ، « وهذا في زعمهم » مما قد يشير إلى شكّه بهذه الأخبار ، والدقته هذه أطلق عليه « دوزي » أحد كبار المستشرقين اسم « الرحالة الأمين » .

• إن « رحلة ابن بطوطة » كتاب لا يستغني عنه علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتاريخ والجغرافيا ، لأنه سجل دقيق وشامل لحياة العالم المعمور في فترة هامة من فترات تاريخه ، ولقد كان بودنا لو أننا استطعنا أن ننقل إليك نماذج من هذه الرحلة الطريفة ، لولا أن المجال ضيق ولا يسمح لنا بأكثر من ذلك ، فاحرص أيها القارىء الكريم على قراءتها بنفسك لأنها تجلب لك المتعة والسعادة .

رحم الله رحالتنا الكبير وأجزل له المثوبة .

- ٣١ -

مؤسس علم الاجتماع : عبدالرحمن بن خلدون
(٨٠٨ هـ)

هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي .

كلّما ذكر علم الاجتماع يقفز إلى الذاكرة اسم عالمنا الكبير ابن خلدون ، لأنه يعتبر بحق منشىء هذا العلم ، فقد كان أوّل عالم يقرّر بصراحة ووضوح موضوع هذا العلم ومنهجه وهما أمران لازمان لتأكيد نشأة أي علم وولادته .

* وقد أطلق عليه تسمية جميلة هي « علم العمران البشري » ، وهذه التسمية في نظرنا أفضل من التسمية الحديثة له « علم الاجتماع » ، فقد أراد عالمنا أن يشير إلى أن مجرد الاجتماع البشري ليس فيه ما يحتاج إلى دراسة وتأمل ، لكن الاجتماع الذي يصدر عنه تعبير عن الذات ويتدرّج في استكمال ضرورات التنظيم والعمران هو الأصل في الاجتماع الإنساني ، وهو الذي يصح أن تعقد له العلوم والبحوث .

* وُلد ابن خلدون في تونس سنة ٧٣٢هـ من أسرة عربية حضرمية هاجرت إلى إشبيلية في الأندلس ، ثمّ نزحت عنها إلى تونس قبيل سقوط إشبيلية بأيدي الإسبان . وعندما بلغ مبلغ الشباب شارك في الشؤون العامة والسياسية ، ورحل من أجل ذلك إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس ، وتولى في هذه البلاد أعمالا مختلفة .

• ولما كان العالم الاسلامي آنذاك يشكل وحدة مفتوحة أمام المسلمين جميعاً على الرغم من نشوء الدويلات المختلفة فيه ، فقد توجه إلى مصر عندما ضاقت به الأحوال في بلدة تونس ، فولي القضاء فيها مدة . واشترك في ذلك الحين مع ملك مصر فرج بن برقوق في محاولة إيقاف تيار المغول المتدفق بزعامة تيمورلنك ، فتوجه مع الملك إلى بلاد الشام .

• ولما عاد ابن برقوق إلى مصر لإحباط مؤامرة دبرت فيها لخلعه ، حاول ابن خلدون مع بعض العلماء مفاوضة تيمور على الصلح لعلّهم يحققون عن طريق الدبلوماسية ما لم يستطيعوه عن طريق القتال ، إلاّ أنهم فشلوا في محاولاتهم ولم يفلحوا ، فعاد عالمنا إلى مصر حيث توفي فيها سنة ٨٠٨ هـ.

• ترك ابن خلدون مؤلفات عديدة في التاريخ والمنطق والأدب والحساب والشعر ، إلاّ أنه اشتهر بتاريخه « العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر » ، وبمقدمة هذا التاريخ على وجه الخصوص ، فهي التي أذاعت صيته في الآفاق لما وصفته من أصول علم الاجتماع أو « العمران البشري » .

• ومع شعور عالمنا الجليل أنه يؤسس علماً جديداً لم يقف على مثله أحد من الخليفة على حد تعبيره ، إلاّ أنه لا يدّعي أنه قد قال كلّ شيء حول هذا العلم . فهو يفتح الباب ويبدأ الطريق للدارسين الذين يجب عليهم أن يكملوا ما بدأ . يقول ابن خلدون : « ولعلّ من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين ، يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا ، فليس على مستنطق الفن إحصاء مسائله وإنما عليه تعيين موضوع العلم وتنويع فصوله وما يتكلّم فيه ، والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل » .

• وأخيراً فقد سبق ابن خلدون الحضارة الأوروبية في الانتباه لهذا العلم وتقريره بأكثر من أربعة قرون ... أجزل الله له مثوبة العاملين .

* * *

• أما عن مقدمته التي أصبحت تعرف في العالم أجمع باسم « مقدمة ابن

خلدون » فإنها تضم الفصول التالية :

– في العمران البشري على الجملة : وهذا الفصل أشبه بما نسميه اليوم علم الاجتماع العام .

– في العمران البدوي والقبائل والأمم الوحشية : وهذا يذكرنا بالبحوث الحديثة في أصول المدنيات القديمة أو ما يسمّى بالأنثروبولوجيا .

– في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية : وهذا الفصل دراسة للظواهر السياسية أو ما نسميه بعلم الاجتماع السياسي .

– في البلدان والأمصار وسائر العمران : وهو مجموعة من البحوث في النظم العمرانية وعلم الاجتماع المدني وعلم السكان .

– في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع : والفصل دراسة للظواهر الاقتصادية وهو أشبه بعلم الاجتماع الاقتصادي .

* ولعلّك تودّ أن تعلم شيئاً عن أسباب تفكير عالمنا الجليل بإنشاء علم الاجتماع وكتابة المقدمة ... لقد كان ابن خلدون معنياً بدراسة التاريخ ، وقد لاحظ من خلال قراءاته لمشاهير المؤرخين أنهم كثيراً ما يقعون في أخطاء كثيرة ، نتيجة لأسباب متعدّدة .

* وعندما تحرى هذه الأسباب وجد أن أهمها ما يلي :

– عدم تحكيم العقل والمنطق على ما يسمعونه أو يسجلونه من أخبار .

– عدم قياسهم الغائب على الشاهد ، أو الحوادث الماضية على الحوادث المعاصرة .

– تعصب المؤرخين لمذهب أو طائفة أو دولة لأن المؤرخ سيسجل ما يتفق مع هواه لا مع الحقيقة .

– جهلهم بالقوانين الطبيعية التي يسير عليها الكون بمقتضى إرادة الله .

ـ وأخيراً جهلهم بالقوانين الاجتماعية أو المبادىء التي يسير عليها العمران البشري لأن العلاقات الإنسانية لا تصدر اعتباطاً وإنما تسير ضمن قواعد محددة واضحة .

• وقد أعان ابن خلدون أنه لا يجد للمؤرخين عذراً إلاّ في واحد من هذه الأسباب وهو الجهل بالقوانين الاجتماعية لأن أحداً قبله ـ كما يقول ـ لم يكشف لهم عنها ، ومن أجل ذلك وضع علم العمران البشري الذي سيكشف فيه عن طبيعة الاجتماع الإنساني وقوانينه وتطوّره .

• وقد جاءت مقدّمة ابن خلدون فريدة في نوعها بما حوته من تحديد للظواهر الاجتماعية ـ أو الوقائع الاجتماعية كما أحبّ أن يعبر عنها ـ بأنواعها المختلفة ، كما جاءت فريدة بما اشتملت عليه من نظريات جديدة في نشأة المجتمعات والدول وازدهارها وانهيارها إلى غير ذلك من مواضيع لم تفقد جدّتها برغم القرون الطويلة التي مرّت عليها .

• ترجمت المقدمة إلى معظم اللغات الحية في العالم . وقامت حولها دراسات كثيرة ، ويعتبرها الباحثون من الكتب المتميزة في تاريخ الفكر الإنساني كلّه .

- ٣٢ -

تقويم القلم : أبو العباس القلقشندي
(٨٢١ هـ.)

• أحمد بن علي بن عبدالله الفزاري ابو العباس القلقشندي ثم القاهري .

• وُلد سنة ست وخمسين وسبعمائة للهجرة في مدينة قَلْقَشَنْدة من منطقة القليوبية في مصر ، ونشأ فيها نشأة علمية صحيحة ، ودرس على المشهورين من العلماء في زمنه ، وانتقل من أجل ذلك إلى الإسكندرية ونال الإجازة من مشايخها في الفقه الشافعي والحديث والأصول .

• وحين اكتملت لأبي العباس ثقافته الفقهية جلس للتدريس فكانت حلقاته واسعة تضمّ الكثيرين من طلاب العلم ، وقد انتفع الناس بهذه الدروس ، خاصة وان أبا العباس كان يملك فكراً نيّراً واسعاً ، فكان يحاول أن يضع لعلم الفقه أصولاً وقواعد ، ويميل إلى الاجتهاد ، ويؤلف عدداً من المصنفات الفقهية الجيدة .

• لكنه لم يقصر عنايته على الفقه والحديث وإنما وجّه عناية خاصة إلى الأدب فتمرّس بفنونه واستوفى ثقافته الأدبية ، وكتب عدداً من الكتب والرسائل الأدبية ونبغ في هذه العلوم والفنون حتّى لفت إليه أنظار الناس .

اختير أبو العباس بعد ذلك للعمل في ديوان الإنشاء ، فكان ذلك إيذاناً بعهد جديد من التأليف والكتابة ، فقد ألف صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، كما كتب نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، وقلائد الجمان في التعريف

بقبائل عرب الزمان .

* ومع جلالة قدر أبي العباس وضخامة العمل الفكري والأدبي الذي قام به إلاّ أنه لم يلقَ من المؤرخين وكتاب التراجم ما يستحقه من العناية حتى لقد أخطأ بعضهم في ذكر اسم والده أو سنة ولادته ووفاته .

* ترك لنا القلقشندي عدداً من المؤلفات من أهمّها شروح على بعض كتب الفقه الشافعي ، وحلية الفضل والكرم في المفاضلة بين السيف والقلم ، والكواكب الدرية في المناقب البدرية ، وعقد الجمان ، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء وهو أهم كتبه .

* توفي في عام ثمانمائة وواحد وعشرين للهجرة عن عمر يناهز الخامسة والستين رحمه الله وأجزل له المثوبة والمغفرة .

* * *

* أما الكتاب فهو «صبح الأعشى » الذي سبق أن أشرنا إليه، وهو أعظم كتب القلقشندي على الإطلاق والموسوعة التي يعرف بها هذا الكاتب على مرّ العصور ، فلا يمرّ اسم أبي العباس في مجالات الفكر والعلم إلاّ على أنه مؤلف صبح الأعشى ، وقلّ من المثقفين من يعرف أنه مؤلف نهاية الأرب أو قلائد الجمان أو شارح كذا وكذا من كتب الفقه ونحوِ ذلك .

* رجع المؤلف في كتابه إلى عدد كبير من المصادر التي يصعب إحصاؤها ، ولا تقل هذه المصادر عن مائة وقد تزيد على هذا العدد ، من أهمها : كتاب الأم للشافعي ، والملل والنحل للشهرستاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وحياة الحيوان للدميري ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وتقويم البلدان لياقوت الحموي .

* بدأ أبو العباس مقدمة الكتاب بقوله: « لما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها ، وأربح البضائع وأنفعها ، لا سيما كتابة الإنشاء ، التي لا

يلتفت الملوك إلاّ إليها، ولا تُعَوّل في المهمات إلاّ عليها ، يعظمون أصحابها ، ويقربون كتابها ، استخرت الله في كتابة هذا التاريخ».

• ثم أشار في المقدمة إلى الذين سبقوه في التأليف في هذا الموضوع والطرق التي سلكوها فيه ، ثمّ انتقل إلى بيان خطته في الكتاب فبيّن أنه جعل الكتاب في مقدمة وعشر مقالات وخاتمة . وقد تناول في كل مقالة من المقالات بحثاً من البحوث مُنظماً بشكل دقيق بحيث يستوفي جميع ما يجب أن يعرفه الكاتب حوله من أمور.

• خصّص أبو العباس المقالة الأولى للحديث عن ثقافة الكاتب في الأمور العلمية والعملية ، وتكلّم في المقالة الثانية عن ثقافته الجغرافية والتاريخية، أما المقالة الثالثة فقد كانت خاصة بالثقافة الديوانية، بينما توسع القلقشندي في المقالة الرابعة بالحديث عن المكاتبات وتاريخها وفنها .

• ثم استغرق المؤلف في حديث طويل شمل أربع مجلدات في الكلام عن الولايات والبيعات والعهود الصادرة عن الخلفاء أو الملوك لأمثالهم، أو لأصحاب المناصب سواء كانوا من أرباب السيف أم القلم، وهو موضوع طريف نادر ، أما المقالة السادسة فقد كانت للوصايا والمسامحات والتحويلات ، وخصّصت المقالة السابعة للاقطاع والقطائع ، وانتقل المؤلف في المقالة الثامنة لشرح موضوع الإيمان وتحريرها ، أما المقالة التاسعة ففي كتب الأمان وعقود أهل الذمة والهدنة .

• وكلّ هذه الأبواب من الفنون الديوانية، لذلك فقد خصّص القلقشندي المقالة العاشرة إلى ما يصدر عن الديوان في غير الشؤون الرسمية البحتة كرسائل الغزو والصيد والمفاخرات والرسائل التي تصف الأحداث الجارية .

• وإليك قارئي الكريم أمثلة لما جاء في هذا الكتاب العظيم .

• في موضوع الأمان أورد أبو العباس كتاب الرسول عليه السلام لرفاعة بن زيد الخزاعي بعد إسلامه وعلّق عليه، ونحن هنا نورد الكتاب وبعض التعليق

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله إلى رفاعة بن زيد : إني بعثته إلى قومه عامة ومن دخل فيهم يدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ، فمن أقبل منهم ففي حزب الله ورسوله ومن أدبر فله أمان شهرين» وقد تكلّم المؤلّف عن شروط الأمان وتحريره وأنواعه وطرقه ، ومما جاء في تعليقه عن شروطه : للأمان أركان وشروط وأحكام ، فأما أركانه فثلاثة ، وهي :«من صدر عنه العقد ، ومن صدر له العقد ، وصيغة العقد» ، وأما شروطه : «فألاّ يكون على المسلمين ضرر في المستأمن» ، ومدّة الأمان لا تزيد على سنة ، بخلاف الهدنة ، فتجوز عند ضعف المسلمين أن تمتد إلى عشر سنين .

* وفي موضوع البيعة جاء في صبح الأعشى أن البيعة والمبايعة كالبيع الحقيقي معناها المعاهدة والمعاقدة ، وهي نوعان ، بيعات الخلفاء وبيعات الملوك ؛ والأصل في بيعات الخلفاء ، بيعة أبي بكر رضي الله عنه ، والأصل في عهود الخلفاء إلى الملوك تفويض الرسول عليه السلام أمر اليمن في حياته إلى عمرو بن حزم رضي الله عنه .

* أما عن تاريخ التحريرات والكتابات ومصطلحات الكتابة العربية ، فقد جاء القلقشندي بنماذج طريفة يتبيّن منها تطوّر هذه المصطلحات ؛ فقد كان الرسول عليه السلام يفتتح كتابته بلفظ : من محمد رسول الله إلى فلان ؛ وكان أبو بكر يفتتحها بلفظ : من أبي بكر خليفة رسول الله إلى فلان ؛ أما عمر فأصبح يفتتحها بقوله : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى فلان ؛ وهكذا على مدار التاريخ الإسلامي .

* وفي حديث طويل عن أصول المكاتبة ، اشترط القلقشندي أن يتوفر فيها أمور كثيرة ، منها : حسن الافتتاح ، واشتمال المقدمة على كلام مناسب لموضوع الكلام يكون أساساً له ، ومخاطبة كلّ بما يستحق وبما يناسبه ؛ واختتامها بصورة مناسبة لموضوع الرسالة ملائم لها .

* وأثناء حديثه عن ثقافة الكاتب الجغرافية عرض المؤلف للكثير من المعلومات

في جغرافية العالم الإسلامي، يقول عن مكة مثلاً : سميت كذلك لقلّة مائها ، ولها ستة عشر اسماً، ومنها مكّة وبكة وأم القرى وأم رُحم والبلد الأمين والباسة والناسة والحاطمة والقدس والمقدسة ، وكثرة الأسماء عند العرب تدل على شرف المسمى .

* وعن المدينة المنوّرة يقول صاحب صبح الأعشى : اسمها القديم يثرب ، وسماها النبي طيبة وطابة ثم من أسمائها الجابرة والمحبوبة والمجبورة والعذراء والمرحومة وغلبة لأن الأوس والخزرج غلبوا عليها اليهود ، وسمّاها الله تعالى الدار «والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم».

* قارئي الكريم ، مهما تعاقبت العصور والدهور فسيبقى صبح الأعشى كتاباً متميزاً في تاريخ الفكر الإنساني .

- ٣٣ -

الوافد من المغرب : ابو العباس المقري
(١٠٤١ هـ)

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني عالم الغرب ومؤرخها في القرن الحادي عشر لهجرة الرسول عليه السلام .

* وُلد أبو العباس في تلمسان من الجزائر سنة ٩٩٢هـ من عائلة نزحت إليها من مدينة مقرّة وهي من أعمال قسنطينة بالجزائر أيضاً ، ويقال إن نسب أسرته يرتفع إلى الرسول عليه السلام .

* عاش عالمنا في بحبوحة من العيش فقد كان أهله يعملون بالتجارة ويمتازون باليسار والوجاهة ، هذا بالإضافة إلى شهرة في العلم والأدب ، فقد كان لأكثر من واحد من أجداده فضل كبير في حركة المغرب العلمية وازدهارها ، ولا شك انه تلقى المبادىء الأولى للعلوم في أسرته ومنها استقى حبه للعلم ورغبته القوية في الدراسة والتحصيل .

* درس على معظم علماء المغرب آنذاك ، ولم يسمع بعالم أو شيخ إلاّ وسعى إليه وأفاد منه ، وكان على رأس هؤلاء ، شيخ فاس ومفتيها أبو عبدالله محمد بن قاسم القيسي المشهور بالعصار ، وأحمد بابا التنبكتي السوداني الأصل ، وعمه الشيخ سعيد بن أحمد المقري ، وقد سمع عن هذا الأخير صحيح البخاري وحفظه ، وبلغ من تمكنه في الحديث أنه كان يعطي إجازات فيه .

* وكان المقري يملك حافظة نادرة ، نماها واستعان بها على مداومة مذاكرة العلم ومدارسته ، وقد أسعفته هذه الحافظة في مواقف كثيرة حتى أنه ألف « نفح الطيب » كتابه المشهور مستعيناً بهذه الحافظة التي كان لها فضل الحفاظ على تراث عظيم ، ويدل على قوة هذه الحافظة كثرة استشهاده في المناسبات وتنوعه ، وهذا ما لفت الأنظار مستمعيه في مجالسه ودروسه وأسماره ، حتى لقد سجل ذلك أحدهم وهو الشيخ عبد الرحمن العمادي من دمشق بقوله :

درس غريب كل يـــــوم يملى ، ولكنْ حفظه أغرب

* عاش شيخنا في عصر كانت فيه الدولة العثمانية تمد سيطرتها على مختلف مختلف أنحاء العالم الإسلامي حتى وصلت إلى بلاده ، لكنه تجنب الصراع القائم بين الدولة وبين السلطات القائمة في كل مكان بالانصراف إلى العلم والحديث والأدب ، ثم استأذن السلطان زيدان السعدي أمير فاس أن يسمح له بالسفر إلى المشرق الإسلامي ، وبدأ رحلة علمية دراسية امتدت أربعة عشر عاماً .

* وكان ركوب البحر وما رافقه من مصاعب وأهوال ، تجربة مثيرة له سجلها في كتابه نفح الطيب ، حتى وصل مصر سنة ألف وثمان وعشرين هجرية ، ثم سافر إلى الحجاز فأدى فريضة الحج وزار القدس والشام ، وكان يتصل بالعلماء في كل بلد يحل فيه ، يستفيد ويفيد ، فقد درس في المسجد الحرام ، وأملى الحديث في المدينة على مقربة من رسول الله ﷺ وألقى عدة دروس في المسجد الأقصى وأملى صحيح البخاري في جامع بني أمية بدمشق .

* وقد لقي في دمشق إقبالاً منقطع النظير حتى ضاقت قبة النسر التي كان يملي فيها دروسه بالناس فخرج بهم إلى صحن الجامع ، وكان يوم ختام تدريسه يوماً حافلاً عبّر فيه الناس عن تقديرهم لعلمه وإجلالهم لما يحفظه من حديث الرسول ، وتكلم أبو العباس المقري كلاماً عجيباً متنوعاً دام من طلوع الشمس حتى وقت الظهر .

* وحين عاد إلى القاهرة انقطع لكتابة « نفح الطيب » الذي أمدنا بحصيلة

هائلة من المعارف والأخبار الأندلسية والمغربية ، ولولا روايته لها وحفظه لضاعت من أيدينا إلى الأبد ، وكان له فضل كبير في تعريف أهل المشرق بالمغرب وأهل المغرب بالمشرق ، وعن طريقه استطعنا أن نعلم اختلاف أسلوب الشرقيين عن المغاربة في التأليف والتدريس والإيجاز والتلخيص والمصطلحات .

* وكان عالمنا بالإضافة إلى أنواع العلوم التي أتقنها ، شاعراً مجيداً ، وكان أكثر شعره في مدح الرسول عليه السلام ، من ذلك قوله :

ليس كلّ القريض يقبلـــه الـــ   سمع وتصغي لذكره الأفهـــام
إن بعض القريض ما كـــان هز   ءاً ليس شيئاً وبعضه أحكـــام
وأجل الكلام ما كان في مـــدح   شفيع الورى عليـــه السّـــلام

* من مؤلفاته : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، إتحاف المغرم المغرى ، إحناءة الدجنة في عقائد أهل السنة ، روضة الآس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس ، وحسن الثنا ، وغيرها .

* توفي في القاهرة سنة ألف وإحدى وأربعين من هجرة الرسول ، رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

* * *

* أما الكتاب : فهو « نفح الطيب » ، وهو موسوعة في الأدب والتاريخ وتراجم الرجال ، جمع فيه مؤلفه من تاريخ المسلمين في الأندلس ما لا تجده في كتاب غيره ، فقد أتيح له ما لم يتح لنا أن نعثر عليه ، ووقع له ما لا وجود له اليوم ، واستطاع أن يصون نقولاً ونصوصاً كاملة ، وهذا هام وخاصة بالنسبة للأندلس التي ترك أهلها بعد نكبتهم كلّ شيء ، وأثمن ما تركوه ذخائر الكتب ونفائسها .

* ويظهر أن المقري أراد أن يجعل منه مكتبة كاملة فضمنه كتباً ورسائل

متعدّدة ، منها كتاب المحاضرات لجده أبي عبدالله محمد قاضي قضاة فاس ، والإنشاءات والإفادات لأبي إسحق الشاطبي ، ونصائح الأحباب والأبيات المهذبة وأنداء الدين للتحبيبي ، ومعظم هذه الكتب مفقود ولولا تسجيل المقري لها لضاعت .

• وعلى الرغم مما وجه إليه من نقد بسبب ما وقع فيه من مآخذ ، وما فاته من مسائل ؛ فإن الكتاب يبقى أهم وثيقة عن الأندلس وهذا ما جعل أمير البيان شكيب أرسلان يقرل في الحلل السندسية « اعلم أعزّك الله أنه لا يزال نفح الطيب من أعظم المراجع التي يعوّل عليها المحققون في أخبار الأندلس » .

• يضاف إلى ذلك أنه عرف المشرقيين بأعلام المغرب كما عرف المغاربة بأعلام المشرق ففي الكتاب ، بابان في هذا المجال ، أحدهما في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق ، وثانيهما بالرافدين من المشرق إلى المغرب .

• إن غرض الكتاب في الأصل كما يلاحظ من عنوانه ، التعريف بالأندلس والوزير لسان الدين بن الخطيب ، لذا فقد جاء الكتاب في قسمين كبيرين : قسم في الحديث عن الأندلس وتاريخها وآدابها ، وفيه ثمانية أبواب : تتناول وصف الجزيرة وفتح المسلمين لها ، وعز الإسلام بها ، ووصف قرطبة ، والتعريف ببعض أعلام المشرق والمغرب ، وذكر بعض مزايا أهل الأندلس ، وكيف تألب العدو على المسلمين حتى استولى عليها . أما القسم الثاني فيشمل التعريف بابن الخطيب وفيه ثمانية أبواب أيضاً .

• أيها القارىء الكريم لقد مضى على تأليف الكتاب أكثر من أربعة قرون ، طبع فيها أكثر من مرّة ، وما يزال مكتبة ذخيرة حافلة ، ومنبعاً خصباً للكثير من الدراسات والأخبار والأسفار .

- ٣٤ -

داعية التوحيد : محمد بن عبد الوهاب
(١٢٠٦ هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي ، إمام النهضة الإسلامية الحديثة في جزيرة العرب ، ومجدد من مجددي الإسلام ، وداعية إسلامي كبير ، أخذ نفسه أولاً ثم مَنْ حوله بما يعتقد أنه الحق ، وكافح من أجله وقاسى ، حتى قيض الله له النصر .

* وُلد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونشأ في العُيَيْنَة سنة ١١١٥ من هجرة الرسول ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وتلقى العلوم الأولى على يدي والده ، وكان يعمل قاضياً للعُيَيْنَة آنذاك .

* ثمّ ارتحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ولمتابعة علومه وبحوثه ، فدرس على أعلام مكة آنذاك ، ثم انتقل إلى المدينة فقرأ على فقهائها وخاصة الشيخ عبد الله بن إبراهيم النجدي والشيخ محمد السندي ، ثم قصد إلى البصرة واجتمع إلى عدد من علمائها المعروفين ، وهناك اتضحت له معالم الدعوة التي يجب أن يبشر بها ، وتبينت له ضخامة المهمة العظيمة التي ألقيت على عاتقه ، وارتسمت أمام ناظريه أبعاد المعركة التي سيخوضها مع الطوائف المضلّلة من الناس .

* في العصر الذي نشأ فيه إمامنا الجليل كانت عوامل الضعف بدأت تدب في أوصال الدولة الإسلامية ، وأخذت الخلافة العثمانية تفقد سيطرتها وتصدرها

للأمور ، وبرزت الصليبية من جديد تكيد للعالم الإسلامي وتتآمر عليه وتدس له الدسائس .

* وساعد على هذا الضعف انتشار البدع ، وتغلب الخرافة ، وظهور أنواع من الشرك ، فقدّست القباب والأشجار والأحجار ، وانتشر مبتدعو الولاية يزيّفون على الناس دينهم ، ويبتزون منهم أموالهم . وغلب على الناس الإقبال على الدنيا وقلّ الناصرون لدين الله . وظهر من بعض السلطات رغبة في تأكيد هذه الاتجاهات .

* وكانت كلّ هذه المظاهر تفعل فعلها في نفس ذلك الشاب ، النقيّ السريرة ، المخلص الطوية ، المتوقّد حماساً للدفاع عن عقيدة الإسلام ودولته وأمته .

* وقد أحسّ الشيخ ببصيرته النافذة ، أن تصحيح العقيدة أوّل الخطوات في دربه الطويل في العمل على إعادة معاني الإسلام ، فالإنسان الحق تصنعه العقيدة الحقة ، والمجتمع السليم تقيمه المبادىء السليمة ... وهكذا تحدّدت عناصر دعوته .

* وكانت دعوة الشيخ بسيطة واضحة : تصحيح توحيد الله ، إخلاص العبودية له ، إنكار الشرك والبدع والخرافات والتوسل إلى الله بغير الله ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الاعتقاد بأن الإيمان قول وعمل ، الإيمان الحق بالبعث والنشور والجنه والنار ، إزالة كلّ ما يعوق الطريق إلى التوحيد والعبادة الخالصة ، تحطيم ما علق بالإسلام من أوهام ، ارتشاف الإسلام من معينه الصافي ، وأخيراً إقامة الدولة الإسلامية .

* ولم يكن ابن عبد الوهاب إلا مجدداً ما كان عليه السلف الصالح من فهم صحيح للإسلام وسلوك سليم يستقيم مع هذا الفهم ، لذلك نجد هذه الدعوة تهز عواطف الشعوب الإسلامية ومشاعرهم هزّاً عنيفاً ، وبلغ تأثيرها من القوّة حدّاً لم يبلغه تأثير دعوة أخرى منذ عهد بعيد .

• لقد تأثر بها رجال الإصلاح الإسلامي في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها ، واقتبس كثيراً من مبادئها رجال كان لهم مكانتهم في هذه البلاد ، كجمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وجمال الدين القاسمي ، وخير الدين التونسي وصديق حسن خان ، وأمير علي .

• لم يتراجع إمامنا عن دعوته مع كلّ ما صادفه من صعوبات وما تحمله في سبيلها من أهوال ، فقد كان يصدر عن إيمان عميق بما يدعو إليه واطمئنان كامل إلى نصر الله ، حتّى قيض الله له أمير الدرعية ، محمد بن سعود ، فآزره ونصره وقاتل معه ، وكانت هذه سنة أولاده وأحفاده من بعده في نصرة عقيدة التوحيد وحمل راية الإسلام .

• إلاّ أن خصوم الإسلام من المستعمرين والمستشرقين لم يرق لهم أن تظهر هذه الدعوة الإسلامية الخالصة ، فحاولوا أن يحيطوها من أطرافها حتى تحصر في نطاق الجزيرة العربية وتعزل عن باقي أنحاء العالم الإسلامي ، وقد نجحت حركة التطويق هذه في بدايتها إلى حد بعيد .

• فقد أطلقوا على الدعوة اسم « الوهابية » لتبدو بمظهر المنتسب إلى شخص ، وما هي كذلك ، لأنها دعوة إسلامية عامة ، وادّعوا أنها ابتدعت مذهباً جديداً ، وآراء لم تكن معروفة في الإسلام ، مع أن كلّ ما دعا إليه محمد بن عبد الوهاب من أصل إسلامي قال به فقهاء المسلمين ، وكلّ ما نادى به من محاربة البدع والضلالات فله مماثل في المذاهب الإسلامية ، أما في الفروع ، فقد كان الشيخ على مذهب الإمام أحمد بن حنبل .

• وبلغ من قدرة الاستعمار على تمويه الأشياء ، أنه حتّى يقضي على بعض الحركات الإسلامية التحريرية في الهند ، ادّعى أنها وهابية وكان مهد لذلك بنشر صورة غير صحيحة عن دعوة محمد بن عبد الوهاب ، وذلك ليستحل المسلمون قتال هذه الحركات .

• لكن ذلك لم يُجْدِ أعداء الحق شيئاً ، فقد زالت الحدود ، وتحطّمت

الأسوار ، وتفككت أطواق العزلة ، وبدت حركة الشيخ في كلّ بلد إسلامي على صفائها ونقائها : دعوة إسلامية خالصة للأسلام .

* خلف محمد بن عبد الوهاب مؤلفات عديدة ، منها : كتاب التوحيد ، كشف الشبهات ، تفسير الفاتحة ، أصول الإيمان ، المسائل التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية ، فضل الإسلام ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

رحمه الله وأجزل له ثواب الأبرار .

* * *

أما الكتاب : فقد كنا أيها القارىء الكريم سنستعرض معك كتاب التوحيد لشيخنا الجليل ، لولا أن حياته المليئة بالكفاح والجهاد طغت على نصيب الكتاب ، غير أنها في الوقت نفسه النسخة الحية من التوحيد .

- ٣٥ -

مجاهد من افريقيا : أحمد ساموري

(١٣١٨ هـ.)

رجل من غينيا ، اذا عُدّ اثنان فيها تقدما على جميع الزعماء في تاريخها الحديث كان هو احدهما ، ذلكم هو المجاهد أحمد ساموري نوري ، زعيم الحركة الاصلاحية فيها ، تلك الحركة التي أخذت طريقاً مماثلاً لحركة الحاج عمر نال في السنغال وقد بلغت حركة ساموري ذروتها في عام الف وثمانمائة وواحد وثمانين ميلادية ، غير أن الاستعمار الفرنسي كان واقفاً له بالمرصاد آنذاك ، فقضي على حركته وأسر سنة الف وثمانماية وثمان وتسعين .

* حفظ احمد ساموري القرآن ، ثم انصرف إلى شئون القتال ، فأصبح زعيماً تخشاه القبائل المتناحرة ، وتحسب له فرنسا كل حساب ، وقد وجد ان الطريق الاول لتحرير البلاد لا يكون الا بتوحيد القبائل وايقاظ الوعي الاسلامي فيها ، ومن ثم اخذ في إنشاء دولة موحدة تقوم بديلاً عن الدول المتصارعة في المناطق التي كان يحكمها خلفاء الحاج عمر نال ، وتكون قادرة على صد قوات الاستعمار الرابضة بالقرب من بلاده .

* وقد استطاع ان ينجح في هدفه الاول وهو التوحيد ، وقامت دولته على اساس اسلامي صحيح ، وكان مشهوراً بتقواه وحماسه الديني ، والعودة دائماً إلى النبع الأصيل للاسلام : القرآن والسنة ، فقضى على ما كان منتشراً في

بلاده من السحر والشعوذة والاعتقادات الوثنية الفاسدة ،

* وعني بتكوين جيل يُربى على المعاني الاسلامية السليمة ، فأمر بإنشاء كثير من المدارس التي تعنى بالعلوم الاسلامية ، وطالب الأهالي بأن يرسلوا ابناءهم اليها ليحفظوا القرآن ويتلقوا مبادىء الاسلام ، وكان كثيراً ما يقوم بنفسه بالتأكد من نجاح سياسته ، فكان يستوقف الاطفال في الطريق ليمتحن معلوماتهم الدينية ، ويقف على مدى استيعابهم لما يُلقنون .

* وكان حريصاً في الوقت نفسه على أن يعمل جميع الناس فلا يبقى عاطل عن العمل ، وكان يأمر شيوخ الدين بأن يتعهدوا بزراعة قطعة من الأرض ليعود نتاجها إلى خزانة الحكومة ، وقد عمل بهدي من الإسلام إلى ازالة الفوارق والعصبيات بين ابناء القبائل فتوحد الناس على أصول واضحة ، وكانت مشاركتهم في الدولة الناشئة على حد سواء .

* وكان ساموري يعتمد في تنفيذ اهدافه الدينية والعسكرية على جيش كامل التنظيم ، يتألف من عشر فرق كبيرة تقف كل منها مستعدة لرد أي اعتداء يقع على أي ولاية من ولايات الدولة وجهاد أحمد وصموده ضد قوات الاستعمار صفحة رائعة من الوطنية التي تمتزج بالحماس الديني ، فقد بدأت معاركه ضد الفرنسيين سنة الف وثمانمائة واحدى وثمانين ، واستمرت عملياته ضدهم في مد وجزر حتى اضطر سنة الف وثمانمائة واحدى وتسعين الى التراجع الى الشرق في منطقة غينيا العليا وأعالي ساحل العاج حيث اقام دولة أخرى ، ثم واصل كفاحه المرير في الوقت الذي كان ابنه سارانجي مورو ، يقود جيشاً آخر في فولتا العليا لحرب جيوش الاحتلال البريطاني .

وقد اظهر الزعيم المجاهد احمد ساموري مهارة فائقة في قيادة جيوشه ضد أبرع القادة الفرنسيين فتقدموا اليه بطلب الصلح سنة الف وثمانمائة وسبع وتسعين الا أنه فضل طريق الجهاد ورفض اقتراحاتهم لأنه أدرك أن الصلح خديعة ،

ولأنهم طلبوا منه أن يتلقى تعليماته من مندوب السلطة الاستعمارية الذي يسمى «المقيم».

وهكذا تجددت الحملة عليه وأرسلت فرانسا حملة كبيرة بقيادة ضابط كبير من ضباطها ، واضطر المجاهد أحمد الى الانسحاب نحو الجنوب ولكنه بقي مواصلاً جهاده وأخيراً وقع ساموري بعد حيلة دُبّرت له في أسر أعدائه ، وكان ذلك في سنة الف وثمانمائة وثمان تسعين ، وبقي في الأسر حتى توفاه الله سنة الف وتسعمائة . . وقد حاول التاريخ الذي كتبه الاستعمار أن يشوه سيرة هذا البطل العظيم ، فصوره في صورة سفاك الدماء ، ونسي أنه كان يهدف الى خلاص وطنه ووطن آبائه واجداده من الغاصبين ، ولكن المجاهد احمد بقي عند الشعب الافريقي المسلم الزعيم الديني والمجاهد الوطني والعامل المخلص لإعادة مجد الاسلام .

رحمه الله رحمة واسعة وأنزله منازل الشهداء الخالدين .

- ٣٦ -

شيخ عصري : عبدالعزيز جاويش
(١٣٥٢ هـ.)

أما العلم فهو الشيخ عبد العزيز جاويش ، وأما الكتاب فإنه «الإسلام دين الفطرة».

* وُلد الشيخ عبد العزيز في الإسكندرية سنة ١٨٧٦ ميلادية على أرجح الأقوال ، من أسرة ميسورة الحال تتعاطى التجارة ، نزحت من المغرب في أيام جده واستقرّت في مصر ، وكانت على قدر كبير من الخلق والاستقامة وكان لهذا أثره طيلة حياته ، فقد كانت استقامة الخلق ونصاعة السلوك من أهم ما اتصف بهما عالمنا المصلح المجدّد .

* حفظ القرآن في كُتّاب من كتاتيب الإسكندرية ، وتعلّم منه أصول العربية ، وأخذ منه ومن علماء البلد مبادىء الثقافة الإسلامية ، ورأت أسرته أن القدر الذي حصله يكفيه في حياته العملية التي حدّدتها له ، وهي الاستمرار في طريق التجارة ، مهنة آبائه وأجداده .

* لكن أصرّ على أن يكمل تعليمه ، ولما أصرّت الأسرة على موقفها تركها وانقطع إلى الإقامة في مسجد كان يتعلّم فيه ، فكان يقضي فيه سحابة نهاره متعلّماً ، ويقضي ليله متعبّداً وساكناً ، وعند ذلك أدرك والده أن رغبة ابنه في طلب العلم رغبة أكيدة لا تقاوم ، فسمح له بالسفر إلى القاهرة .

* وهناك انتسب إلى الأزهر أوّلاً ، وتعرّف على حلقات كبار العلماء ، واتصل بالشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا ، ثمّ انتقل إلى دار العلوم ، وكان يجمع بين الثقافتين الدينية والدنيوية فبرّز على أقرانه وأظهر نبوغاً واضحاً ، وكانت ثقافته تفوق ثقافة زملائه في الطلب والدراسة ، حتّى أصبح خطيبهم المفوّه ، والمتكلّم باسمهم ، والكاتب عنهم ، وحتّى اعترف له الجميع بالصدارة في مواقف القول ومحافل البيان .

* وكان من عادة دار العلوم أنها توفد النابهين من خريجيها إلى أوروبا ليستكملوا علمهم ويطلعوا على حضارة الغرب ، فأوفد عبد العزيز إلى إنكلترا ، وقد كُتب له أن يستمر فيها ثلاث عشرة سنة لم يقطعها إلاّ سنة ونصف السنة عاش فيها في القاهرة ، وقد قضى من هذه المدة ثماني سنوات في التحصيل ، وخمس سنوات في التدريس الجامعي ، وكان موقفه من هذه الحضارة موقف الواثق من نفسه ومما عنده ، المستفيد منها بالقدر الذي لا يخالف عقيدته وتقاليده .

* كتب بعد ثماني سنوات يصوّر انطباعاته عن حياته هناك فقال : «ذهبت إلى تلك الديار فوجدت الناس متمسكين بدينهم فزادوني تمسكاً بديني ، رأيتهم شديدي الحرص على لغتهم فزادوني حرصاً على لغتي ، أبصرتهم يتفانون في الدفاع عن بلادهم ويحرّمون على الأجانب الاستيلاء على شؤونهم أو التصرف في أموالهم ورقابهم ، فأخذت أحاكيهم في بلادي السيئة الحظ بالاحتلال وأشياعه». وقد فرق بين أوروبا كدول مستعمرة وبينها كأمم متحضرة ، وكان له حصانة الانتفاع بما في الثقافة الغربية في حدود معينة .

* وقد مكّنته معرفته الوثيقة بالغرب والأساليب التي يتقبلها ، من الدفاع عن الإسلام الذي كان يواجه في ذلك الحين ، وما يزال ، خصومات عنيفة ، من أهله ومن خارج أهله . وحين حضر مؤتمر المستشرقين الذي عقد في الجزائر سنة ١٩٠٥ ، كان له فضل كبير في الدفاع عن الإسلام ولغة القرآن .

* وكان يرى أن مشاكل العالم الإسلامي التي تتمثّل بالاحتلال الأجنبي

والتهجم على الإسلام ومحاربة اللغة العربية والتلاعب بالمناهج المدرسية، لا تحلّ إلاّ من خلال النظر إلى هذا العالم كوحدة متكاملة ، لذلك دعا بقوّة إلى المحافظة على الخلافة الإسلامية ، ودعم الجامعة الإسلامية ، وإن كان هذا لا يمنع في رأيه من أن يترك لكلّ قطر إسلامي قدر من الاستقلال الذاتي في ممارسة شؤونه وتصريف أحواله .

* ومن أجل الدعوة إلى ما يعتقد ، ترك العمل الوظيفي ليرأس تحرير جريدة اللواء ، يقاوم الاحتلال ويدعو إلى العمل الإيجابي في ميدان التربية والتعليم ، والإصلاح الاجتماعي ويؤكد وحدة المسلمين ، ويهاجم خصوم الوحدة الإسلامية ، وعندما نكبت طرابلس الغرب بالاحتلال هبّ يستصرخ العالم لمساعدتها ويقوم بدور هام في سبيل دعم حركة المقاومة التي اشتعلت في كلّ جزء من أجزائها :

* وقد تعرّض من أجل آرائه إلى السجن أكثر من مرّة . ثمّ اضطر إلى الهجرة عن مصر مدة اثني عشر عاماً قضاها في تركيا وألمانيا وفلسطين والحجاز ، وكان في هجرته أشدّ منه في وطنه ، فقد أصدر في تركيا مجلة الهلال العثماني ، كما أصدر في ألمانيا مجلة إسلامية باللغة الألمانية ، وحاول إنشاء الجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة ، وأعاد إصلاح كلية صلاح الدين في مدينة القدس .

* ثمّ عاد إلى وطنه ليعمل في حقل التعليم ، والدعوة إلى محو الأمية وتنشيط أعمال الخير حتى توفي سنة ١٩٢٩ .

* ومن آرائه في التربية والتعليم ، أنه ميّز بينهما ، وبين أن التعليم وحده لا يكفي ، بل لا بدّ من التربية ، وقد عمل جاهداً على إنشاء المدارس والمعاهد التي تهدف ليس إلى التعليم فحسب ، «وإنما إلى غرس الخلق والفضائل والقيم في نفوس الناشئة والأجيال ، فتقدّم للأمة رجالاً فضلاء كاملين في أخلاقهم شرفاء في نفوسهم أقوياء في إرادتهم».

رحمه الله وغفر له وأرضاه .

* أما كتاب «الإسلام دين الفطرة» فيعد من أوائل الكتب الناضجة التي

ألفت بأسلوب مساير لأسلوب العصر والتي قصد منها أن تمنح الفكر الإسلامي انطلاقة جديدة في مجال الحياة وحل مشاكل المجتمع المتغيرة والمتزايدة ، والتي نشأ الكثير منها عن احتكاك المسلمين بالحضارة الغربية .

* وإذا كان الإسلام يمتحن في معركة الحياة ، ويواجه بالشبهات والخصومات من أتباعه ومن غيرهم ، فقد كان لا بدّ للشيخ جاويش أن يصحح مفاهيم هؤلاء جميعاً عن الإسلام ، وأن يردّ على خصومه ، وأن يفسر آياته بما يوافق روح العصر دون أن يخلّ بأصل من أصوله .

* وفي دعوته إلى تطبيق شريعة الإسلام ، كان يطالب بمراعاة الزمان والمكان ، وقد هيأت له رحلاته ولقاءاته للكثيرين من الشباب والمثقفين ، أن الكثير منهم لا يكاد يفقه للإسلام معنى سوى أنه دين الاسترقاق والطلاق وتعدّد الزوجات ، وان المسلمين يعبدون محمداً كما يعبد النصارى المسيح بن مريم.. وهذا كلّه هو الذي دفعه إلى وضع هذا الكتاب .

* وقد عني المؤلّف في كتابه ببيان أثر القرآن في تحرير الفكر البشري ، وكيف أن القرآن لم يدع (وسيلة موصلة إلى إنعاش العقل وتحرير الفكر إلاّ تذرّع بها ، فهو إذا تحاكم ، فإلى العقل ، وإذا حاجّ ، فبحكم العقل ، وإذا سخط ، فعلى معطّلي العقل، وإذا رضي ، فعن أولي العقل). كما وضّح أن القرآن جادل (من جادل من أرباب الملل والنحل والماديين والدهريين ، فما قارعهم إلاّ بالبرهان ولا دعاهم إلاّ إلى البحث والنظر)

* وأخيراً فلئن كان المؤلف قد وقع ببعض الأخطاء المحدودة بسبب من رغبته في مسايرة بعض تطوّرات العصر ، إلاّ أن هذا لا ينقص من قيمة الكتاب ، فقد كان كتاباً رائداً نسج الكثيرون من المؤلفين فيما بعد على منواله ، وساروا على طريقه .

- ٣٧ -

صاحب المنار : الشيخ رشيد رضا
(١٣٥٤ هـ)

هو الشيخ رشيد رضا ، عالم عامل مجاهد ، حمل لواء الجهاد في سبيل الإسلام حياة كاملة لم يعرف خلالها الراحة أو الهدوء.

* وُلد في القلمون ، إحدى قرى مدينة طرابلس الشام ، سنة اثنتين وثمان ومئتين وألف من هجرة الرسول عليه السلام ١٨٦٥ ميلادية ، من بيت عريق ينتسب إلى الحسين بن عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنهما ، ومتصل نسبه بالعترة النبوية الشريفة ، وكانت أسرته التي نشأ فيها محافظة على الأخلاق الإسلامية ، معروفة بالدعوة إلى الإسلام ، تضرب المثل للناس بالعبادة والعلم والفضل والاعتداد بالنفس والاعتزاز بالله .

* وكان والده الشيخ أحمد ، مقصد الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم وعقائدهم لما كان يتمتع به من سعة الصدر وكرم المعاملة للآخرين ، لذلك كان مجلسه عامراً بالعلماء والأدباء والوجهاء ، وفي هذا الجو العبق بالفضل والكرم ، ترعرع عالمنا المجاهد الشيخ رشيد .

* تعلّم قراءة القرآن الكريم والخط وقواعد الحساب في كُتّاب القرية ، ثمّ انتقل إلى المدرسة الوطنية الإسلامية في طرابلس ، وتهيأ له فيها أن يلتقي بالشيخ حسين الجسر أحد علماء الشام النابغين ، فتتلمذ عايه واتخذه له موجهاً

ومرشداً ، فكان له فضل كبير في توجيهه إلى كثير من العلوم والمعارف النافعة .

* وقد ظهرت على الشيخ رشيد في تلك الفترة علامات الذكاء والنبوغ ، وكان من أهم ما اتصف به قوّة في الذاكرة والاستحضار لما يسمع ، وقدرة عجيبة على الفهم السريع ، وقدم راسخة في المناقشة والجدل ، كانت من أقوى أسلحته حين أسّس مجلة المنار ، وأخذ في الرد على خصوم الإسلام .

* ثم تابع الشيخ دراسته حتى نال إجازة التدريس أو العالمية ، وكان يهدف من علمه التقرّب به إلى الله والاستعداد لخدمة دينه ونفع عباده وقد قال في ذلك : « العلم الصحيح ما كان صفة للنفس ، والعلم النافع ما كان باعثاً على العمل الصالح ، والعمل الصالح ما صلحت به نفس العامل وكان قدوة حسنة لكل من عرفها » .

* وكان مع تحصيله للعلم يأخذ نفسه بالسلوك الصالح والعبادة الخالصة ، بما فيها قيام الليل معظم الأيام حتى كانت والدته تقول : « انني منذ كبر رشيد ما رأيته نائماً ، فإنه ينام بعدنا ويقوم قبلنا » ، كما كان يحرص على الاعتكاف في شهر رمضان ، حتى صار مثلاً عالياً في الطهر والتقى والعلم ، نقيّ المظهر والمخبر مُعدّاً خير إعداد لأداء رسالته العظيمة في بلده ثمّ في العالم الإسلامي الفسيح .

* بدأ رشيد رضا دعوته الإصلاحيه بحثّ الناس على التخلي عن البدع التي تمسكوا بها ، ومنها التبرك بأصحاب القبور ، وحملهم على التوجه بالرجاء إلى الله وحده ، وأظهر حماسة في إزالة أسباب البدع والضلال أدن أن يخشى في الله لومة لائم . ثمّ أخذ بتنبيه رجال الدولة العثمانية إلى الأخطار التي تحيط بالدولة ، ويحذرهم من العاقبة الوخيمة التي تنتظرهم إذا لم يغيروا بعض ما هم عليه من فساد واستبداد .

* ثم سمع رشيد رضا بحركة الإصلاح الكبيرة التي قامت في مصر بعد أن بعث فيها روحاً جديدة ذلك المصلح الكبير جمال الدين الأفغاني ، وترامى إليه

نبأ الاحتلال الأجنبي لمصر ونفي جمال الدين وتلميذه محمد عبده ، وعلم أنهما أسسا جمعية العروة الوثقى ، التي تضم مجموعة من المسلمين الداعين إلى إعادة مجد الاسلام والقضاء على أسباب ضعف الدول الإسلامية ، وعندما أصدرت هذه الجمعية مجلة العروة الوثقى في باريس ، كان حريصاً على الاطلاع عليها ، فقد وجد فيها روحاً من روحه ، واستفاد منها فائدة لا توصف .

* وقد اشار السيد رضا إلى هذا بقوله : « وأكبر أثرها عندي أنها هي التي وجهت نفسي للسعي في الإصلاح العام بعد أن كنت لا أفكر إلاّ فيمن بين يدي » ، وقد وجد فيها ضالته المنشودة ، فاتخذها مدرسة له في رسم طريق الصلاح وبيان السبل التي يمكن للمصلح أن يجتازها ، ولعلّها هي التي أوحت له بتأسيس مجلة المنار فيما بعد .

* وهكذا تطوّرت حياة رشيد رضا ودعوته الإصلاحية ، وخاصة بعد أن اجتمع مع الشيخ محمد عبده في لبنان مدة إقامته فيها . وكتب في مذكراته عن هذا التحوّل يقول : « فانتقلت بذلك إلى طريق جديد في فهم الدين الإسلامي ، وهو انه ليس روحانياً أخروياً فقط ، بل هو دين روحاني جسماني ، أخروي دنيوي ، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة في الأرض بالحق ، ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل » وهذا ما جعله يلتفت إلى وجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية والمحافظة على ملكهم ، ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقوّمات الحياة .

* ثمّ قرّر الشيخ السفر إلى مصر للإقامة فيها والعمل في ميدان الإصلاح الإسلامي العام ، وقد بدأ جهاده في هذا الميدان عملاقاً يبهر الأبصار بقوّته العظيمة ومواهبه النادرة ، وكان أن انشأ مجلة المنار لتكون منبراً لقضايا العروبة والإسلام ، فقد كُتب لها أن تصدر خمساً وثلاثين سنة ، فتحمل عبء الدفاع عن القضايا الوطنية الخاصة بكل قطر إسلامي ، إلى جانب دفاعها عن قضايا الإسلام بوجه عام ، وكشف المؤامرات التي ترسم هناك وهناك ، وبيان سبيل العلاج والإصلاح ، وقد قام من أجل تحقيق هذا الغرض بزيارة عددٍ من البلاد

الإسلامية والأوروبية ، كما حضر عدداً من المؤتمرات التي عقدت لمعالجة بعض الأمور الهامة والمستعجلة .

* ولعلّ خير ما نختم به الحديث عن هذا العالم المجاهد ما سجله عنه أحد كبار المعاصرين له ، وهو الأمير شكيب أرسلان إذ يقول : « إنه منذ أوحي إلى محمد ﷺ : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » إلى ساعتنا هذه ، ومنذ نشأت الأمة المحمدية ، وقد نبغ فيها من الأمراء والعلماء والقواد والحكماء ورجال السيف والقلم ، عدد كبير من العبقريين والمشاهير والأقطاب ، فسواء قل هذا العدد أو أكثر ، فإن السيد رشيد رضا من صُيَّانه المعدودين في هؤلاء ، ولا يمكن أن يكتب تاريخ الإسلام على الوجه الصحيح ويوفر فيه لكل علم من أعلامه الحق الذي يستحقه بدون أن يكون لصاحب المنار فيه مقام كريم وبرهان ساطع » .

* خلّف رشيد رضا عدداً من المؤلفات والآثار ، منها : تاريخ الإمام محمد عبده ، في ثلاثة مجلدات ، حقوق النساء في الإسلام ، الوحي المحمدي ، الوحدة الإسلامية ، الخلافة أو الإمامة العظمى ، يسر الإسلام وأصول التشريع العام ، على أن أهم ما خلفه على الإطلاق مجلة المنار .

* وانطفأت شعلة حياة هذا الفاضل العظيم سنة ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م بعد حياة حافلة في خدمة الإسلام والمسلمين رحمه الله ورضي عنه وأرضاه .

* * *

أما الكتاب : أيها القارىء الكريم ، فإننا سنتجاوز ما جرينا عليه في الحلقات السابقة لنتحدث بأسطر قليلة عن مجلة لا عن كتاب ، لكن هذه المجلة تعدل عشرات الكتب بل مئاتها ، وتلك هي مجلة المنار .

*صدر الجزء الأول منها سنة ١٣١٥هـ ١٨٩٨م بعد هجرته إلى مصر مباشرة ، واستمرّت في الصدور حتى سنة ١٣٥٤ هـ ١٩٣٥م فكان آخر ما طبع منها الجزء الثاني من المجلد الخامس والثلاثين .

• والمجلة موسوعة إسلامية كبرى ، تحوي ثمرات تجارب الشيخ وآرائه في الإصلاح الديني والسياسي ، حتى ان المؤلفات الأخرى التي وضعها رشيد رضا ، لا تعدو أن تكون فروعاً عنها ، أو شرحاً لآراء سبق أن أشار إليها في المنار ، أو دراسات كانت موزعة فيها ، فجمعت في وحدة واحدة فيما بعد .

• ولا تزال تلك المجلة أيها القراء الكرام حتى الآن مصدراً لكل من أراد أن يدرس حالة البلاد العربية والإسلامية من النواحي الفكرية والاجتماعية والسياسية طيلة أكثر من ثلث قرن من الزمان .

- ٣٨ -

عالم من الهند : أمير علي
(١٣٤٧ هـ.)

إن صرح الثقافة الاسلامية الشامخ مشيد بجهود المسلمين من جميع الأمم والشعوب ، لذا فقد اعتدنا في هذا البرنامج ان ننظر إلى رجال الفكر الاسلامي من خلال هذه الحتمية الواضحة ، ومن هنا جاء تعريفنا بأعلام هذا الفكر من كل وطن أو جنس أو امة .

* وعلمنا لهذه الحلقة واحد من كبار رجال الفكر الاسلامي في الهند ، واحد زعمائهم الاجتماعيين والسياسيين وهو السيد أمير علي صاحب الكتاب المعروف « روح الاسلام ».

* ولد هذا المفكر الكبير من اسرة عربية في الهند ما تزال تحتفظ بشجرة نسبها إلى الرسول الكريم ، وتعلم اللغة العربية والعلوم الدينية ، ثم درس الفارسية واتقن اللغة الانجليزية حتى كان يحضر مجالس كبار الادباء الانجليز الذين كانوا يترددون على الهند يوم كانت درة الامبراطورية ، قد يسر له اتقانه لهذه اللغات أن يكون على المام واسع بالثقافتين الاسلامية والغربية .

* ثم سافر إلى انجلترا مزوداً بهذه الثقافة الواسعة ليكمل دراسته القانونية الا انه لم يقتصر على هذه الدراسة بل عكف على دراسة الأداب الانجليزية حتى

سيطر على هذه اللغة سيطرة طويلة ، فكان من أفضل كتابها ومتحدثيها ، وقد ساعده هذا على القيام بمهمته الجليلة وهي التعريف بالاسلام في اوروبا وسائر انحاء العالم الذي ينطق بالانجليزية .

* بدأ حياته العلمية بكتابه « محمد وتعاليمه » فحاز على اعجاب كل من قرأه ، وكان له تأثير كبير في المحافل الاوروبية والهندية ، ثم كتب « مختصر تاريخ العرب ، لخّص فيه تاريخ المسلمين واهتم بوصف حياتهم الاجتماعية ، ونادراً ما كان المؤلفون يتبادلون هذا الجانب ، وتفرغ بعد ذلك لوضع كتابه العظيم « روح الاسلام » بمقدمته الجليلة التي تعد من أعظم ما كتب عن الاسلام ، وقد اهتم في هذا الكتاب بشرح مبادىء الدين الاسلامي وبيان قابلية الحياة في ظله للتطور المستمر والرقيّ الدائم .

* وعندما عاد إلى الهند ساهم في جميع نواحي النشاط فيها وخاصة بين المسلمين . اما من الناحية الفكرية فإنه تابع النشاط ، واتجه إلى الشريعة الاسلامية والأحوال الشخصية خاصة ، واما من الناحية الاجتماعية فإنه لم يأل جهداً في العمل على اصلاح الحياة الاجتماعية لمسلمي الهند ووجه عناية كبيرة إلى تربية المرأة مما كان يليق بالمسلمين في رأيه ان يهملوا النصف المكوّن لحياتنا الاجتماعية.

* على أن عمل السيد أمير علي كان انشط ما يكون في الميدان السياسي ، فقد كان حريصاً أن ينال المسلمون في الهند كافة حقوقهم ، هكذا قاد حركة سياسية اسلامية واسعة وأسس الجمعية الوطنية الاسلامية بقصد الدفاع عن حقوق المسلمين وتحديد وضعهم السياسي ومع الاضطهاد العنيف الذي كان يلقاه سيد أمير من السلطة البريطانية ، والكراهية الشديدة التي كان يقابل بها من الهندوكيين الا انه بقي متابعاً سيره في الاصلاح والعمل واستعمال نفوذه وقلمه ولسانه في انهاض لمسلمين ومنازلة من يريد انتقاص حقوقهم .

* وفي السياسة الجامعية كان سيد امير علي يؤمن بقيام وحدة اسلامية تجمع حكومات المسلمين وشعوبهم . وكان يحقق بالفعل ما يدعو اليه بقلمه،

فحين علم ان جمعية الصليب الاحمر – في الحرب التي قامت بين ايطاليا من جهة وتركيا والعرب من جهة اخرى – كانت تعنى اكثر ما تعنى بالجرحى غير المسلمين ، سعى إلى تأليف جمعية اسعاف تنظم وحدات علاجية لجرحى العرب ، والترك ، ولكنه وجه القائمين على امر الجمعية إلى أن يمدوا يد المعونة إلى جميع الجرحى على السواء .

- ٣٩ -

الأديب المسلم : مصطفى صادق الرافعي
(١٣٥٦ هـ)

أديب مبدع وقف قلمه وفكره للدفاع عن العروبة والإسلام ، وصد عاديات المتهجمين على أصالة العربية ومكانتها ذلك هو الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعي .

وُلد في قرية من قرى محافظة القليوبية في مصر عام ١٨٨٠ ميلادية ، من أسرة سورية نزحت إلى أرض الكنانة وأقامت في طنطا ، وكانت أسرته معروفة بالتدين والصلاح والعلم ، تولى عدد من أفرادها منصب القضاء الشرعي في المحافظة حتى أصبح اسم عائلة الرافعي مرادفاً للعلم والمكانة الأدبية .

ونشأ أديباً تحت رعاية هذه الأسرة الكريمة ، وتهيأ له أن يطلّع على ما في مكتبة والده من أمهات المؤلفات في علوم الدين واللغة والأدب والاجتماع ، فانطبع بطابع الأسرة في سلوكه الاجتماعي وأسلوبه الفكري وتعبيره الأدبي (مع أنه لم يحصل من الإجازات إلاّ على الشهادة الابتدائية) إلاّ أنه استطاع أن يعوض ما فاته عن طريق الدراسة النظامية بالمطالعة والدراسة الخاصة ، حتى أصبح من أشهر كتاب اللغة العربية وأعرفهم ببواطنها على مدار العصور .

وإنك لتقرأ للرافعي فيخيّل إليك أنك تعيش مع رجل من التاريخ فرّ من ماضيه البعيد وطوى الزمان ليعيش في هذا العصر ، ويصل حياة جديدة بحياة كان

يحياها منذ ألف سنة أو تزيد في عصر بعيد .

انصرف الرافعي إلى التراث العربي والإسلامي ، يقرأ ويفكر ويحفظ ، فقد حفظ القرآن ، واستظهر كتاب نهج البلاغة ، وكان ينصح الناشئين والمتأدبين بقراءة : رسائل الجاحظ ، وكتاب الحيوان ، والبيان والتبيين ، والأغاني ، وكليلة ودمنة ، والألفاظ الكتابية للهمذاني ، ولا شك أنه قرأ هذه الكتب جميعاً ، وقد ساعدته هذه القراءات على أن يعيش في جو التعبير العربي الجزل ، والصياغة الأدبية المحبوكة .

* وقد أصابت كاتبنا الكبير حمى تركت وقراً في إحدى أذنيه وهو في ريعان شبابه ثمّ انتقل الوقر إلى الأذن الثانية، وما كاد يبلغ الثلاثين حتى أصبح في عزلة عن عالم الأصوات ، فأصبح عازفاً عن مخالطة الناس ، يعيش مع الكتاب . صديقه وسميره الوحيد، ولعلّ هذا الانقطاع هو الذي هيأ له تلك الثقافة العالية ، فقد بات وقته موزعاً بين الوظيفة والمطالعة والكتابة .

* ولعلّك تعجب أيها المستمع الكريم إذا علمت أن أديبنا الكبير أمضى حياته كلّها في وظيفة صغيرة ، فقد عين سنة ١٨٩٩ كاتباً بمحكمة طلخا الشرعية ، ثمّ نقل إلى محكمة طنطا الشرعية ، ثمّ أصبح كاتباً في محكمة طنطا الأهلية إلى أن توفاه الله .

* إلاّ أنه لم يكن يتقيّد بوقت معين يداوم فيه على وظيفته فقد كان يذهب إليها عندما يشاء ، فينجز ما لديه من أعمال ويغادرها إلى مطالعاته وكتاباته ، والحق أن الوظيفة كانت متواضعة جداً إذا قورنت بالمكانة الأدبية الكبيرة التي كان يحتلها ، ولذلك كان الرؤساء هم الذين يزورونه في حجرته في المحكمة ، ولم يحدث أن ذهب إلى حجرة رئيس قط ، وعندما اغتاظ أحد الرؤساء لطريقة الرافعي في العمل ، انتدبت الوزارة أحد المفتشين للتحقيق معه وكان بالصدفة ، الشاعر الكاتب حفني ناصف ، فسجل في تقريره أن للرافعي حقاً على الأمة ككاتب وإن ما يسري

على موظفي الدولة من قوانين روتينية يجب أن لا يقيده ما دام يؤدي عمله على خير وجه .

* كان الرافعي كاتباً أصيلاً يمثل تيار المحافظة على الإسلام والعروبة والتقاليد الشرقية ، في مقابل الدعوة العنيفة التي كانت تدعو إلى الذوبان في الحضارة الغربية بكل ما فيها ، وقد كان يقول عن نفسه : « يخيل إلي دائماً أني رسول لغوي للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه » ، وقد دخل من أجل ذلك في معارك عنيفة مع أنصار التجديد .

* على أنه أدى دوره حق الأداء ، في وقت كانت البلاد فيه بأمس الحاجة إلى أمثاله من الغيورين على الخلق والدين والتقاليد، خاصة بعد أن اتجهت البلاد ناحية الغرب لا تعرف ما تأخذ منه وما تدع ، فكان وأمثاله صمام الأمان الذي خفف من غلواء الانكباب الأعمى على الأخذ من حضارة الغرب وأهلها .

* وكان الرافعي متشدداً فيما يمس دينه ، ويحكي أحد أصدقائه أنه كتب في أحد رسائله إليه اسم الرسول عليه الصلاة والسلام دون ان يتبعه بالصلاة عليه ، فكتب إليه الرافعي يعاتبه عتاباً شديداً ، معتبراً ما فعله سوء أدب لا يقبل من أحد ، ولا يمر أحد عليه . كما كان عزيز النفس أبي الروح مع أنه عاش عيشة كفاف يشكو ضعف الجسد والمرض المزمن وعدم القدرة على القراءة والكتابة .

* وكان ثري الإنتاج كثير الكتابة ، ومما خلفه لنا : ديوانه الذي صدر في ثلاثة أجزاء ، وديوان النظرات ، وتاريخ آداب العرب ، وإعجاز القرآن ، وحديث القمر ، والمساكين ، ورسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ، ووحي القلم ، والمعركة تحت راية القرآن ، وغيرها كثير .

* وفي فجر يوم من أيام مايس عام ١٩٣٧ استيقظ أديبنا الكبير فتوجه وصلى وجلس يقرأ بعض آيات القرآن الكريم حتى توفاه الله ضحى ذلك اليوم فأسلم الروح بعد حياة حافلة بجليل الأعمال ، رحمه الله رحمة واسعة وأفسح له في الجنان مع الخالدين .

* * *

أما الكتاب : فهو تاريخ آداب العرب ، كتبه الرافعي بين سنة ١٩٠٩ إلى آخر سنة ١٩١٠ وأتم طبعه عام ١٩١١ ، وكان السبب في تأليفه أنه كتب مقالا في إحدى المجلات انتقد فيه مفاهيم الجامعة المصرية في تدريس الأدب العربي وتاريخه ، فقررت الجامعة ،نعاً للنقد أن تعلن عن مسابقة لتأليف كتاب في تاريخ الأدب يشترك فيها جميع أدباء مصر ، فكتب الرافعي هذا الكتاب دون أن يتقدم به إلى المسابقة .

* صدر الكتاب في ثلاثة أجزاء ، طبع آخرها بعد وفاته ، ويحتوي الجزء الأول فيه على بابين أولهما بعنوان : في تاريخ اللغة ونشأتها وتفرعها وما يتصل بذلك . وثانيهما بعنوان : في تاريخ الرواية ومشاهير الرواة وما تقلب من ذلك على الشعر واللغة .

* أما الجزء الثاني فقد أسماه الرافعي إعجاز القرآن ، وقد حدد نهجه في تأليف الكتاب بقوله : « الطريقة المثلى أن نذهب في تأليفنا مذهب الضم لا التفريق ، وأن نجعل الكتاب على الأبحاث التي هي معاني الحوادث لا على العصو ، فنخصص الآداب بالتاريخ لا التاريخ بالآداب كما يفعلون ، وبذلك يأخذ كل بحث من مبتدئه إلى منتهاه متقلباً على كل عصوره سواء اتسقت أم افترقت فلا تسقط مادة من موضعها ، ولا تقتصر على غير حقيقتها ، ولا تلجأ إلى غير مكانها ، ثم لا يكون بعد ذلك في التاريخ إلا التاريخ نفسه ، لا ما يزين به العبارة الموفقة ، ولا ما توصل به الحقائق القليلة من تصور الخيال وشعر التأليف » .

* وقد أثار الكتاب حين صدوره تعليقات كثيرة فايده الكثيرون ، وعارضه الكثيرون ، على أن المعارضين أنفسهم اعترفوا أن الرافعي فطن في كتابه إلى أشياء كثيرة حتى كتب عنه أحد معارفه : « قرأنا هذا الجزء ، فأما نحوه فعليه طابع الباكورة في بابه ، يدل على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكاً تاماً ، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفاً حسناً ، وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التي بسطها في هذا الجزء إلا بعد درس طويل وتعب ممل ، وأما أسلوب الرافعي في كتابته فإنه سليم من الشوائب الأعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العرب المتأخرين

فكأني وأنا أقرأه أقرأ من قلم المبرّد في المساواة . وإلباس المعاني ألفاظاً سابغة مفصلة عليها » .

* أما الجزء الثاني خاصة وهو « اعجاز القرآن » فقد أثار معركة عنيفة بين الرافعي وعدد من الكتاب ، أبلى فيها أديبنا بلاء حسناً واستطاع أن يكون كفوءاً للجميع .

- ٤٠ -

شاعر الاسلام : محمد اقبال

(١٣٥٦ هـ)

هو محمد إقبال ، شاعر نابغة ، وفيلسوف إسلامي ، ومفكر مبدع .

* وُلد شاعرنا سنة ١٢٨٩ هـ ١٨٧٣م لأبوين صالحين تقيّين ، ينتسبان إلى أسرة ذات أصل كشميريّ ، هاجرت إلى سيالكوت في البنجاب .

* وابتدأ العلم على والده ، ثمّ انتسب إلى كُتاب حفظ فيه قسماً وافراً من القرآن الكريم ، وقد ترك هذا أثره على أسلوبه ، فقد كان كثير الاستشهاد به في شعره ونثره .

* ثمّ دخل مدرسة تابعة لبعثة أجنبية في مدينته حيث تلقى رعاية خاصة من بعض الأساتذة المسلمين فيها ، على رأسهم صديق والده (مير حسن) الذي اقترن اسمه بسيرة إقبال وتأديبه وتعليمه ، وكان له أكبر الفضل في اكتشاف مواهبه وتوجيهها .

* وكان هذا الأستاذ على ما يبدو على صفات نادرة ، فقد كان متضلّعاً في علوم كثيرة . محترماً ، دقيقاً ، مهاباً من الأساتذة والطلبة جميعاً ، وكان على ظرف وطرافة ، وقد ترك تأثيره ، واضحاً على تلميذه حتّى كان إقبال كثيراً ما يشير إليه في شعره .

* حين فرغ إقبال من مدرسة البعثة الأجنبية كان عمره اثنتين وعشرين

سنة . وكان صيته قد ذاع بين الأدباء على أنه شاعر مجيد ، حتى انه حين كان يبعث شعره إلى أحد كبار شعراء الأردية لينقحه له ، كان يرده له قائلاً إن هذا شعر لا يحتاج إلى تنقيح .

* ثمّ انتقل إقبال إلى لاهور ، وكانت آنذاك من أعظم مدن الهند حضارة وعلماً وفناً . يقصدها الأدباء والعلماء من جميع أنحاء الهند ، وتقام فيها المجامع العلمية ، وتعقد المحافل الأدبية حيث ينشد الشعراء عيون شعرهم ، ويعرض الأدباء أجمل ما لديهم .

* وفي هذه الحاضرة الكبيرة انتسب إقبال إلى الكلية الحكومية ليكمل تعليمه ، فنال منها درجة الإجازة ثم الأستاذية بتفوق ، وكان تلميذاً لتوماس أرنولد ، المستشرق البريطاني المعروف ، صاحب كتاب الدعوة إلى الاسلام ، وأكثر رجال الاستشراق إنصافاً للإسلام وتقديراً للحضارة الإسلامية ، وقد بقي إقبال وفياً لهذا المستشرق المنصف ، فقد نظم فيه — حين أراد العودة إلى بلده — قصيدة بعنوان « نواح الفراق » أعرب فيها عن حبّه لأستاذه وإكباره إياه وتحسره على فراقه .

* وعند ما انتهى من الدراسة عين لتدريس التاريخ والفلسفة الشرقية في الكلية الشرقية بلاهور ، ثمّ لتدريس اللغة الانكليزية والفلسفة في الكلية التي درس فيها ، فحاز إعجاب الطلاب والأساتذة على حدّ سواء ، لسعة علمه وحسن خلقه ، وأصبح ذائع الصيت في الولاية كلّها ، يدعى إلى المجامع والمحافل ، ينشد قصائده ، وتنشر الصحف أدبه وفكره ، ويتنبأ له الناس بمستقبل عظيم .

* لكن إقبال — شأنه في ذلك شأن أولي العزم وأصحاب النفوس الكبيرة والهمم العالية — لم يقنع بما حصل ، فعزم على أن يطلّع على أوروبا وحضارتها وحياتها وثقافتها وعلمها ، فشد الرحال إليها ، والتحق بجامعة كمبردج فنال أعلى الإجازات في الفلسفة والقانون ، ثمّ رشحه أرنولد للتدريس في جامعة لندن فقام بعمله وأداه خير الأداء .

* وكان عالمنا في ذلك الوقت مقبلاً على دراسة أصول حضارة الغرب، يتتبعها في المكتبات والمجلات ، ولقاء كبار مفكري هذه الحضارة ومؤلفيها ، وكان في الوقت نفسه يقوم بشرح مبادىء الإسلام وعرض نظمه ومبادئه عن طريق المحاضرات العامة والكتابة في الصحف والمجلات والمناقشات المختلفة ، وقد خرج من هذا بعد ثلاث سنوات بقصيدة أنشدها قبيل عودته إلى بلاده يقول فيها « يا ساكني ديار الغرب ، ليست أرض الله حانوتاً ، إن الذي توهمتموه ذهباً خالصاً سترونه زائفاً ، إن حضارتكم ستنحر نفسها بخنجرها ، إن العش الذي يبنى على غصن دقيق لا يثبت » .

* عاد إقبال إلى وطنه فاستقبل استقبالاً يليق بمكانته وأدبه وشعره ، وعمل في المحاماة والتدريس في الجامعة ، وإلقاء المحاضرات ، وتابع كتابة الشعر وتسجيل فكره .

* كما عمل في الميدان السياسي فدخل الانتخابات ، وشارك في إنشاء حزب الرابطة الإسلامية ، واشترك في مؤتمر الطاولة المستديرة في لندن الذي كان عُقد لبحث مستقبل الهند .

* على أن أعظم عمل سياسي إسلامي قام به هو دعوته إلى إنشاء دولة تضم مسلمي الهند هي باكستان ، لذا فإنه يعتبر صاحب الفكرة الأولى في إيجاد هذه الدولة الإسلامية العظيمة .

* فقد رأس في عام ١٩٣٠ م اجتماعاً سنوياً للرابطة الإسلامية ، ألقى فيه خطبة ضافية دعّم فيها آراءه بمؤيدات من الفلسفة والاجتماع والأخلاق ، وبيّن فيها أن اتحاد الهند على ما فيها من طوائف وأديان ، عسير ، وانه لا بدّ من اعتراف كل جماعة في الهند بالجماعات الأخرى ، على أن يقوم نوع من التعاون فيما بين هذه الجماعات . قال إقبال : « إن الفرق الاجتماعية والجماعات الدينية في الهند لا تقبل التغاضي عن أشخاصها حتى ينشأ لها الشعور الذي يُنشىء الأمة ، فينبغي إذن ألاّ يلتمس اتحاد الهند في محو الفوارق من بين الجماعات ؛

بل نلتمسه في الاعتراف باختلاف الجماعات والعمل على التعاون بينها » .

* ومما قاله إقبال : « أنا لا أقبل الوطنية التي تعرفها أوروبا ، وليس إنكاري إياها خوفاً من أن تضرّ بمصالح المسلمين في الهند ، ولكني أنكرها لأني أرى فيها بذور المادية الملحدة وهي عندي أعظم خطراً على الإنسانية في عصرنا » .

* وتأكيداً لاقتراحه بإيجاد دولة إسلامية في الهند كتب للقائد الأعظم محمد جناح مؤسس باكستان يقول : « إن خير وسيلة إلى السلام في الهند في هذه الأحوال أن تقسم البلاد إلى قواعد جنسية ودينية ولغوية » وكانت دعوته كما ذكرنا أساساً لنشوء باكستان ، كبرى دول العالم الإسلامي في عصرنا الحاضر .

* خلف محمد إقبال شعراً غزيراً ينضج بالفكر والحكمة ، ومحاضرات كثيرة كان ألقاها في الهند وأفغانستان ومصر وأوروبا .

* وفي عام ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م وافاه الأجل المحتوم بعد مرض عضال ، وكان ينشد من شعره :

نفحاتٌ مضَيْنَ لي هل تَعـود　　أنَسيمٌ مـن الحجازِ يَعـود
آذَنَت عيشتي بوَشك رحيـل　　هل لعلم الأسرار قلبٌ جديـد

رحمه الله وأرضاه وأنزله مع الخالدين في جنانه .

* * *

* أما الكتاب : فقد كنا نودّ أيها القارىء الكريم أن نعرض لمحاضرات إقبال السبعة التي ألقاها باللغة الإنجليزية ، ثمّ نشرت بعنوان : التجديد الديني في الإسلام ، فقد كان لهذه المحاضرات أثرها المدوّي وخاصة في الغرب لما حوته من أفكار جديدة ، أو كنا نودّ لو نتحدّث عن أحد دواوينه التسعة الشهيرة ، إلاّ أن المجال يضيق بنا عن ذلك لذا فقد رأينا أن نختم حديثنا عنه وهو شاعر الإسلام العظيم ، بمقتطفات قصيرة من شعره منظومة إلى العربية بقلم المرحوم عبد الوهاب عزام :

حول امة الاسلام يقول اقبال :

أنا مَن في ظلمة الليلِ أنــــار   في طريق الملّة البيضا غبـــار
أمّةٌ دوّت بآفــاقِ الــورَى   لحنَها في القلب نارٌ قد سرَى
ذرّةٌ ألقَت وشمســاً حَصَدتْ   ألفَ روميّ وعطّارٍ جَنَتْ

وفي وصف المؤمن يقول :

مع الصحب لينٌ كلَمس الحرير   يعين من المحك المؤمــنُ
شديدٌ إذا ما طغى باطــلٌ   وكالليثِ في المعرَك المؤمنُ
من الطين لكن على الأرضِ يسمو   ويأبى على الفلكِ المؤمنُ
وما همّه صيدُ طيرٍ ولكــنْ   يصيدُ من الملَك المؤمــنُ

- ٤١ -

مجاهد من الجزائر : عبدالحميد بن باديس
(١٣٥٩ ﻫ.)

* ان من وراء كل نهضة صحيحة أو بعث قويم أو تحرر حقيقي ، اعداد روحي ونفسي وأخلاقي شامل ، يقوم به رجال يملكون طاقات عظيمة على تكوين الأشخاص وإيجاد النخبة التي تتحمل عبء النهضة والاصلاح والتحرر فيما بعد .

* وفي عصرنا الحديث مثال رائع على هذا النوع من الرجال ، استطاع بما حباه الله من قدرة على المتابعة والاستمرار أن يبعث الحياة في أمة كاملة ، ويدفعها في طريق التحرر بعد أن ظن الكثيرون أنها فقدت الحياة ، حتى كتب الله لها النصر ، ذلكم هو الامام عبد الحميد بن باديس ، باعث الاصلاح في الجزائر وحامل لواء ثورة التحرير .

* وكان سرّ نجاح هذا الامام العظيم أنه أدرك هدف الاحتلال الطويل للجزائر فحاربه بنفس الأسلوب ، وكان هذا الهدف يتمثل في محو شخصية الجزائر العربية الاسلامية ، فحاصره ابن باديس بالعمل على إبقاء الجزائر عربية مسلمة ، فكانت جمعية العلماء الجزائريين وكانت المدارس التي انبثقت عنها تعنى أول ما تعنى بالقرآن الكريم واللغة العربية ، وهكذا تحقق له ما أراد .

* وكان الاصلاح الروحي هو العمل التمهيدي الذي قام به مجاهدنا الكبير ، وكان منطلقه في هذا الاصلاح أن يجمع بين العقيدة والعمل ، وحين بدأ ابن

باديس جهاده ، ظن المستعمر ان عمله لا خطر فيه ، ذلك انه يتكلم عن الدين والخلق والعقيدة وضرورة الاصلاح الديني والتضحية من أجل الآخرين والشورى عند الملمات اعداداً لمرحلة الجهاد والكفاح ، أي انه وضع البذور وتعهد النبت حتى فوجىء الآخرون بأن روح الشعب الجزائري أخذت تحقق من جديد ، فحاولوا المقاومة بأساليب لم تكن لتجدي لأنها جاءت بعد فوات الأوان .

* لقد كان سقوط الجزائر بيد الأحتلال الاستعماري سنة ١٨٣٠ نذيراً ببدء حروب صليبية جديدة على العالم الإسلامي ، ثم تتابعت النذر بسقوط تونس ومصر وليبيا ومراكش ثم سائر البلاد العربية والإسلامية ما عدا الجزيرة العربية التي شاءت ارادة الله ان تستنقذها من هذا المصير ، ثم استيقظ المسلمون من ركود ، وارتفعت صيحات الاصلاح والتحرير ، وادركت فئة من المصلحين المخلصين في كل بلد اسلامي ان سلاح اليقظة لن يكون الا العودة إلى الاسلام الصحيح المستقى من الكتاب والسنة وما تقتضيه مصلحة الامة الاسلامية .

* وكانت هذه دعوة الامام ابن باديس ، ولكنه وجد أن الجهود الفردية لا تغني كثيراً في مجابهة الاحتلال الذي خططت له هيئات ودول ، فكتب يشير إلى ان الاصلاح يؤتي ثمراته اذا كانت للمسلمين قوة « وانما تكون لهم قوة اذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآزر وتنهض لجلب المصالح ودفع المضرة ، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة » وهذا ما حققته جمعية العلماء الجزائريين الذين كان لابن باديس فضل تأسيسها ، كما كان للشيخ بشير الابراهيمي رحمه الله فضل متابعة رسالته فيها حتى تحقق النصر ، وكان الابراهيمي خطيب أول جمعة بعد التحرير تقام في مسجد الجزائر الكبير الذي عاد إلى حظيرة المسلمين مسجداً بعد أن حوله الاحتلال الذي دام قرناً ونصفاً من الزمان إلى كنيسة .

* وكان الشيخ ابن باديس يمتاز بالصرامة بالحق والشجاعة العقلية النادرة وكان يتوصل إلى ما يريد بأسلوبه الهادىء الذي يشبه مسير الماء الذي ينخر في الصخر ويفتت الجبال ، وقد عرف تلاميذه عنه هذه الصرامة كما عرفتها عنه

سلطات الاحتلال ولكن هذه السلطات كانت تعلم أن الشيخ يعبر عن هذه الصرامة بالدقة الهادئة التي تحصن صاحبها من سوط الجلاّد ومؤاخذة المتربعين، ومن أجل ذلك كان يروى عنه قوله : « اني استكفيكم في كل أمر يتعلق بالكلية — يقصد الكلية الشرعية في الجزائر — الا الاستعمار فانا اكفيكموه ، فخلوا بيني وبينه » .

* ومن الأمثلة الواضحة على شجاعته وجرأته ذلك الموقف الذي وقفه أمام حاكم الجزائر في أواخر سنة ١٩٣٣ والذي بينّ فيه خطة جمعية العلماء الجزائريين لأنه كان واثقاً من نجاحها ، فقد قال له : « ان العلماء وضعوا خطة التعليم الديني عن علم وعقيدة وتمسكاً بما هو مناسب لنظرتهم » وأضاف « ولو أردنا أن ندخل الميدان السياسي لدخلناه جهراً واضربنا فيه المثل بما عرف عنا من ثباتنا وتضحيتنا ، ولقدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها » .

* وهكذا نجحت الخطة التي رسمها ابن باديس ونفذها بصبر وأناة ، فقد حاولت دولة الاحتلال أن تمحو الصبغة العربية الاسلامية في الجزائر غير انها تنبهت بعد ان لم يعد ينفع الندم شيئاً إلى أن مصلحاً استطاع ان يقطع عليها الطريق في رفق ودون تظاهر بالبطولة ، فحاصرها باللغة العربية وتجديد العاطفة الدينية حتى نمت روح الجهاد والمقاومة في الأمة ، ونجت الجزائر بفضل الله ثم بإخلاص ابن باديس وتضحيات الشعب الجزائري . رحمه الله واسكنه فسيح الجنان .

- ٤٢ -

أمير البيان : شكيب ارسلان
(١٣٥٧ هـ.)

هو الأمير شكيب أرسلان ، عالم كبير ، وأديب مطبوع ، وشاعر مبدع ، ومؤرخ عظيم ، وسياسي شهير ، وداعية إسلامي نادر المثال ، وهو أمير البيان ، الأمير شكيب ارسلان .

* وُلد شكيب أرسلان في بلدة الشويفات من مقاطعة الشوف بلبنان سنة ١٢٨٦ هجرية ١٨٦٩ ميلادية من أسرة عريقة تمتّ بالصلة لسلالة التنوخيين ملوك الحيرة . وتلقى دروسه في مدرسة دار الحكمة في بيروت ، ثمّ انتقل إلى دمشق واستانبول .

* عاش في عصر حافل مليء بالأحداث الخطيرة الفاصلة وخاصة بالنسبة للبلاد العربية والإسلامية ، فلقد عاصر الفترة الأخيرة من الحكم العثماني ، فترة أفول نجم الدولة وانهيارها ، وشاهد الانشقاق الذي حصل بين الترك والعرب ، والذي بعثه وروّج له أحقاد يهودية وصليبية ، ورأى النزاع العنيف الذي كان يقوم بين الطوائف وأنصار الديانات المختلفة ، وسار خطوة خطوة مع تغلغل النفوذ الأجنبي الذي بدأ يُحكم خناقه على العالم الإسلامي آنذاك .

* وكان هذا العالم قد أخذ يفتح صدره لتيارات فكرية غربية ، كما كانت الدعوات العربية التي تنادي بالانفصال عن الدولة العثمانية قد شقّت طريقها

إلى جانب الدعوة الطورانية وسائر الدعوات القومية الأخرى .

* ثمّ كانت الحرب العالية الأولى ، وقامت الثورة العربية في الحجاز ، وتمزق العالم الإسلامي ، ثمّ توزع العالم العربي أسلاباً بين الدول الأجنبية ، وأعطي وعد بلفور وقام الاحتلال والانتداب وفرضت الوصاية والحماية ، ووقف الجنرال غورو أمام قبر صلاح الدين متبجحاً متوعداً ، كلّ هذا والأمير شكيب يعيش مع هذه الأحداث ويحدد موقفاً صريحاً منها ، شأن أي رجل يتخذ مبدأ يقوم على أساسه الأحداث والناس .

* ثم قامت الحرب العالمية الثانية ، وزالت دول وامبراطوريات وظهرت دول جديدة وبزغت حركة النهضة الحديثة في العالم الإسلامي وأخذت أقطاره تفيق ، الواحدة تلو الأخرى .

* بالإضافة إلى ذلك فقد كان الأمير شكيب يرقب الحركة العلمية التي بدأت تتسع لتشمل كلّ الميادين في أوروبا ، وكان يرى المسلمين بين معجب بالحضارة الجديدة داعية لأخذها بكلّ ما فيها ، وبين خائف منها ، منكمش عنها ، يراها رجساً من عمل الشيطان ، وكان لا بد أن يكون له رأيه الواضح في هذا كلّه .

* كان موقف أرسلان من الدولة العثمانية واضحاً ، فقد كان عضواً منتخباً في مجلس المبعوثان عن حوران ، وقد دافع عنها دفاعاً مجيداً ، وعندما قامت الثورة العربية في الحجاز ، وكان الأمير شكيب في دمشق ، عرض عليه الاشتراك فيها ، ولكنه رفض ذلك ، وعارض الثورة معارضة شديدة ، ونبّه إلى أنها ستكون وبالاً على العرب والمسلمين ، وأن الاستمرار فيها انخداع بالمستعمرين الذين يضمرون للترك والعرب على السواء كلّ نية سوداء ، وكان ما تنبأه صحيحاً .

* ثمّ كان بعد ذلك من أشد أنصار القضية العربية ، فعمل بهمة لا تعرف الكلل على شرح مطالب العرب بالاستقلال ، وحقوق الفلسطينيين في أرضهم ، وأصدر من أجل ذلك مجلة العالم العربي باللغة الفرنسية في جنيف ، وتنقل بين

سويسرا وألمانيا وفرنسا وغيرها من بلاد أوروبا للغرض نفسه ، ثمّ زار أميركا للاتصال بالعرب والمسلمين الذين يقيمون بالمهجر ، وبلغ من شدّته على النفوذ الأجنبي وحنق الاستعمار عليه أنه مرّت عليه مرحلة طويلة من حياته كان ممنوعاً بتأثير السلطات الأجنبية من دخول جميع البلاد العربية إلاّ المملكة العربية السعودية .

• في سنة ١٩٢٩ التقى في موسم الحج بالملك عبد العزيز وأعجب الملك بالأمير وسجل في كتابه عن رحلته إلى الحجاز أنه شعر حينما وصل جدة « أنه عربي حرّ في بلاد عربية حرة لأن الاستعمار ضارب أطنابه في بلاد العرب سوى مملكتي ابن سعود ويحي بن محمد حميد الدين » .

• كان أمير البيان كثير الكتابة ، أحصي ما كتب في عام واحد فكان ١٧٨١ رسالة خاصة و ١٧٦ مقالة في الجرائد والمجلات و ١١٠٠ صفحة صدرت في كتب ، ويعتبر أسلوبه غاية في الوضوح والبيان حتّى قال عنه خليل مطران « إمام المترسلين » .

• ألف ونشر عشرات من الآثار والمؤلفات ، وكتب الآلاف من المقالات والرسائل ، وأتعبه طول الترحال والنضال والكتابة ، حتّى أصيبت يمينه بالشلل ، فاحتاج إلى الإملاء على سواه .

• من تصانيفه : الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية ، وغزوات العرب في فرنسا وشمالي إيطاليا وفي سويسرا ، ولماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ، ورحلة إلى الحجاز ، وشوقي ، والسيد رشيد رضا ، وأناطول فرانس ، وحاضر العالم الإسلامي ، وديوان شعر .

• توفي في بيروت سنة ١٣٦٦هـ ١٩٣٦م ودفن بالشويفات رحمه الله وأجزل له ثواب العاملين .

• أما الكتاب : فهو « لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرهم » ، عرض فيه أمير البيان لواقع المسلمين وما هم عليه من الضعف ، وبين أسباب تداعي الأمم

عليهم ، وتسابقهم على التسلّط على شؤونهم ، ثمّ وضح فيه الوسائل التي يمكن للمسلمين أن يمتلكوا أسباب القوّة ويسيروا في طريق التقدّم والمجد .

* كان الكتاب نقداً لموقف المسلمين من جانب ، ولكنه كان أيضاً من أوائل الكتب التي نقدت الحضارة الغربية ، وقد بدأ الأمير شكيب بالإشارة إلى حقيقة هامة وهي « انه ليس كلّ شيء قديم منبوذاً كما انه ليس كل جديد مرغوباً فيه ، بل ينبغي أن ينظر في العلم إلى الأصلح وفي العمل إلى الأصلح بدون ملاحظة أن هذا جديد وذاك قديم » .

* وهو يرى أن الدعوة إلى الاستفادة من الغرب في حد ذاتها ليست شيئاً خطراً ، ولكن الأخذ بالثقافة الغربية على علاته هو الخطر ، ويعبر عن ذلك بقوله : « إن الغرب ساد الشرق وغلب على المعمور ورأى الشرقيون أنفسهم قد أحيط بهم ، وأصبحوا لا يملكون مع الغربيين أمراً ، فنهضوا يبتغون أسباب الخلاص من سيطرة الغرب ، فقالوا ليس لنا إلاّ أن نقاتله بسلاحه الذي كان سبب نجاحه ، ولما كان سلاحه هو الثقافة الأوروبية المبني أكثرها على العلوم الطبيعية والتي أمكنت الغرب من تسخير الماء والكهرباء ، قالوا لا بدّ لنا من أن نختار لأنفسنا هذه الثقافة .

* ثمّ يقول الأمير في الكتاب نفسه « وحتى هنا ، الأمر ليس خطراً ، ولكن الخطير أن نأخذ هذه الثقافة بحذافيرها ونقبلها على علاتّها ، وأن نتلقى هذه النظريات كلّها من مادي ومعنوي بدون استثناء .

* وقد انتهى الأمير في الكتاب إلى بيان رأيه في أن الاستفادة من العلم شيء ، والتخلي عن الشخصية شيء آخر ، وإنه ليس يقتضي اقتباس علوم الأوروبيين أن ننكر أصلنا ونجحد قوميتنا من أجلها ، لأننا نستطيع أن نتعلمها ونحن باقون على إسلامنا وعروبتنا .

* وقد ضرب الكتاب لذلك مثلاً باليابانيين الذين نقلوا جميع العلوم الأوروبية إلى بلادهم وفاقوا فيها أهلها ، ولم يزالوا يابانيين ، وبالافرنج أنفسهم الذين

نقلوا علوم الشرق من قبلُ إلى بلادهم وأبوا أن يكونوا شرقيين .

• أيها القارىء الكريم ، مع أنه قد مضى على صدور هذا الكتاب مدّة ليست بالقصيرة إلاّ انه لا يزال على جدّته وطلاوته ، سواء بالموضوعات التي طرقها ، أو بالأسلوب الذي فيه عالجها . رحم الله أمير البيان .

- ٤٣ -

ازهري في جامعة ليون : مصطفى عبد الرازق
(١٣٦٦ هـ)

* مصطفى عبد الرازق ، أحد اعلام الفكر الاسلامي الحديث ، ولد سنة ألف وثمانمائة وخمس وثمانين للميلاد وتوفي سنة الف وتسعمائة وخمس وأربعين ، كان اديباً مفكراً عالماً بأصول الدين والفقه ، مصلحاً مجدداً .

* درس العلوم الاسلامية في الأزهر وحصل منه على اجازة العالمية ، ثم درس بالجامعة المصرية وسافر إلى فرنسا حيث درس الفلسفة والاجتماع والآداب ، وكان متميزا حتى فكرت جامعة ليون بالاستفادة من مواهبه ، فعهدت إليه بتدريس اللغة العربية واصول الشريعة الاسلامية .

* وكان في الوقت نفسه يحضر بحثاً لنيل شهادة الدكتوراة عن الامام الشافعي ، بعنوان « الشافعي أكبر مشرعي الاسلام » ، وما كاد ينتهي من تقديم بحثه حتى عاد إلى وطنه مصر حيث عين في وظائف متعددة ، ثم عين أستاذاً للفلسفة الاسلامية في جامعة القاهرة واختير بعد ذلك ليكون وزيراً للأوقاف ، ثم شيخاً للأزهر حيث وافاه الأجل المحتوم وهو في هذا المنصب .

* كان عالمنا رضي الخلق داعية إلى الرفق والمحبة والتسامح ، حريصاً على ايصال السعادة للآخرين . وكان له رأي هام في الفلسفة الاسلامية ، خالف فيه آراء الكثيرين من المستشرقين خاصة ،هذا الرأي يقوم على أن هذه الفلسفة لا

تقصد في كتابات من يسمونهم باسم فلاسفة الإسلام كالفارابي وابن سيناء وابن طفيل ، ولكنها تقصد في دراسات أصول الفقه بصورة خاصة لأنها تمثل اصالة منهج التفكير في الاسلام .

* خلف مصطفى عبد الرزاق عدداً من الآثار القيمة من أهمها : تمهيد في تاريخ الفلسفة الاسلامية .

رحمه الله : وأجزل له المثوبة .

- ٤٤ -

الاستاذ الرئيس : محمد كرد علي

(١٣٧٢ هـ)

* يعد محمد كرد علي الأستاذ الرئيس من أبرز رواد النهضة الإسلامية العربية الحديثة ، ومن أكبر المدافعين عن الإسلام والمسلمين ، ولد سنة ألف وثمانمائة وست وتسعين ميلادية ، من أصل عراقي كردي الجنسية ، عربي النشأة . شاميّ الموطن والولادة والوفاة ، اسلامي التفكير والمعتقد سلفي النزعة والاتجاه .

* بدأ دراسته في المدرسة الابتدائية ولم يتجاوز الخامسة من عمره بعد ، فتعلم فيها القراءة والكتابة ومبادىء العلوم وفق المناهج المتبعة يومذاك ، وتعلقت نفسه بالمطالعة وصحبة الكتب منذ نعومة أظفاره وكان كثيراً ما يشاهد مستغرقاً في القراءة حتى الهزيع الثاني من الليل ، ومع كثرة ما نصحه أهله بالتقليل من المطالعة والاعتدال فيها خوفاً على صحته وبصره ، إلا أنه كان يشعر أن الوقت لا يكفيه وأن العلم لا يحُصّل دون سهر الليالي وركوب الصعاب .

* قرأ القرآن الكريم ودرسه على اساليب مختلفة ، وتمثل بلاغته ، وطالع طرفاً واسعاً من كتب الحديث ، وحفظ المعلقات السبع بشروحها وعدداً من دواوين العرب ، وفي المدرسة الثانوية بدأ الشاب محمد كرد علي يساهم في العمل الصحفي والكتابة الأدبية ، لكن ذلك لم يصرفه عن تنمية ثقافته العربية والاسلامية . فقد مضى يرتشف من مناهل الأدب والعلم على يد زمرة صالحة من علماء عصره

وفي مقدمتهم الشيخ طاهر الجزائري والسيد سليم البخاري والشيخ محمد المبارك .

* وقد وصف لنا الأستاذ الرئيس حدود ثقافته ومدى قراءاته فقال : «وأهم ما أولعت بمطالعته بعد درس المطبوع من كتب الأدب العربي وجانب من المخطوط الذي عثرت عليه من كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع واحوال الشعوب ومدنياتهم وطالعتُ بالفرنسية أهم ما كتبه فولتير وروسو ومونتيسكيو وبنتام وسبنسر وسيمون ، وتدارست المجلات الفلسفية والاجتماعية والتاريخية والأدبية باللغة الفرنجية ، وجربت منذ نشأت على قاعدة مطردة لم أتخلف عنها قيد شبر ، وهي أن أقرأ أكثر مما أكتب ، وقلما دونتُ موضوعاً لم أدرسه في الجملة ولم تتشربه نفسي » .

* وحبّب اليه شيخه طاهر الجزائري أن يعيش مع التراث العربي والاسلامي وأن يعمل على بعثه ما أمكن له ذلك ، وقد عبّر الأستاذ الرئيس عن ذلك بقوله «تشبعت نفسي بكتب الغزالي وابن حزم وابن تيمية وابن القيم ، وأخذت الشريعة من أصفى مصادرها وأحنيت جملة من علمائنا ، ودأبت زمناً أنظر فيما كتبوا ، ولما جاءت نوبة العمل كنت ادوّن ما علمت»

* ولم يقتصر الاستاذ محمد كرد علي على القراءة بكل أنواعها ، وانما أضاف الى نهمه للعلم والمعرفة ما اكمله بالأسفار ، فقصد الآستانة ومصر ، ورحل إلى اوروبا اربع رحلات ، كتب بعد إحدى رحلاته هذه مقالات ومحاضرات في وصف مـــا وقف عليه بنفسه في الغرب من غرائب ، وصف فرنسا ومدارسها ، وزار علماء الاستشراق في بلجيكا وهولندا ، وزار مكتبة لندن المشهورة ، كما زار جامعتي كمبردج وأوكسفورد .

* وقد عمل الأستاذ الرئيس في الصحافة ، وبدأ ذلك في مصر حين زارها سنة ١٩٠١ وبقي فيها حتى سنة ١٩٠٨ ، وكانت أول مقالة نشرها في المقتطف عن أصل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فاتهمته السلطة هناك بأنه وهابي وكان هذا النعت يلصق بأصحاب الأفكار النيرة ومن يقول بالسلفية الاسلامية وكأنها جريمة منكرة يعاقب عليها من يدين بها أو يدعو اليها .

• وعندما عاد إلى سوريا اصدر جريدة المقتبس ، وهي أول صحيفة عربية يومية في دمشق ، وتعرض بسبب جرأة مقالاته الى مخاطر مهالك ومحاكمات عديدة ، وزاد في إحراجه أنه كان يحرر جريدته اثناء الحرب العالمية الأولى ، وللحرب نظرتها الخاصة الى الصحافة وأصحابها وكتابها .

• وحين قامت في سورية حكومة عربية برئاسة الملك فيصل بعد الانفصال عن الدولة العثمانية أسس ديواناً للترجمة والتأليف وادارة شؤون المعارف يضطلع بوضع المصطلحات اللغوية ، وابدال المفردات التركية بالعربية وتعريب لغة الدواوين وتقرير الكتب اللازمة للمدارس ، ثم أضيفت إلى الديوان المكتبة الظاهرية ، ثم بدل اسم الديوان منذ سنة ١٩١٩ وأصبح «المجمع العلمي العربي » وكان الأستاذ محمد كرد علي رئيساً له منذ تأسيسه ، حتى توفي سنة ١٩٥٣ وكان لهذا المجمع ومجلته وما نشر من كتب وحقق من التراث فضله الكبير على الثقافة العربية الاسلامية الاصيلة .

• من أهم مؤلفاته : خطط الشام ، الاسلام والحضارة العربية ، الادارة الاسلامية في عز العرب ، أمراء البيان ، وغابر الأندلس وحاضرها ، عدا عن مقالاته ومذكراته وما حققه من تراث العرب والاسلام .

• رحم الله الاستاذ الرئيس ، فقد كان مثالاً رائعاً لمضاء العزيمة وخلوص النيّة وصدق العمل وحب الخير وارادة الاصلاح .

- ٤٥ -

عالم مجاهد : مصطفى السباعي
(١٣٧٣ هـ)

عَلَمٌ من أعلام الفكر الإسلامي في عصرنا الحاضر ، ورائد من رواد النهضة الإسلامية الحديثة .

• وُلد في حمص من سورية ، وتلقى فيها علومه الأولى ، ثم قصد الأزهر ليستكمل معرفته بالعلوم الإسلامية ، وكانت تبدو عليه منذ الصغر ملامح النجابة والذكاء ، حتى انه كان كثيراً ما يخطب المصلين في الجامع الكبير يوم الجمعة وهو بعد لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره .

• نال من مصر شهادة التخصص من الأزهر ، ثمَّ نال العالمية أو الدكتوراه ، وكان البحث الذي قدمه لنيل إجازته ، عن السُّنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، مثال الدراسة الجادة الهادفة ، التي تدفع كيد الخصوم وتفضح مؤامراتهم على الإسلام وألاعيبهم ، وقد استطاع السباعي في كتابه هذا أن يدفع عن السنّة تخريصات المستشرقين ، وخاصة كبيرهم جولدتسهر اليهودي المشهور .

• قضى أستاذنا حياته مجاهداً مناضلاً لترسيخ أركان الحركة الإسلامية بوجهيها الفكري والحركي ، وكانت هذه الحياة على قصرها مليئة بأنواع من النشاط المتعدّد الجوانب والكفاح المترامي الأطراف الذي ينوء بحمله آلاف الرجال فكيف بالرجل الواحد .

* عمل في النضال الوطني ضد الاحتلال في سورية والبلاد العربية والإسلامية ، وحقّق وحدة المسلمين في هذا الكفاح في شعورهم وعواطفهم وجهادهم ، وهذا ما دعا سلطات الاحتلال في سورية لاعتقاله ، وكذلك فعلت سلطات الاحتلال في مصر وفلسطين ، فقضى شطراً مديداً من حياته النابضة بالقوّة ، في معتقلات الاحتلال في فلسطين وحمص وبيروت والمية ومية وراشيّا .

* وحين نادى منادي الجهاد عام ١٩٤٨ للدفاع عن فلسطين والمسجد الأقصى كان على رأس كتائب الإيمان التي زحفت من كلّ حدب وصوب تدفع الرجس عن معراج الرسول خاتم الأنبياء حتى اضطرّ هو وإخوانه أن يضع السلاح إلى حين .

* ثمّ عرفته البلاد العربية والإسلامية رائداً من روادها العظام ومؤسّساً لحركة إسلامية واسعة راسخة أقضت مضجع خصوم الإسلام ، كما عرفته سياسيّاً نافذ النظرة ، يقول كلمة الحق ، ويعمل على وحدة العرب والمسلمين على هدي واضح من مبادىء الإسلام العظيمة .

* لكن هذا النشاط الذي يستغرق في العادة كلّ أوقات الناس لم يكن ليصرف أستاذنا الكبير عن المساهمة في الميدان الثقافي والعلمي ، فقد عرفته المنابر خطيباً مفوّهاً ومحاضراً فذّاً سريع البديهة ، جديد الفكرة ، واسع الإحاطة ، شامل النظرة ، وعرفته الأوساط العلمية عاملاً على توضيح أسس الفكر الإسلامي الأصيل ، لتنقيته مما أحاط به من شبهات ، أو ألحق به من شوائب ، أو نثر حوله من شائعات ، أكثرها لغرض متحامل حاقد .

* ولتحقيق هذا عقد المؤتمرات العلمية أو شارك فيها ، ونذر الجزء الأكبر من وقته في السنوات الأخيرة من حياته لتحقيق مشروعين هامين كانا أمنية العاملين المخلصين من رجال الإسلام وهما : كلية الشريعة في جامعة دمشق ، وموسوعة الفقه الإسلامي ، وقد أسعده الله تعالى وأقرّ عينه بأن أراه هذين المشروعين حقيقتين ثابتتين ومؤسّستين راسختين من مؤسّسات الإسلام العلمية الأصيلة .

• أما في ميدان التأليف فقد خلف أستاذنا ، رحمه الله ، ثروة نادرة من الكتب ، صدر منها فعلاً ما ينوف على العشرين كتاباً وما يزال عدد كبير من أبحاثه ينتظر طريقه للخروج إلى النور .

• جاءت مؤلفات الدكتور السباعي مفردة في بابها ، ومن أهم هذه المؤلفات : السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، والمرأة بين الفقه والقانون ، وشرح قانون الأحوال الشخصية ، وشرعية الإرث وأحكامه ، وأحكام الزواج وانحلاله ، وأحكام الأهلية والوصية ، والوصايا والفرائض ، وهكذا علمتني الحياة ، وأخلاقنا الاجتماعية ، ومن روائع حضارتنا ، موضوع حديثنا .

• رحمه الله وأرضاه .

* * *

• أما الكتاب فهو «من روائع حضارتنا» الذي يعدّ من أهمّ مؤلفات الدكتور مصطفى السباعي ، ولا نظن أحداً يستطيع أن يحدّد هدف هذا الكتاب بأفضل مما فعل مؤلفه في تقديمه له بعبارته المشرقة الناصعة إذ يقول : «ولسنا نقصد من عرض هذه الروائع الادعاء بأن كلّ ما في حضارتنا جميل ومشرق ، فليس في التاريخ حضارة ليست فيها هفوات ، وإنما القصد أيضاً أن نثبت أن الجوانب الإنسانية الخالدة في حضارتنا أقوى وأجمل ، وأن نردّ بذلك على افتراء الذين يزعمون لحضارتنا كلّ عيب ونقيصة ، ويتعمدون أن يحذفوها من قائمة الحضارات الأصيلة ، وأن نحبط بذلك كيد الذين يعملون على أن يصرفوا أنظار جيلنا الحديث عن روائع آثارنا الحضارية .

• ولا يقصد مؤلف الكتاب من عرض روائع هذه الحضارة ، الوقوف على الماضي للبكاء عليه والنحيب ، لأن ذلك — كما يقول — شغل الكسالى العاطلين ، إلاّ أن تجاهل هذا الماضي وازدراءه مع ما يفيض به من خير واسع ونور رحيب ، هو شأن الحاقدين أو الجاهلين ، لذا فإن من الخير أن نستفيد من كنوزنا في بناء نهضتنا العتيدة لتكون النهضة مأمونة العواقب غنية بما يمدها من أسباب النجاح

والبقاء ، واضحة الملامح فيما تهدف إليه من كرامة وهناء ، متصلة أمجادها بأمجاد الماضي لتتصل أمجاد المستقبل بأمجادها فيستمر الموكب وتنسجم الحلقة ويكتمل البناء .

* لقد كتب الكثيرون في موضوع الحضارة الإسلامية ، لكن ما ينفرد به مؤلّف هذا الكتاب عن كلّ ما سبقه انه يكتب منطلقاً من فكرة هامة وهي : ان الحضارة الغربية التي تمثل أرقى ما وصل إليه الإنسان من حياة مادية ، قصرت عن إسعاد الإنسان ، لذا كان لا بدّ من حضارة جديدة تتابع هذا الرقي المادي وتستمر فيه من جهة ، وتأخذ بالناس إلى حياة روحية وراقية من جهة أخرى ، بحيث تحفظ التوازن دائماً بين حياة المادة والروح ، ولا تسمح بطغيان إحداهما على الأخرى ، وقد استطاع الدكتور السباعي أن يثبت بالدليل الواضح ، والحجة الجلية ، ما يؤمن به من أنه ليس هناك من يستطيع أن يقوم بالدور الحضاري المرتقب ، إلاّ أمة واحدة ، هي أمتنا ، وانه لن يستطيع حمل اللواء لحضارة الغد ، غيرنا .

المصادر

القرآن الكريم
كتب الصحاح
كتب الفقه الإسلامي
دوائر المعارف ، وكتب الأعلام ، والتراجم والرجال ، ومعاجم الأدباء والبلدان .

الإسلام والحضارة الغربية	أبو الأعلى المودودي
الإسلام والجاهلية	أبو الأعلى المودودي
أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة،	أبو الأعلى المودودي
الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية	أبو الأعلى المودودي
إلى الإسلام من جديد	أبو الحسن الندوي
الأموال	القاسم أبو عبيد بن سلام
الإسلام والأوضاع الاقتصادية	محمد الغزالي
الإدارة الإسلامية في عز العرب	محمد كرد علي
الأحكام السلطانية	للماوردي
الأحكام السلطانية	لأبي يعلى القراء
أسواق العرب في الجاهلية والإسلام	سعيد الأفغاني
اقتصادنا	محمد باقر الصدر
الإنسان بين المادية والإسلام	محمد قطب
الإسلام.	الدكتور أحمد شلبي
الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر	الدكتور محمد محمد حسين
الإسلام والصراط المستقيم	عدد من الباحثين
الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه	عبد القادر عودة

إحصاء العلوم	للفارابي
الإسلام تجاه التحديات المعاصرة	الدكتور حسن صنعب
الإسلام في وجه الزحف الأحمر	محمد الغزالي
أثر العرب في الحضارة الأوروبية	الدكتور جلال مظهر
أثر العرب في الحضارة الأوروبية	عباس محمود العقاد
أخطر من النكسة	محمد جلال كشك
الإسلام والحضارة الغربية	الدكتور محمد محمد حسين
إحياء علوم الدين	أبو حامد الغزالي
الأبطال	كارليل ، تعريب محمد السباعي
الإسلام دين عام خالد	محمد فريد وجدي
الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها	جمال الدين رمادي
إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء	للحضري
الإسلام وتعدد الزوجات	أحمد مظهر العظمة
أم النبي	الدكتورة بنت الشاطىء
اشتراكيتكم وإسلامنا	بشير العوف
الإسلام ومشكلات الحضارة	سيد قطب
الإسلام دين الفطرة	عبد العزيز جاويش
الإسلام والإستبداد السياسي	عبد القادر عودة
الإنسان في القرآن	عباس محمود العقاد
الإسلام في القرن العشرين	" "
الله	" "
إبراهيم أبو الأنبياء	" "
أعلام من التاريخ	علي الطنطاوي
أبو بكر الصديق	" "
الإسلام عقيدة وشريعة	محمود شلتوت
أباطيل وأسماء	محمود شاكر
الإسلام بين أمسه وغده	محمود قاسم
الإسلام وحاجة الإنسان إليه	محمد يوسف موسى
الإسلام على مفترق الطرق	ليوبولد فايس
الإسلام والحياة	محمد يوسف موسى
الإسلامية والمذاهب الأدبية	نجيب الكيلاني
الإسلام دين العلم والمدنية	طاهر الطناحي
الأخلاق في الإسلام	محمد عبد الله دراز

الإسلام روح المدنية	مصطفى الغلاييني
الإسلام ونظرته العامة إلى الكون	محمد المبارك
آيات الله في الآفاق	محمد أحمد العريك
آيات الخالق الكونية	رشيد رشدي
الإسلام وأوضاعنا القانونية	عبد القادر عودة
الإسلام وأوضاعنا السياسية	عبد القادر عودة
الإنسان ذلك المجهول	إلكسيس كاريل
انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى	حسن ابراهيم حسن
إظهار الحق	رحمة الله الهندي
أم القرى	عبد الرحمن الكواكبي
الإسلام والحضارة العربية	محمد كرد علي
إعجاز القرآن	مصطفى صادق الرافعي
البيروني	الدكتور جمال فندي والدكتور إمام إبراهيم أحمد
البنك اللاربوي في الإسلام	محمد باقر الصدر
بطل الأبطال	عبد الرحمن عزام
تذكرة دعاة الإسلام	أبو الأعلى المودودي
بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية	أبو الأعلى المودودي
التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية	أحمد شلبي
تذكرة الدعاة	البهي الخولي
التصوير الفني في القرآن	سيد قطب
التبشير والاستعمار	الدكتور عمر فروخ والدكتور مصطفى الخالدي
التطور والثبات في حياة البشرية	محمد قطب
تعليم الإناث وتربيتهن	الدكتور تقي الدين العلايلي
التكافل الاجتماعي في الإسلام	محمد أبو زهرة
التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن	حنفي أحمد
التعريف بالشريعة الإسلامية	محمد سلام مدكور
تاريخ التشريع الإسلامي	محمد الخضري
تاريخ الإسلام السياسي	حسن ابراهيم حسن
تحت راية القرآن	مصطفى صادق الرافعي
تراث الإسلام	مجموعة باحثين
تاريخ الشعوب الإسلامية	بروكلمان

تاريخ الحضارة الإسلامية	بارتولد ترجمة حمزة طاهر
التفكير الفلسفي في الإسلام	الدكتور عبد الحليم محمود
تفسير آيات الربا	سيد قطب
تثبيت دلائل النبوة	القاضي عبد الجبار الهداني تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان
تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك	قدري حافظ طوقان
تاريخ حكماء الإسلام	للبيهقي
تاريخ الفلسفة في الإسلام	لدوبور ، ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريدة
تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية	مصطفى عبد الرازق
تفسير ابن كثير	لابن كثير
تفسير الكشاف	للزمخشري
تاريخ الخلفاء	ابن قتيبة
تاريخ الخلفاء	للسيوطي
تجديد التفكير الديني في الإسلام	محمد إقبال
التوحيد الذي هو حق الله على العبيد	محمد بن عبد الوهاب
التفكير فريضة إسلامية	عباس محمود العقاد
تأملات في المجتمع العربي	مالك بن نبي
التشريع الجنائي في الإسلام	عبد القادر عودة
الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة	جمع وتقديم محمد خلف الله
الثقافة الإسلامية	الدكتور عبد الكريم عثمان
جاهلية القرن العشرين	محمد قطب
الجهاد في سبيل الله	أبو الأعلى المودودي
الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي	الدكتور محمد البهي
جابر بن حيان	الدكتور زكي نجيب محمود
الحجاب	أبو الأعلى المودودي
حجاب المرأة المسلمة	ناصر الدين الألباني
الحياة بعد الموت	أبو الأعلى المودودي
الحضارة الإسلامية	أبو الأعلى المودودي
الحلال والحرام	يوسف القرضاوي
حقائق الإسلام وأباطيل خصومه	عباس محمود العقاد
حقوق الإنسان في الإسلام	الدكتور علي عبد الواحد وافي
أبو حنيفة	محمد أبو زهرة

ابن حنبل	محمد أبو زهرة
حياة محمد	محمد حسين هيكل
حياة محمد ورسالته	مولانا محمد علي
حديث في البناء الجديد	مالك بن نبي
حاضر العالم الإسلامي	ستيوارد تعليق شكيب أرسلان تعريب عجاج نويهض
حضارة العرب	غوستاف لوبون
حضارة الإسلام	جراونباوم
الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث	الدكتور جمال الشيال
الحضارة العربية	محمد كرد علي
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري	آدم متز ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريدة
الحسبة في الإسلام	ابن تيمية
الحسبة والمحتسب في الإسلام	نقولا زيادة
الحسن بن الهيثم	مصطفى نظيف
حصوننا مهددة من داخلها	الدكتور محمد محمد حسين
حجة الله البالغة	شاه ولي الله الدهلوي
الخراج	أبو يوسف
خصائص التصور الإسلامي	سيد قطب
خلق المسلم	محمد الغزالي
خطوط رئيسية في الاقتصاد الإسلامي	محمود أبو السعود
خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية	عبد الله التل
دراسات إسلامية	سيد قطب
الدولة عند ابن تيمية	محمد المبارك
الدعوة الإسلامية في الهند	مسعود الندوي
الدعوة إلى الإسلام	توماس أرنولد ترجمة حسن ابراهيم حسن والنحراوي وعابدين
دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي	الدكتور عبد الرحمن بدوي
دولة الفكرة	محمد فتحي عثمان
دفاع عن الإسلام	لورافاغليري
درس النكبة الثانية	يوسف القرضاوي
دراسات في النفس الإنسانية	محمد قطب

الدين	محمد عبد الله دراز
الدين والعلم	أحمد عزت باشا ، ترجمةالدكتور عبد الوهاب عزام وحمزة طاهر
دلائل التوحيد	جمال الدين القاسمي
الدستور القرآني في شؤون الحياة	محمد عزت دروزة
الدين والوحي والإسلام	مصطفى عبد الرازق
الديموقراطية في الإسلام	عباس محمود العقاد
الدعوة إلى الإصلاح	محمد الخضر الحسين
الدين والعقل	الدكتور سليمان دنيا
ذاتية الإسلام	محمد المبارك
الربا	أبو الأعلى المودودي
الرسالة المحمدية	سليمان الندوي
الرد على الدهريين	جمال الدين الأفغاني
الرسالة الخالدة	عبد الرحمن عزام
رجال من التاريخ	علي الطنطاوي
روح الدين الإسلامي	عفيف طباره
الربا في الإسلام وفي النظريات الاقتصادية الحديثة	ندوة لعدد من الباحثين
الربا ودوره في استغلال موارد الشعوب	الدكتور عيسى عبده
رجال الفكر والدعوة في الإسلام	أبو الحسن الندوي
الرسالة	للامام الشافعي
روح الإسلام	سيد أمير علي
رسالة العقائد	حسن البنا
زاد المعاد في هدي خير العباد	ابن القيم
السلام العالمي في الإسلام	سيد قطب
السياسة الشرعية	ابن تيمية
السياسة المالية في الإسلام	عبد الكريم الخطيب.
سبل السلام	للصنعاني
السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي	أحمد شلبي
سيرة ابن هشام	ابن هشام
السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي	مصطفى السباعي
شهداء الإسلام في عهد النبوة	علي سامي النشار
شروط النهضة	مالك بن نبي
الشافعي	محمد أبو زهرة

شبهات حول الإسلام	محمد قطب
شخصية المسلم كما يتصورها الإسلام	مصطفى عبد الواحد
الشورى في الإسلام	الدكتور محمود بابللي
الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية	أبو الحسن الندوي
الصديق أبو بكر	محمد حسين هيكل
صفة صلاة النبي كأنك تراها	ناصر الدين الألباني
الطريق إلى اتحاد إسلامي	نجيب كيلاني
طبقات الأطباء	ابن أبي أصيبعة
طبقات الأمم	صاعد الأندلسي
الظاهرة القرآنية	مالك بن نبي
العرب والإسلام	أبو الحسن الندوي
العقل المؤمن	عبد المنعم خلاف
عبقريات العقاد	العقاد
العلم يدعو للإيمان	موريسون ، محمد صالح الفلكي
عقيدة المسلم	محمد الغزالي
عمر بن الخطاب	علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي
عثمان بن عفان	محمد حسين هيكل
العلوم عند العرب	قدري طوقان
العدالة الأجتماعية في الإسلام	سيد قطب
الغارة على العالم الإسلامي	شاتليه ، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي
الفلسفة القرآنية	عباس محمود العقاد
الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار	الدكتور محمد البهي
الفكر الإسلامي	م . شريف ترجمة أحمد شلبي
فقه السيرة	محمد الغزالي
في النفس والمجتمع	محمد قطب
الفاروق عمر	محمد حسين هيكل
فضل العرب على أوروبا	هونكيه ، ترجمة فؤاد حسنين علي
في ظلال القرآن	سيد قطب
الفصل في الملل والأهواء والنحل	ابن حزم
قصص القرآن	جاد المولى
قصص من التاريخ	علي الطنطاوي

القضاء في الإسلام	عارف النكدي
القضاء والقضاة	محمد شهير أرسلان
قادة فتح الشام ومصر	محمود شيت خطاب
قادة فتح بلاد فارس	» »
قادة فتح العراق	» »
كفاح دين	محمد الغزالي
كفاح المسلمين في تحرير الهند	عبد المنعم النمر
الكون العجيب	قدري طوقان
لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم	شكيب أرسلان
مبادىء الإسلام	أبو الأعلى المودودي
المصطلحات الأربعة في القرآن	» » »
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين	أبو الحسن الندوي
المجتمع الإسلامي	أحمد شلبي
معضلات الاقتصاد وحلها في الإسلام	أبو الأعلى المودودي
ملكية الأرض في الإسلام	» » »
المستقبل لهذا الدين	سيد قطب
معالم في الطريق	» »
مرآة الإسلام	طه حسين
ما يقال عن الإسلام	عباس محمود العقاد
من روائع حضارتنا	الدكتور مصطفى السباعي
منهاج الإسلام في الحكم	محمد أسد
محاضرات في النصرانية	محمد أبو زهرة
مالك	» »
منهج الفن الإسلامي	محمد قطب
منهج التربية الإسلامية	» »
مجالي الإسلام	حيدر بامات
مفاتيح العلوم	الخوارزمي الكاتب الأديب
مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون
مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام	يوسف القرضاوي
المجتمع الإسلامي والتيارات المعاصرة	عمر بهاء الأميري
المجتمع الإنساني في ظل الإسلام	محمد أبو زهرة
المجتمع الإسلامي	صلاح الدين المنجد

مدنية العرب في الجاهلية والإسلام	محمد رشدي
مقام العقل عند العرب	قدري طوقان
المرأة بين البيت والمجتمع	البهي الخولي
الماركسية والغزو الفكري	محمد جلال كشك
معركة التقاليد	محمد قطب
المسلمون والحرب الرابعة	زهدي الفاتح
محاضرات الدكتور عبد الله عربي عن الاقتصاد في الإسلام ، في معهد الدراسات الإسلامية ، بالقاهرة	
معركة الإسلام والرأسمالية	سيد قطب
موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول	ابن تيمية
موقف العقل والعلم والعالم من رب العالم	مصطفى صبري
محمد الرسالة والرسول	الدكتور نظمي لوقا
محمد المثل الكامل	محمد أحمد جاد المولى
المرأة في القرآن	عباس محمود العقاد
مناهج البحث عند مفكري الإسلام	علي سامي النشار
المرأة بين الفقه والقانون	الدكتور مصطفى السباعي
موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه	أبو الأعلى المودودي
من منهل الأدب الخالد	محمد المبارك
نظام الحياة في الإسلام	أبو الأعلى المودودي
نظرية الإسلام الخلقية	« «
نظرية الإسلام السياسية	« «
نحن والحضارة الغربية	« «
النبوة والأنبياء في سور القرآن	أبو الحسن الندوي
النبوة	سعدي ياسين
النبأ العظيم عن القرآن الكريم	محمد عبد الله دراز
نظام الحكم في الإسلام	محمد يوسف موسى
نظرات إسلامية في الاشتراكية الثورية	الدكتور معروف الدواليبي
نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام	علي سامي النشار
نظام الأسرة وحل مشكلاتها	الدكتور عبد الرحمن الصابوني
النظام السياسي في الإسلام	الدكتور عبد الكريم عثمان
نظام الحكم في الإسلام	محمد عبد الله عربي
نظام الإسلام (العقيدة والعبادة)	محمد المبارك
نظرية الإسلام وهديه	أبو الأعلى المودودي

النظم الإسلامية	الدكتور صبحي الصالح
» »	حسن ابراهيم حسن
نور اليقين	محمد الخضري
هذا الدين	سيد قطب
هل نحن مسلمون	محمد قطب
واقع المسلمون وحاضرهم وسبيل النهوض بهم	أبو الأعلى المودودي
واجب الشباب المسلم	» »
الوحي المحمدي	محمد رشيد رضا
وجهة العالم الإسلامي	مالك بن نبي
الوجود الحق	الدكتور حسن الهويدي
الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة	الدكتور محمد حميد الله الحيدرآبادي
يقظة العالم الإسلامي	فرنو ، ترجمة بهيج شعبان
لا شيوعية ولا استعمار	عباس محمود العقاد

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة